

قطوف الريحان

من زهر الأفنان

شرح حديقة ابن الونان

اختصار زهر الأفنان من حديقة ابن الونان

تأليف
أحمد بن محمد الأمين بن أحمد المختار الجكني
المدرس بالمسجد الحرام
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين

نشر وتوزيع
عمر بن أحمد بن محمد الأمين الشنقيطي

الطبعة الثانية
١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

Ⓒ احمد محمد الامين احمد الجكني ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجكني ، احمد محمد الامين احمد

قطوف الريحان من زهر الافنان : شرح حديقة ابن الونان .— مكة المكرمة

... ص ، .. سم

ردمك: ٧-٣٣١-٣٩-٩٩٩٠

١ -الشعر العربي - نقد - المغرب - عصر الدولة السعدية   أ - العنوان

ديوي ٨١١,٧١٠٠٩   ٢٣٠٧ / ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمدا يوافي مزيد نعمه وفائض إحسانه وكرمه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ينبوع الحكمة الناطق بجوامع الكلم في المعاني الجمة، وعلى آله الطاهرين وعلى صحابته الغر الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ، فان علم الأدب لما كان الجامع لأشتات العلوم والمتكفل بفهم أسرارها ، وكان عنوانا لشرف الإنسان وكماله ، وقديما قيل : الأدب أشرف من النسب ، حملني الحرص على التطفل على ذويه ان أدلي فيه بدلوي ، وقد كانت بضاعتي فرجاة، فانتهزت الفرصة لذلك باختصار شرح زهر الأفنان من حديقة ابن الونان، فكان باكورة أعمالي، وقد أستأذنني أحد أخواني ممن كان يعز عليَّ في طبع بعض مؤلفاتي ليستفيد منها ويفيدني فقام بطبع بعض هذه واستفاد هو فقط ولا بأس فقد تكون استفادته عزيزة عليَّ، وكان مما قام بطبعه قطوف الريحان هذا إلا أن الغريب ان الكتاب ظهر يحمل عبارة ان حقوق الطبع محفوظة للناشر على الرغم من أني لم أعط هذا الأخ الكريم أي أذن مكتوب ، وسبحان الله ، فقد يخفى على الفطن الصواب .

هذا ، ولا يخفى على القاريء الكريم نفاسة هذا السفر في فنه فهو يعنى بمفردات اللغة العربية ، وأمثالها ، وأيام العرب وتاريخها مما يجعل من يقتنيه ملما برصيد لا بأس به من ذلك باختصار غير مُخِلٍّ وبإسهاب تارة غير مُمِلٍّ ، إلا أن طبعته الأولى لا تخلو من بعض الأخطاء المطبعية، وسنحافظ بإذن الله على سلامة هذه الطبعة من ذلك ، وعلى الله تعالى الاتكال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هو حسبنا ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه .

المؤلف

أحمد محمد الأمين بن أحمد المختار

٢٠/٤/١٤٢٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللهم صلّ على أشرف المرسلين وعلى آله الطاهرين وأصحابه الغُرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

الحمد لله الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم ، وشرَّفهُ على سائر الحيوان ، بأن حباه القلب واللسان والبيان ، وأمدَّهُ بضروب الإحسان ، حتى كان من أهل العرفان .

نحمده تعالى ونشكره ، ونستعينه ونستقيله ونستغفره ، فهو أهلُ الإعانة والإقالة والغفران .

ونشهد أنْ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله ـ ﷺ ـ ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد .. ، فيقول ـ الفقير إلى رحمة ربه الكريم الرحمن الرحيم ـ ، أحمد ابن محمد الأمين بن أحمد بن المختار الجكني ـ غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وجمعه بهم فى مستقر رحمته إنّه السميع المجيب : إنَّ من أهم ما يحق لطلبة العلم التنافس فيه ، تحصيل علم الأدب ، وتدوينه لأنه الجامع لأشتات العلوم ، والمتكفِّلُ بفهم سرها المكتوم ، وإنه لكمال وشرف للإنسان ، وعنوان فضل يترجم به اللسان ، يكرَّمُ صاحبه عند الامتحان ، ويعز به فلا يهان ، وقد قال بعض الحكماء : « الأدب أشرف من النسب » .

كُنِ ابنَ مَنْ شِئْتَ واكتسب أدباً ... يُغْنِيكَ محمودُهُ عن النَّسَبِ
إنَّ الفتى مَنْ يقولُ ها أنا ذا ... ليس الفتى مَنْ يقول كان أَبي

وإنه لمن أحسن مَا أُلِّفَ فيه أُرْجُوزة نابغة وقته وسَحْبان أهل زمانه ؛ الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد الونَّان ــ رحمه الله ــ ، الشهيرة بحديقة ابن الونان ، وقد أجاد الأديب العلامة المغربي أحمد بن خالد الناصرى السَّلاوى ؛ صاحب « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » ، حيث وضع عليها شرحاً لم يُرَ مثله ، أسماه « زهر الأفنان من حديقة ابنِ الوَنّان » ؛ فكان حرياً بما أنشد العلامة أحمد ابن عبد المولى العلمي من الأوصاف على لسان حاله حيث يقول :

شَكْلِي جَميلٌ وأهلُ الحسنِ تَعْشَقُني ... وَالشَمسُ من وجنتى تئوبُ والقمرُ
ومنطقي العذب للألباب مُسْتَلِبٌ ... وَمَبْسِمِي نضٌّ فيه الدُّر والنُّضَرُ
وبهجتي زهرة الدنيا وزينتها ... والسَّعْدُ مطلعُها والفَتْحُ والظَّفَرُ
عَرْفِي يفُوحُ مدى الأيام أعْبَقُ مِنْ ... ندٍّ وأكملَ حُسْنِى الْغُنجُ والحَوَرُ
لله ماحُزْتُ من ظُرْفٍ ومن طُرَفٍ ... ومن مزايا فِدَائِي السَّمْعُ والبَصَرُ
ما شِئْتَ من فُكَهٍ أو شِئْتَ مِن مُلَحٍ ... أوهِمْتَ بِى ، زَال عَنْكَ الهَمُّ والكَدَرُ
آلَيْتُ دهْرِي لَاأُبْقِى لذى تَرَحٍ ... شَجْواً ولو أجْهَدَاهُ السُّقمُ والخَوَرُ
أُلاطفُ الصَّبَّ رفْقًا كَيْ أُوَدِّبَهُ ... ومَن غَدا عَاشقي عَنَّتْ له الْعِبَرُ
غَزْلَى رَفيقٌ ونَقْشُ الْيُمْنِ فى خَتَمى ... ومن يَمينى يُنالُ الْبَذْلُ والْوَطَرُ
كم من صدور شَرَحْتُ للصَّدور وكَمْ ... من معضلات أَبَنْتُ جَهْلُها خَطَرُ
لازِمْ مُنادمتي وافْهَمْ مناظَرَتى ... واسْمَعْ مُكالمتى يُفشو لك الخَبَرُ

الـــخ ...

ولما كان ذلك كذلك ، وكان هذا الشرح غُرَّةً فى جبين الأدب ، وكانت الهممُ قد تقاصرت عن التفرغ لمطالعة أمثاله من المطوَّلات ، علماً بأنَّ وجود هذا الشرح اليوم ، أصبح أعزَّ من بيض الأنوق ، وإنه اتفق أنّى استجلبت منه فى

حديث مع فضيلة الشيخ « محمد بن عبد الله السبيل » ، نائب[1] الرئيس العام للإشراف الدينى بالمسجد الحرام ، فاشتاق — حفظه الله — إلى رؤية هذا الشرح ، ولما وقف عليه أشار عليَّ : أنْ أختصر هذا الشرح لضعف الهمم اليوم عن تتبع المطولات ، فقد حوى الكتابُ نفائس فى فنه يحتاجُ طالبُ العلم إليها ، ثم إنَّ شيخنا العلامة فضيلة الشيخ « عبد العزيز بن عبد الله السبيل » ، المدرس بالمسجد الحرام ، أيَّدَ ما أشار إليه فضيلة أخيه الشيخ « محمد » ، فأشار عليَّ بالشروع فى اختصار الكتاب ، وحيث إنَّ إشارته ، « حفظه الله »[2] ، تعتبر بالنسبة إليَّ أمراً ، لما له عليَّ من حَقّ الشيخ على تلميذه ، بل وحق الوالد على ولده ، لم يسعنى إلا الشروع فى تنفيذ ذلك ، مستعيناً بالله — تعالى — راجياً المولى « جلت قدرته » أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم وأنْ ينفع به كُلَّ من قرأه أو طالعه ، إنه سميع مجيب .

وقد جاء « بحمد لله — تعالى — » مختصراً جيداً آتياً بلُبابِ الكِتابِ ، وإنْ كان الكتابُ كله لُبَاباً ، وسميته « قُطُوفُ الرَّيْحان من زهر الأفنان شرح حديقة ابن الونَّان » .

هذا ، وليس لي منه إلا مجرد الجمع والاختصار ، فلم آت فيه بشئ من قِبل نفسى ، فالعهدة فى كل ماأتيت به فيه على الشيخ « أحمد بن خالد الناصرى السَّلاوى » ، إلا ما استجلبته بعد قولى « قلت » فإنى أتحمل مسئوليته ؛ لأني أعتمد فيه على بعض المعلومات التي استفدتها من خارج زهر الأفنان ، فأنسبها إلى المصدر الذى استفدتها منه فى الغالب ، وربما أهملت نسبة ذلك ، لأنى وقت تقييدى له لا يحضرنى مرجعه ، لطول العهد بينى وبين وقت الاستفادة به ، إلا أنه لا يزالُ عالقاً بالحافظة ، والله حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومن اهْتدى بهديه إلى يوم القيامة ..

وهذا أوانُ الشروع فى الموضوع . قال الناظم :

---

(١) فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله السبيل ، هو اليوم الرئيس العام لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي .

(٢) انتقل فضيلة شيخنا الشيخ عبد العزيز السبيل إلى رحمة الله فى شهر صفر عام ١٤١٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

[مَهْلاً على رِسْلِكَ .. حادي الأَيْنُق ولا تكلفها بما لم تطق]

قوله : [مَهْلاً] المهل بسكون الهاء ويحرك ، اسم مصدر من أمهل الرباعى بمعنى الإمهال وهو السكينة والرفق فى الأمر ، ويقال بهلاً بالباء الموحدة بدلاً من الميم ، ولا تلحقه علامة الفرعية إذا استعمل فى الطلب كما هنا ، فتقول : مهلاً يا زيد ومهلاً يا هند بلفظ واحد وكذلك التثنية والجمع ، ويقال فى جوابه : لا مهلَ بدون تنوين مع لا ، التي لنفي الجنس وإذا نفيت بـ « ما » قلت : ما مهل بالتنوين ، قال الكميت :

أقولُ له إذا ما جاء : مَهْلاً وما مهلٌ بواعِظَةِ الجهولِ

وقوله [على رِسْلِكَ] : الرِّسْلُ والرِّسْلَةُ بالكسر فيهما ، والترسل : الرفق والتؤدة ، وتَرَسَّل فى قراءته تَمَهَّلَ : وقوله [حادي الأينق] الحادي اسم فاعل من حدا الإبل يحدوها حَدْواً ، وَحِداء بضم الحاء وكسرها وبالدال المهملة إذا زجرها وساقها ، وقال الجوهري : الحَدْو سوق الإبل والغناء لها ، ويقال للشَّمال : حَدْواءَ لأنها تحدو السحاب أيْ تسوقه ، قال العجاج :

حَدْواءُ جاءت من بلاد الطور

والأينق جمع ناقة : وهى الأنثى من الإبل . قال أبو عبيدة : ولا تسمى ناقة حتى تجذع وذلك فى السنة الخامسة ، وقد تجمع الناقة على نياق مثل ثمرة وثمار ، وبعير منوق أيّ مُذَلَّل مُرَوَّضٌ ، وناقة منوقة ؛ وقوله [بما لم تطق] : الإطاقة القدرة ، يقالُ : أطقته إطاقة فأنا مطيق والاسم : الطاقة مثل الجابة من أجاب ، وفى المثل : [أساء سمعاً فأساء جَابة] .

فمعنى البيت إذًا : أمهل يا حادي الإبل وارفق بنفسك وتأنَّ فى سَيْرِكَ ولا تكلف هذه الإبل ما ليس فى طوقها من السير .

[ذِكْرُ الحِداءِ وما قيل فيه]

الحداءُ كما قدمنا هو سَوْقُ الإبل بضرب من الغناء ، قال الراجز :

فَغَنِّهـا وهـي لك الفـداءُ إنَّ غِنَـاءَ الإبـلِ الحِـدَاءُ

ويكون غالباً بالرَّجز ، ويقال : إن أول من حدا الإبل عبد لمضر بن نزار بن معد بن عدنان .

كان فى إبل لسَيده ، فقصر فضربه مضر على يده فأوجعه فقال : يا يداه يا يداه . وكان حسن الصوت فأسرعت الإبل فى السير ، لما سمعته ؛ فاستعملت العرب الحُداء من ذلك الوقت .

نسبةُ فى زهر الأفنان لابن سعد والبزار .

قال الغزالى فى كتاب السَّماع من الإحياء : « لله تعالى سِرٌّ في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً ، فمن الأصوات مايفرحُ ، ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها مايضحكُ ، ويطرب ومنها مايستخرج من الأعضاء حركات على وزنها ، باليد والرجل والرأس ، ولا ينبغي أن يظن أنَّ ذلك بالفهم لمعانى الشعر بل هذا جار فى الأوتار .

وتأثيره مشاهد فى الصبى فى مهده يسكتهُ الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه ، والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة ، ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه فترى الإبل إذا طالت عليها البوادى واعتراها الإعياءُ والكلال تحت الأحمال إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى إلى الحادي ناصبة آذانها ، وتسرع فى سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ، وربما تتلف نفسها من شدة السير وثقل الحِمْلِ وهى لا تشعر به لنشاطها .

هذا وقد حكى فى الأصل حكايات عجيبة عن الحداء والحدائين .

[فَطَالَمَا كَلَّفْتَهـــا وَسُقْتَهـــا سَوْقَ فَتَىً مِن حَالِهَا لم يُشْفِقِ]

الطُّولُ بالضم : خلاف العَرض ، وطال طولاً امتد كاستطال ، فهو طَويل وطُوال كغُراب ، وهى طويلة وطُوالة كذلك ، والجمع : طِوال وطِيال بالكسر فيهما ، والطوال كرمّان المفرط فى الطول ، وأطَالت المرأة ولدت أولاداً طِوالاً ، وفى المَثَلِ :« إنَّ القصيرة قد تُطيل » وقولهم فى المثل : « قصيرة من طويلة » يريدون ثمرة من نخلة ، يضرب لاختصار الكلام .

والسَّوْقُ : خلاف القَوْد : ساق الدابة سوْقاً وسياقةً ، ومساقاً واستاقها ، فهو سائق وسوَّاق ، قال الراجز :

قَدْ لَفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَمْ ليس براعي إِبِلٍ ولاغَنَـــمْ

ويقال تساوقت الإبل إذا تتابعت

والفتى : الشاب الحَدَث ، والأنثى فتاة ، وقد يستعار للعبد ، ولو كان شيخاً تسمية له بما كان عليه ، والفتى أيضا الكريم يقال : فلان فتى بَيِّنُ الفتوة أى الكرم .

ويثنى بالياء ، قال تعالى « وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيان »[1] وتجوز تثنيته بالواو : فتوان ، ويجمع فى القِلَّة على فِتْية ، وفى الكَثْرة على فتيان ، وبهما قُرِىءَ القرآن . ويجمع أيضاً على فُتِي بضم الفاء وكسرها على لغة الياء كعِصي ، وعلى فُتُوٌّ بضم الفاء على لغة الواو كعُلُوٌّ .

وحالُ الشيء : صفته ، التي هو عليها يذكر ، ويؤنَّث فيقال : حالٌ حسنة وحال حسن . ومن التأنيث قول الشاعر :

إذا أَعْجَبَتْكَ الدَّهْرَ حالٌ من امرىءٍ فَدَعْهُ وواكِلْ أَمْرَهُ والليالِيا

---

(١) يوسف آية (٣٦) .

قلت : ومن لطيف تذكير الحال وتأنيها ماأنشده العلامة الشيخ محمد العاقب ابن الشيخ سيدى عبد الله بن مايابا الجكنى الشنقيطي لملك المغرب الأقصى السلطانّ مولاى عبد الحفيظ بن مولاي الحسن مهنئاً له بمناسبة بَيْعَتِهِ وشاكياً له حالته التى هو عليها ، فقال :

لما تولى على الإسلام رايته مولاى عبد الحفيظ الفاطمى الحسن
جئنا إليه بحال غير لائقة كيما نئوب بحال لائق حسن

وقد بعث بالبيتين إليه فلما قرأ ماكتبه الشيخ قال الملك : ايتونى بِمُذَكِّرِ الحال ومُؤَنِّثه .

فكانت فاتحة خير على الجماعة التى هى بِرِفْقَتِهِ .

ثم الحال قد تؤنث بالهاء فيقال حالة ، وتجمع على أحوال وأُحْوِلة وتصغر : حويلة ، وحالات الدهر وأحواله صروفه وتقلباته .

وقوله [لم يشفق] : قال فى المصباح : أشفقت من كذا بالألف حذرت منه ، وأشفقتُ على الصغير : حنوت وعطفت والاسم : الشفقة .

ومعنى البيت : إنما أنكرت عليك لأنك طالما أوردتها المشاق العظيمة وحملتها المتاعب الجسيمة ، وسقتها سوق من ليست عنده شفقة عليها ، لما عراها من الكلال ولم تأخذه رأفة لما كساها من سوء الحال

[وَلَمْ تَزَلْ تَرْمِى بِهَا يَدُ النَّوى بِكُـلِّ فَجٍّ وَفَـلَاةٍ سَمْلَقٍ]

قوله [ولم تزل] قال فى المصباح : مازال يفعل كذا ولا أزال أفعله ، لايتكلم به إلّا بحرف النفى والمراد به : ملازمة الشيء والحال الدائمة مثل ما برح وزناً ومعنى ؛ قال فى زَهر الأفنان : ومثل النفي النهي والدعاء ، فالنفى كما فى النظم وكقوله تعالى ﴿ ولَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفينَ ﴾[1] الآية . والنهي كما فى قول الشاعر :

صَاحِ شَمِّرْ ولا تَزَلْ ذاكراً الْـ مَوْت فنسيانه ضلالٌ مُبِينُ

والدعاء كما فى قول الشاعر :

---
(١) هود آية (١١٨) .

أَلَا ياأسلمى يادارَ مَيٍّ على البلا ولازال مُنْهَلّاً بِجَرْعائِكِ القَطْرُ

وقوله [ترمي بها] رمى بالشيء ورماه ألقاه فارتمى هو ، وراميته مراماة ورماء وترماء ورمِّيًا بالكسر والقصر مع شد الميم والياء ، ورمى الله فى يده وأنفه دعاء عليه .

وقوله [يد النوى] اليد الكف أو من المنكب إلى أطراف الأصابع وهى مؤنثة ولامها محذوفة وفيها لغات اليد : كما فى النظم ، واليدى كالفتى ، واليدة كالسنة واليدُّ مشدَّدة الدال ، وتثنية الأولى يدان وجمعها فى القلة أيدٍ ، وفى الكثرة يُدِيٌّ كعُصِيٍ ، وجمع الجمع أيادٍ منقوصاً ، وفى المثل [ذهبوا أيادى سبا] بسكون الياء ، وسُقِطِ فى يده : ندم ، ولايدان لك بهذا الأمر أى لا قوة لك به .

والنَّوى : البُعدْ والوجه الذى يذهب فيه كالبين فيهما قاله فى القاموس ، وقال الجوهرى : النَّوى : الوجه الذى ينويه المسافر من قرب أو بعد وهى مؤنثة لا غير .

قوله [بكل فج] : الفج الطريق الواسع بين جبلين كالفُجاج بالضم ، فأما الفِجاج بالكسر ، فهو جمع فَجٍّ قال الله تعالى « **لِتَسْلُكُوْا مِنها سُبُلاً فِجَاجَاً** »[1] وأفجَّ القومُ سلكوا الفج ا هـ . قوله

[وفلاة] الفلاة : القفر وقيل المفازة لا ماء فيها وقيل الصحراء الواسعة ، والجمع فَلَا وفَلَوَاتٌ وفُلِيٌ بضم الفاء وكسرها كعُصي ، وجمع الجمع : أفلاء ، وأفْلى القوم دخلوا الفلاة .

وقوله [**سَمْلَق**] السَّمْلَق : كجعفر : القاع الصفصف أيّ المستوي والجمع سمالق : قال جميل :

أَلَـمْ تَسأَل الرَّبْعَ القواء فينطق وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بيداءُ سـملق
[وَمَا ائْتَلَتْ تَذْرَعُ كُلَّ فَدْفَدِ أَذْرُعُهَـا وَكُـلَّ قَاعٍ قَرِق]
[وَكُلَّ أَبْطَحَ وأَجْرَعَ وجِزْعٍ وصَرِيمَةٍ وكُـلَّ أَبْـرَقِ]

(١) نوح آية (٢٠)

قوله [وماائتلت] : الألوُ والائتلاءُ : التقصير والإبطاء يقال ألا ألْواً وأُلُوّاً كعُلُوٍّ وإلّي كعِصى ، وألّى تألية وائتلَى ائتلاء قصَّر وأبطأ

وائتَلى أيضاً أقسم وحلف كَألَّى وتألّى ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ [1] الآية فسر بالمعنيين ، والظاهر فيه الثاني ، وقولهم في المثل « إن لاحَظِيَّةَ فلا ألية » هو من المعنى الأول أيْ : إن لم أحظ فلا أزال أطلب ذلك وأجهد نفسي فيه ، يضرب في الأمر بمراودة الناس والتودد إليهم لإدراك الحاجات منهم .

قوله [تذرع كل فدفد] أي : تقيسه بأذرعها : يقال ذَرَعْتُ الثوبَ ونحوه ذرعاً من باب نفع إذا قسته بالذراع ؛ والفَدْفَد ـــ كجعفر : الفلاة والمكان الصلب الغليظ والمرتفع أيضاً ، والأرض المستوية ، والجمع فَدافد .

[أذرعها] جمع ذراع وهي كما في المصباح : اليد من كُلِّ حيوان لكنها من الإنسان من المرفق إلى أطراف الأصابع والذراع مؤنثة في الأكثر وأنشدوا على تأنيثها .

أرمـي عليها وَهْـي فرعٌ أجْمَع وَهْـي ثلاث أذرع وإصْبَـعُ

وتجمع الذراع : على أذرع وقيل : وذرعان وفي المثل « لاتُطْعِمِ العَبْدَ الكراعَ فيطمع في الذِّراع » والقاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبالُ والآكام ، والجمع : قيع وقيعة وقيعان بكسرهن ، وأقواعٌ وأقْوُعٌ .

وفي التنزيل ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ [2] ، وفيه أيضا : ﴿ والذين كَفَرُوا أعمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [3] .

والفَرَق : كَجمَل والفَرِق ككتِف ، والأول أفصح : المكان المستوى ، قاع فرق أيْ مستو ، وفي المثل [تجاوز الروض إلى القاع القَرِق] يضرب لمن عدل بحاجته عن الكريم إلى اللئيم .

---

(١) النور آية (٢٢) .
(٢) طه آية (١٠٦) . (٣) النور آية (٣٩) .

والأبطح والبطحاء والبطيحة مسيل واسعٌ فيه دقاق الحصا ، والجَمع أباطح وبطاح وهذا غير قياس ، وتبطَّحَ السيلُ اتسع فى البطحاء ، والأبطح بمكة المشرفة : المحصب . وقريش البطاح الذين ينزلون بين أخشبي مكة ، والظواهر هم الذين ينزلون بظهرها ، والأجرع والجرعاء والجرعة بسكون الراء ويحرك : الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيه ، وقيل هى الكثيب جانبه رمل وجانبه حجارة ، وقيل غير ذلك وجمعه أجارع .

والْجِزعُ بالكسر وقيل بالفتح : منعطف الوادى ووسطه ، وقيل منحناه ، وقيل لا يكون جزعاً حتى تكون له سعة تنبت الشجر ، والجمع : أجزاع ، قال طرفه :

لخولة بالأجزاع من إضيم طَلَلْ   وبالسفح من فِي مُقامٍ ومُرْتَحَلْ

والصريمة : بفتح الصاد وكسر الراء المهملتين : القطعةَ من الرمل تنصرم أىْ تنقطع عن معظمه وفى المثل [به لا بظبى بالصريمة] وهو يقال عند الشماتة بالمصاب دعاءً عليه بأنْ لا تتجاوزه مصيبته إلى غيره ، قال الفرزدق لما مات زياد :

أقول له لما أتانى نَعِيُّهُ   به لا بِظَبْيٍ بالصريمة أعفرا

والأبرق : والبرقاء : غِلَظٌ فى الأرض تخالطه حجارة ورمل ، وطين ، قال المبرد : من قال أبرق : فإنما أراد المكان ومن قال برقاء فإنما أراد البقعة ، وجمع الأبرق أبارق ، وجمع برقاء : برقاوات ، والأبرق أيضاً الجبلُ الذى فيه لونان

[مَجاهِلُ تحارُ فيهن القَطَا   لادِمْنَةٌ لارَسْمُ دَارٍ قَدْ بَقِي]

المجاهلُ : جمعُ مَجْهَلٍ كمَقْعَدْ وهى المفازة التى لا أعلام فيها يهتدى بها ، قال العقيلى :

غدت من عليه بعد ماتم ظمئها   تَصِلُّ وعن قَيْضٍ ببيداءَ مِجْهَلِ

وزعم صاحبُ القاموس أن مَجْهَلاً لَا يثنىَ ولا يجمع ، غير أنَّ الواقع خلاف ما ذهب إليه ، هذا أبو محجن الثقفى ــ رضى الله عنه ــ يقول :

آلى تسدت نحونا أم يوسف ومن دون مسراها فيافٍ مجاهلٌ

وفى الأصل هنا أنّ أبا محمدٍ الحريرى نطق به مجموعاً فى المقامات ، وأنّ أبا البركات عياض نطق به كذلك فى صدر الشفاء .

والحيرةُ : ضد الهداية يقال : حار فى أمره مِن فَرِحَ يَحار حيراً وحيرة وحيراناً بالتحريك فيهما وتحير واستحار إذا لم يَدْرِ وجه الصَّواب فهو حيران ، والمرأة حيرى والجمع حيارىَ بالفتح ويضم ، قيل أصله أن ينظرَ الإنسانُ إلى شئ فيغشاه ضوء فيصرف بصره عنه .

والقطا : اسم جنس جمعي يُفَرَّق بينه وبين مفرده بسقوط التاء ، يقال فى الواحدة قطاة ذكراً كان أو أنثى ، وفى الجمع قطاً ويجمع على قطوات بالواو وربما قالوا قطيات ، وفى المثل [ليس قَطاً مثل قُطَيٍّ] أي ليس الأكابر كالأصاغر والقطا : ضرب من الحمام ، والحمام عند العرب : كل ذي طوق من القطا والفواخت والقمار والدواجن ، والوراشين ، وساق حر وأشباه ذلك ، وإنما سمي هذا النوع بالقطا مشاكلة لصوته ، وقيل سميت بذلك ، لأنها تقطو أي تقارب خطوها فى مشيها ، ولذا وصفها العربُ بحسن المشي ، وشبهت بها مشي النساء الخفرات ، ومن ذلك ما أنشدته هند بنت عُتْبة يوم أُحد :

نحن بنات الطارق .. نمشى على النمارق .. مشي القطا النَوَاتِق ..

والقطا نوعان : كدرية وجونية وهى أكبر ووَصْفُها كما قال الشاعر :

أمّا القطاةُ فإني سوف أنعتها نعتاً يوافق عندي بعض ما فيها
سَكَّاءُ مخضوبةٌ فى ريشها طرقٌ سُودٌ قوادمها صُهبٌ خوافيها

والدِّمْنة : موضع الدِّمَنْ أي البعر ، والدِّمْنة أيضاً آثار الناس وما سوَّدوا والموضع القريب من الدار ، وجمع الكل دِمَنْ .

والرسم : الأثر ، وقيل بقيته وقيل ما لا شخص له والجمع أرسم ورسوم ، ورسم الغيث الدِّيار من باب نصر عفاها وأبقى أثرها لاصقاً بالأرض ، وترسمت

الدار تأملت رسمها قال ذو الرمة :

أإن ترسمت من خرقاء منزلةً ماء الصبابة من عينيك مسجوم ؟

والدار : المحل يجمع البناء والعرصة مؤنثة ، وأما تذكيرها فى قوله تعالى : ﴿ ولنعم دارُ المتقين ﴾[1] فعلى معنى المثوى والموضع .

وتجمع الدار فى القلة على أدْؤُر وأدوُر بالهمزة مكان الواو ، وآدر على القلب وأدوار ، وفى الكثرة تجمع على ديار وديارة وديارات ، والله أعلم .

قليل مما قيل فى هداية القطا

يقال إنَّ القطا لا تسكن إلا بالعراء ولا تأوى إلى شجرة ولا جبل ، وأفحوصها الذي تبيض فيه إنما هو موضع تحفره بصدرها فى أرض رخوة حتى إذا حفرته يسيراً باضت فيه ، ولا تضع بيضها إلا أفراداً ، وإذا احتاجت إلى الماء بكرت إليه قبل سائر الطير ، وربما ذهبت ليلاً فإذا ذهبت ارتفعت من أفاحيصها أسراباً غير متفرقة فتقطع ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس من العشر مراحل ، إلى عشرين ، فترد الماء فتشرب نَهْلاً ثم تقيم حول الماء متشاغلة قدر ساعتين أو ثلاث ساعات ، ثم تعود إلي الماء لتشرب عَلَلاً ، ثم تأخذ فى حواصلها شيئاً من الماء لأفراخها ، فتنثني راجعة إليها فلا تخطئ موضعها .

والجونية من القطا أشد تبكيراً من الكدرية . يقول ابن الدُّمينة فى تبكير الجونية مخاطباً محبوبته :

وأنتِ التي قطَّعتِ قَلبي حرارةً ومزَّقتِ قُرْحَ القلب فَهْوَ كَلِيمُ
وأنتِ التي كلَّفتِنى دَلَج السُّرَى وجَوْنُ القطا بالجلهتَيْنِ جُثومُ
وأنتِ التي أحفظت قومي فكلهم بعيدُ الرضى دانى الصُّدُودِ كَظِيمُ

ولشدة هداية القطا صارت العرب تضرب المثل بها ، وتذكرها الأدباء فى شِعْرها ونثرها

فمن ذلك ما ذكره القاضى عياض فى صدر الشفاء حيث قال : [وها هنا

(١) النحل آية (٣٠) .

مهامه فيح تحار فيها القطا وتقصر فيها الخطا] . وقال الحريري فى المقامة الشعرية : [وجُبْتُ فى سيرى وُعُوراً لم تَدمشها الخطا ولا اهتدت إليها القطا] . وقال الشاعر :

والناسُ أهدى فى القبيح من القطا   وأضَلُّ فى الحسنى من الغربان

[لَيْسَ بِهَا غَيْرُ السَّوَافى والحَوا   صِبِ الحَراجِيج وكُلِّ زحْلِق]

السَّوافي : جمع سافياء بالمد كقاصعاء ، وراهطاء ، وهى الريح التى تسفِي التراب أي تحمله وتذروه ، وقيل : السافياء : الغبار ، قال ذو الرمة :

لميةَ أطلالٌ بِحزوى دَواثِرُ   عَفَتْها السَّوافى بعدنا والمواطرُ

والحَواصِبْ : جمع حاصب بكسر الصاد المهملة ؛ وهى الريح التى ترمي بالحصباء ، وقيل الحاصب ما تناثر من دِقاق الثلج والبَرَدِ ، وبالمعنى الأول فسر قوله تعالى : ﴿ **فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً** ﴾[1] .

قوله الحراجِيج : جمع : حُرْجُوج ، كعُصْفُور ، وهى الريح الباردة الشديدة ، وليس من هذا المعنى قول ذى الرِّمة :

حراجيج ما تنفك إلا مناخــةً   على الخسف أو نرمي بها بلداً قفراً

بل المراد به النوق السِّمان الطوالُ .

والزحلق : هى الريحُ الشديدة .

[والمَرْخِ والْعَفَارِ والْعَضَاهِ والْـ   ـبَشَامِ والأَثْلِ وَنَبْتِ الْخَرْبَقِ]
[وَالرِّمْثِ وَالْخُلَّـةِ والسَّعْـدَانِ   والثَّغِرِ وشَرْيٍ وَسَنَا وسَمْسَقِ]
[وَعُشَرٍ وَنَشَمٍ وإِسْحَـــــــلِ   مَعَ ثُمَـامٍ وَبَهَـارٍ مُونِـقِ]

المرخ والعفار : ضربان من الشَجَرِ كلاهُما سريع الوَرْي وليس فى الشجر كله أورى زناداً من المرخ ؛ ويقال إنه ربما يكون المرخ ملتفاً وتهب الريح فيحك

(١) العنكبوت آية (٤٠)

بعضه بعضاً ، فأورى فيحترق الوادى .

ومن المرخ والعفار كانت العرب تتخذ زنادها : تقطع منهما غصنين مثل السواكين أخضرين يقطران ماء فيسحق أحدهما على الآخر ، فتنقدح النار .

وكيفية ذلك أنْ يؤخذ عود مقدار شبر من المرخ ، وهو الأنثى فيثقب فى وسطه ثقباً غير نافذ ويجعل من أسفل ثم يؤخذ من العفار عود بقدر الذراع ، وهو الذكر ، فَيُحَدَّدُ طَرَفُهُ ويُدخل فى ذلك الثقب من أعلى ، وقد وضع بين رجلي أحد ، ثم يفتل فَتْلاً فتنقدحُ النار بإذن الله تعالى .

ذلك قوله تعالى : ﴿ **الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ** ﴾[1] .

عن ابن عباس أنْ المراد بالشجر فى الآية المرخ والعفار وهما زناد العرب ، وقد غَلَّطوا الزمخشرى ، حيث جَعَل فى « كَشَّافِه » المرخ هو الذكر والعفار هو الأنثى والصواب العكس وقد استجلب فى الأصل شواهد من كلام العرب على ذلك .

والعضِاه : بكسر العين المهملة هو كل ماله شوك من الشجر ، ومن مشهوره الطلح والعوسج والسَّلَمُ والشَّبَالُ والعُرْفُطُ والسَّمُر بضم الميم وهو شجرة أُم غيلان والقتادُ والسِّدْرُ وبعضهم يستثني هاتين الشجرتين من العضاه فلا يجعلهما منه ؛ وقيل العضاه كل ما عَظُمَ من الشجر وطال ، واستدلَ أهلِ هذا القول ببيت حميد ابن ثور الهلالى :

أبَىْ اللهُ إلَّا أنَّ سَرْحَةَ مالكٍ على كُلِّ أفْنَان العضاهِ تَرُوق

كنى بالسَّرْحَةِ عن المرأة ، ومن المعلوم أنَّ السرح لا شَوكَ له .

والبشام : هو بوزن سحاب : شجر طيب الريح يُستاك بأغصانه ، قال في الأصل . وورقه يسوّد الشعر ، قال جرير ــ وهو شاهد على الاستياك به :

---

(١) يس آية (٨١)

أَتَذْكُرُ يومَ تَصَقَّلُ عَارِضَيْها بفرع بَشَامةٍ سُقِيَ البَشَامُ

والأَثل : هو شجر يشبهُ الطَرفاء إلا أنه أعظم منه وأجود عوداً ، إذا حركتهُ الريح ترنح وسمع له حنين ، وفي التنزيل ﴿ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[1] واحدةُ الأثلِ أثلةٌ وجمعها أثلات ، ومن كلام بيهس : « لكن بالأثلات لحم لا يظلل » يعنى لحم إخوته ، وسيأتى إن شاء الله ذكر ذلك عند قول الناظم : وانتهز الفرصة مثل بيهس ... البيت .

ومن هذا المثل قيل للأصل أثلة ، يقال فلان ينحت أثلتنا إذا قال فى حسبه قبيحاً ، قال الأعشى :

ألست منتهياً عن نَحْتِ أثلتنا ولست ضائرها ما أطَّت الإبلُ

وكان منبره « صلى الله عليه وسلم » من أثْلِ الغابة وفى رواية أنه كان من طرفائها .

والخَرْبَقُ : هو كجعفر وزناً : نبت ورقه كالنبات المسمى بلسان الحَمْل وهو صنفان أبيض وأسود وكلاهما دواء نافع ، كذا فى الأصل .

والرِّمثُ : بكسر الراء المهملة والثاء المثلثة من مراعي الإبل ، ومعدود في الحمض ، ورَمِثَتِ الإبلُ إذا اشتكت مِن أكله ، وأرض مَرْمَثَةٌ : كثيرة الرمث .

والخُلَّةُ : بضم الخاء المعجمة : هى كل ما فيه حلاوة من النبات ، فهى ضد الحمض إذ هو كل مافيه ملوحة فيه ، والعرب تقول الخلة خبز الإبل والحمض فاكهتها .

والسَّعْدَانُ : نبت هو أخثر العشُب لبناً وإذا خثر لبن الراعية كان أفضل مايكون وأطيب وأدسَمَ ، ومنابت السعدان السُّهولُ ، وهو من أنجع المراعي فى المال ، ولا تحسن على نبت حسنها عليه ، قال النابغة :

الواهب المائة المعكاء زيَّنها سعدانُ تُوضِحَ فى أوبارِهَا اللِّبَدُ

(١) سبا اية (١٦)

وفى المثل : « نَبْتٌ ولا كسعدان » يضرب للشيء يفضل على أقرانه ، وللسعدان شوك تشبه به العرب حلمة ثدى المرأة ، ومن ذلك تسمية العرب الحلمة سعدانة الثندوة ، وفى الحديث النبوى الشريف فى وصف جهنم أعاذنا الله والمسلمين منها « وفيها كلاليبٌ مثل شواك السَعدان هل رأيتم السعدان قالوا : نعم يا رسول الله قال إنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ــ تعالى ــ » .

والثَّغْرُ : بفتح الثاء المثلثة وسكون الغين المعجمة وقد تفتح : نبت جيد الرعى من أفضل العشب .

والشَّرْيُ : بالتسكين : هو الحنظل ، ومن كلام العرب : لفلان طعمان أرْىٌ وشَرْىٌ أيْ عسلٌ وحنظل ، قال الشاعر :

ولــه طعمـــان أرْيٌ وشَرْىٌ   وكلا الطعمين قد ذاق كلُّ

والشرى أيضاً شجر الحنظل الواحدة شرية ، وهو من الأدوية النافعة ، كذا قال فى الأصل .

والسَّنا : مقصور ويمد : نبت مسهل للصفراء ، والسوداء والبلغم ، وهو معروفٌ موجودٌ بحرم مكة المكرمة ، وقد ألحقه المالكية بالإذْخِر فى جواز أخذه والانتفاع به من بين سائر نبات الحرم .

السَّمْسَق : فيه لغات قيل كجعفر وكَزِبْرَج وقيل كقُنفُذٍ وهو الياسمين .

والْعُشَرُ : بوزن صُرَدٍ هو شجر فيه حراق تحشى به المخاد ، ويقال إن أول ما ظهر العشر ومرائر الشجر بأرض العرب عام الفيل ، والله أعلم .

وفى المثل [أجْبنُ مِن المنزوف ضَرطاً] وأصله : أنَّ رجلين من العرب خرجا فى فلاة فلاحت لهما عُشَرَةٌ ، فقال أحدهما : أرى قوماً قد رصدونا ، فقال الآخر : إنما هى عُشَرَةٌ يعنى شجرة من العُشَرَ ، فظنه يقول عَشَرَةٌ بفتح العين فجعل يقول وما غَنَاءُ اثنين عن عشرة وظَلَّ يَضْرِطُ حتى مات ، وقيل فيه غير

هذا ، والله أعلم .

والنَّشَمُ : بفتح النون والشين ، شجر تُتَّخَذُ منه القسي .

الإِسْحِل : بكسر الهمزة وسكون السين وكسر الحاء المهملتين ، شجر له أغصَانٌ ناعمة يستاك بها ، قال امرؤ القيس :

وتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كأنه أساريعُ ظَبْيٍ أو مساويك إسْحِلِ

والأساريع : دود بيض حمر الرءوس تشبه الشعراء بها البنان المخضوب .

والثُّمَامُ : بوزن غُراب ، نبتٌ ضعيف له خوص ربما حُشِيَ به أخصاص البيوت ، الواحدة ثمامة ، وبه سمى ثمامة بن أثال الحنفي — رضي الله عنه — .

والْبَهَارُ : نبت طيب الريح ، قيل وهو العرار ، وهو أصفر اللون شاحبه ، ومن أحسن ما قيل فيه للمُوَلَّدين قول بعضهم :

حكانى بهار الروض حين ألفته وكل مشوق للمشوق مناسبُ
فقلت له ما بالُ لونك شاحباً فقال لأنى حين أقلبُ راهبُ

والشعراء تشبه بالبهار صفرة الخد كما تشبه بالورد حمرته .

مُؤْنِق : أيّ معجبُ من أنِقَ الشيءَ أَنَقاً من باب فَرِحَ فرحاً إذا راع حسنه وأعجب والأنق محركة الفرح والسرور ، وتأنَّق فلان فى عمله أتقنه وأحكمه .

[والسِّمْع والْيَعْقُوبِ والقِشَّةِ والـ سِّيدِ السَّبَنْتَى والْقَطا وَجَوْرَقِ]
[واللَّيْلِ والنَّهَارِ والرِّئالِ والـ هَيْثَم مَعْ عِكْرَمَةٍ وخِرْنِقِ]

السِّمْعُ : هو بكسر السين المهملة ولِد الذئب من الضبع والأُنثى سِمعة ، يضرب المثل به فى الخفة والسمع ، ويزعمون أنه لا يعرف العلل والأسقام وأنه لا يموت حتف أنفه كالحية ، وسيأتى للناظم التمثيل بوثوبه .

والْيَعْقُوبُ : هو ذكر الحجل وجمعه يعاقيب ويضرب به المثل عند العرب فى شدة الركض ، قال الشاعر :

أَوْدَى الشَّبابُ الذى مَجْدٌ عَواقِبُهُ فيه نلَــذُّ ولا لَذَّاتِ للشَّيبِ
ولَّى حَثيثاً وهذا الشَّيْبُ يَطلبه لو كان يُدركه رَكْضُ اليعاقِيب

والْقِشَّةُ : بكسر القاف وتشديد الشين المعجمة قال الجوهري : هى القردة ، وقال الأصمعي : هى الأنثى من أولادها .

والسِّيدُ : هو بكسر السين الذئب يقال : سيد رمل والجمع السيدان والأُنثى سِيدة ــ قالوا : وربما سمى الأَسْدِية ، قال الشاعر :

كالسيد ذى اللبوة المستأسد الضاري

والسَّبَنْتَى : ويقال السَّبندى الجريء المقدَّم من كُلِّ شئ ، والياء فيه للإلحاق لا للتأنيث ألا ترى أَنَّ الهاء تلحقه يقال سبنتاه وسبنداه ، والسبنتى والسبندى أيضاً النمر ويشبه أنْ يَكُونَ سمي به لجراءته .

والقطا : طائر معروفٌ تقدم ذكره .

وجَوْرَقُ : كجورب : ذكر النعام ويقال له الظَّلِيم ، ومن خرافات العرب : أنّ النعامة ذهبت تطلب قرنين ، فقطعوا أُذُنيها ولم يعطوها شيئاً ، فكأنهم ظلموها ، فاشتقوا لها اسم الظليم .

واللَّيلُ : هو فَرْخ الكروان وقيل فيه غير ذلك .

والنَّهارُ : هو فرخ الحُبَارَى ، وقولهم فى المثل [أجبنُ من ليل وأحمَقُ من نهار] يعنون هذين الطائرين ، وقد اختلف جعفر بنُ سليمان العباسى مع الخليفة المهدى فى قول الفرزدق :

والشيبُ ينهض فى السواد كأنه ليــلٌ يصيــحُ بجانبيــه نهارُ

قال المهدى : هما الطائران المعروفان ، وقال جعفر : هما الليل والنهار المعروفان ، وقد رفع ذلك جعفر إلى يونس بن حبيب بعدما رجع إلى البصرة فقال يونس إنهما كما قال جعفر .

وقال أبو عبيدة : إنّ قول الخليفة معروف فى غريب اللغة .

وقد ألغز الحريرى فى المقامة الطيبية فقال : [فإن عمد — يعنى الصائم — لأن أكل ليلاً ؟ قال ليشمر للقضاء ذيلاً ؛ ونحو قول الآخر :

فتىً كان فى وطء الحلال مساتراً وأعلن فى وطء الحرام جهاراً
ولا كان يأتى فى الصلاة جماعة ويأكل فى شهر الصيام نهاراً

فالوطء : وطء القدم والحلال، والحرام : المكانان والصلاة : المكان أيضاً ومنه قوله تعالى ﴿ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ ﴾[1] والنهارُ : الطائر المعروف .

والرِّئالُ : هو ككِتاب جمع رَأل بفتح الرّاء وسكوْنُ الهمزة ويجوز إبدالها ألفاً كرأس وبأس ، وهو فرخ النَّعَام والأُنثى رألة والجمع رئال قال الفرزدق :

يتامى على آثار بؤس كأنها رِئالٌ دعاها للمبيت نعامُهَا

وقال حسان — رضى الله عنه — :

وأشهد أنَّ إلَّك من قريشٍ كإلِّ السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعَامِ

والإلُّ : القرابة والرحم والسَّقْبُ : ولد الناقة .

والْهَيْثَمُ : بالثاء المثلثة قيل هو أيضاً فرخ الحباري وقال الجوهري : و مرخ العُقاب ، وقيل : هو فرخ النسر ، وبه سمى الهيثم بن عدي ، وعِكْرَمةُ ، هو بكسر العين والراء المهملتين الأنثى من الحمام ، وقيل أنثى ساق حر خاصة ، ويقال : عكرمة بدون لام ، فيكون علم جنس ، وإذا أدخلنا عليه الألف واللام وقلنا العكرمة كان اسم جنس ، وبه سمى عكرمة مولى ابن عباس وغيره .

وخرْنق : هو كزِبْرِج الفتى من الأرانب وقيل ولده يكون أولاً خرنقاً ثم نحلة ، ثم أرنباً وبه سميت خرنق الشاعرة أُخت طرفة بن العبد الآتى ذِكْرُها ، ويضرب بها المثلُ فى اللين يقال [ألين من خرنق] قال الراجز :

إذا العجوز غضبت فطلـق ولا تَرَضّاهـا ولا تَمَلَّـق

(١) الحج آية (٤٠)

واعمد لأخرى ذات دَلٍّ مونق لينة المسّ كمسّ خرنق

وكان للنبى صلى الله عليه وسلم درع تسمى الخرنق للينها ، والله أعلم .

[وَلَمْ تَزَلْ تَقْطَعُ جِلْبَابَ الدُّجَا بِجَلَمِ الْيَدِ وَسَيْفِ الْعُنقِ]

الجِلْبَابُ : كسِرْداب : ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء وقال ابن كثير فى تفسيره : والجلباب هو الرداء فوق الخمار ، قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة والحسن البصرى وسعيد بن جبير وعطاء الخراسانى وابراهيم النخعى وغير واحد ، وقيل الجلباب المِلْحَفَة ، والجمع الجلابيب . قالت امرأة من هذيل ترثى ميتاً لها :

تمشى النسور إليه وهى لاهيةٌ مشي العذارى عليهن الجلابيبُ

والدُّجَا : جمع دُجْيَة كظلمة وزناً ومعنىً ، قال أبو الطمْحان الفينى :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجا الليل حتى نظَّم الجَزْعَ ثاقِبُهْ

والْجَلَمُ : مُحَرَّكاً : المقراض أي المقص ، ويقال : له الجلمان بلفظ التثنية ، وجملت الصوف والوبر قطعتهما بالجلمين ، واستعماله مفرداً كما نطق به الناظم قليل ، ومنه قول سالم بن وابصة :

دَاوَيْتُ صدراً طويلاً غِمْرُهُ حَقِداً مِنْهُ وقلَّمتُ أظفاراً بلا جَلَم

والأكثر استعماله بلفظ التثنية ، قال عنترة :

ظَعَنَ الذين فراقهم أتوقَّعُ وجرى بِبَيْنِهُمُ الغراب الأبْقَعُ
خرق الجناح كأنَّ لِحْيَةَ رأسِهِ جَلَمانِ بالأخبار هشٌّ مُولَعُ

ومن الطرائف ما ألغز به صالح بن شريف الرَّنْدي فى الجلمين حيث قال :

ومصطحبين ما اتُّهِما بعشق وإنْ وُصِفا بِضَمٍّ واعتناقِ
لعمرُ أبيك ما اجتمعا لمعنى سوى معنى القطيعة والفِراقِ

والسَّيْفُ : معروف : قالوا وأسماؤه تزيد على الألف ، والتحقيق أنَّ اسمه واحد هو السيف والباقى صفات له ، يحكى أنَّ الشيخ « أبا على الفارسى » كان

بمجلس سيف الدولة بحلب وفيه ابن خالويه فقال « ابن خالويه » : أحفظ للسيف خمسين اسماً فتبسم الشيخ أبو علي الفارسي ،وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً ، وهو السيف ، فقال ابن خالويه : فأين المهندُ ، والصارم ، وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات .

ويجمع السيف على : أسْيَافٍ وأسْيُف ، وسُيُوف ، ومَسْيَفَةٍ ، وسافه ضربه بالسيف .

والعُنُقُ : بضمتين مؤنثاً عند الحجازيين ومذكراً عند غيرهم ، وقولهم هم عُنُقٌ إليك يعنى هم مائلون إليك ، ومنه قول الشاعر :

إنَّ العراق وأهلهَ عُنُقٌ إليك فهيت هيتاً

وجمع العنق أعناق ، والأعْنَقُ الطويل العنق والأنثى عنقاء والله أعلم .

[فما استَرَاحَتْ مِنْ عبور جَعْفَر ومِنَ صُعُود بِصَعِيد زَلَق]
[إلا وفى خَضْخَاضٍ دمع عَيْنِهَا خاضَتْ وغابت بِسَرَابِ مُطْبِق]

الرَّاحَةُ : ضد التعب ، وأراحه الله فاستراح ، وأراح هو رجعت إليه نفسه بعد الإعياء ، وأراح أيضاً تنفس ، قال امرؤ القيس يصف فرساً أنثى :

لها مِنْخَرٌ كوجار الضبـاع فمنها تُريح إذا تنبهْر

والْعُبورُ : قطع النهر ومجاوزته إلى الجانب الآخر عبرته عَبْراً من باب قَتَلَ وعبوراً قطعته مِن عِبْر إلي عبرٍ بكسر أوله ويُضم ، والمَعْبَرُ بفتح الميم الجانب والمِعْبَرُ بكسرها ما يُعْبَرُ عليه من قنطرة أو سفينة .

والْجَعْفَرُ : هنا النهر الكبير الواسع كما فى الكفاية وقال المجد الجعفر النهر الصغير ، كذا فى الأصل ، وحكى المبرد فى الكامل أنَّ هارونَ الرشيد مازحَ أُم جعفر زبيدة ؛ فقال لها : كيف أصبحت يا أمَّ نَهَرْ ؟ فاغتمت ذلك وأرسلته إلى الأصمعي ، فسألته عن معنى ذلك فقال لها الجعفر النهر الصغير ، فطابت نفسها .

والصُّعُودُ : من صَعِدَ فى السلم والدرج ونحو ذلك يَصْعَدُ من باب تعِبَ صُعُوداً وصعدت السطح وإليه كذلك ، وصعَّدت فى الجبل بالتثقيل إذا علوته وصعِدت فى الجبل من باب تعب لغة قليلة ، وعليها مشى الناظم قال فى الأُصل : وأنكرها الجوهري والفيروزأبادي ، وأثبتها الشهاب الفيُّومي فى المصباح ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ : وإنما قلنا إنَّ الناظم مشى عليها ، لأنه أراد بالصعيد خصوص المرتفع من جبل ونحوه كما سيأتى .

والصَّعيدُ : وجه الأرض مطلقاً تراباً كان أو غيره ، قال الزجاج : ولا أعلم خلافاً بين أهل اللغة فى ذلك ، وقال ثعلب : الصعيد وجه الأرضِ وكل ما عليها كالتراب والرمل والسَّبخ ، والملح ، وبه قال مالك وأبو حنيفة « رحمهما الله » فأجازوا التيمم بذلك كله ، وقال الشافعي « رحمه الله » لا يجوز التيمم إلا بالتراب الذى لا يخالطه رمل وهو عنده الصعيد ، كذا فى الأصل .

قلت : جواز التيمم بالمعدن كالملح ونحوه عند مالك ما لم ينقل من محله فإذا نقل لا يجوز التيمم به ، وامتناع الشافعي ومن وافقه عن التيمم بغير التراب الذى يخالطه غبار لا يلزم منه أنه يخالف فى أنَّ الصعيد وجه الأرض ، وكل ما عليها إلا أنهم لا يجوز عندهم التيمم بكل الصعيد وإنما بالصعيد الطيب الذى يتحلل منه شئ فى اليد ، وذلك أخذاً من منطوق قوله تعالى : ﴿ **فتيمَّموا صَعِيْداً طيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ** ﴾[1] ، ومن المُسَلَّمِ به أنَّ أشهر معانى [مِنْ] التبعيض ، ولذلك قال الشافعي وأحمد — عليهما رحمة الله — لا يجوز التيمم إلا بصعيد له غبار يعلق باليد ، وأما الباقون فقد جعلوا [مِنْ] هنا بمعنى : الباء أي فامْسَحُوا وجوهَكُمْ وأَيْدِيكُمْ به ، ولذلك فقد أجازوا التيمم بكل الأرض وما اتصل بِها ، والكل على هُدَى مِنْ رَبهِم « عَليهم سوابغ رحمة الله » .

وقوله : زَلِق : مصدر زلق يَزْلَقُ من باب فَرِحَ يَفْرَحُ إذا زلَّت قدمه فلم تثبت .

---

(١) النساء آية (٤٣)

والْخَضْخَاضَ : هنا الطين المختلط بالماء ،كمايذكرُ الفقهاء فى الأحكام ، والخضخاض أيضاً ضربٌ من القطران تهنأ به الإبل ، وكان خُضاخِضَ كثير الماء والشجر .

والدَّمْعُ : ماء العين ، وهو فى الأصل مصدر غلبت عليه الاسمية ، يقال دمعت العين تدمع من باب نفَع دَمْعاً ، ودمِعت دَمَعَاً من باب تعبَ لغة فيه ، ويكون من حزن وسرور غير أنه إذا كان من حزن كان حاراً وإذا كان من سرور كان بارداً ، ولذا قالوا فى الدعاءِ على الإنسان :أسخنالله عينه ، وفى الدعاء له : أقر الله عينه ، وجمع الدمع دموع ، والقطرة الواحدة منه دمعة .

وقوله : خَاضَتْ : يقال خاض الرجل يخوضه خوضاً وخياضاً مشى فيه والموضع مخاضَة بفتح الميم وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً والجمع مخايض ومخاوِض ، وَخضَت الغمرات اقتحمتها ، وخاض القوم فى الحديث : أفاضوا فيه .

والسَّرَابُ : ما يتراءى للعين وقت الضُّحى الأكبر فى الغلوات شبيهاً بالماء الجاري ، وليس بماء ولكن الذي ينظر إليه من بعيد يظنه ماءً جارياً ، قال الله تعالى :﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً** ﴾[1] يقال سَرَبَ الماءُ يسربُ مِنْ بابِ قَتَل سُروباً إذا جرى فهو سَارِبٌ ، ومنه سمي السَّرابُ .

والمُطبقُ : المجلل ، يريد أنه مجلل للأرض وساتـر لها ، مأخوذ من الطبق ، الذي هو أحد أمتعة البيتِ ، وأصله الشئ الذي يكون على مقدار الشئ محيطاً بجميع جوانبه ، كالغطاء ، ومنه أيضاً قولهم أطبقوا على الأمر إذا أجمعوا عليه ، ومطر طَبَقٌ بفتحتين دائم متواترٌ ، وطبَّق الغيم الأرض تطبيقاً أصاب بمطره جميعها ، وسحابة مطبقة كذلك ، قال امرؤ القيس :

دِيَمةٌ هَطْـلَاءُ فيها وَطَـفٌ   طَبَقُ الأرض تحَرَّى وتَـدرُّ

(١) النور الآية (٣٩)

والوَطْفُ : السحابُ المسترخي الجوانب لكثرة مائه وقوله طبقُ الأرض يعم الأرض تحرِّي تتوخى وتقصد ، وتدُرُّ أيّ تغزُر وتكثر ، ومن لطيف المناسبة هنا ذكر ما كان يكتب به ابن المعتز إلى مؤدبه أحمد بن يحيى المعروف بثعلب اشتياقاً إلى لِقائه :

مَا وجْدُ صَادٍ فى الحِبالِ مُوثَقِ   بمـــاءِ مُزْنٍ بَاردٍ مُصَفَّـــقِ
بِالرِّيحِ لَمْ يُطْرَقْ وَلَمْ يُرَنَّقِ   جَادَتْ بِهِ أَخلافُ دَجْنٍ مُطْبِقِ
صَرِيحِ غَيْثٍ خَالصٍ لم يُمْزَقِ   إلَّا كَوَجْدى بك لكن اتَّقِي
يا فاتحاً لِكُــلِّ بَابٍ مُغْلَــقِ   وصَيْرفيًّـــا نَاقــداً لِلْمَنْطِـــقِ
إنـــا عَلى البِعَـــادِ والتَّفَــرُّقِ   لَنَلْتَقِى بالذِّكْـرِ إن لم نَلْتَـقِ

[كأنَّما رَقْراقُهُ بَحْـرٌ طَمَـا   والنُّوقُ أمْواجٌ عَلَيْهِ تَرْتَقِـى]
[وَكُـلُّ هَوْدَجٍ عَلى أقْتابِهَـــا   مِثْلُ سَفِينٍ مَاخِرٍ أوْ زَوْرَقِ]

رَقْرَاقُ السَّراب : ماتلألأ منه أيْ : جاء ، وذهب ، وكل شئ تلألأ فهو رقراق ، ومن أمثالهم [أرقُّ من رقراق السراب] ، والرقراقة من النساء التي كأن الماءَ يجري فى وجهها صفاء وحسناً .

والْبَحْرُ : معروف وجمعه أبْحُرٌ وبحار ، وكل نهر عظيم فهو بحر ، وفرس بَحْرٌ إذا كان واسع الجري ، ومنه قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : [فوجدته بحراً] يعنى بذلك مندوب فرس أبى طلحة ــ رضى الله عنه ــ .

وأبحر الرجل إذا ركب البحر ، وأبْحُر على وزن أفْعُل : بلدة بقرب جدة ؛ وطَمَا البحر يَطْمى طُميًّا كعُصيٍّ امتلأ ، وطما الماء : علا حتى ملأ النهر ، والنبتُ طال ، وطمتْ همته ارتفعت وعظمت ، وطمتْ المرأة بزوجها إذا ارتفعت به ، ويقال بالواو فى الجميع .

والنُّوقُ : جمع ناقة كبُدْنٍ جمع بَدَنة وقد تقدم الكلام عليه .

والْأَمْواجُ : جمع موج والواحدة موجة أصله المصدر ثم غلبت عليه الاسمية كما

مَرَّ فى الدمع ، يقال ماج البحر مَوْجاً اضطرب ، وتموج اشتد اضطرابه وهيجانه ، وماج الناسُ إذا اضطربوا واختلفت أمورهم .

والارْتِقَاءُ : الصعود كالرُّقِي ورقيت فى السُّلم بالكسر رَقْياً ورُقِيًّا صعِدتَ وارتقيت مثله ، والمَرقاةُ بفتح الميم الدرجة ، وهذا على أنها محل للرقي ، فإن اعتبرت على أنها آلة له كسِرَتْ .

والهَوْدَجُ : هو مَرْكَبُ للنساء معروف يكون مقبَّباً وغير مقبَّبٍ والجمع هوادجُ .

والأَقْتَابُ : جمع قَتَبَ محركاً وهو رَحْلٌ صغيرٌ يكون على قَدْرِ سَنَام البعير

والسَّفِينُ : هو فى الأشهر جمع سفينة ، ويُجمع أيضاً على سفائن ويجمع السفين على سُفُنٍ بضمتين قاله فى المصباح .

وهو غير متعين إذ يجوز أنْ يكون جمع سفينة كصُحُفٍ جمع صحيفة ، واعلم أنَّ الجمع الذي بينه وبين مفرده هاء التأنيث بابه المخلوقات ، مثل تمرة وتمر ونخلة ونخل وأما فى المصنوعات فمسموع فى ألفاظٍ قليلة منها السفن والسفينة ، ومنهم من يقول إن السفين لغة فى الواحدة ، وهو الذى مشى عليه الناظم كما سيأتى .

وسميت سفينة لأنها تسفن الماء أي تقشره فهى فعيلة بمعنى فاعل وصاحبها سفّان وصنعته السِّفانة بالكسر . ومَخَرَتْ السفينة الماء كمنع مَخْراً ومُخوراً جرت ومَخَرَ السابح الماء شقه ببدنه ، ويقال للسحب بنات مخر لأنها تمخر الهواءَ أيْ تشقه ، والفُلْك المواخر التي يسمعُ صوت جريها ، أو تشق الماء بِجَنَاجِئها ، وقيل غير ذلك .

والزَّوْرَقُ : هو السفينة الصغيرة والجمع زوارق ، ـــ والله تعالى أعلم ـــ .

[مَرَّتْ بِهَا هُوجُ الرِّيَاحِ فَهْي فِي　　　تَفَرُّقٍ حِيناً وَحِيناً تَلْتَقِي]

المُرورُ : هُنا الذهابُ ، والمرور أيضاً الاجْتياز ، يقال مَرَّ زيدٌ مرّاً ومروراً ذهب

ومررت به ذهبت به ومررت به وعليه اجتزت به .

والْهَوَجُ : بالتحريك طولٌ فى حُمْقٍ ، وطَيْشٍ وتَسَرُّعٍ ، والناقَةُ الهوجاء المسرعة السير حتى كأنَّ بها هَوَجاً ، والريح الهوجاء التي تقلع البيوت ، والجمع هوجٌ بضم الهاء ، كذا فى الصِّحَاح والقاموس ، وقال أبو البقاء فى شرح ديوان المتنبي : الرياح الهوج التي لا تستقيم فتارة تأتى من هنا وتارة من هنا ، وهذا يناسب تعقيب الناظم لها بالتفرق تارة والالتقاء أخرى .

والْحِينُ : الزمان قلَّ أو كثر والجمع أحيان وجمع الجمع أحايين ، واختلفوا فى قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[1] فقيل ستة أشهر لأن بين حمل النخلة إلى صرامها ستة أشهر ، وقيل سنة وقيل شهران وقال الزَّجّاج : جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون إلى أنَّ الحين كالوقت يصلحُ لجميع الأزمان كُلِّها طالت أم قصرت ، كذا بالأصل .

قلت : قال الراغب الأصفهانى فى المفردات : الحين وقت بلوغ الشئ وحصوله وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[2] ومن قال«حينٌ»يأتى على أوجُه : للأجل ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾[3] وللسنة نحو قوله تعالى : ﴿ تؤتى أُكُلَها كلَّ حِينٍ ﴾[4] وللساعة نحو قوله تعالى : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحون ﴾[5] وللزمان المطلق نحو ﴿ هل أَتَىٰ عَلَىٰ الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾[6] وإنما فسر بذلك بِحَسْبِ مَا وَجد قَدْ عَلَقَ به ، وَيُقَالَ عَامَلته محاينة حيناً وحيناً وأحينت بالمكان أقمت به حيناً ، وحانَ حِينُ كذا أى قرب وقته ؛ والله أعلم .

[وَكَمْ بِسَوْطِ البَغْي سُقْتَ سُوقَهَا   سَوْقَ المُعَنِّفِ الذي لَمْ يَتَّقِ]
[حَتَّىٰ غَدَتْ خُوصاً عِجافاً ضُمَّراً   أَعْنَاقُهَا تَشْكُو طَوِيلَ الْعَنَقِ]

---

(١) إبراهيم الآية (٢٥)
(٢) ص آية (٣)
(٣) الصافات (١٤٨)
(٤) إبراهيم الآية (٢٥)
(٥) الروم الآية (١٧)
(٦) الإنسان الآية (١)

[مَرْثومَـةَ الأَيْـدِى شَكَتْ فَرطَ الْوَجَـى   لَكِنَّهَا تشكو لغير مُشْـفِقِ]

السَّوْطُ : الخلط وأصله أنْ تخلط بين شيئين فى إنائِك ثم تضربهما بيدك حتى يختلطا ومنه للمقرعة السوط لأنها تخلط اللحم بالدم والجمع أسواط وسياط وضربه سوطاً أي مرة واحدة بالسوط .

والْبَغْيُ : التعدي ، وَبَغَى الرجلُ على الرجل استطال ، وبَغَتْ السَّمَاءُ اشتد مَطَرُهَا ، وَبَغَى الجرحُ وَرِمَ وترامى إلى فساد ، وبغى الوالى ظَلَمَ ، وكل مجاوزة عن الحد وإفراط فى المقدار ، الذي هو حد الشيىء فهو بغي .

سُوقَهَا : جمع ساق ، وهى ما بين الكعب إلى الركبة مؤنثة تصغيرها سويقة وجمعها سوق كما نطق به الناظم وأسؤق بالهمزة ، وسيقان ، ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاق ﴾[1] عن شدة ﴿ والتَفَّتِ السّاقُ بِالسّاق ﴾[2] آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة .

وكانوا إذا أرادوا الإخبار عن شدة ذكروا الساق ، ومن ذلك قولهم : قامت الحرب على ساق ، كذا فى الأصل ، قُلْتُ : قال الأصفهانى فى المفردات : ﴿ والتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ ﴾[2] قيل عنى التفاف الساقين عند خروج الروح وقيل التفافهما عندما يلفَّان فى الكفن ، وقيل هو أن يموت فلا تحملانه بعد أن كانتا تقلانه ، وقيل أراد التفاف البلية بالبلية ﴿ يومَ يُكشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[1] من قولهم كشفت الحرب عن ساقها . انتهى منه بلفظه .

الْعُنْفُ : مثلث العين ضد الرفق يقال عنُف به وعليه ككرم وأعنفته إعنافاً وعنَّفته تعنيفاً ، والْعَنيفُ من لا رفق له بركوب الخيل ، والشديد من السير والقول ونحو ذلك .

الاتِّقاءُ : أصله الحذر والاسم التقوى : وأصلها وَقْياً لأنها مأخوذة من الوقاية

---

(١) القلم الآية (٤٢)

(٢) القيامة الآية (٢٩)

فأبدلت لام الكلمة التى هي الياء واواً على القاعدة فى فَعْلَى إذا كانت اسماً ، ثم أُبْدلَت فاؤها التى هى الواو تاءً فقيل تقوى .

قلت : وقد تبع فى الأصل فى تعريف التقوى الشرعي عبارات الصوفية وقد عَدَلْتُ عن عباراته عن قصد ، أما التقوى لغة فهو جعل المرء وقاية بينه وبين ما يحذره ، ومن ذلك الاستعمال قول نابغة ذبيان :

سَقَطَ النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسْقاطَهُ   فتناولَتْــهُ واتَّقَتْنَـــا باليَــدِ

والتقوى فى تعريف الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ، ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما رويَ « الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه ».

وقال الله تعالى : ﴿ **فمن اتَّقى وأصلَحَ فلا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1] ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا** ﴾[2] ﴿ **وسيق الذين اتَّقَوا رَبَّهُمْ إلى الجَنَّة زُمَراً** ﴾[3] والله أعلم .

وقولهُ غدت خُوصاً : أي غائرات العيون ، قال فى المصباح : الخَوَصُ بالتحريك مصدر من باب تعب وهو ضيق العين وغئورها ، والذكر أخوص والأنثى خوصاء والجمع خوص بالضم .

والْعَجَفُ : بالتحريك الهزال وقد عَجفَ يعْجَفُ كفرح يفْرَحُ ، والذكر أعْجَفُ والأنثى عجفاء والجمع عِجاف على غير قياس لأن أفعل فعلاء لا يجمع على فِعال ولكنهم حملوه على نقيضه وهو سمان ، والعرب قد تبني الشئ على نقيضه كما تبنيه على نظيره .

ضُمَّراً : جمع ضامر والأنثى ضامرة وهى المهزولة اللاصقة البطن من الإبل

---

(١) الأعراف الآية (٣٥) .

(٢) النحل (١٢٨)

(٣) الزمر الآية (٧٣)

والخيل ، يقال ضَمَر البعيرُ والفرس ضموراً من باب قعَد وضَمُرَ ضُمْراً كَقَرُبَ قُرْباً : دقّ وقلّ لحمه ، وضَمَّرْتُ الفرس وأضمرتُه أعددته للسباق وهو أن تعلفه قوتاً بعد السِّمَنِ فهو ضامر ، وخيل ضامرة ، وفى التنزيل ﴿ **وأذِّنْ فِي النَّاس بِالحَجِّ يأتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ** ﴾[1] أي على كل بعير مهزول أتعبه بُعْدُ الشُّقَّةِ ، والله أعلم .

والعَنَقُ : بفتحتين ضرب من السير فسيح سريع وهو اسم من أعنق إعناقاً قال أبو النجم :

ياناق سيرى عَنَقاً فسيحاً ... إلى سليمـان فنستـريحا

وقوله [مَرْثُومَةَ الأيدى] : أي مُشَقَّقَتُها تسيل دماً ، وأصل الرَّثْم كسرُ الأنْفِ ونحوه حتى يخرج منه الدم يقال رَثَم أَنفَهُ أوفاه يرثمُه فهو مرثوم ، وَخُفٌّ مرثومٌ ورثيم إذا أصابته حِجَارةٌ فَدَمِيَ ، وكل ما كسر ولطخ بالدم فهو رثيم ، ورثَمت المرأة أنفها بالطيب لطخته به ، قال ذو الرمة :

تثنى النِّقابَ على عِرْنين أرْنبَةٍ ... شَمَّاءُ مارنُها بالمسك مرثومُ

والرثَمُ أيضاً بياضٌ فى جحفلة الفَرَسِ العليا .

نادرةٌ : يحكى أن أعرابياً هَوِيَ أعرابية فأهدى إليها ثلاثين شاةً وزقّاً من خمر مع عبد له أسود ، فأخذ العبد شاة فى الطريق فذبحها وأكل منها وشرب بعض الزِّق ، فلما جاءها بالباق عرفت أنه خانها فى الهدية فلما عزم على الانصراف سألها هل لك من حاجة إلى سيدي ؟ فقالت له نعم اقرأ عليه السلام وقل له إنَّ الشهر كان عندنا مُحاقاً وإنَّ سُحيماً راعِيَ غنمنا جاءنا مرثوماً ، فلم يدر العبد ما أرادت بهذه الكناية ، فلما عاد إلى مولاه أخبره برسالتها ففطن لما أرادته فدعا بالمراوة وقال لتصدقنى وإلَّاشَدَخْتُ بها رأسك فأقر بما فعل فعفا عنه ، وهذا من ألطف الكنايات وأحلى الإشارات .

---

(١) الحج (٢٧)

والْوَجى : هو وجع يكون فى الرجل ، وَجِىَ كرضِيَ فهو وَجٍ ووَجىٌّ كَغَنِىٌّ وهى وَجْيَاءُ .

وقيل : الوجى الحفا ، وقيل الوجى وجع يجده الفرس فى حافره أو البعير فى خفه من غير أن يكون به وهْىٌ من صدع ولا غيره .

والإشفاقُ : الحذر والحنوُّ والعطف والاسم : الشفقة وقد تقدم الكلام عليه

[قَدْ ذهَبَتْ مِنْهَا الْمَحَاسِنُ بإدْ مَانِ السُّرى وَقِلَّةِ التَّرفُّقِ]

المحَاسِنُ : جمع حُسْنٍ على غير قياس كأنه جمع مَحْسَنٍ وهو جمع لا واحد له من لفظه مثل ملامح جمع لمحة وقولهم : سدَّ الله مفاقره أى وجوه فقره ، وقطع الله مذاكره يريدون ذَكَرَهُ أى فَرْجَهُ ، وهى جموع يسيرة جاءت على هذا النحو ، ومعنى الحسن الجمال يقال حَسُنَ الشيءُ بالضم حُسْنا فهو حسن والجمع حِسَانٌ .

وَالإدْمَانُ : الملازمة يقال أدمن فلان كذاإدْماناً :واظب عليه ولازمه ، ورجل مدمن خمر أى مداوم على شُربها .

والسُّرىَ : بالضم اسم مصدر وهو سير الليل ولغة أهل الحجاز أسْرى إسْراءً قال حسان رضى الله عنه :

حَيٌّ النضيرة رَبَّةَ الخِدْرِ أُسَرَتْ إليك ولم تكن تُسْرى

والتَّرفُّقُ : تَفعُّلٌ من الرفق ضد العنف ، والله أعلم .

[كأنَّها لم تَكُ قَبْلُ انْتُخِبَتْ من كُلِّ قَرْوَاءَ رَقُوبٍ فُنُقِ]

[دَوْسَرَةٍ هَوْجَاءَ وَجْنَى مَابِهَا مِن نَقَبٍ وَمِنْ وَجىً وسَلَقِ]

الانْتِخَابُ : أصله الانتزاع ثم شاع فى انتزاع خاص وهو ما كان على سبيل الاختيار والنُّخْبَةُ بالضم كهُمْزة : المختار والجمع نُخَبٌ كرُطب وجاء فلان فى نُخب أصحابه أى فى خيارهم .

وقَرْوَاء : يقال ناقةٌ قرواء أي طويلة السنام ويقال شديدة الظهر بينة القرا ،

ولا يوصف به الذَّكَرُ فلا يقال جمل أقرى .

والرَّقُوبُ : الناقة التى لا تدنو من الحوض عند الزحام وذلك لكرمها

والْفُنُقُ : الناقة الفتية السمينة ، وجارية فنق أى مُنَعَّمة

والدَّوْسَرَةُ : الناقة الضخمة العظيمة

والْهَوْجَاءُ : التى تَجِدُّ فى السير فتركب رأسها كأن بها هوجا ، قال الراجز :

لله درُّ اليعملات الهوج

ولا يقال بعير أهوج والله أعلم .

والوَجْنَاءُ : الناقةُ الشديدة ، وقيل العظيمة الوجنَتَين، ولا يقال فى الذكر أوجن .

ونَقِبَ : البعير إذا رقَّتْ أخفافه ، ينقبُ كفرح يفرح ، ويقع من خشونة الأرض ، وأنْقَبَ الرجل إذا نقب بعيره ، ونقب الخُفُّ الملبوس إذا تَخَرَّق .

يحكى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد ضرب الغزو على قوم من المسلمين فجاءه أعرابى فقال ياأمير المؤمنين إن ناقتى عجفاءُ نَقْبَاءُ دَبْرَاءُ فاحملني ، فظنه كاذباً فحلف أن مابها من نقب ولا دبر وأعطاه شيئا من الدقيق ولم يحمله ، فولى الأعرابى يسوق ناقته ويرتجز قائلا

أقسم بالله أبو حفص عُمرْ   مامسَّها من نَقَبٍ ومن دَبَرْ

فاغفر له اللهم إنْ كان فَجَرْ

أى حنث ، فسمعه عمر رضي الله عنه فجعل يقول اللهم صدق اللهم صدق ثم دعاه فقال له ضع عن راحلتك فوضع عنها فإذا هى كما قال فحمله على بعير وزوده وكساه .

والسَّلَقُ : السلْق بسكون اللام أثر دبرة البعير إذا برئت وابيضَّ موضعها كالسلق محركة وأثر النسع فى جنب البعير ، والاسم السليقة .

وعن قطرب أن قوماً من تميم يقال لهم « بلعنبر » يقلبون السين صاداً عند

أربعة أحرف : عند الطاء والقاف والغين والخاء قيل والحاء ، ومن المناسب هنا ذكر لطيفة : وهى أن النضر بن شميل المازني مرض فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح : مسح الله مابك ـــ بالسين ـــ فقال النضر : لاتقل مسح ولكن قل مصح الله مابك بالصاد أى أذهبه وَفَرَّقَهُ ، أما سمعت قول الأعشى :

وإذا ما الخمرُ فيها أَزْبَدَتْ أَفَـلَ الإزبـــاد فيها ومَصَحْ

فقال له الرجل : إن السين قد تُبدلُ من الصادِ كما يقال للصراط السراط وصفر وسفر ، فقال له النضر : إذاً أنت أبو سالح ؟

وتشبه هذه الحكاية أن بعض الأدباءِ جوز بحضرة الوزير أبى الحسن بن الفُرات أن تُقامَ السينُ مقام الصاد فى كل موضع فقال له الوزير : أتقرأ :

﴿ جَنّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ ﴾[1] أو ومن سلح ؟ فخجل الرجل وانقطع .

[مِنْ بَعْدِ مَاكَانَتْ هُنَيْدَة غَدَتْ أَكْثَرَ مِن ذَودٍ ودونَ شَنَقِ]

هُنَيْدَةُ : هند اسم للمائة من الإبل كهنيدة أو لما فوقها ودونها أو للمائتين ، وفى الصحاح إن الهُنيدة اسم للمائة من الإبل وغيرها ، ولما مَدَحَ جرير عبد الملك ابن مروان وأعطاه مائة من الإبل أنشد فيه قصيدته التى يقول فيها :

أعطوا هُنَيْدَةَ تحدوها ثمانيةٌ ما في عطائِهُمُ مَنٌّ ولا سرفٌ

وقال ابن خلكان : هنيدة بضم الهاء على صورة التصغير علم على المائة ؛ وأكثر علماء الأدب لا يجيزون إدخال الألف واللام عليها ، وبعضهم يجيز ذلك واستدل بقول سلمة بن الحرث :

ونصر بن دُهمانَ الهنيدة عاشها وتسعين عاماً ثم قَوَّمَ فانصاتا

الذَّوْدُ : هو مابين الثلاث إلى العشر من الإبل ، هذا هو المشهور وفيها أقوال أخرى .

---

(١) الرعد اية (٢٣)

وهي مؤنثة ففى الحديث « ليس فى أقل من خمس ذود صدقة » ولا واحد لها من لفظها وجمعها أذواد كثوب وأثواب ؛ وفى المثل : « الذود إلى الذود إبل » أى إذا جمعت القليل مع القليل صار كثيراً ،ـــ

والشَّنَقُ : بالتحريك ما بين الفريضتين والجمع أشناق مثل سبب وأسباب وبعضهم يقول هو الوَقْص ، وبعض الفقهاء يخص الشنق بالإبل والوقص بالبقر ، والشنق أيضاً مادون الدية الكاملة فإذا كان معها دية جراحات فهي الأشناق كأنها معلقة بالدية العظمى ، والشنق أيضا أن يزيد الإبل فى الحمالة ستًا أو سبعاً ليوصف بالوفاء « والله أعلم » .

[وَإِنْ تَمَادَيْتَ عَلى إتْعابهَا وَلَمْ تكُن مُنتهياً عَنْ رَهَقِ]
[فسوف تَعروك على إتلافها ندامَةُ الكُسْعِيِّ والْفَــرَزْدَقِ]

مُنْتَهِيًا : أي كافًا يَقال نهيته عن كذا فانتهى عنه ، وتناهى أى كف ، وتناهوا عن المنكر نهى بعضهم بعضا ، وسمى العقل نُهْيَةً بالضم لأنه ينهى صاحبه عن الوقوع فيما لاينبغى ، والجمع : النُّهى كالْعُلَا ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ** ﴾[1] .

والرَّهَقُ : هنا اسم من الإرهاق وهو أن تحمل الإنسان أو غيره على مالا يطيق ، والرهق أيضا السَّفَهُ والنَّوْك والخِفَّة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم والكذب ، والفعل فى الكل كفرح

وعَرَاهُ الأمر يعروه عُرُوًّا من باب قَتَلَ إذا غَشِيَهُ وأَصَابه :

والكُسْعِيُّ : بضم الكاف وبفتح السين إلا أن الناظم سكنه للضرورة ، نسبة إلى كُسَعٍ كصُرَدٍ حَيّ من اليمن وقيل غير ذلك ، والمراد به هنا رجل معروف يأتى خبره قريبًا إن شاء الله تعالى .

والْفَرَزْدَقُ : أصله الرغيف الضخم الذى يجففه النساء للفتوت ، وقيل بل هو القطعة من العجين التى تبسط فيخبز منها الرغيف ، والمقصود به هنا الشاعر

(١) طه آية (١٢٨)

المعروف ويأتي خبره قريبا إن شاء الله .

وسُمِّي فرزدقاً لأنهم شبهوا وجهه به لأنه كان غليظاً جَهْمًا ، وهذا اللفظ فارسي مُعَرَّبٌ ونذكر بالمناسبة أن جريراً أصله الحبل ، وقد ألغز بعضهم فقال :

رأيت جريراً والفرزدقُ فوقه بخيف مِنىً لم يَغْشَ عاراً ولا إثما
فألقيت فى النار الفرزدق بعدَما لطمتُ محياهُ ولم أقْتَرِفْ ظُلْما
ولولا جريرٌ ماذكتْ نارُ ضَالةٍ فلمَّا ذَكَتْ أُضْحَى جريرٌ لها فَحْمَا

يقول : رأيت حبلاً عليه عجين فطبخت العجين بعدما ضربت عليه بيدى حتى صار رغيفاً .

ذكر الكُسَعِيِّ وندامته

والكسعى الذى يضرب المثل بندامته رجل من كسع كصُرد حى من اليمن واسمه محارب بن قيس .

وفى القاموس أن كسع من بنى ثعلبة بن قيس عيلان ومنه غامد بن الحرث وكان من حديثه أنه كان يرعى إبلاً له بواد كثير العشب والخمط فبصر بِنَبْعَةٍ فى صخرة فأعجبته وقال ينبغى أن تكون هذه قوساً وجعل يتعهدها حتى إذا أدركت قطعها وجفَّفها واتخذ منها قوساً وأنشأ يقول :

يارب وفقنى لنحت قَوْسِ فإنها من لَذَّتي لنفسي
وانفع بقوسي ولدي وغَرْسي أنحَتها صفراء مثل الورس
صلداء ليست كالقِسي النكسِ

ثم عمد إلى ما كان من بُرايتها فاتخذ منه خمسة أسهم وجعل يُقَلِّبها فى كفه ويقول

هن وربى أسْهُمٌ حِسانُ تَلَذُّ للرَّامى بها البنانُ
كأنما قِوامُها ميزانُ فأبشروا بالخصب ياصبيانُ
إن لم يُعقْني الشُّؤمُ والحَرمانُ

ثم خرج حتى أتى قُتْرَةً على موارد حُمرٍ فكمن فيها، فمر به قطيع منها فرمى عيراً بسهم فأمخطه السَّهْمُ أى نفذ فيه وجازه فأصاب الجبل فأورى نارا فظن أنه أخطأه وأنشأ يقـول :

أعـوذ بالله العزيـز الـــرحمن من نكد الجدِّ معا والحِرْمان
مالى رأيت السهم بين الصّوان يُورِي شَراراً مثل لون العقيان
فأخلف اليوم رجاء الصبيان

ثم مكث على حاله فجاء قطيع آخر فرمى عيراً منها فأمخطه السهم وصنع صنيع الأول فأنشأ يقول

لا بارك الرحمنُ فى رَمْيِ القُتَرْ أعوذ بالخالق من سوء القَدَرْ
أأمخط السَّهْم لإرهـاق الضرر أم ذاك من سوء احتيالٍ ونظر
أم ليس يغنى حذر عند قدر

ثم مكث على حاله فجاء قطيع آخر فرمى عيراً فأمخطه السهم وصنع صنيع الثانى فأنشأ يقول :

ما بال سهمى يوقد الحباحِبا ولم يزل عن الرمايا ناكبا
قد كنت أرجو أن يكون صائبا فأخطـأ العِيَر ووَلّـى جانبـــا
فصار رأيى فيه رأيا خائبا

ثم مكث مكانه فجاء قطيع آخر فرمى عيراً منه فأمخطه السهم وصنع صنيع الثالث فأنشأ يقول :

ياأسفى للشؤم والجَدِّ النكـد فى قوس صدق لم تزين بأَوَدْ
أخلف ما أرجو لأهل وولد فيها ولم يُغْنِ الحذار والجَلَدْ
فخاب ظن الأهل طُرًّا والوَلَدْ

ثم مربه قطيع آخر فرمى منه عيراً بسهم فأمخطه السهمُ وصنع صنيع الرابع

فأنشأ يقول :

أبعد خمس قد حفظت عدها أحمل قوسى وأريد ردها
أخزى الإله لينها وشدها والله لاتسلم منى بعدها
ولا أُرَجىّ ما حييتُ رِفْدها

ثم عمد إلى قوسه فضرب بها حَجَراً ثم بات فلما أصبح نظر فإذا الحمر حوله مصرعة وأسهمه بالدم مُضَرَّجة فندم على كسر القوس فعض على إبهامه فقطعها أسفاً وحسرة ثم أنشأ يقول :

نَدِمْتُ نَدَامةً لَوْ أنَّ نَفْسِي تُطاوعُني إذاً لقطعتُ خَمْسِي
تبين لى سَفَاهُ الرأي مِنـيِّ لَعَمْرُ أَبيكَ حِينَ كَسَرْتُ قَوْسِي

ذِكْرُ الفرزدق وندامته

والفرزدق هو همَّام أو هميم بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم التميمى الشاعر المشهور صاحب جرير وكنيته أبو فراس وكان أبوه غالب من أشراف قومه .

وكان من خبر ندامته أن ابنة عمه النَّوار بنت أعين بن ضبيعة خطبها رجل فَرَضِيَتْه وكانت يومئذ بالبصرة والفرزدق أقرب أوليائِها الحاضرين هناك فأرسلت إليه أنْ زَوِّجْني من هذا الرجل ، فقال إنَّ بالشام من هو أقرب إليك مني ولاية وأنا أحذر أن يَقْدُمَ منهم قادمٌ فينكر ذلك عليَّ فاشهدى أنك قد جعلت أمرك إليَّ ففعلت ، فلما توثق منها قال أرسلي إلى القوم فليأتوا ، فجاءت بنو عبد الله بن دارم فشحنوا مسجد بنى مجاشع مع صاحبهم وجاء الفرزدق فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : علمتم أن النوار قد ولتني أمرها وأنا أُشهِدُكُمْ أنى قد زَوَّجْتُها من نفسي على مائة ناقة حمراء سود الحدق ، فنفرت النوار من ذلك وناكرته وترددت إلى حُكام البصرة فتوقفوا فى أمرها وأبوا أن يُطلقوها منه حتى يشهد لها الشهود .

وأعياها أمر ذلك ، وكان ابن الزبير يومئذ أمير الحجاز والعراق يُدْعى له

بالخلافة فيهما ويخطب له على منابرهما فهمت النوار برفع أمرها إليه ولم تجد مَنْ يحملها إليه فأتت قومًا من بنى عدي بن عبد مناة بن أدّ يقال لهم بنو النُّسيرْ وكانت بينها وبينهم قرابَة فسألتهم بالرَّحِم فحملوها فبلغ ذلك الفرزدق فتبعها وقال فى الفتية قصيدة لامية منها قوله :

وإنَّ امْرءًا أمسى يخبِّبُ زوجتي كساعٍ إلى أُسدِ الشرى يستبيلها
ومن دون أبوال الأسود بسالةٌ وأيدٍ طوال يمنع الضَّيْمَ طولُها

ثم إن الفرزدق لم يدرك النَّوار حتي قدمت مكه فاستجارت بزوجة ابن الزبير رضي الله عنهما واسمها خولة وقيل تماضر بنت منظور بن زبَّان بن سيَّار الفزارى ولما قدم الفرزدق مكةَ نزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ومدحه بقوله :

أمسيت قد نزلت بحمزة حاجتي إنَّ المنــوَّه باسمه الموثــوق
بأبي عُمارة خير من وَطِىءَ الحصا وجرت له فى الصالحين عروق
بين الحواريِّ الأغـر وهـاشم ثم الخليفـة بعدُ والصديــق

وقد مدحه بأبيات أخرى ، فكان كل ماأصلح حمزة من شأن الفرزدق بالنهار مع أبيه تفسده أمه بالليل فقال الفرزدق

رُدَّ البنون فلم تقبل شفاعتهم وشُفِّعتْ بنت منظور بن زبَّانا
ليس الشَّفِيعُ الذى يأتيك مُتَّزِراً مِثْلَ الشفيعِ الذى يأتِيكَ عُرْيانا

فبلغ ذلك ابن الزبير فأحفظه ودعا النَّوار وقال إن شئت فرقت بينكما وقتلته وأرحتُ المسلمين من شر لسانه وإن شئت سيرته إلى بلاد العدو ، قالت ماأُريدُ واحدة منهما ، قال إنه ابنُ عمك وهو فيك راغب فأزوجه إياك قالت نعم فزوجه إياها على عشرة آلاف درهم فقبل الفرزدق وسأل بمكة هل أحدٌ يعينه فَدُلَّ على سلم بن زياد بن أبيه وكان ابن الزبير قد حبسه ، فقال الفرزدق :

دعي مغلقى الأبواب دون نوالهم ومرِّى وسيرى بي هُبِلْتِ إلى سَلْمِ
إلى من يرى المعروف سَهْلاً سبيلهُ ويفعل أفعال الكرام التى تَنْمِي

فلما دخل على سلم وأنشده الشعر قال : هى لك ومثلها معها لنفقتك ، ثم إن الفرزدق أخذ زوجته وعاد إلى البصرة .

ولما كانت النوار امرأةً صالحةَ الدينِ كانت تقع بينها دائما وبين زوجها مشادة لأنه كان من المسرفين على أنفسهم فتزوج عليها حدراء بنت زيق بن بسطام بن قيس الشيبانى فقالت له النوار ويلك تزوجت أعرابية دقيقة الساقين بوالةً على عقبيها على مائة بعير ؟ فقال الفرذق يعيرها بأنها كانت تُرَبيها أَمَةٌ ويفضل حدراء عليها :

لجارية بين السليل عروقها وبين أبى الصهباء من آل خالد
أحق بإغلاء المهور من التى تربت وهي تنزو فى حجور الولائد

فلم تزل النَّوار تستعطفه حتى أجابها إلى طلاقها وأخذ عليها أن لاتفارقه ولا تبرح من منزله ولا تتزوج رجلاً بعده ولا تمنعه من مالها ماكانت تبذله ، وأخذت عليه أن يشهد الحسن البصرى على طلاقها ففعل .

يُحكى أنه لما عزم على طلاق النوار استصحب معه محمد بن روح العدوى وقد استصحبت النوار رجالاً كثيرين يلوذون بالسواري خوفًا من الفرزدق فأتيا الحسن البصرى « رحمه الله » فى حلقته فقال له الفرزدق ياأبا سعيد ، قال له ماتشاء ؟ قال أُشهدُكَ أن النوار طالق ثلاثاً ، فقال الحسن قد شهدنا . فلما انصرف ندم على مافعل فقال له رفيقه والله إنى أرى أن ندمك سيترقرق أتدرى من أشهدت ؟ والله لئن رجعت لَتُرْجَمَنَّ بأحجارك ، فمضى وهو يقول :

نَدِمْتُ نَدَامةَ الكسعى لما غدت مِنِّى مطلَّقةً نوارُ
وكانت جَنَّتي فَخَرَجْتُ منها كآدم حين أخرجه الضِّرارُ
فكنت كفاقىءِ عَيْنَيْهِ عَمْداً فأصبح ما يضيءُ له النهار
ولو أنى ملكت يدى وقلبى لكان لنا على القدر الخيار
وما فارقتها عن قلى ولكن رأيت الدهرَ يأخذ ما يعار

والله أعلم

[وَكُنْتَ قَدْ عُوِّضْتَ مِنْ أَخْفَافِهَا خُفَّيْ حُنَيْنٍ ظَافِراً بِالأَنَقِ]

التَّعْوِيضُ : إعطاء العِوَض بِكسر العين وفتح الواو ، يقال عاضَني زيد عَوْضًا من باب قَال وأعاضني بالألف إعاضة وعوَّضني بالتشديد تعويضًا : أعطاني العِوَض وهو البدل ، واعتاض هو ، أخذه كتعوض ، وأما استعاض فمعناه سأل العِوَض .

والأَخْفَافُ : جمع خُفّ وهو مجمع فرسن البعير ، وقد يكون للنَّعَام ، وقيل لايكون الخف إلا لهما ، وفى المصباح والقاموس والصحاح أن خُفاً جمعه أخفاف إذا كان للبعير ، وأن الخف الملبوس جمعه خِفاف ، قال فى الأصل : وعليه فإن قول المتنبى :

أنساعُها مَمْغُوطَةٌ وخِفَافُهَا منكوحةٌ وطريقها عذراء

لَحْنٌ مع أن القياس جواز الأمرين « والله أعلم »

والظَّفَرُ : الفوز بالمطلوب ؛ والأَنَقُ : بالتحريك الفرح والسرور ، وقد أَنِق كفرح يأنَقُ أنقًا ، وشيء أنيق أى حسن مُعْجِب ، وآنقني الشيء أعجبني فهو مؤنق والله أعلم .

ذِكْرُ حُنَيْنٍ وخُفَّيْهِ

اختلفت الرواة فى حُنَيْن المذكور فى هذا المثل اختلافاً كثيراً ، وأقربها إلى مامشى عليه الناظم ماذهب إليه أبو عبيد : كان حنين إسكافًا من أهل الحيرة فساومه أعرابى بخفين وماكسه فيهما حتى أحرجه ولم يشتر منه فأغضبه ورصد حنين الأعرابى حتى إذا ارتحل تقدمه بالخفين فعلق أحدهما على شجرة على طريق الأعرابى ثم تقدم قليلاً وطرح الآخر على قارعة الطريق ثم كمن حيث لا يراه أحد ، فجاء الأعرابي حتى إذا حاذى الخف المعلق بَصُرَ به فقال مأأشبه هذا الخف بخف حنين ، فلو كان معه صاحبه لأخذته

ثم سار قليلاً فعثر على الآخر مطروحًا فندم على تفريطه فى الأول فنزل عن راحلته فعقلها وأخذ الخف المطروح ثم رجع ليأخذ الخف الأول فخرج حنين فأخذ الراحلة وما عليها وذهب ورجع الأعرابى إلى حَيِّهِ بالخفين فكان قومه يقولون له بم جئت من سفرك ؟ فيقول جئتكم بِخُفَّيْ حنين ، فذهب قوله مثلا يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة

وقيل فيه غير ذلك وهى روايات كثيرة وحكايات تركتها لما يظهر عليها من التلفيق « والله تعالى أعلم » .

[لَأَنْتَ أَظْلَمُ من ابن ظَالِمٍ   إِنْ كُنْتَ مِنْ بَعْدُ بِهَا لَمْ تَرْفق]

الظُّلْمُ : وضع الشيء فى غير محله والمصدر الظَّلْمْ بفتح الظاء كضربه ضَرْباً يقال ظلمه يظلمه ظَلْما فهو ظالم ومظلوم وظلمه حقه ، والظُّلاَمَة كثُمامة والمظلَمةُ بفتح اللام على القياس والكسر أفصح : ماتطلبه عند الظالم وهو اسم لما أخذ منك ، وفى المثل [من استرعى الذئب الغنم فقد اسْتَظْلَم] وفيه أيضا [من أشبه أباه فما ظلم].

ذكر ابن ظـالم وظلمـه

هو الحرث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان .

قلتُ : ومعلوم عند علماء التاريخ أن بنى غيظ بن عوف الذين ينسب إليهم الحارث بن ظالم نسبهم مذبذب بين بني لُؤى بن غالب وبين بنى سعد بن ذُبْيان ، قال فى عمود النسب للعلامة النسابة الشيخ أحمد البدوى المجلسى الشنْقيطي :

سعدٌ أبو عوف أبو الحَيِّ بنى   غيظ بن مُرَّة بن عوف المبتني
بِهَـرِمٍ والحارثين سؤددا   أو للـؤى عوفهم وأنشـدا
فيه ابن سعد إذا رآه أبَطأ   جمله والرَّكْبُ عنه قد نأى

احبس عليَّ ابن لؤيٍّ جملك تركك القوم ولا مترك لك
فهو إذاً مذبذب بين لؤى وبين سعد مثل ماكان لُحَي

وقوله : « بِهَرِمٍ » يعنى هَرِمَ بن سنان وقوله و « الحارثين » يعنى الحارث بن ظالم صاحب الترجمة والآخر الحارث بن عوف بن أبى حارثة بن مرة وكانا سيدين شريفين .

وكان من خبر الحارث بن ظالم وفتكه الذى عبر عنه الناظم بالظلم أن زهير ابن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحرث بن قطيفة بن عبس بن بغيض ، كان سيد غطفان وكانت له إتاوة على هوازن كل سنة بعكاظ ، وزهير هذا هو والد قيس بن زهير العبسي صاحب داحس والغبراء الآتى ذكره إن شاء الله ، فحضر زهير بعكاظ سنة من السنين فأتته عجوز من هوازن بسمن فى نحي واعتذرت إليه وشكت السنين التى تتابعت على الناس ، فذاق زهير السمن فلم يرض طعمه فدفع فى صدرها بقوس كانت فى يده فاستلقت على قفاها فبدت عورتها فغضبت هوازن وحميت أنوفها من ذلك مع ماكان زهير يسومهم به من الخسف قبل ذلك واتفقت كلمتهم مع رئيسهم خالد بن جعفر بن كلاب العامرى علي قتل زهير ، فتطلب خالد زهيرًا مدة حتى أخبر أنه فى إبل له مع بعض عشيرته قريبا من حي بنى عامر فخرج خالد فى فوارس من قومه حتى كبسوا زهيرًا على حين غفلة وصمد إليه خالد فاقتتلا ملياً على ظهور فرسيهما ثم اعتنقا وسقطا على الأرض وحمل حندج بن البكاء وهو ابن امرأة خالد على زهير فضربه بالسيف على رأسه حتى خلص إلى دماغه فقتله وثار خالد وعادت هوازن إلى منازلها ، ثم علم خالد ابن جعفر أن غطفان سوف تطلبه بسيدها فسار إلى النعمان بن امرىء القيس ملك الحيرة فاستجار به ، وقيل استجار بغيره والله أعلم بالصواب .

وكان خالد قبل مقتل زهير قد أغار على بنى يربوع بن غيظ بن مرة رهط الحارث بن ظالم فى وادٍ لهم يقال له حُراض كغراب فقتل الرجال وبقيت نساء بنى يربوع أيامى فنشأ الحارث على البغض له والحرد ، ثم جاء الحارث إلى بنى زهير بن جذيمة وهم يُجْمعون لغزو بني عامر ، فقال لهم إكفوني حرب هوازن وأنا

أكفيكم خالد بن جعفر فقال له قيس بن زهير : وكيف تصل إليه وهو فى جوار النعمان بن المنذر ؟ فقال لأقتلنه ولو كان فى حِجْره . ثم أخذ فرسًا من عتاق خيل بني مرة فأهداه للنعمان فأعجبه وأقبل عليه ورفع منزلته ، ثم إن النعمان دعا يوماً خالد بن جعفر فى رهط من عشيرته والحارث بن ظالم وقدَّم لهم تمرًا فطفق خالد يأكل ويلقى النوى بين يدى الحارث فلما فرغ القوم قال خالد أبيت اللَّعن انظر مابين يدى الحارث من النَّوى فما ترك لنا تمرًا إلا أكله فقال الحارث أما أنا فأكلتُ التمر وألقيتُ النوى وأما أنت ياخالد فأكلتَه بنواه فغضب خالد وكان لا يُنَازَع فقال أتنازعني ياحارث وقد قتلتُ حاضرك وتركتك يتيمًا فى حجور النساء ؟ فقال الحارث ذلك يوم لم أشهده وأنا مغن اليوم بمكاني .

قال خالد فهلا تشكر لى إذ قتلت زهير بن جذيمة وتركتك سيد غطفان ؟ قال بل أشكرك وأخذه الغضب ، وافترق القوم فلما كان الليل أَشْرَجَ خالد قبته عليه وعلى أخيه وناما فلما هدأت العيون خرج الحارث شاهراً سيفه فهتك شَرْجَ قبة خالد بالسيف وقتله وهو يقول : ياخالد أظننت أن دم زهير كان سائغًا لك ؟

وانتبه أخوه عُتْبَةُ فقال له الحارث لئن نبست لألُحِقَنَّكَ بِهِ . وانصرف فركب فرسه وشرد ، وخرج عُتْبَةُ صارخًا واسوء جاراه واخفرتاه فأجيب لاروع عليك فقال قتل الحارث خالداً وأخفر الملك فيه ، فوجه النعمان فى أثره جماعة فلحقوا به فقتل منهم أفراداً ورجع عنه الباقون ثم لحق بأهله .

وكانت حروب كثيرة بين شيعة النعمان وشيعة الحارث بن ظالم ، وطاف الحارث فى قبائل العرب فلما أعيا النعمان أمره قيل له إنك لن تصيبه بشيء أشد عليه من أخذ جارات له من بليٍّ ــ وبليٌّ حيى من قضاعة ــ فاستاق النعمان هذه الجارات وأموالهن .

ولما بلغ الحارث الخبر كَرَّ راجعًا وسأل عن مرعى إبلهن فدُلَّ عليه فلما قرب منهن إذا ناقة لهن يقال لها اللفَّاع غزيرة اللبن فجاء الحارث وحالبان يحلبانها فصاح بهما ورجز وقال :

إذا سمعت خَنَّـةَ اللَّفـــاع فادعى أبا ليلى ولاتُراعـــي

فعرف البائن كلامه وهو الذى يحلب من الجانب الأيسر وحبق فقال المعْلي وهو الذى يعلى الإناء ويكون فى الجانب الأيمن والله ماهي لك ، فقال الحارث [إست البائن أعلم] فصارت مثلاً ثم ساق الإبل واستنقذ جاراته وأموالهن .

ثم لحق الحارث بن ظالم ببلاد قومه مختفيًا وكانت أُخْتُهُ سلمى بنت ظالم تحت سنان بن أبى حارثة المرى وهو والد هرم بن سنان ممدوح زهير بن أبى سلمى ، فاستعار الحارث سرج سنان من إحدى نسائه من غير أن تعلم أخته بذلك وأتاها به وكان عندها ولد الملك قد تبنته وربته فقال لها الحارث يقول لك زوجك سنان ابعثى معى بابن الملك حتى استأمن به وأتخفّر به وهذا سرجه أمارة لك على ذلك ، فزَيَّنَتْهُ ثم دفعته إليه فأتى الحارث بالغلام ناحية من الشَّرَبَّة منزل بنى مُرَّة وقتله ورأى أنه بذلك يكون قد أخذ بثأره من آل النعمان حيث أغاروا على جاراته ، وقال فى ذلك أبيات منها قوله :

حَسِبْت أبا قابوسَ أَنَّكَ مُخْفِرِي ولَمَّا تَذَقْ ثُكْلاً وأنفكَ راغـمُ

وكان عمرو بن الأطناب الخزرجى ملك الحجاز قد غضب لقتل خالد بن جعفر وكان مصافياً له فقال لما بلغه مقتله : والله لولقيه يقظان لما نظر إليه ولكنه قتله وهو نائم ولو أتانى لعرف قدره ، وبلغ الحارث قوله فقال والله لآتينه فى عقر داره ، فبلغ ذلك ابن الأطناب فدعا بشرابه ووضع التاج على رأسه ودعا بالمغنيات فغنين له قوله :

أبلغا الحارث بن ظالم المو عد والناذِرَ النُّــذُورَ عَليَّــا
إنما تَقْتُـلُ النيَّـامَ ولا تَقْــ ـتلُ يقظان ذا سلاحٍ كَمِيًّا

ثم إن الحارث بن ظالم سار حتى بلغ ديار الخزرج ودنا من قبة عمرو بن الأطناب فنادى أيها الملك أغثني وخذ سلاحك فإنى جار مكثور ، فأجابه وخرج إليه حتى إذا برز عطف عليه الحارث وقال أنا أبو ليلى فاعتركا مَلِيًّا من الليل

وأحس عمرو بالضعف عنه فقال ياجار أنا شيخ كبير وإنه تعتريني سِنَةٌ فهل لك فى تأخير هذا الأمر إلى غدٍ، فقال الحارث هيهات ومن لى به فى غدٍ فتجاولا ساعةً ثم ألقى عمرو الرمح من يده وقال يا جار ألم أخبرك أن النُّعَاسَ يغلبني قد سقط رمحى فاكففه عني، فكفَّ فقال أنظرنى إلى غدٍ فامتنع قال فدعنى آخذ رمحى قال خذ قال أخشى أن تعجلنى عنه أو تفتك بى إذا ناولته، قال وذمة ظالم لأعْجَلْتُكَ ولا فتكت بك حتى تأخذه، قال وذمة الأطناب لا آخذه ولا أقاتلك، فانصرف الحارث عنه وهو ينشد شعراً يفتخر به .

وأخبار الحارث بن ظالم ومغامراته كثيرة وقد ذكرتها العرب إلا أنها لها فيها مغالاة كبيرة .

[رفْقاً بها قد بلغ السَّيْل الزُّبىَ   واتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلى الْمُرَتِّق]

الزُّبىَ : جمع زُبية بالزاى وهى حفرة تتخذ للأسد فى الموضع العالى وتغطى بشىء ويجعل عليها لحم فإذا جاء الأسد وتناوله سقط فيها، وفى الصحاح : مايفيد أن أصلها الموضع العالى، والسيل لايصل الموضع العالى إلا إذا كان جارفا مجحفاً ولذلك صارت مثلا يضرب للأمر الذى بلغ غايته فى الهول .

وقوله « اتسع الخرق على المرتق » : هذا أيضاً مثل يضرب لبلوغ الأمر نهاية لايمكن تداركها، والاتساع ضد الضيق، واتسع : صارفيه سَعَة بفتح السين وقد تُكْسَرُ، والخرق بفتح الخاء الثقب فى الثوب والحائط ونحوهما، والجمع خروق مثل : فَلْس وفلوس، وهو فى الأصل مصدر قولك خَرَقْتُه خَرْقاً من باب ضرب إذا قطعته .

والمُرَتِّق : اسم فاعل مِن الترتيق وهو اسم المبالغة فى الرتق ضد الفتق يقال رتقتُ الفَتْقَ رتقاً من باب قتل إذا سَدَدْتُهُ وأصلحتُهُ فارتتق أى انسدَّ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ .

[وَهَبْ لأَيْديهِنَّ أَيْداً وَلَهَبا   مَتْناً مَتيناً مَا خَلَا عَنْ مَصْدَقِ]

(١) الأنبياء الآية (٣٠)

[فَمَـا لِظُعْنٍ حَمَلَتْ مِن مِرَّةٍ بِظَعَنٍ أودَى بِهَا فى الْفَسَقِ]

هَبْ : بمعنى احتسب يتعدى إلى مفعولين ولا يستعمل منه ماضٍ ولا مستقبل فى هذا المعنى ، تقول : هَبْ زيداً منطلقاً .

الأَيْدُ : بفتح الهمزة وسكون الياء : القوةُ ، قال تعالى : ﴿ والسَّماءَ بَنيْنٰها بأَييْدٍ ﴾[٢] أى بقوة .

وقال حسان رضي الله عنه :

حَتَّى إذا وردوا المدينة وارْتَجَوْا قَتْلَ الرَّسولِ ومَغْنَمَ الأسلابِ
وَغَدَوْا عَلَينْا قادرين بأَيْدِهـم رُدُّوا بغيظهـم على الأعْقـابِ

وتقول آد الرجل يئد أيداً وآدا قوى واشتد فهو أَيِّدٌ ،وأيَّدَكَ الله تأييداً قواك ونصرك .

والمَتْنُ : الظهر ، وقيل المتنان مكتنفا الصلب من العصب واللحم ، زاد الجوهرى عن يمين وشمال ويذكر ويؤنث ، والمَتْنُ أيضاً ماصلُبَ من الأرضِ وارتفع والجمع مِتَانٌ كسَهْمٍ وسِهَامٍ ، ومَتُنَ الشَىء بالضم متانةً اشتدَّ وقوي فهو متين .

والمَصْدَقُ : مفعل من الصدق بالكسر وهو الشدة والصلابة ، والصَّدْقُ بالفتح من الرماح ماصلب منها ويقال مااستوى منها ، وتقول للرجل الشجاع والفرس الجواد : إنه لذو مَصْدَقٍ .

والظُّعُنُ : بضمتين وتسكن العين تخفيفاً كما هنا جمع ظعينة وهى فى الأصل اسم للهودج كانت فيه امرأة أمْ لا ويجمع أيضًا على ظعائن وأظعان ثم قيل للمرأة ظعينة لأن زوجها يظعن بها فهو فى الأصل وصف لها مادامت فى هودجها لكن تُوسِّعَ فيه أيضاً حتى أُطْلِق عليها وإن كانت فى بيتها لأنها قد يَئُولُ أمرها إلى ذلك .

---

(٢) الذاريات الآية (٤٧)

المِرَّةُ : بكسر الميم وتشديد الراء قوة الخلقِ وشدته مأخوذ من إمرار الحبل وهو فَتْلُهُ فتلاً مُحْكَماً ، وفى التنزيل ﴿ شدِيدُ القُوىٰ ذو مِرَّةٍ ﴾ يعنى جبريل عليه السلام ، والمريرة العزيمة ، قال الشاعر :

ولا أنثني من طيرة عن مريرة إذا الأخطب الداعي على الدَّوْحِ صَرْصَرا

والظَّعَنُ : بفتحتين وقد تسكن العين : السير ، ومنه قوله تعالى ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إقَامَتِكُمْ ﴾[٢] .

وأوْدَى : هَلكَ فهو مُودٍ ، وأودى به الموتُ ذهب به ، وهو هنا كناية عن شدة النَّصَبِ .

والْغَسَقُ : هو بالتحريك ظُلْمَةُ أوَّلِ الليلِ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبْ ﴾[٣] قال الحسن أى الليل إذا دخلَ ، وأصل الغَسَق : الامتلاء يقال غسقت عينه إذا امتلأت دمعا « والله أعلم » .

[أسَأْتَ لِلْغيدِ وللنُّوقِ وَلي إسَاءَةً بتَوْبَةٍ لَمْ تُمْحَقِ]

الإسَاءَةُ : ضد الإحسان .

والْغِيدُ : بكسر الغين المعجمة جمع غيداء وهى المتثنية لِيناً ، والمصدر الغَيَدُ بالتحريك وهو النُّعومة ، وغَيِدَ كَفَرِح مالت عنقه ولانت أعطافه ، والغادة المرأة الناعمة اللَّيِّنَةُ ، والشجرة الغَضَّة المورقة .

مَحَقَ : مَحْقاً من باب منع فانمحق وتمحَّق وامتحق و ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ﴾[٤] أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ، والمحْقُ أيضاً النقصان حالاً بَعد حال ومنه المحاق فى الهلال و« الله تعالى أعلم » .

[لَوْ لَمْ يَكن بحُبِّ حِلْمِ أحْنَفِ والمِنْقَرى قَلْبِىَ ذَا تَعَلُّق]
[حَمَلْتُ رأسَكَ على شَبا القَنا مُرَوَّعــاً بِهِ حُدَاةَ الأيْنُــقِ]

---

(١) النجمُ الآية (٦)
(٢) النحل آية (٨٠)
(٣) الفلق آية (٣)
(٤) البقرة آية (٢٧٦)

الحُبُّ والمَحَبَّةُ : ميل النفس بفطرتها إلى ما تدرك حسنه أو إحسانه ، وضده الكراهة ، تقول أحببت فلانا فهو محبوب على غير قياس ، وقد يقال مُحَبٌّ بضم أوله وفتح ثانيه على القياس ، قال عنترة :

وَلَقَدْ نَزَلْتِ فلا تَظُنِّي غَيْرَهُ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ

والحِلْمُ : بالكسر : الأناةُ والصفحُ تقول منه حَلُمَ الرجل بالضم إذا صار حليما وتحلَّم : تكلف الحلم ، قال الشاعر :

تحلَّمْ عن الأدْنين واستبقْ وُدَّهُمْ ولن تستطيع الحِلْمَ حَتَّى تَحلَّما

وتحالَمَ الرَّجُلُ أرى من نفسه الحلم وليس به

شباةُ : شباة كل شيء حدُّه وطرفه ومنه شباةُ العقرب لإبرتها والجمع الشبَا ، الشبوة عَلَمٌ للعقرب .

والقَنَا : جمع قناةٍ وهى الرُّمْحُ وتُجْمَعُ أيضاً على قنوات وقُنِيّ كعُصِيٍّ على وزن فُعُولٍ .

والتَّرويعُ : الإفزاع يقال : رَوَّعْتُهُ فارتاع أي أَفْزَعْتُهُ فَفَزِعَ .

ذكر الأحنف والمنقرى وحلمهما

أمَّا المنقريُّ : فهو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن مُقاعس واسمه الجدث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمى ثم السعدى .

كان فارسًا شجاعًا مِغْواراً مُظَفَّراً فى غزواته ، أدرك الجاهلية والإسلام فساد فيهما .

وفد على النبى « صلى الله عليه وسلم » وصحبه وعُمِّر بعده زمانا وروى عنه عدة أحاديث ، وروى ابن عبد البر أنَّ النبى « صلى الله عليه وسلم » قال فيه : « هذا سيد أهل الوبر » .

وكان عاقلاً حليما مشهوراً بالحلم ، قيل للأحنف بن قيس ، ممن تعلمت الحِلْم ؟ قال من قيس بن عاصم المنقرى . وكان خاله .

قال رأيته يوماً قاعداً محتبياً بحمائل سيفه يحدث قومه حتى أوتي برجل مكتوف وآخر مقتول فقيل له هذا ابن أخيك قتل ابنك ، قال والله ماحل حبوته ولا قطع كلامه فلما أتمه التفت إلى ابن أخيه فقال له : ياابن أخى بئس مافعلت ، عصيت ربك وقطعت رَحِمَكَ وقتلت ابن عمك ورميت نفسك بسهمك ، ثم قال لابن له آخر : قُمْ يابنى فوارِ أخاك وحُلَّ كِتافَ ابن عمك وسق إلى أمك مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة .

نزل البصرة رضي الله عنه ومات بها ولم أر من أرَّخ لموته .

وأمّا الأحْنَفُ بنُ قَيْسٍ : فهو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين ابن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن مقاعس إلى آخر نسب قيس بن عاصم ، وهو الذى يضرب به المثل فى الحلم وإنما قيل له الأحنف لأنه كان أحنف الرجلين وهو أن تقبل إحدى الرجلين بإبهامها على الأخرى .

كان الأحنف بن قيس من سادة التابعين رضى الله عنهم ، أدرك النبى ﷺ ولم يجتمع به واستوطن البصرة بعد أن شهد فتوح المسلمين ووفد على عُمر « رضى الله عنه » بالمدينة فرفع منزلته ، وذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب بسنده إلى الأحنف بن قيس قال : بينما أطوف بالبيت فى زمان عثمان رضي الله عنه إذ جاء رجل من ليث فأخذ بيدي فقال ألا أبشرك ؟ فقلت : بلى . فقال هل تذكر إذ بعثنى رسول الله « صلى الله عليه وسلم » إلى قومك بني سعد فجعلت أعرضُ عليهم الإسلام وأدعوهم إليه فقلت أنت : إنه ليدعوهم إلى خير وماحَسَّنَ إلا حسنًا ، فبلَّغت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ : « اللهم اغفر للأحنف » فقال الأحنف وهذا أرجى عمل عندى .

وكان الأحنف سيد قومه موصوفاً بالعقل والدهاء والعلم والحِلْم .

روى عن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وروى عنه الحسن البصري وأهل البصرة ، وشهد صِفّين مع علي رضى الله عنه ولم يشهد وقعه الجمل .

قيل : وكان مُطَاعًا فى قومه بحيث إنه كان إذا غَضِبَ سَلَّتْ بنو تميم سيوفها قبل أن تعلم فيم — غضب ، توفي رضي الله عنه بالكوفة سنه تسع وستين من الهجرة وخرج مصعب بن الزبير فى جِنازته . رحمه الله .

[فَسُقْ فَلَا نَعِمَ عَوْفُكَ ولا أُمِنَ خَوْفُكَ وَلَا تَدْرَنْفقِ]

لا نَعِمَ عوفك : هوَ دعاء على الحادى وأصله المثل السائر وهو قولهم فى الدعاء للباني بأهله في تهنئته : نَعِمَ عَوْفُكُ فالعوف : البال والشأن وقيل العوف ذكر الرجل ، قال الراجز :

جارِيَةٌ ذات هَنيً كالنُّوف مُلَمْلَمٌ تستُره بِحَوْفِ
يشفى غليل العَزَب الْهِلَّوفِ ياليتنى أولجتُ فيه عَوْفي

والنوف : السَّنام ، والحوف : شئ يشبه الإزار ، والهلّوف : الجافى وفى المقامة التبريزية أن القاضى قال لأبى زيد : تبّاً لك أتبذز فى السّباخ وتفرخ حيث لا أفراخ ! اعزب عني لا نعم عوفك ولا أمن خوفك .

ادْرَنْفَقَ : الرجل إذا تقدم وأسرع أوهملج فهو مُدْرَنْفِق ، يقال مرَّ در نفقاً كسَفَرْجَل أى سريعاً .

[وَدَعْ يَسُوقُ بَعْضُهَا بَعْضاً فَقَدْ دَنَا وُلُوجُهَا بِوَغْرٍ ضَيِّقِ]

دَعْ : معناه أُترك . قال فى المصباح : ودَعْتُه أدَعُهُ وَدْعاً تركته ، وَأصل المضارع الكسر ومن ثم كُسرت الواو ثم فُتِحَ لمكان حرف الحلق ، قال بعض المتقدمين : وزعمت النُّحاة أن العرب أماتت ماضى يدع ومصدره واسم الفاعل ، وقد قرأ مجاهد وغيره قوله تعالى : ﴿ ما ودَّعَكَ رَبُّكَ ﴾[1] بفتح الدال المخففة ،

(١) الضحى الآية (٣)

وفي الحديث الصحيح [لينتَهِيَنَّ قَومٌ عن وَدْعهم الجمعات] الحديث ، فكيف يقال إذاً بإماتة الماضي والمصدر منها ؟؟ فلولا قيل : قليل ورودها بدل القول بالإماتة ؟! .

والبعض : شيء من شيء على التحقيق وهو يتناول ما فوق النصف .

وعن الكسائي وهشام أن بعض الشيء يطلق إلا على ما دون النصف . والبَعْضُ أيضاً عَضُّ البعوض ، يقال بَعَضَتْهُ البعوضَةُ بَعْضاً إذا عَضَّتْهُ ، وأصل البعض القطع ومنه اشْتُقَّ اسم البعض الذى هو الجزء .

والْوُلُوجُ : الدُّخولُ ، ولج الشيء في غيره يلج من باب وَعَدَ وُلُوجاً دخل فيه والوَعْرُ الصعب وزنًا ومعنىً . يقال ضاقَ الأمر ضَيْقاً كباع بيعاً والاسم الضيق بالكسر وقرئ ﴿ فى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[1] بالوجهين ، وضاق صدر فهو ضيق إذا أريد به الثبوت ، وضائق إذا أُريدَ به الحدوث وفى التنزيل ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾[2] .

[وَلْتَتَّخِذْنِي رَائِداً فَإِنَّنِي ذُو خُبْرَةٍ بِمُبْهَمَاتِ الطُّرُقِ]
[إنْ غَرِثَتْ عَلَّفْتُهَا وَلَرُبَمَا جَمَعْتُهُ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقِ]
[أَوْصَدِيَتْ أَوْرَدتُّهَا من أَدْمُعِي نَهْرَ الأُبُلَّةِ وَنَهْرَ جِلَّقِ]

الاتِّخاذُ : التناول والاقتناء ونحوهما وقد يرد للتصيير ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ﴾[3] أي تبنَّاه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ واتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[4] أي صَيَّرَهُ خَلِيلاً ، ومنه ما هنا ، وما تصرف منه فاؤه تاء أصله افتعال من تَخِذَ يَتْخَذُ كعَلِمَ يَعْلَمُ بمعنى أَخَذَ وقرئ قوله تعالى : ﴿ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾[5] بالوجهين أعني ثُلاثياً ومزيداً على الافتعال ثم أُدْغمت إحدى التائين في الأخرى ؛ قال ابن الأثير : وليس الاتخاذ من الأخذ فى شيء فإن الافتعال من الأخذ ائتخذ لأن فاءه همزة

---

(1) النحل الآية (١٢٧)
(2) هود الآية (١٢)
(3) البقرة (١١٦)
(4) النساء (١٢٥)
(5) الكهف (٧٧)

والهمزة لا تدغم فى التاء خلافاً لقول الجوهري : الاتخاذ افتعال من الأخذ إلا أنه أدغم بعد تلـيين الهمزة وإبدال الفاء تاء ثم لما كثر استعماله بلفظ الإفتعال توهموا أصاله التاء فبنوا منه فَعِلَ يَفْعَلِ وأهلُ العربية على خلافه .

والرائد : المرسل فى طلب الكلأ يقال راد فلان الكلأ يُرودُه روداً ورياداً وإرتاده ارتياداً طلبه ، وفي الحديث : « **لا يكذب الرائد أهله** » أصل الحديث « **إن الرائد لا يكذب أهله** » أي أنه وإن كان كاذباً فينبغى له أن لا يكذبهم فإنه ربما أهلكهم .

يحكى أن أحمد بن عمار بن شاذى البصرى كان وزيراً للمعتصم فورد على المعتصم كتاب فيه لفظ الكلأ فقال المعتصم للوزير ما الكلأ ؟ قال لا أعلمه وكان قليل المعرفة بالأدب فقال المعتصم : خليفة أُمي ووزيرٌ عاميّ ثم قال : انظروا من بالباب من الكُتَّاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه عليه فقال له ما الكلأ ؟ قال العُشْبُ على الإطلاق فإن كان رطباً فهو الْكَلأ فإذا يبس فهو الحشيش،وشرع فى تقسيم أول النبات فعلم المعتصم فضله فاستوزره .

والخُبْرُ والخِبرةُ العلم وأصله الامتحان ثَم أُطلِق على العلم لكونه ناشئاً عنه يقال خبرت الشئ أخبره خبراً إذا بلوته كاختبرته ، والاسم الخبرة بالكسر ومبهمات الطرق مغلقاتها ، من قولك : أبهمتُ الباب إذا أغلقته ، والخبر إذا كتمته واستبهم الأمر اشتبه ، والكلام استعجم فلم يفهم .

والطرق جمع طريق وهى معروفة وتذكر فى لغة نجد وتؤنث فى لغة الحجاز ومن التذكير قوله تعالى : ﴿ **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحرِ يَبَساً** ﴾[1] .

والغَرَثُ بالتحريك : الجوع وقد غرث بالكسر يَغْرَثُ فهو غَرْثان وامرأة غَرْثى قال حسان ــ رضى الله عنه ــ :

وتصبح غَرْثى من لحوم الغوافل

---

(١) طه الآية (٧٧)

وامرأة غرثى الوشاح : دقيقة الخَصْر لا يملأ وشاحها فكأنه غرثان ، والوَرِقُ بكسر الراء وتسكن تخفيفاً الفضة النقرة المضروبة .

والصَّدى : بفتح الصاد مقصوراً العطش وقد صَدِيَ يَصْدى صَدىً من باب فرح فهو صادٍ وامرأة صَدْيا وقوم صِدَاءٌ مثل عطاش وزناً ومعنىً ، والإيراد : ضد الإصدار وهو إدناء الإبِل من الماء .

والوِرْد : ضد الصَّدَر وهو مشارفة الماء والوصول إليه، دخلوا ولم يدخله وجِلّقَ والأبلّة : موضعان .

ـ ذكـــر جِلّـقَ ـ

أما جِلّقُ فهي دِمِشْقُ . (قلت) وقد ذكر العلامة المؤرخ الشيخ أحمد البدوى المجلسي ثم الشنقيطي فى عمود النسب أن دمشق بن نمروذ بناها لنبي اللهِ إبراهيم الخليل واشتق اسمها من اسْمِهِ ، وقال :

بدينـــه الخليـــلُ فرَّ بعدمـــا ... من نار نمروذ نجا وأشأما
ومعه خرج لوط ابن أخيهْ ... وابنـة نمروذ وصِنوها النبيـهْ
بانـي دمشق للخليـــل وبِـــهْ ... دمشق تعـرف لدي المنتبـــهْ

وفى بعض الروايات : جلق تُعرف لدى المنتبه :

وجِلّق بكسرتين هى دمشق وهي من أَجَلّ مدن الشام وأحسَنِها مكاناً وأعدَلها مُناخاً وأغزرِها مياهاً وأكثرها فواكه ، ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة وطولها مرحلتان فى عرض مرحلة ، ونهر دمشق الأعظم يسمى بَرَدَى ، وقد قال فيها بعضهم :

تَزيدُ على مَرِّ الزمان طَلاوةً ... دِمِشْقُ التي راقت بطيب المشاربِ
لها في أقاليم البـلاد مَشارِقٌ ... منزهـة أقمارهـا عن مغَـاربِ

وأمّا الْأُبلَّةُ : فهي بضم الهمزة والباء وتشديد اللام وهي بلدة قديمة على أربعة فراسخ من البصرة وهى اليوم فى عِدادِها وهي من جِنانِ الدنيا وإحدى المنتزهات الأربع .

يحكى أن بكر بن النظام مدح أبا دلف العجْلي ببيتين وهما :

يا طالباً للكيمياء وعِلْمِها مدحُ ابن عيسى الكيمياء الأَعْظَمُ
لَوْ لم يَكُنْ فى الأرض إلا درهم ومَدَحْتَهُ لأتاكَ ذاك الدِّرْهَمُ

فأعطاه بهما عشرة آلاف درهم فأغفله قليلاً ثم دخل عليه وقد اشترى بتلك الدراهم قرية فى نهر الْأُبُلَّةِ فأنشده :

بك ابتعتُ فى نهر الْأُبُلَّةِ قَرْيَةً عليها بناء بالرخام مَشِيدُ
إلى جنبها أختٌ لها يعرضونها وعندك مال للهبات عتيدُ

فقال له أبو دلف : كم ثمنها ؟ قال عشرة آلاف درهم ، فدفعها إليه وقال له تعلم أن نهر الأبلة عظيم وفيه قرى كثيرة وكل أخت إلى جانبها أختها وإن فتحت هذا الباب اتسع عليَّ الخَرْقُ فاقنع بهذه ونصطلح . فدعا له وانصرف .

وفى نهر الأبلة يقول ابن أبى عيينة :

وإذا نَظَرْتَ إلى الأُبُلَّةِ خِلْتَها من جنة الفِرْدَوْسِ حين تَجَمَّلُ
كم منزلٍ فى نهرها آلى السرو رُ بأنه فى غيرها لا يَنْزِلُ
وكأنما تلك القصور عرائسٌ والرَّوْضُ حَلْيٌ فهى فيه تَرَفَّلُ
غَنَّت قِيانُ الوُرْقِ فى أرجائها هَزَجًا يَخِفُّ له الثقيل الأولُ
وتعانقت تلك الغصونُ فأَذْكَرَتْ يومَ الوداع وعِيرُهُمْ ترحَّلُ
رَبَعَ الربيعُ بها فحاكت كَفُّهُ حُلَلاً بها عُقَدُ الهموم تُحَلَّلُ
فَمُدَبَّجٌ وموشَّعٌ ومُسَمَّطٌ ومُطَرَّزٌ ومُحَبَّرٌ ومُهَلْهَلُ
فتخال ذا عيناً وذا ثَغْراً وذا خَدّاً يُعَضَّضُ مرةً ويُقَبَّلُ

[رِفْقاً بها شـفيعُها هَوَادِجٌ غَدَتْ سَمَاءَ كل بَدْرٍ مُشْرِقِ]

[مِنْ كُلِّ غَيْداءَ عَرُوبٍ بَضَّةٍ رَعْبُوبَةٍ عَيْطَاءَ ذاتِ رَوْنَقِ]

[خريَـــدةٍ مَمْسُودةٍ رَقْراقَـــةٍ وَهْنانَـــةٍ بَهْنَانَـــةِ المُعْتَنَـــقِ]

والغيداء : المتثنية لِينًا وقد تقدم الكلام عليها .

والعَرُوبُ من النساءِ المتحببة إلى زوجها الحسنة التَّبعُّل والجمع عُرُبٌ بضمتين وقد تُسَكَّن الراء تخفيفًا ، وقد قرئ قوله تعالى : ﴿ عُرُباً أتراباً ﴾ بالوجهين .

والبَضَّة من النساء : الرَّخْصَةُ البدن الرقيقة الجلد الممتلئة والذَّكَرُ بضٌّ ، قال الأصمعي البَضُّ: الرَّخْصُ الجَسَدِ وليس من البياض خاصة ولكن من الرخوصة أي النعومة : والرعبوبة : هى البيضاء الناعمة ؛ والعيطاء : طويلة العُنُقِ والعَيَطُ بالتحريك طول العُنُق والذكر أعْيط .

والرَّوْنَقُ : الحُسْن ، ورونق السيف : ماؤه وحسنه ، ومنه رونق الضحى وغيره .

والخريدة : البكر التى لم تُمَسُّ وكل عذراء خريدة ، وقيل الخريدة الخفرة الطويلةُ السكوتِ الخافضةُ الصوتِ والمستترة ، والجمع : خَرائد وخُرُد .

ذكر المبرد فى الكامل أن أعرابياً جافياً عَلِقَ قَيْنَةً حضرته فكلمها يوماً على ظهر الطريق فلم تكلمه فظن ذلك حياءً منها ، فقال لها يا خريدة كنت أحسبك عروباً ما بالنا نَمِقُكِ وَتَشْنئينا ، فقالت يا ابن الخبيثة تُجَمِّشُنِي بالهمز ؟!

والتجميش هو المغازلة والملاعبة .

والمَمْسُودةُ : المجدولة القَدِّ الممشوقته .

والرَّقراقة : التى كأن الماء يجري فى وجهها حُسْناً ، ورَقْراقُ السَّرابِ : ماتلألأ منه ؛ والوهنانة : التي فيها فتورٌ عند القيام وأناةٌ .

والبهنانة : الطيبةُ النفسِ والريح واللينة فى عملها ومنطقها .

والمُعْتَنَق : موضع الاعتناق وهو الصدر والنَّحْر .

[وَقُلْ لِرَبَّاتِ الْهَوَادِجِ انجليـ ـنَ آمنَاتِ فَزَعٍ وفَـرَقِ]
[فإنَّنِي أشْجَعُ مِن ربَيعَـةٍ حَامِي الظَّعِينَةِ لدي وقت اللَّقى]

الرَّبُّ : بالألف واللام لا يجوز إطلاقه إلا على الله تعالىَ ، وإذا أُضيفَ جاز إطلاقه على غيره . وربُّ كُل شيء مالكه أو مستحقه أو صاحبه ، فربات الهوادج صواحباتها ، قال حسان ـــ رضي الله عنه ـــ :

حَيٌّ النَّضِيرةَ ربَّة الخِـدْرِ أسْرَتْ إليك ولم تكن تسْرى

والانجلاءُ والتجلي : الانكشاف والظهور يقال جلوته فانجلى وجلَّيته فتجلَّى ، والثاني فيه معنى المبالغة ، وتجالينا : انكشف حال كل منا لصاحبه .

والأمن : ضدُّ الخوف والأصلُ فيه أن يُستعمل فى سكون القلب فيتعدَّى بنفسه كما هنا وفى التنزيل ﴿ **أفأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلَّا القَوْمُ الخاسِرونَ** ﴾[1] فإذا عُدِّيَ بالحرف كقولهم أمِن زيدُ مِنَ الأسدِ فمعناه سلم منه .

والفَزَعُ والفَرَقُ : كلاهما بمعنى الخوف .

والشَّجَاعَةُ : شدَّة القلب عند البأس ، وقد شجُع الرجل بالضم فهو شجاع وقوم شِجْعَةٌ وشِجعانٌ ونظيره غُلَامٌ وغِلمةٌ وغِلْمانٌ ورجل شَجِيع وقوم شِجْعَانٌ مثل جريب وجِرْبَانٌ ، وشُجَعَاءُ مثل فقيه وفُقَهَاءُ وامرأة شُجاعَة .

وربيعة رجل يأتي ذِكْرُه بإذن الله ، وحامي الظعينة لقب له ، وفى المثل [أحمى من مُجيرِ الظُّعْن] يراد به هذا الرجل .

ـــ ذكر ربيعة بن مُكَدَّمٍ حامي الظعينة ـــ

هو ربيعة بن مكدَّم بن عامر بن حرثان بن خزيمة بن علقمة وهو جزل الطعان بن فراس بن غُنْم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة الكناني ثم الفراسي .

---

(١) الأعراف (٩٩)

كان أحد فرسان مُضَر المعدودين وشجعانهم المشهورين ، مات يوم الكديد قتله نبيشة أو كان السبب فى موته .

وكان من خبره فى حماية الظعن ما ذكره المسعودي والأصبهاني قالا :

وفد عمرو بن مَعْدِيكَرِب الزبيدى على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ففاوضه فى قبائل اليمن وغَنَائِها فى الشدة ومآثرها فى الرخاء ، وكان مما جرى فى حديثهما أن سأله أمير المؤمنين : هل كععت يا أباثور عن فارس لقيته قط ؟ قال نعم ! والله ما كنت لأستحل الكذب في الجاهلية فكيف أستحله في الإسلام ؟ لقد قلت يوماً لخيلي خيل زبيد هل لكم فى الغارة ؟ قالوا على مَنْ ؟ قلت على بني البكاء ، قالوا : مغار بعيد على شدة كَلَبٍ وقلة سَلَب ، فقلت على هذا الحي من كنانة فقد بلغنا أن رجالهم خلوف . قال فسرنا على قوم سراة ، فقال عمر وما علمك ؟ قال : رأيت مزاود خيل وقدورًا مبتناة وقبابًا حمراً من أدَم ونَعَماً كثيراً وشاءً فعلمتُ أن القوم سراة ، قال فأهويت إلى أعظمها قبة بعد ما حوينا السبي والمال وكان منتبذاً عن البيوت ، فلما انتهيت إلى القبة كشفتها فإذا جارية مثل المهاة فلما نظرت إليَّ وإلى الخيل تجول فى المُراح أهوت إلى دِرْعها فشقته وقالت واثكلياه فقلت ومالك ؟ فقالت والله ما على نفسي أبكى وإنما أبكي على أتراب لي ألفتهن وألفنني أُسْبَى من بينهن وهاهن بالوادي ، وأشارت إلى وادٍ هناك — وكان ذلك مكيدة منها — فقلت هذه غنيمة من وراء غنيمة وركضت فرسي حتى أوفيتُ على النقا فإذا رجل جلد أصهبُ أهلبُ يخصف نعله وإلى جانبه فرسه وسلاحه ، فلما رأيته علمت أن الجارية كادتني بذلك ، ولما نظر إليَّ رمى بالنعل من يده ثم استوى على فرسه وأخذ رمحه ومضى نحو الحي لا يحفل بشيءٍ فتقدمت إليه وطفقتُ أشجره بالرمح خفقاً وأقول : يا هذا استأسر ، فمضى غير مُكْتَرِثٍ حتى أشرف على الحي فإذا الخيل جائلة فى أكنافه فعطف عليَّ وهو يقول :

قَدْ عَلِمتْ إذْ أَلْثَمَتْنِي فاها وأَلْبَسَتْنِـي بُكْـرَةً رِداهـا

أني سأخْوي اليوم من حَواها ياليتَ شِعْري ما الذى دَهاها

قال فتلقيته وأنا أقول :

عمرو على بعد المَدَىٰ دهاها جَابَ المفاوِزَ وقد فلاهـا
بالخيل يُزْجيها على وجاهـا حتى إذا حلَّ بها احتواها

ثم حملت عليه وحمل علي فاشتبكنا فكنت أضربه أحذر من غراب ويضربني أثقف من سِنَّوْرٍ فوقع سيفه فى قربوس سرجى فقطعه وما تحته حتى هجم على مسح الفرس ثم ثنى بضربة أُخرى فأخطأني وقد رُغْتُ لها راجلاً ، فقلت ويحك من أنت ؟ فو الله ما ظننت رجلاً من العرب يجترىء عليَّ قط إلا ثلاثة الحارث بن ظالم للسن والتجربة ، وعامر بن الطفيل للعجب والخيلاء وربيعة بن مكدم للحداثة والبأس فمن أنت ثكلتك أُمك ؟ قال وأنت من ثكلتك أُمك ؟ قلت أنا عمرو بن معديكرب فقال وأنا ربيعة بن مكدَّم ، فقلت يا هذا إنى قد صرت راجلاً فاختر مني إحدى ثلاث : إن شئت اجتلدنا بسيفينا حتى يموت الأعجل منا وإن شئت اصطرعنا فأي منا صرع صاحبه حكم فيه ، وإن شئت فالسلم وأنت يا ابن أخى حدث وبقومك إليك حاجة ، قال ذلك إليك فاختر لنفسك ، فاخترت السلم وأخذت بيده حتى أتيت به أصحابي وقد حازوا النَّعمَ والسبي ، فقلت هل تعلمون أنى كععت عن فارس قط ؟ قالوا نعيذك بالله من ذلك ، فقلت فانظروا هذا النعم الذى حزتموه فخذوه منى غداً فى زبيد فإنه لهذا الفتى والله لا يوصل إليه بمكروه وأناحي ، فقالوا لحاك الله من فارس قوم : أَنْسَأْتنا حتى إذا هجمنا على الغنيمة الباردة دافعتنا عنها فقلت لابد أن تهبوها ربيعة بن مكدَّم وما أسميه إلا ليعرفه القوم ، فقالوا وإنه لهو ؟ قلت : نعم ، فردوا جميع ما بأيديهم وسالمته فأمن حربي وأمنت حربه حتى هلك .

وفى المسعودي رواية تخالف هذه « والله أعلم » .

وأما خبر حمايته لظعينته فكان أن دريد بن الصِّمَّة الجشمى كان فى فوارس من قومه بنى جشم بن بكر بن معاوية حتى إذا كانوا بواد لكنانة يقال له الأخرم ،

وهو يريد الغارة على كنانة رفع له من ناحية الوادى رجل معه ظعينة فقال لفارس من قومه دونكه فصاح الرجل به أن خل عن الظعينة وانج بنفسك ، فألقى زمام الراحلة إلى صاحبتها وقال لها :

سِيري على رِسْلِكِ سَيْرَ الآمنِ   سَيْر رَداحٍ ذاتِ جَأْشٍ ساكنِ
إنَّ انثنائٍي دون قِرْني شائني   وَابْلي بلائي واخبرى وعاينـي

ثم حمل على الفارس فطعنه فصرعه وأخذ فرسه فأعطاه الظعينة .

فبعث دريد ثانياً لينظر ما صنع صاحبه فرآه صريعاً فصاح به فتصام عنه فظن أنه لم يسمعه فغشيه فألقي الزمام إلى الظعينة ثم حمل على الفارس فصرعه وهو يقول :

خلِّ سبيـــل الحرة المنيعـــة   إنك لاقٍ دونها ربيعـــة
بيـــده خطيـــةٌ منيعـــة   أو لا فخذها طعنة سريعة
والطعن منى فى الوغى شريعة

فلما أبطأ الأمر على دريد أرسل ثالثاً لينظر ما صنعا فانتهى إليهما فرآهما صريعين ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له خل الظعينة وانج بنفسك فقال لها ربيعة اقصدي قصد البيوت ثم أقبل على الفارس وهو يقول :

ماذا تريـد من شيتم عابسْ   ألم تر الفارس بعد الفارسْ
أرداهما عامـــل رمح يابس   مَن يَدْنُ مني للحياة يائسْ

ثم طعنه فصرعه وانكسر رمحه ، ثم إن دريداً ارتاب فى أمر الفوارس وظن أنهم قتلوا الفارس وأخذوا الظعينة فلحق بهم بنفسه فوجد أن قومه قتلوا ووجد ربيعة لا رمح معه وقد دنا من حيه فقال له أيها الفارس إنَّ مثلك لا يقتل وقد تركت الخيل جائلةً بأهلها ولا أرى معك رمحاً وأراك حديث السن فدونك هذا الرمح فإنى راجع إلى أصحابى فمثبطهم عنك فأتى دريد قومه وقال إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم وانتزع رمحى ولا مطمع لكم فيه ، فانصرف

القوم وقال دريد في ذلك :

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... حامي الظعينة فارساً لم يُقْتَلِ

أردى فوارس لم يكونوا نهزه ... ثم استمر كأنه لم يفعل

متهللاً تبدو أسِرَّةُ وجهه ... مثل الحسام جلته كَفُّ الصَّيقل

يُزْجِي ظعينته ويَسْحَبُ رُمْحه ... مُتَوَجِّهاً بمناه نحو المَنْزِلِ

وترى الفوارسَ من مخافةِ رمحه ... مثلَ البغاث خَشِين وَقْعَ الأَجْدَلِ

ياليتَ شِعْرى من أبوه وأمه ... يا صاح من يك مثله لم يجهلِ

ويحكي أن بني مالك بن كنانة غزوا بني جشم فقتلوا وأسروا وغنموا وكان دريد بن الصِّمَّة من بين الأسرى وذلك بعد موت ربيعة بن مكدَّم ، فأخفى دريد نفسه فبينما هو عندهم إذ جاء نسوة منهم يتهادين نحوه فصرخت امرأة من بينهن وألقت عليه ثوبها وقالت هذا والله الذى أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة وقالت يا آل فراس إني له جارة وهذا والله صاحبنا يوم الوادي ، فسألوه من هو ؟ قال أنا دريد بن الصِّمَّة مَن صاحبي ؟ قالوا ربيعة بن مكدم قال وماذا فعل ؟ قالوا قتلته سليم ، قال فما فعلت الظعينة قالت المرأة أنا هى امرأته ريطة بنت جزل الطعان ، فقال بعض القوم والله لا يخرج من أيدينا إلا برضى المخارق الذى أسره ، فلما أمست المرأة رفعت صوتها قائلة :

سَنَجْزِي دُرَيْداً عن ربيعةَ نعمةً ... وكلُّ امرىءٍ يُجْزى بما كان قَدَّما

سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة ... بإعطائه الرمحَ الطويلَ المقوَّما

فذا أدركت كفاه فينا جزاءه ... وأهلٌ لأن يجزى الذى كان أنعما

فلا تكفروه حق نعماه فيكمُ ... ولا تركبوا تلك التى تملأُ الفَمَا

فلو كان حيا لم يضق بثوابه ... ذِراعاً غنياً كان أو كان مُعْدِما

ففكوا دُرَيْداً من إسار مخارق ... ولا تجعلوا البُؤْسى إلى الشر سُلَّما

فأطلقوه عند ذلك وكسته ريطة وجهزته فلحق بقومه ولم يزل كافًّا عن حرب بني فراس حتى هلك .

[فَرُبَّما يَبْدُو إِذَا بَرَزْنَ لِي ريمٌ إِلَيْهِ طَارَ بي تَشَوُّقِي]
[لُبْنَى وَمَا أَدْرَاكَ ما لُبْنَي بها عُرِفْتُ صَبًّا مُغْرَمًا ذَا قَلَقِ]

الرئمُ : الظبيُ والجمع أرآم وآرام ، قال الأصمعى الآرام الظباء الخالصة البياض وهى تسكن الرمل .

ولُبْنَى : علم امرأةٍ ، واللبنى فى الأصل شجرة تنضح لبناً طيب الرائحة فيسيل منها كالعسل فينعقد على أعوادها فيؤخذ فيتبخر به ، فنقلته العرب إلى علم تسمى به بعض نسائها كسائر الأعلام المنقولة .

والصَّبَابَةُ : رقة الشوق وحرارته ، يقال رجل صب أي عاشق مشتاق .

والمُغْرَمُ : أسيرُ الحُبِ المُولَعُ به من أغرم بالشيء إذا أُولِعَ به ، والغرام : الوُلوع والغرام الشرُّ الدائم والعذاب .

والْقَلقُ : المضطرب المنزعج وذلك شأن المحب وديدنه .

[تَسبِي بثَغْرٍ أشْنَبٍ ومَرْشِفٍ قَدْ ارْتَوَى مِنْ قَرْقَفٍ مُعَتَّقِ]
[وَنَاعِمٍ مُهَيْكَلٍ وَفاحِمٍ مُرَجَّلٍ وحَاجِبٍ مُرَقَّقِ]
[وَعَقِبٍ مُحَجَّلٍ وَمِعْصَمٍ مُسَوَّرٍ وَعُنُقٍ مُطَوَّقِ]
[وَمُقْلَةٍ تَرْمِى بِقَوْسٍ حَاجِبٍ لَاحِظَهَا بِسَهْمِهَا المُفَوَّقِ]

السَّبْيُ والسِّباءُ : الأسر ، وقد سبَيْتُ العدو سَبْياً وسَبَاءً إذا أسرتُه ، والمرأة تَسبي قَلب الرجل أي تأسِرُه وتأخذه بمجامعه .

والثَّغْرُ : المَبْسَمُ ، ثم أطلق على الثنايا ، قاله فى المصباح .

الأَشْنَبُ مِنَ الشَّنَب بالتحريك وهو ماء ودقّةٌ وبَردٌ وعُذُوبةٌ فى الأسنان ، والأنثى شنباء قال الراجز :

وابأبي أنت وفوك الأشنبُ كأنما ذُرَّ عليه الزَّرْنَبُ
أو زنجبيلٌ وهو عندي أطيبُ

وقيل الشنبُ حِدَّةُ الأسنان حين تطلع فيراد بذلك حداثتها وطراءتُها لأنها إذا أتت عليها السنون احتكت ، ولكن الأصمعي أبى عن ذلك وقال ما هو إلا بردها ، وأنشدوا على ذلك قول غيلان :

لمياء في شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفي اللِّثَاتِ وفي أنيابها شَنَبُ

قالوا لأن اللِّثَةَ لا تكون فيها حدّة .

ومَرْشِفٌ : بكسر الشين وبالفتح : الفمُ لأنه موضع الرشف وهو المصُّ وقد رشفه يرشفه كنصره وضربه ، وقيل الرشفُ هو أخذ الماءِ بالشَّفَتَيْنْ فهو لذلك فوق المص ، والرشُوف المرأة الطيبة الفم واليابسة الفَرْج .

والقَرْقَفُ كجعفر : الخمر سميت بذلك لأن الخمر ترعد صاحبها والقرقفة الرعدة خلافاً لأبي عبيدة قال وإنما هو اسم لها ، والأكثر فيها التأنيث .

ومُعَتَّق أي قديم والتعتيق ضد التجديد وعَتُقَ الشيءُ ككُرم ونصر ، عتاقة قَدُم فهو عتيقٌ وعاتقٌ ، والمعتَّقة الخمر التي تُرِكَتْ زماناً حتى عُتِّقت أى قدمت .
والنَّاعم صفة لمحذوف ، أى كفل أو بدن ناعم ، ونعومة البدن رخوصته ولينه ، ونَعُم البدنُ نعومةً لَانَ ملمسه .

والْهَيْكلُ : أى الضخم العَبْل ، وفى القاموس : الهيكل الضخم من كل شئ والفرس الطويل والنبات الطويل البالغ العبل والبناء المشرف والهيكلة : المرأة العظيمة .

والسِّوارُ ككتاب هو الدملج والجمع أسْوِرَةٌ كأرغفة وجمع الجمع أساورة ، وقرئ قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذهب** ﴾[1] بالوجهين .

والطوق : الحلي الذى يتخذ للعنق من قلادة ونحوها ، وكل ما استدار بشئ فهو طوق له ، « وشبَّ عمروٌ عن الطوق » مثل يضرب لمن لابس ما هو دون قدره ، وسيأتى بإذن الله وباق ألفاظ الأبيات معروفة لا إشكال فيها .

(١) الزخرف الآية (٥٣) .

[تَمْنَعُ مَسَّ ثَوْبِهَا لِجِسْمِهَا ثلاثَةٌ مِثْلَ الأَثَافِ فى الرُّقِي]
[حُقَّانِ مِنْ عاجٍ وقَعْبُ فِضَّةٍ مِنْ ظاهِرٍ وَبَاطِنٌ كالشَّفَقِ]

الأثافِي جمع أثفية كأوقية وهي الحجر الذى يوضع عليه القدر وجمعه أثافِيٌّ بالتشديد وأثافٍ بالتخفيف ، وقولهم رماه اللهِ بثالثة الأثافي يعنون الجبَلَ ثم هو كناية عن الداهية وذلك أنهم كانوا إذا لم يجدوا أثفية ثالثة أسندوا القدر إلى الجبل وعدلوها بالأثفيتين الحاضرتين .

والحُقُّ بضم الحاء وعاء معروف يصنع من الخشب تتخذه النساء للطيب ونحوه وقد جرت عادة العرب على تشبيه الثدي به ، قال ابن كلثوم :

وثدياً مِثْلَ حُقِّ العاج رخصاً حَصَاناً من أكُفِّ اللامسينا

والعاج قال فى المصباح : أنياب الفيل ولا يسمى غير الناب عاجاً . والعاج أيضاً ظهر السلحفاة البحرية .

والقَعْبُ القَدَحُ الضخم يكون من الخشب وجمعه أقْعُبٌ وقِعَابٌ .

[وزَادَ مِسْكُ الْخَالِ وَرْدَ خَدِّهَا حُسْناً وَقَدْ عَمَّ بِطيب عَبِقِ]
[وَقَبَّــلَتْ أقْدَامَهَـــــا ذَوَائِبٌ سُودٌ كَقَلْبِ الْعَاشِقِ الْمُحْتَرِقِ]

والْخَالُ : شامة فى البدن تخالف سائر لونه والجمع خيلان وأخيلة كأرْغفة ورجل أخيل كثير الخيلان وامرأة خيلاء كذلك .

والوَرْدُ : بالفتح مشموم معروف واحدته وردة ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** ﴾[1] .

والْخَدُّ : جمعه خدود معروف ، والمخدة بكسر الميم لأنها توضع تحت الخد .

وعَبَاقَةُ الطيب تضوعه وسطوع ريحه ، يقال عَبِق به الطيب عَبَقاً كفرح فرحاً : ظهرت ريحه بثوبه أو بدنهِ فهو عَبِقٌ ، قالوا : ولا يكون العبقُ إلا للرائحة الطيبة الذكية .

---

(١) الرحمٰن الآية (٣٧) .

وقَبَّلَتْ : التَقْبيل اللَّثْمُ والقُبْلة اسمٌ مِنْهُ .

والأَقْدَامُ : جمع قدم وهى من الإنسان معروفة وصغروها على قُدَيْمة ، يقولون : له فى العلم قَدَمٌ أي : سَبْقٌ وأصل القدم ما قدمته أمامك قدَّامك .

والذوائب : جمع ذؤابة وهى الضفيرة من الشعر إذا كانت مرسلة فإن كانت ملوية فهى عقيصة ، والذوائب من العز ، والشرف وكل شئ : أعلاه .

والعشق إفراط الحب ، وقيل إعجاب المُحِبِّ . بمحبوبته وقد يكون فى عفاف وقد يكون فى دعارة ، وقيل العشق عبارة عن عمى الحبيب عن إدراك عيوب المحبوب ، يقال عَشِقَهُ عِشْقاً كعلمه عِلماً بالكسر وعَشَقاً بالتحريك فهو عاشق وهى عاشقٌ وعاشقةٌ ، وتَعَشَّق تكلفه وكَسِكِّيتٍ كثيرة .

[كَمْ أَوْدَعَتْ فِى مُقْلَتِي من سَهَرٍ وأَضْرَمَتْ فى مُهْجَتى مِنْ حَرَقٍ]
[ولا يَزالُ فِى رياضِ حُسْنِهَا يَسْرَحُ فِكْرى ويَجُولُ رَمقى]

والإِيداعُ : أصله الترك ثم استعمل فى الاستحفاظ على وجه مخصوص ، يقال أودعت زيداً مالاً دفعته إليه ليكون محفوظاً عنده كاستودعته إياهُ ، وذلك المال وديعة وجمعه ودائع ، واشتقاقه من الدَّعةَ التى هى الراحة .

والسَّهَرُ الأَرق وهو عدم النوم بالليل كله أو بعضه وقد سهر يسهر من باب فرح ورجل سُهَرةٌ : كثير السهر وليل ساهر : ذو سهر .

والإضرام الإيقاد يقال ضرمت النار تضرم من باب فرح وتضَرَّمت واضطرمت التهبت ، وأضرمتها أوقدتها وضَرَّمْتُها بالتشديد للمبالغة ، والضِّرامُ ككتاب اشتعال النار فى الحَلْفاءِ ونحوها ، والضرام أيضاً قافُ الحطب الذى يسرع اشتعال النار فيه ، وضرم الرجل اشتد جوعه

والمُهْجَة ، دمُ القلبِ ، والروح ، يقال خرجت مهجته أى روحه

والرَّوْضَةُ : جمعه رياض ، الموضع المعجب بالزهور ومستنقع الماء ، وقيل

سميت بذلك لاستراضة السائلة إليها أي لسكونها بها ، واستراض اتسع وانبسط ومنه قولهم : النفوس مستريضة .

والْجوَلَانُ : قطع الأجوال جمع جول بالضم : الناحية فالأجوال إذاً النواحي وجال فى البلاد طاف فيها غير مستقر فهو جَوّال ، وأجال سيفه إذا لعب به وأداره على جوانبه .

والرَّمَقُ : بقية الروح وقد يطلق على القوة ومن ذلك الاستعمال قولهم : ويأكل المضطر من الميتة مايسد به رمقَه أي مايمسك به قوته ويحفظها به « والله أعلم » .

[ولَا تَسَلْ عَمّا أَبُثُّ مِنْ جَوىً　　وَمَا تُرِيقُ مِنْ دُمُوعٍ حَدَقِي]
[يَوْمَ اشْتَكَى كُلٌّ بِمَا فِي قَلْبِهِ　　لِحِبِّهِ بِطَرْفِهِ بِمَـا لَقِــي]
[مَا عُذْرُ مَن يَشْكُو الجَوىَ لِمَنْ جَفا　　وَهْوَ لِدَمْعِ جَفْنِهِ لَمْ يُرِقِ]

بَثَّ الرجل الحديث إذا أذاعه ، والسرَّ أفشاهُ ، وبث السلطان الجُند فى النواحى فرقهم فيها ، وبَثَثْتُكَ سِرِّى أظهرته لك وأطلعتك عليه ؛

والْجَوَى : الحرقة وشدة الوجد مِن عِشق أو حزن ، تقول جَوِىَ الرجل بالكسر فهو جَوٍ مثل دوٍ ، ومنه قيل للماء المتغير المنتن جَوٍ ، قال عدى بن زيد

ثم كان المِزاجُ ماءَ سَحَاب　　لَا جَوٍ آجنٌ ولا مَطْـــرُوُق

والْحِبُّ : بالكسر المحبوب كالدِّفْنِ للمدفون والذِّبح للمذبوح ، فالحِبُّ والحبيبُ كالخدن والخدين وزنا ومعنىً والجمع أحباب كأخدان

والطَّرْف اسمٌ جامع للبصر لايثنى ولايجمع لأنه فى الأصل بصر

والجفاء بالمد ضد الصِّلة ، وهو إعراضُك عن الشخصِ ، مأخوذ من جفاء السيل وهوماينفيه السيل ، وقد يكون مع بُغْض .

وجَفْنُ العين غطاؤها من أعلاها وأسفلها ، وجمعه أجفان ، وهو مذكر ، وجفن السيف غلافه .

[آهٍ عَلى ذِكْرِ لَيَالٍ سَلَفَتْ لِيَ مَعَهَا كالْبـارِقِ الْمُؤْتَلِقِ]
[فِى مَعْهَدٍ كُنَّا بِهِ كَنَخْلَتَىْ حُلْوَانَ فِي وَصْلٍ بلاتَفـرُّقِ]

آهٍ : بالمد وكسر الهاء لالتقاء الساكنين ، كلمة تقال عند التوجع وقد تقال عند الإشفاق ، وتأوّه الرجل تأوُّهاً إذا قال آهِ ، والاسم الآهة كالعاهة .

قال المثقب العبدى :

إذا قُمْتُ أُرحلهـا بليـلٍ تأوَّه آهَةَ الرجـلِ الحزيـنِ

والبارق المؤتَلقُ : سحاب ذو بروق تلمع ، يقال ائتلق البرق يأتلق ائتلاقاً وتألّق تألُّقاً : لمع فهو مؤتلق ومُتَألِّق .

والمعهد : المنزل الذى لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه ، وعهدته بمكان كذا ألفيته به ، وعهدى به قريب أى لقائي به قريب ، ومنه قول أبى خراش الهذلى رضى الله عنه .

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

أى ليس الأمر كما عهدتِ ولكن جاء الإسلام فهدم ذلك .

وأما حُلْوَانُ : فهى مدينة من مدن العراق من سَواده وهى على نحو خمس مراحل من بغداد على جهة الشروق ، قيل بَانيها حلوان بن عمر القضاعي والد خندف أم القبائل من مضر ، فسموها باسم بانيها المذكور .

ذِكْرُ نَخْلَتَيْ حُلْوَان

هما نخلتان كانتا بعقبة حُلوان يضرب المثل بهما فى طول الصحبة ، ويقال إنهما من غرس الأكاسرة ، وقد أكثر الشعراء من ذكرهما ، فقد قال فيهما مطيع ابن إياس .

أسعـدانى يانخلتـى حُلـوانِ وارثيا لى من ريب هذا الزمانِ

ولعمرى لو ذقتما أَلَمَ الفُرْ قَةِ أَبْكَاكما الذى أَبْكاني
أَسْعِدَاني وأَيْقِنا أن نَحْساً سوف يَلقاكما فتفترقانِ

ويحكى أنه لما خرج المهدى : إلى الرىّ أميراً عليها من قبل أبيه المنصور وصار بعقبة حُلوان استطاب الموضع فتغدى ودعا بجاريته حسنة فقال غَنّني أما ترين طيب هذا الموضع فأخذت محكة كانت فى يده وضربت بها على مِخَدَّةٍ وغنته :

أيا نخلتي وادى بوانة حبذا إذا نام حراسُ النخيل جَنَاكُمَا
فطيبكما أربىٰ على النخل بهجة وزاد على طول الفتاء فتاكما

فقال أحسنت ، ولقد هممت بقطع هاتين النخلتين يعنى نخلتي حلوان فمنعنى منهما هذا الصوت ، فقالت له حُسنة : أُعيذُك بالله أيها الأمير أن تكون النحس المفرق بينهما ، فقال لها وماذاك ؟ فأنشدته أبيات مطيع المتقدمة حتى انتهت إلى قوله .

أسعداني وأيقنا أن نحساً سوف يلقاكما فتفترقان

فقال : أحسنت والله فيما قلت إذ نبهتِنى على هذا ، والله لا أقطعهما أبداً ولأُوكِلَنَّ بهما من يحفظهما ويسقيهما ماحييت ، ثم أمر بأن يفعل فلم يزل الأمر فى حياته على مارسمه إلى أن مات .

ولما كانت خلافة الرشيد وخرج خروجه الأول إلى طوس هاج به الدم بحلوان فأشار عليه الطبيب بأكل الجمَّار فأحضر دهقان حُلوان وطلب منه جمَّارا فأعلمه أن بلده ليس بها نخل ولكن على العقبه نخلتان فأمر الرشيد بقطع إحداهما وأوتي بجمارها فأكل منها وراح فلما انتهى إلى العقبة نظر إلى إحدى النخلتين مقطوعة والأخرى قائمة وإذا القائمة مكتوب عليها

أسعدانى يانخلتَيْ حلوان ... إلى آخر الأبيات

فاغتم الرشيد وقال يعز على أن أكون قد نحستكما ولو كنت سمعت بهذا الشعر ماقطعت هذه النخلة ولو قتلنى الدم .

والشعر فى أخبارهما كثير و« الله أعلم » بصحة خبرهما لا يخفى عليه شيء سبحانه .

[نِلْنَا بِهِ مَانَشْتَهِى مِن لَذَّةٍ وَدَعَةٍ فى ظِلِّ عَيْشٍ دَغْفَقِ]
[أزْمَانَ كان السَّعْدُ لي مُسَاعِداً وَمُقْلَةُ الرَّقيبِ ذَاتُ بَخَقِ]
[وَالْيَوْمَ قَدْ صَارَ سَلَامُ عَزَّةٍ يُقْنِعُ مِنْ لُبْنَى إذَا لَمْ نَلْتَقِ]

النَّيْلُ : بُلوغُ المقصود ، يقال نَال فلان ماأراد ونال خيراً يناله نَيْلاً من باب فَرِحَ أصابه ويتعدى بالهمزة إلى اثنين ، يقال أنلته مطلوبه فناله .

والشَّهْوَةُ : اشتياق النفس إلى الشيء والجمع شهوات وقد شَهِيَه كَرَضِيَهُ وشهاه كدعاه وتَشَهَّاهُ واشتهاه أحبَّه ورغب فيه ، وشيء شَهِيّ مثل لذيذ وزنا ومعنى واللَّذَّة : نقيض الألم معروفة

والدَّعَةُ : بفتح الدَّالِ الراحة والسَّعَةُ فى العيش ، وقد ودع زيد ككرُم ونصَر ودَاعَةً بالفتح تهنَّأ وسكن فهو وَادعٌ ووَديعٌ ، ونال فلان المكارم وادعاً أى من غير كَلَفَةٍ .

والظل : يكون غدوة وعشية بخلاف الفيء فإنه لايكون إلا بعد الزوال .

وإنما سمى بعد الزوال فَيْئاً لأنه ظلٌّ فاء أى رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق وقيل فيه غير ذلك ، والظل أيضا العز والمنعة على الاستعارة ، وأنا فى ظل فلان أى فى كَنَفِهِ وأظل الأمر دنا ، وقولهم « تركهم ترك الظبى ظله » هو مثل يضرب للرجل النفور لأن الظبى إذا نفر عن شيءٍ لا يعود إليه أبداً .

وعَيْشٌ دَغْفَقٌ أي : واسعٌ وهو كجعفر ، وعام دَغْفَقٌ أي مخصب

والسَّعْدُ بمعنى السعادة ضد الشقاء ، وقد سعِد كعلم وعُنِي سَعْداً وسعادَةً فهو سعيد ومسعود وأسعده الله فهو مسعود ، ولا يقال مُسْعَدٌ ، وأسعده أعانه كساعده ، ولبيك وسَعْديك أي إسعاداً لك بعد إسعاد

والرقيب : الحارس والحافظ ، يقال رَقِبْتُه أَرْقُبُهُ من باب نصر فأنا رقيب

والبَخَقُ بفتحتين من بَخِقَ كفرح ونصر فهو باخق العين وبخيقها والعين البخقاء العوراء ، والبخق أقبح العور بحيث لايلتقي شعر عينيه على حدقته ويكون ذلك بفقئها وانخسافِها .

قُلْتُ : لم يتعرض فى الأصل لسلام عزة ، ولعله أراد به قول كثير يخاطب جمله :

حَيَّتْكَ عزةُ يوم البَيْنِ وانصرفتْ فَحيٍّ ويحك من حَيَّاكَ ياجملُ
ليتَ التحيةَ كانت لى فأرجعها مكان ياجمَلُ حُيِّيتَ يارَجُـلُ

والله أعلم بنسبتهما إلى كُثير .

وعلى فرض صحه ذلك ، يكون معنى البيت : وبعد أن كنا فى وصال دائم وعدم تفرق فى دعَة صرتُ يقنعنى من وصالها مااقتنع به كثير من وصل عزة حتى أنه رأى تحيتها لجمله شيئا كثيراً بحيث أنه تمنى لو كان المقصود مشافهة بالتحية .

[وَاللهِ لَوْحَـلَّتْ دِيَّـارَ قَوْمِهَـا واحْتَجَبَتْ عَنِّى بِبَابٍ مُغْلَقِ]
[لَزُرْتُهَا وَالَّيْلُ جَوْنٌ حَالِكٌ وَجَفْنُهَـا لَمْ يَكْتَحِـلْ بِأَرَقِ]
[مَعى ثَلاثَـةٌ تَقِـي صَاحِبَهَـا مَالَمْ تَكُنْ نُونُ الوِقَايَةِ تَقِي]

حَلَلْتُ البلد وبه حُلولاً من باب قَعَدَ : نزلت به والمحل بفتح الحاء موضع الحلول وفيه لغة بالكسر ، وأما قوله تعالى ﴿ **حتى يبلغ الهدى مَحِلَّهُ** ﴾[1] فليس من هذا الباب وإنما معناه حتى يبلغ الهدى المحل الذى يحل ذبحه فيه .

والقومُ : جماعة الرجال ولايطلق على النساء بدليل قوله تعالى ﴿ **لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً مِنْهُمْ ولا نساءُ من نساء** ﴾[2] الآية وقال الشاعر الجاهلى :

وما أدْرِي وسوف إخال أدْرى أقــومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ

---

(١) البقرة الآية (١٩٦) .
(٢) الحجرات الآية (١١) .

وإنما خص القوم بالذكر لأنهم هم القائمون بالأمر فيكون اشتقاقه كأنه من قام بالشيء إذا دَبَّرَهُ واعتنى بأمره ، وفى الآية ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ على النِّساءِ ﴾[1] .

قلت : وقد يطلق القوم على جميع الأمة الشامل للرجال والنساء وهي لغة القرآن فى قَصَصِهِ ، والله ولىُّ التوفيق .

والاحتجاب هو الاستتار ؛ وبابٌ مُغْلَقٌ مجعول عليه الغَلَقُ بالتحريك وهو ما يُسَدُّ به ، والباب مُغْلَقٌ كمُكْرم ، وغُلِّقَتِ الأَبْوابُ شُدَّ للكثرة ، وغَلَقْتهُ غلْقاً من باب ضرب لغة رديئة متروكة حكاها ابن دريد عن أبى زيد ، قال أبو الأسود الدؤلى فى ردها :

ولا أقول لقدر القوم قد غلِيَتْ ولا أقول لباب الدار مغْلُوق

والجَوْن : من الأضداد يطلق على الأسود والأبيض والمراد فى البيت الأول وجمعه جُونٌ بالضم : وحالك شديد السواد ، وقد حلك كفرح واحلولك اشتد سواده ويقال فى الألوان : أسود حالك ، وأحمر قانى ، وأصفر فاقع ، وأخضر ناضر ، وأبيض ناصع .

[سَيْفٌ كَصِمْصَامَةِ عَمْرو بَاتِرٌ لَايُتَّقَى بيَلبٍ ودَرَقِ]

الصمصامة فى اللغة السيف الصارم الذى لا ينثنى والمراد به هنا سيف معروف يأتى ذكره والبترُ : القطع أو مع استئصال ، وسيف باترو بتَّار « قاطع ، لا يتقى لا يتحفظ منه والْيَلَبُ : بالتحريك : الدروع اليمانية تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض والواحدة يلبة . قال ابن كلثوم :

علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليماني وأسْيافٌ يَقُمْنَ ويَنْحَنينا

ويقال اليلب : كل ماكان من جُنَنِ الجلود ولم يكن من الحديد ومنه قيل للدرق يَلَبٌ ، قال الشاعر :

(١) النساء الآية (٣٤) .

عَلَيْهِـمْ كُلُّ سابِغَـــةٍ دلاص وفي أَيْدِيهِــمُ اليَــلَبُ المدارُ

ذِكْرُ عمرو وصِمْصامَتُهُ

أما عمرو فهو أبو ثور عمرو بن معديكرب بن عبد الله بن عمرو بن عُصَمْ ابن عمرو بن زبيد الأصغر وهو منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن زُبيد الأكبر وهو الفارس المشهور والبطل المذكور صاحب الغارات والوقائع فى الجاهلية والإسلام .

قدم على رسول الله ﷺ فى وفد بنى زُبيد فأسلم وذلك فى سنة تِسع وقيل سنة عشر وَعُمِّرَ عُمْراً طويلاً وشهدا عامَّة الفتوح فى العراق مع أبى عبيد بن مسعود ثم مع سعد بن أبى وقاص زمن عمر رضي الله عنه ، وشهد القادسية مع سعدٍ وهو ابن مائة وعشر سنين وكان له فى ذلك اليوم اليد البيضاء والبلاء الحسن والذكر المشهور .
حمل على فيل الأعاجم وعليه رستم كبير جيش الفرس فجذم عرقوبيه وسقط الفيل إلى الأرض وقتل رستم وتمت الهزيمة وكان الفتح ، .

ويحكى أن سعد بن أبى وقاص كتب إلى عمر بن الخطاب يطلب مددا فكتب إليه أما بعد فقد أمددتك بألفي رجل عمرو بن معدِيكرب وطليحة بن خويلد الأسدي فشاورهما فى الحرب ولا تُوَلِّهما شيئاً .

ويحكى عنه أنه قال رضى الله عنه : لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ماخفت عليها مالم يلقنى حُرّاها أو عبداها ، فأما الحران : فعامر بن الطُّفَيْل وعُتَيْبَة بن الحرث بن شهاب وأما العبدان فأسود بنى عبس يعنِى عنترة بن شداد وسُليك بن السُّلكة وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسرِيع الطعن علىَّ الصوت وأما عتيبة بن الحرث فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا وَلَّتْ وأما عنترة فقليل النبوة شديد الكَلَب وأما سليك فبعيد الغارة كالليث الضاري .

والصحيح أنه رضى الله عنه مات فى آخر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ودفن بِرُوذَةَ بين قُمْ والرّى من عراق العجم على قارعة الطريق فقالت امرأته ترثيه .

لقد غادر الرَّكْبُ الذين تَحَمَّلُوا ... بُروذَة شَخصاً لا ضعيفا ولا غَمْرا
فقل لزُبيدٍ بل لمذحجَ كلها ... فَقَدْتُمْ أبا ثورٍ سنانكمُ عَمْرا
فإن تجزعوا لايغن ذلك عنكمُ ... ولكن سلوا الرحمنَ يُعْقِبُكمْ أجرا

وأمّا صمصامة عمرو بن معديكَرِب فهى أشهر سيوف العرب وبها مضرب المثل فى كرم الجوهر وحسن المنظر والمخبر والمَضَاءُ والتصميم ، وكان عمرو رضي الله عنه حسن الاستعمال له فى الجاهلية وفى الإسلام بل كان كثير الغناء به فى الإسلام وفيه يقول من شعر له رضي الله عنه :

سنانى أزرق لاعَيْبَ فيــه ... وصِمْصامي يُصمِّم فى العظام

وقد تمثل به نهشل بن جُرى الدارمى يرثى أخاهُ مالكاً وكان استُشْهِدَ يوم صِفِّينِ مع علي بن أبى طالب رضى الله عنه :

أَخٌ ماجدٌ لم يُخزِني يَوْمَ مَشْهَدٍ ... كما سيفُ عمرٍو لم تخنْهُ مضاربُهْ
أغرُّ كمصباح الدُّجُنَّةِ يَتَّقِي ... قِرىَ الزَّادِ حتَّى تُستفادَ أطايبه

وكان عمرو قد وهب الصمصامة لخالد بن سعيد بن العاص لما بعثه رسول الله « صلى الله عليه وسلم » عاملاً على اليمن وقال عمرو فى ذلك :

خَلِيلٌ لم أَخُنْهُ ولم يَخُنِّي ... إذا ما صابَ أَوْساط العِظامِ
حَبَوْتُ به كريماً من قريشٍ ... فَسُرَّ بِهِ وَصِينَ عن اللئامِ
وَوَدَّعْتُ الصَّفِيَّ صَفِيَّ نَفْسِي ... على الصَّمصام .أضعاف السلام

ثم صار بعد خالد إلى أخيه سعيد بن العاص ثم تداولته الأملاك بعده .

ويحكى أنه وصل إلى هارون الرشيد ، واتفق أن بعض ملوك الهند أهدى إليه هدايا وكان من بينها سيوف قلعية من أجود سيوفهم ، فلما حضرت الهدية بين

يديه دعا بالصمصامة وصف تلك السيوف وجعل يقطعها به كما يقطع الحديد الخشب والرسل ينظرون ويتعجبون من ذلك .

وآخر خبر عن الصمصامة أنه وصل إلى الخليفة المتوكل فدفعه إلى غلامه باغز التركى فكان من قدر الله أن قتله به ، وعند باغز انقطع خبره ، نقله فى الأصل عن الزيدونية والله أعلم .

[وبَيْنَ جَنْبيَّ فُؤادُ ابنِ أبى صُفْرةَ قاطِعٍ قَرا ابن الأزْرَقِ]

الجَنْبُ : شق الإنسان وغيره ولكل شخص جنبان وهو ماتحت الإبط إلى الكشح والجمع جُنُوبٌ مثل فلْس وفلوس ، وقوله تعالى ﴿ **والصَّاحِبِ بالجَنْبِ** ﴾[1] الصاحب فى السفر وقيل أعم منه ، وقوله تعالى ﴿ **والجارِ الجُنُبِ** ﴾[1] جارك من غير قومك

والْقَراَ : بالقصر الظهر : كالمطا وزنا ومعنىً . والله أعلم .

ذكر ابن أبى صفرة وابن الأزرق

أمّا ابن أبى صفرة فهو أبو سعيد المهلب بن أبى صفرة واسمه ظالم بن سرَّاق ابن صبح بن كندى بن عمرو بن عدي بن وائل بن الحرث بن العتيك بن الأزد الأصغر الأزدى ثم العتكى البصرى :

أمير مشهور الذكر شجاع ، نشأ بالبصرة فى دولة آل أبى سفيان ثم استعمله مصعب بن الزبير على البصرة نيابة عنه فى خلافة أخيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ثم ولاّهُ عبد الله خراسان وقتال الخوارج على ماسيأتى ، وهو أوّل من اتخذ الركب من الحديد وكانت قبل ذلك من الخشب . ومما كان شائعا بين الناس أن الأحنف ساد بحلمه ومالك بن مسمع بمحبة العشيرة وقتيبة بدهائه ، وساد المهلب بهذه الخلال كلها .

---

(١) النساء الآية (٣٦) .

وقال ابن عبد البر : المهلب بن أبي صفرة من التابعين روى عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب وعبد الله بن عمر وروى عنه أبو إسحاق الشعبى وَسِماكُ بن حرب وغيرهما وله رواية عن النبى ﷺ مرسلة وهو ثقة ليس به بأس ، ومن عابه بالكذب فلا وجه له لأن صاحب الحرب يحتاج إلى المعاريض والحيلة ومن لم يعرفها عدها كذبًا .

كان شجاعا ذا رأي فى الحروب خطيبًا ، وهو الذى حمى البصرة من الأزارقة بعد أن جلا عنها أكثر أهلها إلا من لم تكن له قوة على النهوض حتى قيل بصرة المهلب .

وأما ابن الأزرق فهو نافع بن عبد الله الأزرق بن قيس الحنفى رأس الخوارج وإليه تنسب الأزارقة منهم لقولهم بمذهبه .

قال المبرد : كان نافع هذا شجاعاً مُقَدّماً في فقه الخوارج وله مع ابن عباس رضى الله عنه مسائل كثيرة يأتى ذكر جملة منها إن شاء الله .

وكان رأي نافع المذكور البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم وقتل الأطفاتل واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفاراً .

وفرقة الخوارج الثانية هم النجدات ويقال لهم النجدية نسبة إلى نجدة بن عامر الحنفى والفرقة الثالثة : الإباضية وهو أتباع عبد الله بن إباض التيمى .

وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم ومنهم البيهسية أصحاب بيهس هيصم بن جابر الضبعى .

والفرقة الرابعة الصفرية نسبة إلى عبد الله بن صفار التيمى وقيل إلى زيادة بن الأصفر وقيل نسبوا إلى صفرة ألوانهم لما أنهكهم من العبادة .

وكان من خبر ابن الأزرق المذكور وقتاله مع المسلمين أنه رجع من عند ابن الزّبير بمكة ولم يجد عنده مُراده ، ووقع الخلاف بينه وبين قومه ، أقام بشق

الأهواز وأعمالها لايتعرض الناس وقد كان متشككاً فى أمر التعرض للناس فقالت له امرأته يوما إن كنت قد كفرت بعد إيمانك وشككت فيه فدع نحلتك ودعوتك وإنْ كنت قد خرجت من الكفر إلى الإيمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم تعنى المسلمين المخالفين له وأثخن فى النساء والصبيان كما قال نوح عليه السلام ﴿ رب لاتذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّاراً ﴾[1] فقبل قولها واستعرض الناس وبسط سيفه فقتل الرجال والنساء والوِلْدان وجعل يقول إنَّ هؤلاء إذا كبروا كانوا مثل آبائهم ، وجعل يحتل البلدان بلداً بلداً ويجعل الخَراج ويجبى الجباية حتى عَظُمَ أمره واشتدت شوكته فارتاع لذلك أهل البصرة وشكوا أمرهم إلى الأحنف بن قيس فأشار إليهم أن خذوا فى جهاد عدوكم ، فجمعوا عشرة آلاف مقاتل فى السلاح وأمَّروا عليهم مسلم بن عُبيس ـــ بالعين المهملة والباء الموحدة بصيغة التصغير ـــ وكان فارسا شجاعاً دينا فخرج إليه ولقيه بموضع يقال له دولاب فخرج إليه نافع بن الأزرق وكان فى نحو الستمائة فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسَّرتِ الرماح وعُقِرَتِ الخيلُ وكثر القتلى وتقاتلوا بالسيوف والعُمُدْ حتى قتل ابن الأزرق وابن عُبيس معاً ، فعجب الناس من صبر الفريقين على القتال حتى مات أميراهما .

وكانت هذه الوقعة فى جمادى الأخيرة سنة خمس وستين من الهجرة .

ثم إن كل فرقة أمَّرت على نفسها أميراً بعد ماقُتِلَ أميرها وعاد القتال فانهزم أهلُ البصرة وتبعهم الخوارج فألْقَوا بأنفسهم فى دُجَيْلٍ فغرق منهم خلق كثير جُلُّهم من الأزد ، وفى ذلك يقول الخارجى :

ترى من جاء ينظر فى دُجَيْلٍ شيوخ الأزد طافية لِحَاهَا

وقلق أهل البصرة لذلك وداخلهم الرعب والفزع ، فبينما هم كذلك إذ ورد المهلب بن أبى صفرة متوجهًا إلى خُراسان واليًا عليها من قِبَلِ ابن الزبير ، فلما علم الأحنف بن قيس بقدومه البصرة قال لوجوه الناس : والله مالقتال الخوارج غير

---

(١) نوح الآية (٢٦) .

المهلب وحين كلموه فى ذلك أعلمهم بأن عهده إلى خُراسان بيده وما كان ليدع أمر أمير المؤمنين ، فتآمر أهل البصرة على افتعال كتاب من ابن الزبير يأمره بقتال الخوارج بموجبه فلما قرأه اشترط أن يُقْتَطَعَ له من بيت المال مايقوى به على القتال وأن ينتخب من فرسانهم من يشاء فأجابوه إلى طلبه وسار إلى الخوارج فكان أشد عليهم من كل من قاتلهم .

وبلغ ابن الزبير افتعال الكتاب فلم يقل شيئا وأقره على ذلك ، فصابر المهلب الأزارقة يباكرهم بالقتال ويراوحهم به حتى قتل ابن الزبير رضي الله عنهما واستولى عبد الملك بن مروان على العراق واجتمع أمرُ المسلمينَ عليه .

ثم إن عبد الملك بعث بالحجاج إلى العراق فشد عَضُدَ المهلب بما احتاج إليه من مال ورجال حتى بلغ من إبادة الأزارقة وتشريدهم مراده بعد إقامته فى قتالهم نحواً من عشرين سنة .

وللمهلب خبر محفوظ وحكم مشهورة فى الحرب .

يحكى أنه لما حضرته الوفاة وهو أمير خراسَان جمع بنيه وعشيرته وكانوا كلهم أبطالًا أنجاداً كراماً ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعةً ؟ قالوا : لا ، قال أفتُرونكم كاسريها مفترقة ؟ قالوا : نعمْ ، قال : هكذا الجماعة ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم .

وكانت وفاته « رحمه الله » سنة اثنتين وثمانين .

وقد عُلِمَ مما تقدم أن قول الناظم : قاطع قرا ابن الأزرق ، فيه تجوز لأن المهلب لم يكن قاتل نافع بن الأزرق لأن موته كان فى وقعة دولاب وتلك كانت بقيادة مسلم بن عُبيس وهى متقدمة على ولاية المهلب ، وإنما قاتل المهلب أتباعه وأهل شيعته ؛ ولما توفى المهلب رثاه نهار بن توسعة بقوله :

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ المقرَّبُ للغنى ... ومات النَّدى والجودُ بعد المهلبِ
أقاما بمرو الروذ لايبرحانها ... وقد فُقِدا من كل شَرْقٍ ومَغْرِبِ

قلت : وقد اتفق أهلُ التاريخ على كرم آل المهلب وشجاعتهم ، وسئل المهلب عن ولديه يزيد وحبيب أيهما أشجع ؟ فقال إن الوالد ربما سبق رأيه فى أحد ولديه فيتهم ولكن سلوا أبا نعامة قطرى بن الفجاءة فإنه قد مارسهما ، فلما اصطف الناس للقتال من الغد ، قالوا : ياأبا نعامة ! قال : أفرجوا له : ياهذا قد أنصتناك فقل ماشئت ، قالوا إنا سألنا الأمير عن ابنيه يزيد وحبيب أيهما أشجع فأحالنا إليك وقد مارستهما ؟ فقال على الخبير سقطتم : أما صاحب الكر والفر والإقدام والإحجام ومبارزة الكمى المدجج فالحرون يزيد ، وأما إذا اشتبكت ظلمات الليل وعلت أصوات الرجال وقرع الحديد بالحديد فالخيار حبيب ، فقالوا : قد زدنا إشكالاً .

يحكى فى كرم يزيد بن المهلب أنه فى فراره من بنى أمية بعد هزيمته أمام مسلمة بن عبد الملك ، استضاف أعرابية فأحسنت ضيافته فقال لابن معه وكان أودعه صرةً فيها عشرة آلاف درهم حملها معه للزاد ، فقال لابنه ادْفع لها الصرة التى معك ، فقال إنها لاتعرفنا وقد ترضى منا بأقل من هذا ، فقال يزيد : إن كانت لاتعرفنا فنحن نعرف مَنْ نحن وإن كانت ترضى منا بالقليل فنحن لانرضى به من أنفسنا .

ويحكى أيضاً : أن الحجاج أعطاه الوليد السلطة على محاسبة يزيد بن المهلب والى خُراسان فحكم عليه بالسجن مدة يعذب كل يوم منها حتى يفتدى بعشرة آلاف عن عذاب اليوم الواحد ، فلما نفد ماعنده صار الناس يتسابقون لدفع فدائه ، فاتفق أن الأخطل استأذن السجان فى زيارة يزيد فامتنع وقال : أن يعطيك فداء يومه فذاك مالا أرجوه أو يدخل عليه شاعر وليس عنده ما يُهْديه إليه فهو من أسباب تضايقه ، فلم يزل الأخطل يَفْتِلُ فى الغارب للسجان حتى أدخله عليه فأنشده :

أبا خالد بادَتْ خرُاسانُ بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
فما سُقِيَ المروان بعدك قطرة ولا اخضرَّ بالمروين بعدك عُودُ

ومالسرير بعد مُلْكِكَ بَهْجَةٌ ولا لجواد بعد جُودِكَ جُودُ

فأعطاه فداء يومه وقال : الله حسبنا من عذاب الحجاج ، فلما كان من الغد ولم يوجد عنده فداء وقُدِّمَ للعذاب ، ذكر السجان ماكان من خبر الفداء فقال الحجاج : ومازلت جوادا حتى فى هذه الحالة ؟ فقد وَهَبْتُكَ عذاب اليوم وبعده انتهى .

ويحكى أن : عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : ويلكم مالكم فى مدحنا تارة تشبهوننا بالأسد الضاري وتارة بالنهر الجارى ، فَهلا قلتم فينا ماقال فى آل المهلب شاعرهم :ـ

إن المكارم أرواح خُلقْنَ ، لها آل المهلب دُونَ النَّاس أجسادا

ومن أراد أن يتزيد من أخبار آل المهلب فليراجع شروح مقامات الحريري ومقصورة حازم .

[وفَـرَسٌ كلاحـقٍ ودَاحِسٍ يَوْمَ الرِّهَانِ شَأْوُهُ لم يُلْحَق]

والفرس معروف يطلق على الذكر والأنثى وراكبه فارس ويجمع على فوارس شذوذا لا يقاسُ عليه ، فإن مُذَكَّر مايَعْقِلُ لا يُجْمَعُ منه على فواعل إلا فوارس وهوالك ونواكس ، والفراسَةُ بالفتح والفُروسة بالضم والفُروسية بزيادة الياء الحذْق بركوب الخيل والحِذْق بأمرها . وفَرُسَ الرجل يَفْرُسُ ، قالوا : وليس كل من ركب الخيل له حكم الفروسية عند العرب ولكن الفارس عندهم من أحسن الجِلاد واشْتُهِرَ بالشجاعة كعمرو بن معدِيكرب وربيعة بن مكدَّم وعنترة بن شداد وملاعب الأسنة وأضرابهم .

الرِّهَانُ : بكسر الراء مصدرٌ من قولهم راهن يراهن رهاناً ومُراهنة إذا خاطر ويكون فى المسابقات على الخيل غالباً ، وقد يكون فى غيرها .

والشَّأْوُ : الغاية والأمد ، وعدا الفرس شأوا أى طَلَقاً ؛ والشَّأْوُ أيضاً : السَّبْقُ تقول شأوتُ القوم شَأْواً إذا سَبَقْتَهُم ، قال امرؤ القيس :

فألقَيْتُ فى فيه اللِّجامَ فبذَّني وقال صِحابي قد شَأَوْناكَ فاطْلُبِ

وتَشَاءىٰ مابينهما تباعد ، والله تعالى أعلم .

ذكر لاحق وداحس ومايتعلق بهما

لاحِقُ فرس لبنى غنيٍّ بن أعصر وهو الذى يعنيه النابغة بقوله

فيهم بنات العسجدي ولاحق   وُرْقاً مَراكِلُها مِن المضمار
يتحلب اليعضيد من أشداقها   صُغرا مناخرها من الجرجار

وأما داحِس فهو فرس كان لقيس بن زهير بن جذيمة العبسى يضرب به المثلُ فى الشؤم لما جرى بسببه من الفتن والحروب بين العرب

وكان من خبره أن أُمه كانت لقرواش بن عوف بن عاصم بن عبيد بن ثعلبة ابن يربوع ويقال لأمه جلوى وكان أبوه فرسا لحوط بن أبى جابر من بني يربوع يقال له ذو العُقَّال بضم العين وتشديد القاف ، وسمى داحِساً لأنَ بنى يربوع احتملوا يوما منتجعين وكان ذو العقال مع ابنتى حوط بن أبى جابر يجنبانه فَمَرَّتا به على جلوى فرس قرواش وهى يومئذ وديق ، والفرس الوديق هى المشتهية للفحل فانتشاها فصهل فأرسلتاه فنزا عليها فأعقَّت ، ثم أخذه لهما بعض رجال الحي فلحق بهما حوطٌ وكان رجلاًسيئى الخُلُقِ فلما نظر إلى عينى فرسه قال والله لقد نزا فرسى فأخبرانى ماشأنه ، فأخبرتاه الخبر فنادى يالرياح والله لا أرضى أبداً حتى آخذ ماء فرسى فقال له بنو ثعلبة والله مااستكرهنا فرسك وماكان إلا مُتَفَلِّتاً فلم يزل الشر بينهم حتى عظم فلما رأى ذلك بنو ثعلبة قالوا : دونكم ماءَ فرسكم فسطا عليها حوط وجعل يده فى ماء وتراب ثم أدخلها فى رحمها ودَحَسَ بها حتى ظن أنه قد فتح الرحم وأخرج الماء . وقد اشتملت الرَّحِمُ على مافيها فولدت الفرس بعد ذلك مُهْرا فسمى داحساً لذلك .

والدَّحَسُ إدخال اليد بين جلد الشاة ولحمها للسلخ ، وخرج كأنه أبوه ذو العُقَّال ، فلما تحرك المهر وسام مع أمه فى المرعى قال حوط هذا ابن فرسي وأخذه فقالت بنو ثعلبة يابنى رياح ألم تفعلوا كذا وكذا فى شأنه ثم هذا أيضاً ؟ فقالوا هو فرسُنا وأصروا على القتال دونه ، فقال بنو ثعلبة : لأنتم أعز علينا من أن نقاتلكم من أجله هو فداؤكم ودفعوه إليهم فلما رأىٰ ذلك بنو رياحٍ قالوا والله لقد ظلمنا

إخواننا مرتين ولقد حَلُمُوا وكرُمُوا فأرسلوا به إليهم مع لَقُوحين فمكث عند قرواش ماشاء الله فكان أجود خيول العرب .

ثم إن قيس بن زهير بن خذيمة أغار على بنى يربوع فلم يصب أحداً غير ابنتين لقرواش ومائة من الإبل له وصادف الحيَّ خلوفاً فلم يشهد من رجالهم غير غلامين من إزنم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع فركبا الفرس وهو مقيد بقيد حديد فأعجلهما القوم عن حل القيد فطفر الفرس بهما طفوراً حتى أنجاهما ، فلما رأى قيس ذلك رغب فى الفرس فقال لهما لكما حُكْمُكُمَا إن أنتما دفعتما لي الفرس فاستوثقا منه على أن يرد الجاريتين والإبل وما أخذ من قليل أو كثير ويأخذ الفرس ففعل .

فلما جاء قرواش قال أين فرسى ؟ فأخبراه فأبى إلا فرسه فعظم ذلك بينهم حتى تحاكموا فيه فَحكِمَ بينهم أن ترد الجاريتان والإبل إلى قيس بن زهير ويرد عليه الفرس فلما رأى ذلك قرواش رضي بعد كل جهد وانصرف قيس وقد صفي له داحس .

حَرْبُ دَاحِسٍ والْغَبْراء

كان قيس بن زهير حين صفي له داحس نازلاً على بني بدر من فزارة بن ذُبْيان بن بغيض بن ريث بن غَطَفَان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر ، وكانت لبني بدر خيل كريمة إلا أن خيل قيس بن زهير كانت أكرم منها وكان حذيفة بن بدر يَجِدُ في نفسه من ذلك إلى أن وقعت المراهنة بين آل قيس بن زهير وآل بدر ، فراهن قيس على داحس وراهن حذيفة على الغبراء ــ فرس له ــ وكان الرهان مائة من الإبل ، والغاية مائة غلوة والمضمار أربعين يوماً ثم أرسلاهما فى رأس الميدان فأكمن حَمَلُ بن بدر أخو حذيفة فتياناً من فزارة فى بعض الشِّعابِ التى كانت فى طريق الفرسين وقال إن جاء داحس سابقاً فردوه عن الغاية وإن جاءت الغبراء فلا تخرجوا من مَكْمَنِكم ، فلما نهضا برزت الأنثى على الفحل أولاً فقال

حَمَل بن بدر سبقتك ياقيس ، فقال قيس : رويدًا يعدوان الجدَدَ وترشح أعطاف الفحل ، فأُرْسِلَتْ مثلا .

فلما بلغا الجدَدَ وخرجا منه إلى الوعث بَرَّزَ داحس على الغبراء فقال قيس جري المذكيات غلابٌ فأرسلت مثلاً ، فلما شارف داحس الغاية ودنا منه الفتية وثبوا فى وجهه وردوه حتى برزت عليه الغبراء فَشَرِيَ الشَرُّبَيْنَ قيس بن زهير وبنى بدر بسبب ذلك وفيه يقول قيس بن زهير من قصيدة له :

وما لاقيت من حَمَل بن بدر وإخوتـــه على ذات الإصادِ
همُ فخروا على بغير فخـر وردُّوا دون غايتـــه جوادي

ثم إن حذيفة بن بدر أرسل ولده مالكاً إلى قيس بن زهير يطلب منه السَّبَق لزعمه أنه استحقه فغضب قيس وقتل مالك بن حذيفة بن بدر ورجعت فرسه عائرة إلى حذيفة ، فاجتمع الناس وحملوا ديته إلى حذيفة مائة ناقة عُشَراء وزعموا أن الربيع بن زياد هو الذى تحملها من ماله ، ثم إن حذيفة بعد أخذه دية ابنه بلغه أن مالك بن زهير نازل بموضع يعرف بالشَّرَبَّة وهو زوج أخت حذيفة أم قرفة التى يضرب بها المثل فى العز والمنعة فيقال أمْنعُ من أُم قرفة . فكان يُعَلَّقُ فى بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم محرم لها « والله أعلم » .

وقيل إن أم قرفة هذه كانت زوجاً لمالك بن حذيفة ، فلما علم حذيفة بمكان مالك بن قيس دس عليه من قتله ، وفى ذلك يقول عنترة :

فـلله عينا من رأى مثل مالك عَقِيرةَ قومٍ أنْ جَرَى فَرَسانِ
فليتهما لم يجريا نِصْفَ غَلْوَةٍ ولَيْتَهمـــا لم يُرسلا لِرِهـــانِ

فأتت بنو خذيمة حذيفة وقالوا ردوا علينا مالنا إذ قتلتم مالكاً بمالك فأبى حذيفة أن يرد عليهم مالهم ، وكان الربيع بن زياد العبسي نازلاً فيهم فقال لهم بئس والله ما فعلتم قبلتم الدية ثم غَدَرتم ، قالوا لولا أنك جار لقتلناك ــ وكانت خفرة الجار ثلاثاً ــ فقالوا اخْرُجْ عنّا ولك ثلاثة أيام ، فخرج الربيع وهو أحد الكملة

الثلاثة وأمهم فاطمة بنت الخرشب الأنمارية من أنمار بغيض لا من أنمار بجيلة ، وهى التي سئلت عن أولادها أيهم أفضل ؟ فقالت عمارة لابل الربيع لابل أنس ثم قالت ثكلتهم إنْ كنت أدرى أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

وكان بين الربيع بن زياد وقيس بن زهير عداوة على درع غصبها الأول من الثانى ، فاصطلحا وقال الربيع :

فإنْ تَكُ حَرْبُكُمْ أَمْسَتْ عَواناً   فإني لم أَكُنْ مِمَّنْ جَناها
ولكن وُلْدُ سودةَ أَوْرثوها   وحَشُّوا نارها لمن اصطلاها
فإنى غير خاذِلِكُمْ ولكن   سأسعى الآن إذْ بَلَغَتْ مداها

فكان أول الأيام بين عبس وذبيان يومُ المُرَيْقب فكانت الدائرة لعبس على ذبيان ، وظهرت فى ذلك اليوم بسالة عنترة بن شداد فقال فيه :

ولقد علمتُ إذِ التقت فُرساننا   بِلوىٰ المريقب أن ظَنَّكَ أحمقُ

ثم التقوا ثانية يوم ذى حُسىً فكانت الدائرة لذبيان على عبس وانهزمت عبس فاتبعوهم فأدركوهم فقالت ذبيان : إما التفانى وإما أن تقيدونا من قتلى يوم المريقب ، فأشار قيس بن زهير على الربيع بن زياد وهو سيد عبس فى هذه الحروب ألا يُناجزوهم وأن يعطوهم رهائن حتى ينظروا فى أمرهم ، فتراضوا أن تكون الرهائن عند سبيع بن عمرو أحد بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيانَ فَدَفَعَتْ إليهم عبس ثمانية من الصبيان وانصرفوا وتكافَّ الناس . وبقيت رهائنهم عند سبيع حتى حضره الموت فقال لابنه مالك بن سبيع : إنَّ عندك مكرمة لا تبيد إن أنت احتفظت بهؤلاء الأُغَيْلِمَةِ وكأني بك إذا أنا متُّ أتاك خالك حذيفة وعصر لك عينيه يقول هلك سيدنا وخدعك عن هؤلاء حتى يقتلهم ثم لا تشرُف بعدها أبداً فلما مات سبيع كان الأمر كما وصف ، فأخذ حذيفة الصبيان فأتى بهم موضعاً يسمى اليعمرية وجعلهم هدفاً للرماح وهو يقول لكل غلام منهم ناد أباك ، فلا يزال يرميه والصبى ينادى أباه حتى تمزقه الرماح .

ولم تزل الحرب بينهم والدماء تسيل حتى التقوا يوم جفر الهباءة فاقتتلوا من بكرة النهار حتى انتصف وحجز الحر بينهم وكان حذيفة بن بدر يحرق الركض فَخِذَيْهِ فقال قيس : يابنى عبس إن حذيفة رجل محروق الخيل وإنه مُسْتَنقِعٌ الآن فى جفر الهباءة فعليكم به فخرجوا وقصوا أثره وكان حذيفة على فرسه الحنفاء فعرفوا أثره حتى وافوهم مع الظهيرة فبصربهم حمل بن بدر وهو فى النهر فقال : من أبغض الناس إليكم أن يقف على رءوسكم الآن ؟ قالوا قيس بن زهير والربيع بن زياد قال هذا قيس والربيع فلم ينقض كلامه حتى وقف القوم على شفر الجفر وقيس يقول : لبيكمْ لبيكمْ يعني الصبية الذين مزقهم حذيفة بالنبل ، فحال شداد ابن معاوية والد عنترة بين القوم وبين الخيل ، وقال أحد ابْنَيّ بدر والأصحُ أنه حذيفة ناشدناكم الرحم ، فقال له أخوه : اتق مأثورَ القول ، فصارت مثلاً يضرب لمن يقول قولاً لا ينتفع به وتبقى عليه مسبته ، فقتلوا جميع من كان في النهر وكان فيه حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر وأخوه مالك بن بدر وورقاء بن بلال وحنش بن عمرو ، وأثْخنوا فيهم القتل وسالت الدماء .

كانت الدائرة فى ذلك اليوم على ذبيان ، وقال قيس بن زهير يرثى حمل بن بدر :

تَعَلَّمْ أن خَيْرَ الناسِ مَيْتٌ   على جَفْرِ الهباءة لا يَرِيـمُ
ولـولا ظلمه مازلت أبكي   عليه الدهـر ما طلع النجـومُ
ولكن الفتى حَمَلَ بن بدر   بَغَـى والبغـي مَرْتَعُـه وَخيـمُ

ومثلوا بحذيفة بن بدر كما مثل هو بالصبيان فقطعوا مذاكيره وجعلوها فى فمه وقطعوا لسانه وجعلوه فى إسته .

فلما أصيب أهل الهباءة أعظمت عطفان قتل حذيفة فاجتمعوا على ابنه حصن ابن بدر وقيل على ابنه عيينة بن حصن فعرفت عبس حينئذ أن ليس لهم مقام بأرض غطفان فخرجوا إلى اليمامة فنزلوا على أخوالهم من بنى حنيفة مدة ثم على بني سعد ابن زيد مناة بن تميم فغدروا بهم ، وكان بينهم يوم الفروق لأن عبساً فطنوا

لما كان يُبَيِّتُهُ بنو سعد من الغدر ، وأبلى عنترة بلاء حسناً وفى ذلك اليوم ظهرت فيه بسالته ، وقد سئل بعد ذلك كم كنتم يوم الفروق قال حول المائة لم نقل فنضعف ولا نكثر فنتكل ، وسار بنو عبس ثلاث ليال بأيامها ، ثم إن حرب داحس والغبراء دامت بين عبس وذبيان أربعين سنة فيما يقال حتى أصلح بينهم الحرث بن عوف بن أبى حارثة وهرم بن سنان بن أبى حارثة المُرِّيان فى خبر يطول ذِكْره عن هذا المحل وفى ذلك يقول زهير فى معلقته :

تَدارَكْتُما عَبْساً وذُبْيانَ بَعْدَما تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ

ويقال إن قيس بن زهير بعد الصلح انتقل إلى عُمان وقال لا أنظر إلى وجه من قتلت أباه وأخاه أبداً ثم إنه أصابته الفاقة حتى مات جوعاً . « والله تعالى أعلم .

[تَقْدَحُ نيران الحُباحِب حَوَا فِرُهُ عِنْـدَ خَبَب وطَلَـقِ]

قَدْحُ النار : استخراجها من حجر الزناد وفى المثل : أَضِئْ لى أَقْدَحْ لك أي بين لي حاجتك حتى أسعى فيها .

والخَبَبُ ضرب من العَدْو وهو أن ينقل الفرسُ أيامِنَهُ جميعاً وأياسِرَهُ جميعاً وقيل هو أن يراوح بين يديه ورجليه .

والطَّلَقُ بالتحريك هو جري الفرس لا يحتبس إلى غاية قال الشاعر :

عدا طَلَقاً حتىَّ إذا قيل سابقٌ تداركه عِرْقُ اللّئام فبلَّـدا

« والله تعالى أعلم » .

ذكر نار الحباحب

نَارُ الحباحب تُضرب مثلاً للشيءِ الذي لا طائل تحته ولا نفع وراءه ، يقال أَخْلَفُ من نار الحُباحب ، وأَكْذَبُ من نار الحباحب ، وقال بعض المولدين :

صديقٌ لنا مُذْ ذُقْتُ طعم إخائه   شَهِدْتُ لقد أربى على الصاب شَهْدُهُ
وأَضْعَفُ من نسج العناكِب عَقْدُه   وأَضْيَعُ مِن نار الحُباحِبِ وُدُّهُ

واخْتُلِفَ في نار الحباحب هذه التى يضرب لها المثل اختلافاً كثيراً ، والقول الأقرب للصواب أنها النار التي توريها الخيل بسنابكها من الحجارة ، ودليل هذا القول قوله تعالى : ﴿ فالْمُورِيات قَدْحاً ﴾[1] . وانتصره صاحب « الكشاف » ، وقيل الحباحب طائر صغير يطير ليلاً فى الظلام وهو قدر الذبابة ، وله جناح يحمر إذا طار به فيتراءى من البعد كأنه شرارةُ من نار ، وقيل غير ذلك .

[كالرّيح فى هُبُوبِهِ والسِّمْع في   وُثوُبِه وكَالْمَهَا فِى فَشَقِ]
[بِهِ أجُوسُ فى خِلال دُورِهَا   وأنْثني كَالبَارِقِ المُؤْتَلِقَ]

السِّمْعُ : ولد الذئب منَ الضبع كما تقدم وليس فى الحيوان شئ عَدْوُهُ كعدو السِّمع لأنه أسرع من الطير ، ووثبته تزيد على ثلاثين ذراعاً ويضرب به المثل فى السِّمع وقوته وكذلك اشتق اسمه منه .

والفَشَقُ : بالتحريك العَدْو والنشاط .

والجَوْسُ : والاجتياسُ بالجيم وبالحاء المهملة بدله طلب الشئ بالاستقصاء والتردد خلال الدور والبيوت وقت الغارات والنهب .

[فإنْ تَكُ الزَّبَّا دَخَلْتُ قَصْرَهَا   وكقصير سُقْتُهَا للنَّفَق]

الزبا : امرأة معروفة والأَزَبُّ كثير الشعر وكذلك كانت هذه المرأة .

وقصير : بكسر الصاد اسم رجل يأتى خبره .

والنفق بالتحريك سَرَبٌ فى الأرض له مخلص إلى مكان آخر ، وفى المثل : « ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ » يضرب لمن يُعنى بأمر نفسه ويُعدُّ حجة لخصمه فينساها عند

(١) العاديات الآية (٢) .

الحاجة ، والدريص كزبير ولد الأرنب واليربوع ، والنافقاء إحدى جِحَرَةِ اليربوع يكتمها ويُظْهِر غيرها ، وهو محل يرفقه فإذا أوتي من قبل القاعصاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي خرج منها ، ونافق إذا أخذ فى نافقائه ، ومنه اشتق المنافق فى الدين « والله تعالى أعلم » .

ذكر قصة قصير والزّبّاء

الزَّبّاء هذه امرأة من بقية عمالقة الشام من أهل بيت عاملة منهم ، وهي الزباء بنت عمرو بن الظَّرِبِ بن حسان بن أُذَيْنَة من ولد السَّمَيْدع بن هوبر العملاقي الذى قتله يوشع بن نون صاحب موسى عليهما السلام .

وكان سلف الزباء يملكون جزيرة الموصل ومشارق الشّام وما والاهما دهراً طويلاً إلى أن أمضى المُلْكُ إلى عمرو بن الظرب فغزاه جذيمة الأبرش صاحب الحيرة وأعمالها .

قال أبو عبيدة : وهو أول ملك كان بالعراق من العرب وأول من نصب المجانيق وأوقد الشموع ، وكان بعد عيسى « عليه السلام » بثلاثين سنة « والله أعلم » ، وكان به بَرَصٌ فَكَنَتِ العَرَبُ عنه بالوضّاح والأبرش إعظاماً له ، فغزا جذيمة عمرو بن الظرب فقتله وانهزمت جيوشه وعاد جذيمة سالماً ، وملكت بعد عمرو ابنته الزباء واسمها نائلة وقيل ميسور وقيل الفارعة ، فلما استحكم ملكها أجمعت على غزو جذيمة فأشارت عليها أختها زُنيبة بعدم غزوه وإعمال الحيلة فكتبت إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها لتزوجها ويضم ملكها إلى ملكه وتقول : إنها لم تجد لنفسها ولا لملكها كفؤاً غيره ، فلما وصله كتابها طمع فيما دعته إليه ، فجمع أهل مشورته فعرض عليهم ما دعته إليه فأجمع أمرهم على أن لايُسَيَّرَ إليها إلا « قصيراً » وكان أريبا حازماً أثيراً عند جذيمة فقال الرأي أن ترسل إليها إن كانت صادقة أن تقبل إليك ولا تمكّنها من نفسك وقد وترتها وقتلت أباها ، فلم يأخذ جذيمة برأيه ثم دعا ابن اخته عمرو بن عدي اللخمى فاستشاره فشجعه فاستخلف

جذيمة عمرو بن عدي على ملكه وجعل عمرو بن عبد الجن معه على جنوده وسار جذيمة فى وجوه أصحابه واستقبلته رسل الزباء بالهدايا ، فقال ما ترى ياقصير ؟ فقال : « بِبَقَّةَ تركت الرأى » فأرسلها مثلاً ثم قال ستأتيك الخيل فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة وإن أخذت جنبتيك وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك ، فاركب العصا فإنها لايُشَقُّ غبارها ــ وكانت العصا فرساً لجذيمة ــ فإني راكبها ومسايرك عليها .

فلقيته الكتائب والخيول فحالت بينه وبين العصّا ، وقيل إن قصيراً عرضها له فأنف من ركوبها بمحضر ذلك الجمع فركبها قصير وولى فنظر إليه جذيمة موليا فقال :

« ويل أمه حزماً على متن العصا » فأرسلها مثلاً .

وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيول حتى أدخلوه على الزّبّاء فلما رأته تكشفت له فإذا هى مضفورة الإسْبِ ــ بالموحدة ــ وهو شعر العانة والفرج وقالت يا جذيمة « أدأَبَ عروس ترى » ؟ فسارت مثلاً ، فقال جذيمة قد بلغ المدى وجفَّ الثَّرى وأمْرَ غَدْر أرى ، وفى بعض الروايات أنها قالت له : أشِوارَ عروس ترى ؟ فقال جذيمةً : بل متاع فاجرة بظراء ، فقالت والله ماذاك من عدم مَوَاسٍ ولا من قلة أَوَاسٍ ولكنها شيمة من أناس ، والأواسي جمع آسى وهو الطبيب ، ثم قالت لجواريها خذن بِعَضُدَيْ سَيِّدِكنَّ ففعلن ثم دعت بنطع فأجلسته عليه ودعت بطَست من ذهب فأعدته لديه تفاؤلاً بأن يذهب دمه هدراً ، وسقته الخمر حتى أخذت منه مأخذها ، وكانت الملوك لا تقتل بضرب الأعناق إلا فى مجال الحرب تكرمه لمنصب الملك ، ثم أمرت برواهشه فقطعت ثم عرضت الطست لدمه خشية أن يقطر فى الأرض دمه لأنه قيل لها إن قطر من دمه فى الأرض طلب بثأره ، ولما ضعفت يداه سقطتا فقطر دمه على رخام القصر فقالت لا تضيعوا دم الملك فقال جذيمة دعوا دماً ضيعه أهله فذهب مثلاً . ولما هلك جذيمة جعلت الزباء دمه فى ربعة لها .

وخرج قصير من الحي الذين هلكت العصا بين أظهرهم حتى قدم على عمرو ابن عدى بالحيرة فوجده قد اختلف مع عمرو بن عبد الجن التنوخى فسار قصير إلى ابن عبد الجن وقال له اطلب بدم ابن عمك والاستّبْك العرب به فلم يعبأ به ولما يئس قصير من ابن عبد الجن مشى إلى عمرو بن عدى فقال له هل لك فى أن أصرف إليك الجنود على أن تطلب بثأر خالك فأنعم له بذلك فأتى قصير قادة الجند واستهواهم بالمال فانصرف إليه منهم خلق كثير ثم اصطلح الفريقان على تمليك عمرو بن عدي ، فقال له قصير : انظر ما وعدتني به فى شأن الزباء فقال وكيف لى بها وهى أعز من عقاب الجو ؟ فذهبت مثلاً .

وكانت الزباء قد سألت كاهنة لها فقالت هلاكك على يد رجل مهين اسمه عمرو بن عدى ولكن بيدك يكون لا بيده وهو السبب ، فَحَذِرَتْ عمراً واتخذت نفقاً من مجلسها الذى كانت تجلس فيه إلى حصن لها فى داخل مدينتها وقالت إن فاجأنى أمرٌ دخلت النفق ، وجَعَلَتْ نفقاً آخر متصلاً بمدينة أختها ثم أجرت الماء عليه فكانت إذا خافت عدواً دخلت النفق ، ثم إنها دعت مُصَوِّراً عندها حاذقاً وكلفته بأن يعمل ما يمكنه حتى يأتيها بصورة عمرو بن عدي قائماً وجالساً وراكباً وفى أى صفة يتصف بها فامتثل فكانت الزباء بذلك لا ترى عمراً فى أية حالة إلا عرفته .

ثم إن قصيراً قال لعمرٍو اجْدَعْ أنفي واضرِبْ ظهرى ودعني وإياها ففعل ، وخرج قصير كأنه هارب إلى الزباء فقالت العرب « لأمر مّا جَدَع قصير أنفه » فسار حتى قدم على الزباء فقيل لها إن قصيرا بالباب فأمرت به فأدخل عليها فإذا هو مجدوع الأنف مضروب الظهر فقالت ما الذى أرى بك ؟ فقال زعم عمرو أنني غَرَرْتُ خاله وزَيَّنْتُ له المسير إليك ومالأْتُكِ عليه ففعل بي ما ترين ، فأقبلتُ إليك وعلمت أني لا أكون مع أحد أثقل عليه منك .

فأكرمتْه وأصابت عنده بعض ما أرادت من الحزم والرأي والتجربة فلما عرف أنها اطمأنت إليه ووثقت به قال إن لي بالعراق أموالاً كثيرة وثياباً وعِطْراً

فابعثيني لأحمل إليك من طرائف العراق وصنوف تجاراته فسرحته ودفعت إليه أموالاً طائلة فأتى الحيرة متنكراً وقال لعمرٍو جَهِّزنى بصنوف البز والأمتعة لعل الله يمكنك من الزباء فأعطاه حاجته وكان يعجبها من العراق التمر والصربان فأتاها بصنوف ما تشتهيه ثم فعل ذلك ثانية ، وفى الثالثة قال لعمرو جهز لى ثِقاةَ أصحابك وجنودك وهيئ الغرائر ، وحمل على كل بعير رجلين فى غرارتين وجعل مقعد رءوسهما من داخل وقال لعمرو إذا دخلنا مدينة الزباء أقمتك على باب النفق وخرج الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة فمن قاتلهم قتلوه وإن أقبلت الزباء تريد النفق جللتها بالسيف ، فصار قصير يمشى الليل ويكمن النهار وكانت الزباء قد وشي لها به على ما يقال فجعلت تتطلع أخباره ، ولما صار قصير قريباً من مدينة الزباء تقدم إليها فأعلمها كثرة ما حمل إليها من المتاع وسألها أن تخرج فتنظر وقال لها جئت بما صأى وصمت ، فأرسلها مثلاً ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ فى الأرض من ثِقَلِ أحمالها ، فقالت :

ما للجمال مَشْيُها وئيدا ... أجندلاً يَحْمِلْنَ أَمْ حديدا
أَمْ صِربانا بارداً شديداً ... أم الرجال جُثَّماً قعودا

وقيل إن الشطر الثالث أجابها به قصير ، وقيل إن الشعر كله ليس لها وإنما هو مصنوع ومنسوب إليها ، فلما دخلت الإبل المدينة نخس البواب غرارة على آخرها بمنخسة كانت بيده فأصابت خاصرة رجل فضرط فصاح بالرومية الشَّرَّ الشَّرَّ ودلَّ قصير عمراً على باب النفق وخرجت الرجال من الغرائر ووضعوا السلاح فى أهل المدينة وأقبلت الزباء تريد النفق فأبْصرت عمراً قائماً على بابه فعرفته بالصورة فمَصَّتْ خاتماً لها كان فيه سُمٌّ وقالت « بيدي لا بيد عمرو » فذهبت مثلاً ، ثم إن عمراً جللها بالسيف فماتت .

هذا والحكاية مضطربة غاية الاضطراب ، ثم إن عمراً عاد بالسبي إلى بلده ويقال إنه أول سبي قسم فى بلاد العرب من أرض الروم . فكان عمرو هذا من أَجَلِّ ملوك الحيرة من آل المنذر .

ويقال إن ثلاثة من العرب فى الجاهلية قد أدركوا ثأرهم : سيف بن ذى يزن الحِمْيري وقصير بن سعد اللخمي وبيهس الفزاري وسيأتي خبره « إن شاء الله » .

ومما يجدر التنبيه عليه أن قصيراً هذا هو ابن سعد بن لخم وكان أبوه سعدٌ قد تزوج أمَةً لجذيمة فولدت له قصيراً واختلف فى اشتقاق تسميته قصيراً .

[وَمَنْ حَمَاهَا كَكُلَيْب فَلَهُ جَسَّاسُ رمْح راصِدٍ بالطُّرُقِ]

الحماية : المَنْعَةُ والنُّصْرة تقول حميته حَمياً وحماية إذا دافعت عنه ونصرته ، وأحميت المكان جَعَلْتُهُ حمىً لا يُقْرَبُ . قال الشاعر :

ونرعى حمى الأقوام غير مُحَرَّمٍ علينا ولا يُرعى حمانا الذى نَحْمي

والحَمِيَّةُ كقضيَّة : الأَنَفَةُ .

والرمح الجسَّاسُ الذى يبحث عن المقاتل حتى يصل إليها وجسَّ الأخبار وتَجسَّسَها تتبعها ومنه سمى الجاسوس لأنه يتبع الأخبار ويبحث عن بواطن الأمور .

والرصْدُ : القعود على الطريق ونحوه للترقب والانتظار وقد رصده من باب قتل والرَّصَدُ بالتحريك : القوم يرصدون ، يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، والمرصد موضع الرصد ، وقوله تعالى : ﴿ **إنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصاد** ﴾ أي رقيب لا يخفى عليه شئ من أفعالك .

ذكر كُلَيْب وجَسَّاسٍ

أما كليب فهو وائل بن ربيعة بن الحرث بن زهير بن جُشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل التغلبي ينتهي نسبه إلى ربيعة بن نزار .

وأما جسَّاسُ فهو ابن مرة بن ذهل الأصغر بن شيبان الأكبر بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل وفيه يجتمع نسبه بكليب .

وكان من خبرهما أن كليبا كان قد عز وساد فى ربيعة حتى كان يضرب المثل بعزته يقال « أعز من حمى كليب » وقاد معدا كلها يوم خزازى وفضّ جموع اليمن فاجتمعت إليه معَدٌّ كلها وتوجته وأطاعته فداخله عجب كبير فبغى على قومه حتى إنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويقول وحش أرض كذا فى جوارى فلا يصاد ، ولا يورد أحد مع ورده ولا توقد نارٌ مع نارٌ ولا يُحْتَبَى بمجلسه ولايُتكلَّمُ فيه إلا بإذنه ، وفى ذلك يقول مهلل يرثيه :

نبئت أن النار بعدك أوقدت　　واستب بعدك ياكليب المجلسُ
وتكلموا فى أمر كل عظيمة　　لو كنت شاهدَ أمْرِهِمْ لم يَنْبِسوا

فاتفق أن كليبا مر يوما بقُبَّرة وقد باضت فخفقت بجناحيها وصرصرت فقال لها : أمِنَ رَوْعُك أنت فى ذمتي ، ثم أنشأ يقول :

يالك من قبرة بمعمـــــــــر　　خلا لك الجو فبيضى واصفري
ونقرى ما شئت أن تنقرى

وكانت بنو جشم رهط كليب وبنو شيبان رهط جساس أخلاطاً فى دار واحدة إرادة الجماعة ومخافة الفرقة وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب ، فكان من أمر كليب أنه حمى أرضا فكان لايرعى فيها إلا إبله وإبل جسَّاس للمصاهرة التى بينهما ، ثم إن البسوس بنت منقذ التميمية كان لها جار له ناقة يقالُ لها سَرَابِ كقَطامِ ، والبسوس هذه خالة جسَّاس يضرب بها المثل فى الشؤم كما يضرب بالناقة يقال أشأم من سرابِ وأشأم من البسوس لأنهما كانتا سبب الحرب بين الحَيَّيْن ، وذلك أن سراب ذهبت فى إبل جساس حتى دخلت الحمى فيقال إنها وطئت بيض القبرة فكسرته ، ويقال إن كليبا ورد الحمى فرأى سراب فأنكرها إذ لم يكن يعهدها من قبل فسأل عنها فقيل إنها ناقة لجار جسَّاس ، فقال أبلغ من أمره أن يجير دون إذنى ؟ فرماها بسهم فأنفذ ضرعها ، وقيل فى سبب رميه لها غير ذلك ، فرجعت الناقة وضرعها يشخب دما ولبنا حتى بركت بفناء صاحبها فصاح واذلاه فلما سمعته البسوس نادت هى الأخرى واذلَّاه ثم

أنشأت تقول :

لعمركَ لو أصبحت فى دار منقذٍ لما ضيم سعدٌ وهو جار لأبيات
ولكنني أصبحت فى دار غربة متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاتي
فيا سعدُ لا تغرر بنفسك وارتحل فإنك فى قوم عن الجار أموات
ودونك أذْوادي فإني عنهمُ لراحلةٌ لا يفقدونى بُنَيّـاتي

فلما سمع جساس قولها سكنها وقال أيتها الحرة ليعقرنَّ غداً جمل هو أعظم عَقْراً من ناقة جارك ـــ يريد بذلك كليبا ـــ فَظُنَّ أنه يريد فحل إبل كليب الذى كان يدعى عُلَيّان بضم العين وتشديد الياء فقال كليب : دون عليان خرط القتاد فصارت مثلاً يضرب للشئ لا يستطيع أحد أن يصل إليه ، ثم إن الحي انتجعوا فمرت بنو بكر على ماء يقال له شُبَيْبٌ بالتصغير فمنعهم كليبٌ منه فمضوا ثم مروا على ماءٍ يقال له الأحص فمنعهم منه أيضاً ثم ذهبوا حتى نزلوا ماء يقال له الذنائب فنزلوا عليه وتبعهم كليب فى بني تغلب حتى نزلوا عليه معهم ، فمر جَسّاس على كليب وهو واقف على الماء منفرداً فقال له طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً ؟ فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون ، قال جساس هذا كفعلك بناقة جاري فقال كليب أو قد ذكرتها أما والله لو وجدتها فى غير إبل مرة لاستحللتُ تلك الإبل بها ، فعطف عليه جساس فرسه وطعنه بالرمح فأنفذ حضنيه أى جنبيه ووجد كليب طعم الموت فقال ياجسَّاس اسقنى ماءً فقال هيهات تجاوزت شُبَيْباً والأحص ، وكان مع جسَّاس رجل من عشيرته يقال له عمرو بن الحرث بن ذهل فقال له كليب ياعمرو أغثني بشربة ماءٍ فنزل عمرو عن فرسه واحتزَّ رأسه ، فقيل :

المستجيرُ بعمرٍو عِنْدَ كُرْبَتِهِ كالمستجيرِ من الرَّمْضاء بالنارِ

ومن ذلك اليوم سمي جساس بحامى الذمار ومانع الجار ، ثم إن جسَّاساً رجع مسرعاً إلى قومه فقالت أُخته لأبيه إن لجسَّاس لشأناً فقد جاء خارجة ركبتاه فقال

أبوه : والله ما خرجت إلا لأمر عظيم فلما انتهى إليه قال يا بني ما خطبك ؟ قال طعنت طعنة لتشغلنَّ عجائز وائل رقصاً . قال أقتلت كليباً ؟ قال نعم ! قال وددت أنك وإخوتك مِتُّمْ قبل هذا ، ثم نظر جسَّاسٌ إلى أخيه نضلة بن مرة فقال :

وإني قد جنيتُ عليك حرباً تُغِصُّ الشيخ بالماء القُراحْ
مذكرةً متى ما يَصْحُ منها فتًى نشبت وآخَرُ غير صَاحْ

فأجابه يقول :

فإنْ تكُ قد جنيتَ عَلَيَّ حرباً فلا وانٍ ولا رثُّ السِّلاحْ
سألبسُ ثوبها وأذود عَنِّي بها عارَ المذلَّة والفِضَاحْ

حَـرْبُ البَسُـوس

ثم إن مُرَّةَ بن ذُهْلٍ دعا قومه إلى نصرته فأجابوه وشحذوا السيوف وقوموا الرماح وتهيأوا للرحيل إلى جماعة قومهم ، وكان همام بن مرة بن ذهل مصافياً لمهلهل أخى كليب فبعث جساس جارية إلى همام تعلمه فسارَّته الخبرَ فسأله مهلهل عن الخبر الذى أسرَّته له الجارية فقال أخبرتنى أن جسّاساً قتل كُلَيْبًا فقال مهلهل كذبت وأقبل على شرابه حتى صرعته الخمر فانسلَّ همام ولحق بقومه ، فلما أفاق مهلهل اجتمع إليه بنو تغلب فقال لا تعجلوا على قومكم حتى تعذروا بينكم وبينهم فانطلق رهط من أشرافهم حتى أتوا مُرَّةَ بن ذُهْل وهو فى نادي قومه ، فقالوا إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقة وقطعتم الرحم وإنا نَعْرِضُ عليكم خلالاً أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع : إمَّا أن تحيوا لنا كليباً ، وإمَّا أن تدفعوا إلينا جسَّاساً فنقتله به فإنه لم يضهد من قتل قاتله ، وإما أن تدفعوا إلينا هماماً فنقتله به فإنه له كفؤ ، وإمَّا أن تقيدنا من نفسك يا مرة فإنَّ فيك وفاءً لدمه .

فسكت مُرَّةُ فقال له قومه تكلم غير مخذول ، فقال : أما إحياء كُليب فهذا

لا قدرة لأحدٍ به ، وأما جساس فغلام حدث طعن طعنة وركب فرسه فلم أدرِ أى قصد قصد ، وأما همام فإنه أبو العشرة وأخو العشرة وعم العشرة وهم فرسان قومهم فلن يسلموه فى جَرِيرةِ غيره وأما أنا فهل إلا أن تجول الخيل جولة واحدة فأكون أول قتيل ؟ ولكن لكم عندى خصلتان أما إحداهُما فهؤلاء بني الباقون فخذوا أيهم شئتم بنسعة فى رقبته فاقتلوه بصاحبكم وأما الأخرى فأنا أدفع إليكم ألف ناقة سودَ الحدَق حمر الوبر ، فغضب القوم وتفرقوا وقامت بينهم حرب البسوس المشهورة التى يقالُ إنها دامت أربعين عاماً فكانت بينهم وقائع يطول ذكرها أعظمها خمس وهي : يوم عُنَيزة ويوم واردات ويوم القصيبات ويوم فضة ويسمى يوم تحلاق اللمم ويوم مقتل جساس ، وبعد أن قتل جسَّاس تدانوا للصلح .

واخْتُلف فى مقتل جساس فقيل مات فى ساحة القتال وقيل قتله ابن أخته جليلة من كليب فكان آخر قتيل من حرب البسوس . قالوا وكان الحارث بن عباد سيد بكر وفارسها وهو فارس النعامة وكان قد اعتزل الحرب وقال لا ناقة لي بها ولا جمل فأرسلها مثلاً فقيل له إن مهلهلاً قد كاد يفنى قومك فأَرْسِلْ إليه فأرسل إليه ابْنَهُ بجيراً أو هو ابن أخته وقال له قل لمهلهل أبي أو خالى يقرئك السلام ويقول لك قد علمت أني اعتزلت الحرب وخليتك مع قومي تفعل بهم ما تشاء وقد أدركت وترك وقتلت قومك أنشدك البقية فيهم ، فأتى بجير حتى وقف على مهلهل وهو فى نادي قومه فبلَّغه الرسالة فقال من أرسلك يا غلام ؟ وصمد إليه بالرمح فقال له أحدُ رجاله الحاضرين إن قوم هذا قد اعتزلوا حربنا ووالله إن قتلتَهُ ليقتلن به رجل لا يسأل عن حاله — روي بالحاء والخاء — فلم يلتفت مهلهل إلى قول الناهي وقَتَلَ الغُلامَ وقال بؤ بِشِسْع نعلِ كليب ، فقال الغلام إن رضيت بهذا بنو تغلب رضيت ، فلما بلغ الحارث بن عباد مقتل بجير قال نِعْم القتيلُ قتيلاً أصلح بين بكر وتغلب وباء بدم كليب فقيل له إن مهلهلاً لما قتله قال له بؤ بِشِسْع نعل كليب ، فلم يصدق وأرسل إليه يقول إن كُنتَ قتلت ابني بكليب فقد رضيت فقال مهلهل إنما قتلته بشسع نعله . فعندها غضب الحارث بن عباد ونادى

بالرحيل فى قومه وأنشأ يقول :

قَرِّبا مَرْبِطَ النَّعامَـةِ مِنِّـي ... لَقِحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عَنْ حِيالِ
قَرِّبا مَرْبِطَ النَّعامَـةِ مِنِّـي ... إنَّ بيع الحُرِّ بالشِّسْعِ غالي
قَرِّبا مَرْبِطَ النَّعامَـةِ مِنِّـي ... لبُكـاءِ الشُّيـوخِ والأطفـالِ
قَرِّبا مَرْبِطَ النَّعامَـةِ مِنِّـي ... لحنين النساء والإعْـوالِ
قَرِّبا مَرْبِطَ النَّعامَـةِ مِنِّـي ... شاب راسي وأنْكَرَتْني رجالي
قرباها فى مقربات عِجَالٍ ... عابسات يثبن وثب السَّعالي
لا بُجيرٌ أغْنَى فتيلاًولا رهـ ... ـط كليب تزاجروا عن ضلال
لم أكن من جُنَاتها علم اللـ ... ـه وإني بحربها اليوم صالي

وهى قصيدة تشتمل على نحو مائة بيت كرر فيها « قربا مربط النعامة مني » فى نحو خمسين بيتاً منها ثم شمر لحرب تغلب فألحَّ عليهم حتى أبادهم وفر مهلهل حتى هلك طريداً شريداً ، وكان أول يوم اشترك فيه الحارث بن عباد هو يوم فضة يوم تَحْلاق اللِّمَمِ ولم تقم لتغلب بعده راية .

[لَابُدَّ لِي مِنْهَا ولو تَحَصَّنَتْ ... بالأُبَلَقِ الْفَرْدِ وبالْخَوَرْنَـقِ]
[لَابُدَّ لِي مِنْهَا وإنْ عَثَرْتُ فِي ... ذَيْلِ الحُسَامِ والسِّنَانِ الأَزْرَقِ]

الْبُدُّ : العِرَضُ وقولهم لا بد أي لا فراق ولا محالة ، ولا يستعمل إلا مع أداة النفي .

والتَّحَصُّنُ : التحرز والامتناع بالحصن وهو بالكسر كل موضع حصين لا يقدر عليه لارتفاعه .

أصل الذَّيل للثوب يقال ذال الثوب ذيلاً من باب باع طال حتى مسَّ الأرض ثم أطلق على طرف الثوب الذي يلي الأرض وإن لم يمسها تسمية له بالمصدر ثم توسع فيه حتى أُطْلِقَ على طرف كل شيءٍ .

والحُسَامُ : السيف القاطع وحسمت الأمر قطعته ، وحسمت العرق قطعته

ثم كويته بالنار لئلا يسيل دمه ، ، وقوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾[1] لأنها حسمت كل خير وقطعت كل بركة والعياذ بالله تعالى .

وسنان الرمح : نَصْلُهُ أي حديدته التي تُرَكَّبُ فى رأسه ، والأزرق وصف له أي شديد الصفاء ، ويقال للماءُ الصافي أزرق .

ذِكْرُ الأَبْلَق والخورنق

أما الأبلق الفرد فهو حصن قديم بتيماء يضرب به المثل فى العزة يقال : « أعز من الأبلق الفرد » ، وهناك حصن آخر يماثله بدومة الجندل يقال له مارد منيع هو الآخر وقد غزتهما الزباء فعجزت عنهما فقيل : تمرد مارد وعز الأبلق ، وهو من أمثال العرب يضرب لمن حاول شيئاً فلم يظفر به ، والأصح أنه بناه عاديا اليهودي جد السَّمَوْأَلِ الذي اشتهر بالوفاء وعرف بهذا الحصن وفيه يقول :

بنيَ لي عاديا حِصْناً حَصِيناً وماءً كلما شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

قال الجاحظ : قال أبو عبيدة : أَحَبَّتِ العربُ أن تشارك العجم فى البنيان وينفردوا بالشعر فبنوا غمُدان وكعبة نجران وماردَ والأبلق الفرد وغير ذلك ، وكان مارد مبنياً من حجارة سود والأبلق بحجارة بعضها أسود وبعضها أبيض ومن ذلك اشْتُقَّ اسمه ، وقيل أبلق لأنه بني بالحجارة السود والجير ولما كان يُرَى فيه بياض الجير وسواد الحجارة قيل له أبلق .

وأما الخَوَرْنَقُ فهو قصر قديم كان بظاهر الحِيرةِ التي كانت دار ملك اللَّخْمِيِّين من آل المنذر ، ولفظ الخورنق فارسي مُعَرَّب وأصله خورنكاه .

قال ابن قتيبة : تفسيره الموضع الذي يأكل فيه الملك ويشرب ، وكان الذى بنى هذا القصر النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي بن نصر اللخمى ملك الحيرة من قِبَلِ الأكاسرة ، وكان الذي بناه للنعمان رجل يقال له سِنِمَّار وهو الذى يضرب به المثل فى مجازاة السوء على الإحسان وذلك أنه قيل إنه لما بناه للنعمان فى

---

(١) الحاقة الآية (٧) .

ظرف عشرين عاماً قال له أما والله إنى لو أعلم توفونى حقي لجعلتُهُ يدور مع الشمس ، قال له النعمان وإنك لتعلم أحسن منه فلم تعمله ؟ ورمى به من فوق القصر ، وقيل إنه قال له أما والله إنى لأعلم حجراً لو أُزِيلَ لتداعى القصر ، فقال أما والله لا تدل عليه أحداً ورمى به من فوق القصر « والله تعالى أعلم » .

[فَإِنْ ظَفَرْتُ بِالْمُنَى مِنْ قُرْبِهَا   بَالَغْتُ فِى صِيَانَةِ العِرْضِ النَّقي]
[وإن بَقِيتُ مِثْلَ مَا كُنْتُ فَلَا   زِلْتُ بَغِيضَ مَضْجَعِي وَنُمْرق]

الظَّفَرُ : بِالتَّحْرِيكِ الفوز بالمطلوب وقد ظفر به كفرح وأظفره الله بِهِ وَظَفَّرَه تظفيراً ، ورجل مُظَفّرٌ لا يحاول أمراً إلا ظَفِرَ به .

والمُنَى : جمع مُنْية بالضم وقد تُكْسَرُ وهي ما يتمناه الإنسان كالأُمنية .

والمُبَالَغَةُ فى الشيء : بذل المجهود فيه وقد بالغ مُبالغةً وبلاغاً إذا اجتهد ولم يقصر .

والصِّيَانَةُ : الحِفْظُ وقد صانه صوناً وصياناً وصيانةً والفاعل صائن والمفعول مصون .

والعِرْضُ : بالكسر موضع المدح والذم من الإنسان وذلك النسب والحسب والدين وسائر ما يلحق الإنسانَ فيه نقص ، يقال فلان نقي العرض أي بريء من أن يُشتم أو يُعاب .

والبُغْضُ : بالضم ضد الحب ، والبِغْضَةُ بالكسر والبغضاء شدته ، وبَغُضَ الرجل بالضم بَغاضَةً إذا صار بَغِيضاً .

والمَضْجَعُ : كمقعد مَوْضِعُ الضجوع وهو وضع الجنب علي الأرض لنوم ونحوه ، وقد ضَجَعَ كنفع ضَجْعاً وضُجُوعاً فهوَ ضاجع كاضطجع ، وضجيع المرء الذى يضاجعه فى لحاف واحد فهو فعيل بمعنى مفاعل كالنديم والجليس بمعنى المُنادِم والمُجالس .

والنُّمْرُق : وِسادٌ صغير وهو بضم النون والراء وقد تُكْسَرُ وتُفْتَحُ .

[أشُنُّ كُلَّ غَارَةٍ شَعْوا على مَن يَخمِهَا فِى مِنْقَبٍ وَفيْلَقِ]
[وَفِى خَمِيسٍ مِنْ خِيَارِ يَعْرُبٍ ذَوِي رِماحٍ وخُيُولٍ سُبَّقِ]
[مِنْ أُسْرَتِي بَنِي مُلُوكٍ فَهُمُ أُطْوَعُ لِي مِنْ سَاعِدي وَمِرْفَقِ]

أَشُنُّ : تقول سَنَنْتُ الماء على وجهي بالسين المهملة إذا أرسلته إرسالاً من غير تفريق فإذا صَبَبْتَهُ مفرقاً قلت شننته بالمعجمة ومن ذلك قولهم شَنَّ عليهم الغارة إذا فرقها عليهم من كل وجه .

والشَّعْوَاءُ : الفاشية التى تأتي من كل جانب وكل ناحية من قولهم شجرة شعواء إذا كانت منتشرة الأغصان .

والمِنْقَبُ بالكسر : الجماعة من الخيل تجتمع للغارة ، قال فى الصحاح ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

والفَيْلَقُ : الكتيبة العظيمة وقيل الجيش .

والخَمِيسُ : الجيش وسمي بذلك لأنه خَمْس فرق : المقدمة والقَلْبُ والمَيْمَنَةُ والميسرة والسَاقَةُ . ويَعْرُبُ : اسم رجل يأتى ذِكْره بإذن الله .

وأُسْرَةُ الرجل : بالضم رَهطُه مأخوذ من الأسر وهو الشَّدُّ والتوثيق لأنه يَتَقَوَّى بهم ويشتد ظهره ، ومنه الأسير لأنه يربط بالإسار وهو القيد .

وسَاعِدُ الرجل : ما بين المِرْفَقِ والمِنْكَبِ وهو الذراع ، وأما المرفق فهو مفصل الذراع من العضد وهو بوزن منبر وكمجلس .

ذِكْرُ نَسَبِ العَرَبِ

اعلم أن العرب ثلاث طبقات : إِرَم ، وقَحْطان ، وعَدْنان .

أما إرم فهو ابن سام بن نوح عليه السلام وتحته شعوب هم جُرْهُم وعاد وثمود ووِبار وأُمَيْم وعُبَيْل وطَسْم وجديس والعمالقة ، فهؤلاء يقال لهم العرب

العاربة أي الذين انفتقت ألسنتُهم بالعربية بادئ ذِي بِدْء ، ويقال لهم أيضا العرب البائدة لأنهم بادوا أي انقرضوا في الدهر الأول ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد .

وأما قحطان الذي انتسب إليه الناظم حيث قال من خيار يَعْرُب يعني يَعْرُب ابن قحطان فهو عند أكثر المؤرخين قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام ، وقيل ابن عبد الله فهو أخو هود ، وقيل هو هودٌ نفسه ، وقيل عابر هو هود لذا يقال قحطان بن هود .

والذي عليه النَّسَّابون من أهل الحديث والمفسرين أن جميع العرب الموجودة من إسماعيل عليه الصلاة والسلام .

قلت : وبهذا القول صدر فى عمود النسب العلامة النسابة المحقق وجزم أن العاربة بادوا ولم يبق منهم أحد ، وذلك فى نظمه عمود النسب حيث قال « رحمه الله » وهو الشيخ أحمد البدوى المجلسي ثم الشنقيطى :

العربُ من أبناء سام : جُرْهمُ عادٌ ثمودٌ وَوبـــارٌ منهمُ
كذا أميـــمٌ وعُبَيـــلٌ طسم جديسُ عمليـــقٌ به يتمـــوا
فهؤلاء العربُ باروا والذبيحْ منهم تعرَّبَ على القول الصحيحْ
وهْو أبو قحطان فى قولٍ أُبي عنه فقحطان بن هودٍ النبي
الخ

ويؤيد القول الذي صَدَّر به العلامة البدوي الشنقيطى ما ذكره أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » حيث يقول فى الجزء الثاني صفحة ـــ ١٢٦ ـــ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾[1] قال : وحكى الطبري أنه أراد بقوله : « وَمِن ذُرِّيَّتِنا » العرب خاصة . قال السُّهَيْلي : وذريتهما العرب لأنهم بنو نبت بن إسماعيل أو بنو تيمن بن إسماعيل ويقال قيدر بن

(١) البقرة الآية (١٢٨) .

نبت بن إسماعيل ، أما العدنانية فمن نبت ، وأما القحطانية فمن قيدر بن نبت بن إسماعيل أو من تيمن على أحد قولين ا هـ الغرض منه .

وقال فى الرّوْض الأنف : واختلف فيه فقيل : قحطان بن عابر بن شالخ ، وقيل هو ابن عبد الله أخو هود وقيل هو هود نفسه فهو على هذا القول ابن إرم ابن سام .

ومن جعل العرب كلها من إسماعيل قالوا فيه : هو ابن تيمن بن قيدر بن إسماعيل وقيل هو ابن الهميسع بن يمن ، إلى أن قال : واحتجُّوا لهذا القول أعني أن قحطان من ولد إسماعيل « عليه السلام » بقول النبي « صلى الله عليه وسلم » « ارموا يا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » قال هذا القول لقوم من أسلم بن أفصى ، وأسلم أخو خزاعة وهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وهم من سبأ بن يَشْجُب بن يعرب بن قحطان ا هـ . محل الغرض منه .

قلت : والحديث فى قمة الصحة لأنه أخرجه البخاري فى صحيحه عن سلمة ابن الأكوع ـــ رضي الله عنه ـــ قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم يَنْتضلون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارموا يابنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بني فلان ، قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالكم لا ترمون ؟ فقالوا يارسول الله نرمي وأنت معهم ؟ قال ارموا وأنا معكم كلكم » . قال فى الفتح مجلد ٦ ص ٤١٣ الطبعة السلفية : واحتج به المصنف على أن اليمن من ولد إسماعيل كما سيأتي في أوائل المناقب مع الكلام عليه . ا هـ .

وقال البخاري أيضاً : باب نسبة اليمن إلى إسماعيل .. إلى أنْ ساق الحديث المتقدم ، وقال فى « الفتح » مجلد ٦ ص ٥٣٧/٥٣٨ : وزعم الزبير بن بَكّار أن قحطان من ذرية إسماعيل وأنه قحطان بن الهَمَيْسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل « عليه السلام » .

وهو ظاهر قول أبى هريرة المتقدم فى قصة هاجر حيث قال وهو يخاطب

الأنصار « فتلك أمكم يابنى ماء السماء » .

فهذا الذي يترجح في نظري ، وذلك أن عدد الآباء بين المشهورين من الصحابة وغيرهم وبين قحطان متقارب من عدد الآباء بين المشهورين من الصحابة وغيرهم وبين عدنان ، فلو كان عدنان هو هود أو ابن أخيه أو قريباً من عصره لكان فى عداد عاشر جد لعدنان على المشهور أن بين عدنان وإسماعيل أربعة آباء أو خمسة ... إلى أن قال : ومما يستدل به على أن اليمن من ولد إسماعيل قول ابن المنذر بن عمرو بن حرام جد حسان بن ثابت :

وَرِثْنا من البهلول عمرو بن عامرٍ وحارثة الغِطْريف مجداً مُؤَثَّلا
مآثر من آل ابن نبت بن مالكٍ ونبت بن إسماعيل ما إن تَحَوَّلا

وأيضاً فإن اتفاق المؤرخين على أن عاداً من العرب البائدة التي انقرضت فى الزمن الأول يتنافى مع جعل هذه الأمم من قحطان من بقاياهم ، فإن أمة ترجع القبائل اليمنية إليها نسباً دعوى بوارها هُراء .

فالذى يؤيده العقل فى نظري ويؤيده النقل الصحيح أن العرب الموجودة كلها من إسماعيل « عليه السلام » عدنانيها وقحطانيها « والله تعالى أعلم » .

[سَلْ ابْنَ خَلْدُونَ عَلَيْنَا فَلَنَا بِيَمَنٍ مَآثِرٌ لَمْ تُمْحَقِ]

مَآثِرٌ : جمع مَأْثَرةٍ كَمَكْرُمَةٍ وزناً ومعنى سميت بذلك لأنها تُؤْثَر أي تُنقل ويُتحدثُ بها ، وحديث مأثور ينقله خلف عن سلف ، وأثارة من علم بقية منه وكذا الأثرة بالتحريك ومَحَق الشئ يمحقه محْقاً من باب نفع أبطله ومحاه حتى لم يبق له أثر « والله أعلم » .

ذِكْرُ نُبْذَةٍ عن مُلوك اليمن

أول من ملك اليمن يَعْرُبُ بن قحطان انتزعها من بقية قوم عاد وغيرهم من العرب العاربة الذين هم بنو إرم بن سام ثم توارث الملك بنوه من بعده .

مَلَكَ بعده ولده يَشْجُبُ بن يعرب ثم ملك بعده ابنه عبد شمس بن يشجب وهو سبأ وسمي سبأ لأنه أول من سنَّ السبي وبنى مدينة سبأ وسد مأرب وفجر إليه سبعين نهراً وساق إليه السيول من أمد بعيد ، ثم ملك بعده ابنه حمير بن سبأ وهو الذي رثى أباه بقوله :

عَجِبْتُ لِيَوْمِكَ ماذا فَعَلْ وسُلْطانِ عِزِّكَ كَيْفَ انتَقَلْ
فَأَسْلَمْتَ مُلْكَكَ لِي طائعاً وسلَّمْتَ للأمر الذي قَدْ نزلْ

ويعرف حمير هذا بالعَرَنْجَج كسفَرْجَلٍ ومعناه العتيق وهو أول من تتوج بالذهب من ملوك اليمن .

ثم ملك بعده ابنه وائل بن حِمْيَرٍ وتغلب أخوه مالك بن حمير على عُمان فكانت تدور بينهما حروب .

ثم ملك بعده ابنه السّكسك بن وائل فحارب قضاعة بن مالك صاحب عمان حتى نفاه عنها .

ثم ملك بعده ابنه يَعْفُرُ بن السّكسك وخرجت عليه الخوارج وحاربه مالك ابن الحاف بن قُضَاعَةَ وطالت الفتنة بينهما إلى أن هلك يَعْفُرُ وخلَّف زوجته حاملاً بابنه النعمان المعروف بالمعافر بن يعفر .

فملك بعده رجل اسمه ذو رياشٍ وطلب زوجةَ يَعْفُرَ ففرت منه إلى مغارة فولدت فيها النعمان ثم طلبها فوجدها وَهَمَّ بقتل ولدها فقيل له هذا صبي ولا تخافه فسجنه فمكث مسجونًا حتى شبَّ وعَقَلَ أمره وعرف محله من قومه أنشأ يقول مخاطبًا نفسه .

إذا أَنْتَ عافَرْتَ الأمورَ بِهِمَّةٍ بَلَغْتَ مَقامَ الأَكْرَمِينَ المَقاوِلِ
فإمَّا حِمامَ الموتِ تَلْقاه عاجِلاً وإمَّا تُراث الأرض عن ملك وائِلِ

وهى قصيدة طويلة وبهذا الشعر سمي المعافر لقوله إذا أنت عافرت الأمور ... الخ

ويحكى أنه أجابه هاتف يقول :

ألا أيها الراضي بأيسر خطةٍ صبرتَ على خَسْفٍ من الذُّلِّ نازلِ
قِيامُك فى الدنيا حياةٌ لأَهْلِها وصَدُّكَ عنها هيبةً غير فائلِ

فأيقن النعمان بالفرج .

فلما كان المساء طرق جماعة من حمير محبس النعمان وكانوا قد سئموا ملك ذى رياش فأخرجوا النعمان وأدخلوه على ذى رياش فقبض عليه وسَجَنَهُ واستقلَّ بملكه وتراث أبيه وبقي ذو رِياش فى السجن حتى سئم الحياة فرأى يومًا حيةً فى يد شخص فمد يده إليها فلسعته فمات .

وعُمِّر المعافر عمراً طويلاً ثم مات ويقال إنه دفن فى اسطوانةٍ منحوتةٍ مدرجًا فيها قائما و« الله تعالى أعلم » .

ثم ملك بعده ابنه السمح بن المعافر فاضطربت أحوال حِميْر وصار مُلْكُهم طوائفَ إلى أن استقر فى الحرث الرائش وهو أول التبابعة .

وقيل بل ملك فى هذه المدة شَدّاد بن عاد العاتى وهو شَدّاد بن عاد بن الملطاط بن السكسك بن وائل الحميري وهو الذى تنسج العامة عليه الأساطير المستحيلة عقلاً .

منها أنه بنى مدينة يقال لها إرم ضاهى بها الجنة التى وُعِدَ المتقون وجعل لَبِنهَا من فضةٍ وذهب وأجرى تحتها الأنهار فى قنوات الفضة إلى غير ذلك مما هو مستحيل عادة وجوده على وجه الأرض .

ويقولون إنه لقوته كان يلوى الحديد بيديه ، والعامة تغلط فى نسبه فيجعلونه من عاد الذين أُهْلكوا بالريح العقيم وذلك باطل وإنما هو مَلِكٌ من ملوك حمير أعطى قوة فى الجسم وفسحة فى العمر وتَمَكُّنا فى الأرض أكثر ممن قبله فحصلت له الشهرة بذلك ونسبت له الناس كل غريب « والله أعلم » .

ثم ملك بعده أخوه لقمان بن عاذ وليس لقمان المذكور فى القرآن ولا لقمان

ذى النسور ، أما ذو النسور فهو من عاد إرَمَ وكان فى وفد عاد الذين قدموا مكةَ يستسقون وأما لقمان الذى فى القرآن ذِكْرُه فقد كان حبشياً فى زمن داود « عليه السلام » و« الله تعالى أعلم » .

ثم ملك بعده أخوه ذو سدد بن عاد ويقال إن اسمه ذو مراثد وقيل شديد بن عاد « والله أعلم » . بالصواب .

ثم ملك بعده ابنه الحرب بن ذي سدد ويقال له الرائش وهو أول التبابعة وسمى رائشاً لأنه راش الناس بالغنائم وقيل راشهم بالعطاء .

ثم ملك بعده ابنه الصعْبُ بن الحرث وقيل إنه هو ذو القرنين المذكور فى القرآن ونقل فى الأصل عن ابن سعيد أن ابن عباس سُئِلَ عن ذي القرنين قال هو من حمير « والله تعالى أعلم » .

ثم ملك بعده ابنه أبرهة بن الصعب وهو ذو المنار لأنه هو أول من ضرب المنار على طريقه فى مغازيه ليهتدى بها إذا رجع .

ثم ملك بعده ابنه إفريقش بن أبرهة وهو الذى ساقَ البربر من كَنْعان إلى إفريقية بعدما أوقع بهم يوشع بن نون صاحب موسى « عليه السلام » وبه سميت إفريقيا ، ولما سمع كلام البربر ورطانتهم قال ماأكثر بربرتكم فَسُمُّوا البربر .

والبربرة فى لغة العرب هى اختلاط الأصوات ، ومنها بربرة الأسد .

ثم عمرو بن أبرهة وهو ذو الأذعار ، ثم إن حِميْر خلعته ومَلَّكَتْ عليها شرحبيل بن عمرو من ولد يعفر بن السكسك فحاربه عمرو ذو الأذعار وحارب ابنه الهدهاد بن شرحبيل وابنته بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل من بعده وهي صاحبه سليمان عليه السلام فصالحته على أن يتزوج بها ثم قتلته غَيْلَةً واحتوت على ملكه ثم غلبها نبى الله سليمان عليه السلام على اليمن إلى أن توفي ثم ابنه رِحَبْعَمُ بن سليمان كذلك .

ثم اجتمعت حِميْر بعد ذلك على مالك بن عمرو ناشر النعم قيل هو ابن

عمرو ذى الأذعار وقيل هو من ولد يعفر بن السكسك .

ثم ملك بعده ابنه شمريرعش بن ناشر النعم وقيل هو شمر بن إفريقش ، وخرج نحو العراق ثم توجه يريد الصين فدخل مدينة الصُّغَد وراء النهر فهدمها فقالت العجم شمركند فَعَرَّبها العربُ « سمرقند » .

ثم ملك بعده ابنه زيد بن شمر وهو تُبَّعُ الأَقْرن لشامةٍ كانت فى قرنه ثم ملك بعده ابنه كلكيكَرِب بن زيد معديكرب ولم يغز قط إلى أن مات ثم ملك بعده أبو كريب أسعد بن كلكيكرب وهو تبع الآخر ، وتُبَّعٌ لَقَبٌ لمن مَلَكَ اليمن وحضرموت ، قيل وهو الذى آمن بالنبى « صلى الله عليه وسلم » ، قبل ظهوره وهو القائل :

شهـدت على أحمدٍ أنـــه رسولٌ من الله باري النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمري إلى عُمْرِهِ لكنتُ وزيراً له وابنَ عَمّ

وهو أشهر التبابعة وأخباره كثيرة شهيرة

ثم ملك بعده ابنه حسان بن أبى كريب وهو الذى أوقع بجديس وقتل زرقاء اليمامة ثم قتله أخوه عمرو بن أبى كريب لأنهم سئموا الغزو معه فداخلوا أخاه على قتله وخالفهم ذو رُعين وهو قَيْل من أقيالهم ونهاه فأصر على قتله فكتب ذو رعين صحيفة وأودعها إياهُ .

ولما قتل عمرو حسانًا ورجع بحمير إلى اليمن سلط الله عليه السهر حتى أشرف على الهلاك فدعا العرافين وأصحاب التجربة فقالوا لم يقتل أحدٌ قريبه على المُلْكِ إلا سلط الله عليه السهر ولم ينتفع بملكه فجعل يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه حتى وصل إلى ذي رعين فقال له أحضر الصحيفة التى عندك فإذا فيها :

ألا من يشترى سهراً بنوم سعيدٌ من يبيت قَرِيرَ عَيْنِ
فأمّا حِمْيَرٌ غَدَرَتْ وخَانَتْ فمَعْذِرَةُ الإلـه لذي رُعَيْـنِ

فعرف صدقه وعَذَره .

ثم هلك عمرو بن أبى كريب ومَرَجَ أمرُ اليمن وتفرق ملكهم طوائف فى غير بيت الملك وقامت بينهم ثورات إلى أن ارتجع الملك ذو نواس وهو صاحب الأخدود التى أهلك بها أهل نجران ففرَّ منهم رجلُ اسمه دوس بن ثعلبان إلى قيصر الروم وأدلى إليه بالنصرانية واستنصره على ذي نواس فكتب له كتابًا إلى النجاشي بالحبشة فأرسل معه جيشاً قُوامه سبعون ألفا حتى استولى على اليمن وهلك ذو نواس غريقًا فى البحر .

واستقرَّ ملك الحبشة باليمن نحواً من سبعين عاماً وغزا منهم أبرهةُ الأشرمُ مكةَ المكرمة بالفيل أيام عبد المطلب فأهلكه الله بالطير الأبابيل ولما اشتد تَعَسُّفُ الحبشة وسومهم أهل اليمن الخَسْفَ خرج سيف بن ذي يَزَن وهو رجل من أهل بيت ملك اليمن ، خرج يستنصر ملوك الجهات عليهم فلم يجد أُذُناً صاغية إلا من كسرى أنوشروان ملك الفرس فبعث معه جيشاً من أهل فارس فقتلوا الحبشة فى كل وجه وتولى سَيْف بن ذي يَزَن على اليمن ومكث فى الملك أربع سنين حتى اغتاله جماعة من الحبشة كان اتخذهم خدمًا .

وبعده انقرضت دولة حمير وبقي ملك اليمن بيد الفرس إلى أن صَبَّحَهم الإسلام و« إلى الله عاقبة الأمور » .

واعلم أن الروايات فى هذا مضطربة جداً والمدة طويلة وأكثرها غامض تاريخه والعلم عند الله تعالى وهو ولى التوفيق .

ذكر ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون الحضرمى نسبًا .

وكان بيت بني خلدون بإشبيلية وانتقلوا منها إلى تونس فى أواسط المائة السابعة للهجرة فَوُلِدَ أبو زيد هذا بها غُرَّةَ رَمضان ٧٣٢ ونشأ بها ثم انتقل إلى فاس فكتب لسلطانها أبى عنان المرِيني ثم سُعي به عنده فاعتقله نحو السنتين إلى أن

مات أبو عنان فأطلق سراحه السلطان أبو سالم ثم ولاه خطة المظالم ثم رجع إلى الأندلس بعد موت أبي سالم ولم يزل برهة من الزمن متنقلاً بين الأندلس والمغرب ينتهز الفرص فى تولى الخطط لدى هذا ولدى هذا إلى أن استقرَّ به الحال فى مصر بعد أن فَرَّ مِن تونس خوفًا من مفتي الجماعة بها وشيخها الشيخ محمد بن عرفة فركب البحر من تونس منتصف شعبان ٧٨٤ ودخل مصر فأقبل عليه سلطانها الملك الظاهر برقوق أول الملوك الجراكسة وولاه قضاء القاهرة ثم عزله بعد مدة ثم حج الفرض ورجع إلى مصر ولم يزل بها يُولَّى القَضَاءَ حينًا ويُعْزَلُ أحياناً إلى أن مات قاضيًا بها وكان موته فجأة فى رمضان ٨٠٨ هـ .

ومن المعلوم أنه ألف تاريخه المشهور الذى ارتبط ذكره به وهو تاريخ برع فى مقدمته فى تحليل المجتمع وإن كان التاريخ فيه مافيه .

نرجو الله لنا ولإخواننا المسلمين حسن الخاتمة ، وبالله تعالى التوفيق .

[وَسَلْ سُلَيْمَانَ ٱلكَلَاعي كم لنا مِنْ خَبَرٍ بَخَيْبرٍ والخَنْدَقِ]
[ويومَ بَدْرٍ وحُنَيْنٍ وتَبُو كَ والسَّويق وبني المُصْطَلِقِ]

مقصود الناظم رحمه الله بهذا الكلام الافتخار بما كان للأنصار رضي الله عنهم من المشاهد العديدة والمقامات الحميدة مع رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فى مغازيه وفتوحاته صلى الله عليه وسلم لأنهم من الأزد والأزد من كهلان بن سبأ والناظم حِمْيري النسب وحمير وكهلان ترجع إليهما أنساب عرب اليمن فافتخاره بهم من هذا القبيل له وجه « والله أعلم » .

وعَدَدُ مغازيه ﷺ التى خرج فيها بنفسه « بأبي وأمي هو » سبعٌ وعشرون غزوة قاتل بنفسه في تسع منها وهى التى أعز الله بها الدين وأظهر بها الإسلام والمسلمين .

وفَضْلُ الأنصار لايحصى ولا يفي به حصر ويكفى فى مدحهم قوله تعالى ﴿ والَّذِين آوَوْا وَنَصَرُوا أُولٰئك هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ (١) وقوله تعالى

(١) الأنفال الآية (٧٢) .

﴿ والَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ والإيمانَ مِن قَبلِهِمْ ﴾ [1] الآية وقوله صلى الله عليه وسلم « الأنصار شِعارٌ والناس دِثار » وقوله صلى الله عليه وسلم « حب الأنصار آية الإيمان وبغض الأنصار آية النفاق » أو كما قال « صلى الله عليه وسلم » .

وقوله « صلى الله عليه وسلم » « لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار » وقوله « صلى الله عليه وسلم » فيهم « إنكم لتكثرون عند الجزع وتقلون عند الطمع » إلى غير ذلك مما يطول تتبعه ، وليس بعد ثناء الله تعالى ورسوله ثناء ولا بعد ذكر الله تعالى ورسوله ذكر ، ولقد صدق حسان رضي الله عنه حيث يقول فيهم :

وكُنَّا ملوكَ الناسِ قبلَ مُحمَّدٍ ... فلمّا أتى الإسلام كنا لنا الفَضْلُ
وأكرَمَنا الله الذي ليس غيره ... إلهاً بأيام مَضَتْ مالَها شَكْلُ
بنصر الإلـه والرسول ودينه ... وألبَسَنَاهُ اسما مَّضَى ماله مِثْلُ
أولئك قومي خيرُ قومٍ بأسرِهم ... فما كان من خيرٍ فقومي له أَهْلُ

حقيق بمن تكون له صلة قرابة مَّا بالأنصار أن يفتخر بهم ووالله إنا لنفتخرُ بهم وما تربطُنا بهم إلا أُخوة الإسلام . اللهم اجْمعنا بهم فى مُسْتَقَرِّ رحمتك إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

ذكر أبي الربيع سليمان الكلاعي

هو أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان الكلاعي البلنسي الشهير بابن سالم ، ينتهي نسبه إلى ذي الكلاع الحميري .

كان رحمه الله من أكابر العلماء بصُقع الأندلس الشرقى حافظًا للحديث مُبَرِّزاً فى نقده تامَّ المعرفة فى طُرُقِهِ ضابطًا لأحكام أسانيده كاتباً وأديباً بليغاً .

كان قاضيًا ببلنسية فعُرِفَ فيها بالعدالة . ولد سنة ٥٦٥ خارج مُرْسِية ، وله

---

(١) الحشر الآية (٩) .

تآليف عديدة منها كتاب الاكتفاء فى مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء وهو الذى يعنيه الناظم ، ومصباح الظُّلَمِ فى الحديث وله مؤلفات غيره لاتحصى .

مات رحمه الله شهيداً فى وقعة أنيجة على ثلاثة فراسخ من بلنسية ضحى يوم الخميس سنه ٦٣٤ هـ ولم يزل « رحمه الله » متقدماً أمام الصفوف زحفًا إلى الكفار والراية بيده وهو ينادى فى المنهزمين أَمِنَ الجنة تَفِرُّون ؟ حتى اسْتُشْهِدَ « رحمه الله وهو أعلم » .

[بِهِمْ فَخَرْت ثُمَّ زِدْتُ مَفْخراً بِأدَبِي الْغَضِّ وحُسْنِ مَنْطقي]
[وَزَادَ عِلْمِي أدَبِي فَلَنْ تَرى مَنْ شِعْرُهُ كشِعْرِيَ اَلمُنَمَّقِ]

الفَخْرُ بالسُّكون ويُحَرَّك ، والفخارُ التَّمدح بالخِصَالِ والمناقِبِ من حَسب ونَسب وغيرهما إما فى المتكلم أو فى آبائه ، وقد فخرت بهم فخرًا ومفخرًا من باب نفع كافتخرت ، وتفاخروا : فَخَرَ بعضُهم على بعضٍ ، وفاخرني مفاخرة وفخاراً عارضني بالفخر ففخرته من باب نصر أى غلبته .

والأدَبُ : يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل ، والجَمْعُ آداب مثل سَبَب وأَسْباب ، والمراد به هنا علوم خاصة تتعلق بلسان العرب ومآثرها وأيامها ومايرجع إلى ذلك .

والغضُّ : الطَّرِيُّ ؛ والتَّنميقُ : التحسين وقد نَمَّقْتُ الشيء تَنْمِيقاً : حَسَّنْتُهُ تحسيناً قال النابغة :

كأن مَجَرَّ الرامساتِ ذيولها عليه حصير نَمَّقَتْه الصَّوانع

[فإن مَدَحْتُ فمَديحي يُشْتَفَىَ بِهِ كَمِثْلِ العَسَلِ المُرَوَّقِ]
[وإن هَجَوْتُ فَهِجَائِي كالشَّجا يَقِفُ فِي الحَلْقِ وَمِثْلُ الشَّرَقِ]

المَدْحُ : الثناء على الشيء بما فيه من الصفات الجميلة خِلْقية كانت أو اختيارية ، والمديح والمِدحة والأُمْدُوحة ما يُمْدَحُ به .

والعسل معروف وهو شِفاء قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [1] .

وقد أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ وقال إن أخي يشتكي بطنه ، قال ﷺ اسقه عسلاً فرجع إليه ثلاث مرات وفى كلها يقول ﷺ اسقه عسلاً فقال الرجل لقد سقيته العسل كلما سألتك يارسول الله ، فقال ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ « صَدَقَ اللهُ وكَذَبَ بَطْنُ أخيك » ، اسقهِ عسلاً » فسقاه العسل فبرىء .

وقوله « المروق » : وصف للعسل أى المصفَّى من راق الماء يَرُوقُ إذا صفا ورَوَّقْتُهُ صَفَّيْتُهُ والراؤوق آلة التصفية .

والهَجْوُ والهجاء : ثَلْبُ الأعراضِ وذِكْرُ معائب الناس بالشعرِ .

والشَّجَا : مقصوراً ما يَنْشِبُ فى الحَلْقِ من عَظْمٍ وغيره ، وقد شجي به كَرَضِيِ شَجاً ، قال الشاعر :

مَنْ يَكِذْني بشيءٍ كنتُ منه كالشَّجا بَيْنَ حَلْقِهِ والوَرِيدِ

والشَّرَقُ : بالتحريك الغُصَّةُ فى الحَلْق ، وقد شَرِقَ بِرِيقِهِ أى غصَّ به .

[فَإنْ يَكُ الشِّعْرُ عَصَى غَيْري فَقَدْ أَطَاعَني فِي عَيْهَقٍ وَحَنَقِ]
[وَإِنْ يَكُن سَيْفاً مُحليٍّ فَقَدْ أَبْلَى نِجَادَهُ عِنَاقُ عُنُقِي]

العَيْهَقُ : النشاط ؛ والحنَقُ بالتحريك الغيظُ أو شدته ، وقد حَنِقَ عليه حَنْقا كَفَرِحَ وأَحْنَقَهُ غيره فهو مُحْنَقٌ كَمُكْرَمٍ ، قالت قتيلة .

ما كانَ ضَرَّكَ لوْ مَنَنْتَ ورُبَّما مَنَّ الفَتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

والتحلية التزيين بالحَلْي بفتح فسكون وهو مايُتَزَيَّنُ به من ذهبٍ وفضةٍ كذا فى الكَشَّاف وقال صاحب القاموس : هو ما يتزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة ، وحُلْية السيف زينته ، والحِلية أيضاً الصفة وجمعها حُلىً بضم الحاء

---

(1) النحل الآية (٦٩) .

وكسره مع القصر ؛ ونِجَادُ السيف حمائله ؛ والعناق بالكسر مصدر عانقه معانقة وعِنَاقاً إذا ضَمَّه والتزمه وهو مأخوذ من العُنُق لأن المتعانقين يجعل كل منهما يده خلف عُنُق الآخر ويضمه إليه ، واعتنقت الأمر أخذته بِجِدٍّ وقوة و « الله أعلم » .

[وَإنْ يَكنُ بُرْداً فَقَدْ صِرْتُ به مُعْتَجِراً دُونَ جَميعِ السُّوَقِ]
[وإن يَكُن تَاجاً فَقَدْ زَادَ سَنًا جَوْهَرُهُ مُذْ حَلَّ فَوْقَ مَفْرِقِي]

البُرْدُ : ثَوْبٌ معروف يجمع فى القلة على أبْرُد وأَبْراد وفي الكثرة على بُرُودٍ ، والبُرْدَةُ بالتاء كساء مربع أسود تلبسه الأعراب .

والاعتِجَار لف العمامة على الرأس قاله فى المصباح وقال غيره الاعتجار بالعمامة ونحوها أن يلفها على رأسه ويرد طرفيها على وجهه ولا يجعل منها شيئا تحت ذقنه .

والسُّوَقُ جمع سُوقة وهو خلاف الملك من الناس وليس المراد به ماكان من أهل السوق خاصة بل كل من عدا المَلِكَ هو سوقة ، قال زهير :

ياحارِ لا أُرْمَيَنْ مِنْكُمْ بِداهيةٍ لم يَلْقها سُوقَةٌ قَبْلي ولا مَلِكُ

ويستوي فى لفظه المفرد والمثنى والجمع قالت بنتٌ للنعمان بن المنذر :

فَبَيْنا نَسوسُ الناسَ والأمرُ أمْرُنا إذا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقةٌ نُتَنصَّفُ

أي نُسْتَخْدَمُ ، ولكنه ربما سمع جمعه على سُوَقٍ كما مشى عليه الناظم .

قال زهير :

يطلب شأوامرأين قدما حسبا نالا الملوك وبذًّا هذه السُّوَقَا

والتَّاجُ ، هو للعجم كالعمامة للعرب ولذا قيل العمائم تيجان العرب ، وتُوِّجَ فلان إذا سُوِّدَ وأُمِّرَ لأنه يَلْبَسُ التاجَ حينئذ كما يقال فى العربى عُمِّمَ ، قال المتنبى

يمدح سيف الدولة :

وفى صورةِ الرُّومي ذي التاج ذِلَّةٌ لأبْلخَ[1] لا تِيجانَ إلَّا عَمَائِمُهْ

والسَّنا ـــ بالقصر : ضوء البرق أو مطلقًا ، وبالمد الرِّفعة والشَّرفُ والمراد به هنا الأول والجَوْهَرُ ، قال في القاموس : هو كل حجر يستخرج منه شيء ينتفع به ، قال فى الأصل : وقد غلب على الخرز الذى يتكون فى جوف الأصداف البحرية ، قالوا إن مطراً ينزل فى بعض أيام السنة فتطفو الأصداف على ثبج البحر وتفتح أفواهَهَا تعرضًا لذلك الماء فإذا أصابها منه شيء انطبقت عليه ثم غاصت به إلى قعر البحر فيتكون فى بطونها جوهراً فما كان منه صغيراً فهو اللؤلؤ وماكان كبيراً فهو الدُّرُّ ، وإذا أصابت الصدفة قطرة واحده كبرت وعظمت فى جوفها حتى تكون كأعظم الدر وهى اليتيمة لأنها لا نظير لها ، وإلى هذا المعنى يشير الشاعر بقوله :

أرى الإحسان عند الحر دَيْناً وعنـد النَّـذْل مَنْـقَصَةً وذمَّـا

كما النيسانِ فى الأصْدافِ دُرٌّ وفى بَطْنِ الأفاعيَ صار سُمَّا

والَمفْرِقُ كمجلس ومقعد وسط الراس حيث يفرق الشعر منه ، قال الأحوص :

فَطَلِّقْهـــا فَلَسْتَ لها بكُفْــؤٍ وإلا يَعْـلُ مَفْـرِقَكَ الـحُسَامُ

[وإنْ يَكُـن حَدِيقَـةً فَطَالَمَـا نَزَّهْتُ فيها خَاطِرى وحَدَقِي]

[وإن يكن بَحْراً فَقَدْ غُصْتُ عَلَى جَوْهَرِه وكُنْتُ نِعْمَ الْمُنْتَقِي]

الحديقةُ فعيلة بمعنى مفعولة وهى البستان يَكون عليه حائط لأن الحَائط أحدق بها أى أحاط ثم توسع فيه في الاستعمال حتى أُطْلق على الروضة ذات الشجر ولو كانت غير محاطة .

لطيفة : قال ابن الأنباري : فى كلام العرب أشياء تختلف أسماؤها باختلاف

---

(1) الأبلخ : الأحمق .

أوصافِها ، فمن ذلك البستان ، فإنهم لايقولون له حديقة إلا إذا كان عليه حائط ، وماأعدَّ لتقديم الطعام عليه لايسمى عندهم مائدة إلا إذا كان عليه الطعام ، والقَدَحُ لايسمى عندهم كأسا إلا إذا كان فيه شراب .

والبئر لاتسمى رَكِيَّةً إلا إذا كان فيها ماء ؛ والدَّلْو لاتسمى سَجْلاً إلا وفيها ماء ، ولا يقال لها ذنوب إلا إذا كانت ملأى .

والإناء لايُدْعى عندهم كوزاً إلا إذا كانت له عُرْوة
والمحل لايدعى عندهم ناديًا إلا وفيه أهله
والسَّرير لايدعى عندهم أريكة إلا إذا كانت عليه حجلة
والمرأة لاتدعى عندهم ظَعِينةً إلا مادامت راكبة فى الهَوْدَج
والسِّتْرُ لايدعى عندهم خِدْرًا إلا إذا اشتمل على امرأة
والقدح لايسمى سهما إلا إذا كان له نصل وريش .
والطبق لايدعى عندهم مِهدىً بكسر الميم إلا مادامت فيه الهدية .
والشجاع لايدعى عندهم كَمِيّاً إلا إذا كان شاكي السلاح .
والصوف لايدعى عندهم عِهناً إلا إذا كان مَصْبوغا .
والثوب لايدعى عندهم مِطْرفاً إلا إذا كان فى طَرَفَيْه عَلَمَان .
والريق لايدعى عندهم رُضَاباً إلا مادام فى الفم .
والمرأةُ لاتدعى عندهم عانسًا وعاتقًا إلا مادامت فى بيت أبويها
والتَّنَزُّهُ : أصله فى اللغة التباعد عن المياه والأرياف ، ومنه قولهم فلان يتنزه عن الأقذار أى يتباعد عنها قال في القاموس : واستعمال التنزه فى الخروج إلى البساتين والخَضِرِ والرياض غلط قبيح .

وقال ابن قتيبة : ذهب بعض أهل العلم فى قول الناس ذهبوا يتنزهون إلى البساتين أنه غلط وهو عندى ليس بغلط لأن البساتين فى كل بلد إنما تكون خارج البلد فإذا أراد أحد أن يأتيها فقد أراد البعد عن المنازل والبيوت ثم كثر استعماله حتى استعملت النزهة فى الخَضِرِ والجِنانِ .

وقول ابن قتيبة هذا يصحح ماذهب إليه الناظم من إطلاق التنزه فى البساتين .

والخَاطِرُ : قال صاحب القاموس : الهاجس وجمعه خواطر ، والناظم أراد به الفكر والبال نفسه لأنه محل ذلك الوارد وبه يقوم .

والحَدَقُ جمع حدقة وهى العين أو سوادها .

والمُنْتَقِي من الانتقاء وهو الاختيار والتنقي التَّخَيُّر والمُنْتَقَى المُخْتَار ونُقاوة ونُقايته بالضم فيهما خِيارُه ، و« الله أعلم » .

[وَهَلْ أَنَا إِلَّا ابْنُ ونَّانَ الَّذى قَرَّبَهُ كَمْ مِنْ أَمِيرٍ مُرْتَقِي]

هَلْ : هُنا مستعملة للنَّفي بمعنى ما ، وكما فى قوله تعالى ﴿ **هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إِلَّا الإِحسان** ﴾ (١) وأصل هل أن تكون للاستفهام عن النسبة .

التَّعرِيفُ بابنِ الوَنَّانِ ناظِمِ هذه الأُرْجُوزَةِ

هو الفقيه الأديبُ أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن الونّان الحِمْيَري النسب التواتّي الأصل الفاسي الدار والمولد والمنشأ ، كان سلفه بوطن توات ــ بلد بصحراء المغرب الأقصى ــ قلت : وهى الآن من أعمال الجزائر .

ويرجع سلف الناظم فى نسبه إلى عرب المَعْقِل بالصحراء ، وقد تَردَّد كلام ابن خلدون فى نسب هؤلاء هل هم من مَعْقِل قضاعةَ وَعَلَيْهِ فَهُمْ من حِمْير بناء على أن قضاعة من حِمْير لا من مَعَدٌ ، أو هُمْ من معقل مَذْحج وَعَلَيْهِ فَهُمْ من كهلان . وهذا الثانى هو الراجح عنده ، على أنه ذكر أن قبائل أخرى دخلت فيهم وليست منهم ، قلت : رجح العلامة الشيخ أحمد البدوى المجلسى الشنقيطى كون قضاعة من حِمْير حيث يقول فى عمود النسب .

أو هو هودٌ وجميع العُرْبِ بعدُ لقحطان وعدنان انْسُبِ
قضاعةٌ مُذَبْــذَبٌ بينهمــا فَلِمَعَدٌ عِنْــدَ قَوْمٍ انتمــى

(١) الرحمٰن الآية (٦) .

وهُوَ وبلْة ما يقول المزدرى قضاعة بن مالك بن حِمْيَرِ
وأمـه عُكْبُـرَةٌ على حَبَـلْ من مالك اتخذت منه بدل

وفى الروض الأنف للحافظ السهيلى فأما قضاعة فأكثر النسابين يذهبون إلى أنَّ قضاعة هو ابن معد وهو مذهب الزبيريين وابن هشام وقد روى من طريق هشام بن عروة عن عائشة عن النبى ﷺ أنه سئل عن قضاعة فقال : « هو ابن معد ، وكان بِكْره » ، قال أبو عمر : وليس دون هشام بن عروة فى هذا الحديث من يحتج به ، وقد عارضه حديث آخر عن عقبة بن عامر الجهني ، وجهينة هو ابن زيد بن ليث بن سود بن أسلُم بضم اللام بن الْحاف بن قضاعة ، أنه قال : يارسول الله لمن نحن ؟ فقال : أنتم بنو مالك بن حمير .. إلى أن قال : ولما تعارض القولان فى قضاعة وتكافأت الحِجَاجُ ، نظرنا ، فإذا بعض النسابين وهو الزبير بن بكار ، قد ذكر مايدل على صدق الفريقين ، وذكر ابن الكلبي أو غيره أن امرأة مالك بن حمير ، واسمها عكبرة ، آمت منه وهى ترضع قضاعة ، فتزوجها معد فهو رابُّه فتبناه وتكنى به ، ويقال بل ولدته على فراشه فنسب إليه وهو قول الزبير ، ا. هـ محل الحجة منه .

وأما عرب المعقل فإنهم توجد منهم قبائل كبيرة شهيرة فى موريتانيا ، منهم أولاد مبارك فى الحوض وأولاد يحيى بن عثمان فى المنطقة الشمالية ، وأولاد دَليم بالشمالية أيضاً ، ومنهم الترارزة والبراكنة وأولاد بيارى بالمنطقة الغربية الشمالية ومنهم أولاد داود بأقصى الحوض الشرقى ، إلى غير ذلك .

وقد ذكر لي غير واحد منهم أنهم ينتمون لجعفر بن أبى طالب « والله تعالى أعلم » .

على أن بهم شيما تدل على عراقة النسب وعلو الهمم ، وإن منهم من تنتهي إليه إمارة المنطقة التى يقطنها ، عِلمًا بأن القاعدة الفقهية تقول :

« الناس مصدقون فى أنسابهم إذا ادعوه وحازوه جوز الإملاك » .

والعلم عند الله تعالى ، ولكن يرد على ذلك افتخار الناظم بالنسب الحميرى كما علمت ـــ .

« رجوع إلى ذكر الناظم » .

قد كان سلف الناظم « رحمه الله » بفاس يدعون أولاد الوثّان لايعرفون إلا بذلك حتى مدح والد الناظم السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل فكناه بأبى الشمقمق وعلق بهم هذا الاسم واشتهروا بهذه الكنية ، فكان والد الناظم لايعرف إلا بذلك ؛ ولما نظم هذه الأرجوزة مادحا بها نفس السلطان وتعذر عليه الوصول إليه ، تحين خروجه فى بعض الأيام فاعترض موكبه وصعد محلا عاليًا ونادى بأعلى صوته

ياسيدى سبط النبي أبو الشمقمق أبي

فعرفه الأمير وأمر بإحضاره إليه بعد أن وصل إلى منزله فأنشده الأرجوزة ووقعت منه موقعها اللازم فقرب منزله وأعلا مكانه وأجزل صلته ، وكان الناظم شاعراً ماهراً وفحلا هادراً ، ذا قريحة وَقّادة ، وذا وجد وإجادة . ومن شعر الناظم فى الترفع عن أخذ الزكاة .

أمّا الزكاةُ فإن النفس تأنف أن يُلَوِّثَ الكفَّ مِن أوساخها قَنَصُ
كأن نسبة أموال البرية لى دون النصاب من الأموال أو وُقَصُ
وأكرَهُ الدرهمَ الفضِّيَّ أنظُرهُ حتّى كأنَّ بياض الفضَّةِ البَرَصُ

وقال رحمه الله عن بخلِ كبراء عصره وأمرائه عن أدباء زمانهم ، وهو معنى لطيف

قد لاحَ لى عُذْرُ الكِرام ، فَصدُّهُم عن أَوْجُهِ الشُّعَراءِ ليس بعَارِ
لم يَسْأَمُوا بَذْلَ النّوالِ وإنّما جَمَدَ النَّدىَ لبرودة الأشْعَارِ

هذا وقد أغنى الناظم الناس عن التعريف به فقال معرفًا نفسه

[أحَقُّ مَنْ حُلِّي بالْأُسْتَاذِ وَالـ ـشَّيْخ الفَقِيهِ العالم المحقِّق]
[وَبالْمُحَدِّثِ الشَّهير والأدِيـ ـبِ والمجِيد والْبَلِيغ الْمُفْلِق]
[وأعَلم النَّاسِ بدُون مِرْيَةٍ سِيَّانِ مَنْ بمَغْرب وَمَشْرِق]
[بالشِّعْرِ والتَّاريخ وَالأمْثَالِ والـ أنساب سَلْ تُصَدِّق]

قوله : أحق من حلى : الأحق بالشيء : الأولى به من غيره تقول هو حقيق بكذا أي : جدير به ، وفى المصباح : قولهم هو أحق بكذا يستعمل بمعنيين أحدهما اختصاصه به من غير مشاركة نحو زيد أحق بماله أي لاحق لغيره فيه والثانى أن يكون أفعل تفضيل فيقتضى اشتراكه مع غيره وترجيحه عليه وهو المراد هنا « والله أعلم » . .

والأُسْتَاذُ : هو بضم الهمزة وبالذال المعجمة لفظة فارسية عربتها العرب ومعناها عند الفرس العالم بالشيء الماهر فيه ، نسبه فى الأصل للزمورى فى شرح لغات الشفاء ، قالوا والسَّين والذال المعجمة لاتجتمعان فى كلمة عربية ، وقال فى الأصل أيضا : إن أهل الشام والجزيرة يطلقون الأستاذ على الخصي .

والأديبُ : هو العارف بفن الأدب ، قال ابن خلدون : هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب وما يتوقف عليه ذلك من محفوظ ومفهوم ، قال وإذا أراد أحد حدَّ هذا الفن قالوا : الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ فى كل علم بطرف ... إلى أن قال : وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أركان هذا الفن أربعة دواوين : « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، وكتاب « الكامل للمبرد » والبيان والتبيين للجاحظ ، « والنوادر » لأبي علي القالى ثم رجح كتاب الأغانى عليها كلها .

قلت : وفى الأغانى من المجون مالا تسكن له نفس طالب العلم النزيه إذ هو عبارة عن مدرسة للخلاعة برع صاحبها فى جذب القلوب إلى رواجها . ولو اطلع ابن خلدون على زهر الأفنان من حديقة ابن الونان أو على شرح مقصورة حازم لما رجح عليهما الأغانى بل ولا كان له وزن فى نظرى عنده بالنسبه إليهما لما يسلكان من سبيل النزاهة عن الدعوة للخلاعة علمًا بأنه لايسلم مؤلف فى علم الأدب من ذكر طرف وملح فى المناسبات قد تصنف من ذلك الصنف وتكون للقارئ من باب الحمض يحمض بها كالإبل فى أكل المرارة و« بالله التوفيق » .

والمفلق : اسم فاعل من أفلق الشاعر إذا أتى بالفِلْق بكسر الفاء وسكون اللام وهو الأمر العجيب وأصله الداهية قال الجاحظ يقال للشاعر المجيد فحل ولمن قوله دونه مفلق ، ثم شاعر ثم شويعرٌ ثم شعرورٌ وزاد فى القاموس متشاعر .

والمرية الشك ، وسيان بمعنى مثلان أي متساويان تثنية سيٌّ كمثل وزنًا ومعنىً والتاريخ ، أصله فارسى معرب أصله بالفارسية ماه روز فماه هو الشهر وروز اليوم ومعناه يوم الشهر وعادتهم أن يقدموا المضاف إليه على المضاف ، ثم إن العرب نقلت لفظ ماه روز إلى مأروخ بصيغة اسم المفعول ثم شددوه وتصرفوا فيه .

والتاريخ فن جليل الفائدة ، لكنه ينبغى لمن اشتغل به أن يتحرى الصدق فيما ينقله وأن ينسب القول فى ذلك إلى قائله فعهدته عليه والله ولى التوفيق .

والأمْثَالُ : جمع مَثَلٍ وهو القول السائر المشتبه مضربه بمورده ، وهو فن فى غاية الشرف لا يتم لغة اللغوى ونحو النحوي ولا أدب الأديب إلا به والجاهل به كأنه لم يتروح رائحة الأدب ولا له مساس بكلام العرب .

ولبعضهم : يجتمع فى المثل أربعة لاتجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة .

والأنسابُ : جمع نسب بالتحريك وعلم الأنساب هو علم العرب القديم الذى انصرفت عنايتهم إليه وذلك أن حاجتهم إليه ضرورية لايمكنهم العيش بدون معرفه أنسابهم والاحتماء بقومهم وعشائرهم فكان حفظ النسب عندهُم من ضروريات الحياة بخلاف غيرهم من الأمم الذين كانوا يضبطهم الملك وتحميهم الأسوار فكانوا فى غنىً عن حفظ النسب والاعتصام به ولذلك لما جاء الإسلام وانتقل العرب إلى القرى والأمصار وضبطتهم الملوك والحكام كغيرهم من الأمم ضاعت أنسابهم ، فقل من تجد منهم اليوم ممن تقادم عهده بالمدن يحفظ نسبه .

تنبيه : اختلف العلماء فى رفع الأنساب فكره ذلك مالك بن أنس رحمه الله وكثير من علماء السلف ونقله ابن أبى زيد فى الرسالة ، وقالوا من أين يعلم ذلك ؟ وذهب كثير من أئمة المحدثين والفقهاء إلى جواز ذلك محتجين بعمل السلف الصالح وأن الحاجة ماسة إليه فى كثير من المسائل الشرعية مثل التعصيب فى الإرث والولاية فى النكاح والعاقلة فى الديات والعلم بنسب رسول الله ﷺ وأنه ، « بأبى وأمى هو » ، القرشى الهاشمى الذى هاجر من مكة إلى المدينة وتوفي بها إلى غير ذلك مما يدعو إلى معرفة الأنساب .

والتحقيق إن شاء الله أن لكل من المذهبين وجهًا : فأما الأنساب البعيدة العسيرة المدرك التى لاتنبني عليها ثمرة دينية ولا دنيوية فالاشتغال بها مما لا يغني وعليه يحمل قول مالك ومن وافقه .

وأما الأنساب القريبة التى هى متعلق كثير من الأحكام الشرعية فلابد من علمها وبالله تعالى التوفيق .

تتمةٌ : لقد مدح الناظم نفسه هنا بما لامزيد عليه ومدح الإنسان نفسه مستهجن شرعًا وطبعًا ، سئل حكيم ما الذى لايحسن وإن كان حقا ؟ فقال مدح الإنسان نفسه ، وسأل معاوية « رضى الله عنه » رجلاً : من سيد قومك ؟ فقال أنا سيدهم ، فقال معاوية : لو كنت كذلك لم تقلها .

غير أنه يغتفر للشاعر مالا يغتفر لغيره فيجوز فى الشعر مالا يجوز فى النثر وهذا من المسلَّم به ؛ وقد مدح بعضهم نفسه واعتذر عن ذلك كما يحكى عن الأهوازى أنه قال : أصبحت والله أظرفَ الناس وأشعر الناس وأكثَر الناس أدباً ، فقال أحد اسكت حتى يقولها غيرك ، فقال : أنا منذ ثلاثين عاما أنتظر الناس أن يقولوا فلم يفعلوا .

ومدح أعرابى نفسه فعوتب فقال : أآكله إليكم ؟ إذًا لاتقولوه أبداً .

قال فى الأصل : وهذا لعمرى عذر الناظم فإنه كان رحمه الله نادرة الدهر فى

الشعر والبلاغة والأدب بحيث إن الأيام لم تسمح بمثله منذ عصور ، ومع ذلك فلم يوجد من اعتنى بأخباره ولا بالتعريف به كما ينبغي حتى إننا بحثنا عن مولده ووفاته فلم نظفر بهما فضلاً عما دُونَ ذلك من جمع ديوانه وشرحه وماذلك إلا لأفول شمس العلم وقصور الهمم وزهد أبناء الزمان فى المعارف ومن ينتمي إليها ؛ فهو معذور فى مدحه لنفسه على نحو ما يقول ابن الرومى :

وعزيزٌ عليَّ مدحي لنفسي غير أني جَشِمْتُـهُ للدَّلالَـهْ
وهو عيب يكاد يسقط فيه كُلُّ حُرٍّ يريدُ يظهرُ حالـهْ

قُلتُ : والمصيبة التي أصابت الناظم بالهضم وغمط مايستحقه لا يسلم منها مغترب ، قال أبو الطيب .

ما هكذا كنت فى أهلي وفى وطني إنَّ النفيس غريبٌ حيثما كانا

وقضية أهل مصر مع أبي عبد الله بن مرزوق معروفة حيث طلبوا منه أن يفسر لهم بالجامع بالأزهر آية من كتاب الله واتفقوا معه على المرجع فلما جلس على المنبر سَمَّعَ القارىء آية غير التى ذكروا له هي قوله تعالى ﴿ **واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها** ﴾ الآية ، فشرع رحمه الله ينفق مما آتاه الله حتى بلغ قوله تعالى ﴿ **فمثله كمثل الكلب** ﴾ الآية شرع يعدد فضائل الكلب وذكر أنه فيه خصلة مذمومة هي كونه ينبح الضيف تعريضا لهم ثم نزل عن المنبر .

[فبَشرن ذاك الحسودَ أنـــه يظفر فى بحر الهجا بالغرقِ]
[وقل له إذا اشتكى من دنسٍ أنت الذى سلكت نهج الزلقِ]
[وفقت فى الجرأة خاصي أسدٍ فمت بغيظك وبالريق اشْرِق]

الحسود صفة مبالغة من الحسد وهو تمني زوال النعمة عن المحسود وانْتِقَالِها إلى الحاسد أو تمنى زوالها فقط ، والحسد مذموم شرعًا وعادة ، والمأذون فيه هو الغبطة وهى أن لا يحب المرء زوال النعمة عن صاحبها ولا يكره وجودها عنده ولكنه يشتهى لنفسه مثلها ، وهذا هو المراد بقوله ﷺ « **لاحسد إلا فى اثنتين** »

الحديث . والظفر بالتحريك تقدم الكلام عليه عند قول الناظم : فإن ظفرت بالمنى من قربها ، والغَرق هو بالتحريك مصدر غرق فى الماء يغرق كفرح يفرح إذا رسب فيه فهو غَرِقٌ وغارق ، وحكي عن الخليل أنَّ الغَرِق هو الراسب فى الماء من غير موت ، فإن مات غَرَقاً فهو غريقٌ .

والدَّنَسُ : بالتحريك الوسخ بالثوب ونحوه ، وقد دنس دنساً من باب فرح فهو دَنِسٌ ودنَّسه تدنيساً فعل به مايشينه ، ويستعمل فى العرض مجازاً .

والنَّهْجُ : بفتح فسكون الطريق الواضح كالمنهج بفتح الميم والمنهاج بكسرها ، وقد نهج الطريق نهوجًا وضح واستبان .

قوله : وفقت فى الجرأة خاصي أسد : أى تجاوزت وتعديت فى الجراءة خاصي الأسد والجراءة : الإقدام ؛ والخِصاء بالكسر سَلُّ خُصْيَتي الحيوان فهو خصي فعيل بمعنى مفعول به ، والغيظ الغضب المحيط بالكبر وهو أشد الحنق ، وفى التنزيل : « **قل موتوا بغيظكم** » وهو مصدر غاظه إذا أغضبه ، وفى المصباح : لا يكون الغيظ إلا بوصول مكروه إلى المغتاظ ، وقد يقام الغيظ مقام الغضب فيقال : اغتاظ من لا شيء كما يقال غضب من لا شيء .

ذكر خاصي الأسد وما قيل فيه

قال فى « مجمع الأمثال » إن حراثاً كان يحرث فأتاه أسد فقال له ما الذى ذلَّل هذا الثور حتى يطيعك قال خصيته ؟ قال وما الخِصاءُ ؟ قال : ادنُ مني أريكه فدنا الأسد منه منقادًا ليعلم ذلك فشده وثاقًا وخصاه ، فقيل أجرأ من خاصي الأسد ، وقال الشيخ اليوسى فى « زهر الأكم » : تزعم العرب أن خاصي الأسد كان رجلا مر به الأسد فوجده يحرث بثورين بادنين فقال له ياحراث ماأسْمَنَ ثوريْكَ فبم أسمنتهما ؟ فقال الحراث إنى خصيتهما فسمنا فقال الأسُد فهل لك أن تخصينى عسى أن أسمن سمنهما ؟ قال نعم ، فأمكنه الأسد من نفسه فسطا الحراث عليه وخصاه ، قالوا فمر الأسد ودمه يسيل حتى رقي ربوه فأقعى عليها حزينًا ينظر

إلى الحراث فبينما هو كذلك إذا بثعلب مر به فقال له مالي أراك حزينًا يا أبا الحرث ؟ فذكر له مافعل به الحراث وما دهمه من ألم الخصاء فقال له الثعلب هل لك فى أن آتى الحراث وأستدبره عسى أن تمكننى منه فرصة فآخذ لك بالثأر منه ؟ فقال نعم ، فداك أبي وأمي ، فمضى الثعلب وجعل يراوغ الحراث ويطيف به فتناول الحراث حجراً وقذفه به فدق فخذه فكسرها فأتى الأسد وهو على ثلاث قوائم فأقعى معه على الرابية يشكوان بينهما ما مُنيا به من ذلك الحراث حتى مرت بهما نعرة فقالت لهما مالكما على هذه الحالة ؟ فأخبراها خبرهما فقالت لهما أنا آتيه فأستدبره حتى أدخل فى أنفه فَجاءت إليه وتغافل الحراث عنها حتى إذا دنت منه قبض عليها وأخذ عوداً فدسه فى إستها وأرسلها فجاءت إلى الأسد والثعلب وهي في شر من حالهما ، وقد سدَّ العود دبرها ومنعها وأثقلها عن الطيران ، فبينما هم جلوس على الربوة يتشاكون إذ جاءت امرأة الحراث بطعامه فتقدم الحراث ورفع رجليها ليباشرها وهو بمرأى من تلك الحيوانات ، فقال الأسد : ما ترون هذا المشئوم يفعل بتلك المسكينة ؟ واللهِ إنى لأظنه يخصيها ، فقال الثعلب ما أظن إلا أنه يكسر فخذها ، فقالت النعرة : لا والله بل يدخل فى إستها عوداً .

وقيل فى خصي الأسد إنها هى الإصبع التي يفترسُ بها من براثنه « والله تعالى أعلم » .

[وَمَا الَّذِى دَعَاكَ يَا خبُّ إلَىَ ذَا الأُفْعُوانِ ذى اللّسَانِ الْفَرِقِ]
[نَطَقْتَ بِالزُّورِ أَمَا كُنْتَ تَعِي أنَّ الْبَلَا مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ]
[ولم تَخَفْ مِن شَاعِرٍ مَهْمَا انتضَى سَيْفَ الهِجَا فَرَى حِبَالِ الْعُنُقِ]

الخَبُّ : بفتح الخاء المعجمة الخبيث الخداع ، وفى الحديث « المؤمن غِرٌّ كريمٌ والْفَاجِرُ خبٌّ لَئيمٌ » .

والأُفْعُوَانُ : هو بضم الهمزة والعين ذَكَرُ الأفاعي كالثعلبان لذكر الثعالب والعقربان لذكر العقارب ، قال الدميري : كنية الأفعُوان أبو حيان وأبو يحيى لأنه

يعيش ألف عام ، وهو الشجاع الأسود يواثب الإنسان وهو شر الحيات .

والزُّورُ : الكذب وهو من الازورار الذي هو الانحراف ، وزوَّر فلان كلامه زخرفه .

والوَعْيُ : الحفظ كأنه مشتق من الوعاء الذي هو الظرف لأن من حفظ مسألة في ذهنه فكأنه خزنها فى وعاء ، وقالت الحكماء إن بالدماغ بطناً يسمى الحافظة هو خزانة المحفوظات .

وانتضى السيفَ من غمده إذا سله منه ؛ وفرى حبال العنق قطعها ، يقال فريت الأديم إذا قطعته على وجه الإصلاح وأفريته إذا قطعته على وجه الإفساد وعن الزمخشري يقال أفريت وما فريت يعني أفسدت وما أصلحت .

أوَّلُ من قال البلاء موكل بالمنطقِ

أول من قال البلاء موكل بالمنطق هو أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ ، وذلك لما أمِر « صلى الله عليه وسلم » بعرض نفسه على قبائل العرب وخرج معه أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ حتى بلغا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر وكان نسابة فسلم فردوا عليه السلام فقال : ممن القوم ؟ فقالوا من ربيعة ، قال وأيُّ ربيعة أنتم ؟ من هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا من هامتها العظمى . قال فأي هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا ذهل الأكبر ، قال أفمنكم عوف الذى كان يقال « لَا حُرَّ بِوَادى عَوْفٍ » ؟ قالوا لا ، قال أفمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار ؟ قالوا لا ، قال أفمنكم بسطام بن قيس ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا لا ، قال أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالو لا ، قال أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا لا ، قال فأنتم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا لا ، قال فأنتم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا لا ، قال فلستم ذهلاً الأكبر إنما أنتم ذهل الأصغر . فقام إليه غلام من القوم حين بقَلَ وجْهُهُ وقال :

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

يا هذا إنك قد سألتنا فلم نكتمك فمن الرجل ؟ فقال أبو بكر — رضي الله عنه : من قريش قال بخ بخ أهل الشرف والرئاسة فمن أيِّ قريشٍ أنت ؟ قال من تيم بن مرة ، قال الآن أمْكَنْتَ الرَّامِيَ من سَوَاءِ الثُّغْرةِ ، أفمنكم قصي بن كُلاب الذى جمع الله به القبائل من فهر فكان يدعى مجمعاً ؟ قال لا ، فمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف ؟ قال لا ، أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذى كان وجهه قمر يضيء فى الليلة الظلماء الداجية ؟ قال لا ، أفمن المفيضين بالناس أَنْتَ ؟ قال لا ، قال أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال لا ، أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال لا ، قال أفمن أهل السقاية أنت ؟ قال لا ، واجتذب أبو بكر زمام ناقته ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغلام :

صَادَفَ دَرْءُ السَّيْلِ دَرْءٌ يَدْفَعُهْ يَهِيضُهُ حِيناً وحَيناً يَصْرَعُهْ

أما والله لو تلبثت لأخبرتك أنك من زمعات قريش ، أو ما أنا بدغفل ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لأبى بكر : « لَقَدْ وَقَعْتَ مِنَ الْغُلَامِ عَلَى بَاقِعَةٍ » . قال أجل إن لِكُلِّ طَامَّةٍ طَامَّةً ، وإِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ .

وقيل إن قائل الكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الغلام هو دغفل ابن حنظلة المشهور أسلم وعاش إلى خلافة معاوية — رضي الله عنه — ووفد عليه وأُعْجِب مُعَاويةُ بعلمه وقال بم أدركت هذا العلم ؟ فقال بلسان سئول وقلبٍ عقول .

قلت : وذكروا أن معاوية — رضي الله عنه — سأله هل أدرك فيمن أدرك عبد المطلب بن هاشم ؟ قال نعم ، قال يرحمك الله كيف أدركته ؟ قال أدركتُه هشاً بشاً بدر تمام تحفة عشرة بدور ، قال معاوية — رضي الله عنه — : وهل أدركت فيمن أدركت أمية بن عبد شمس ؟ قال نعم ، قال معاوية — رضي الله عنه — : يرحمك الله كيف أدركته ؟ قال أدركته أُزيرق يقوده عبده ذكوان ،

فتبسم معاوية وقال ويحك ذاك ابنه أبو عمرو ، قال دغفل أنتم تقولون ذلك يا بني أُمية .

وقد أشار إلى هذا العلامة المجلسي الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي بقوله :

ودغفل النسابة السئولُ لسانه وقلبه عقولُ
سأله عن كنه عبد المطلبْ وعن أمية معاوي فسبْ
أمية لكونه أزيرقا يقوده ذكوان عبد أُلحقا
بعْدُ به والمصطفى نفاهُ إذ لقريش عقبة نماهُ
وقال فى شيبة عبد المطلبْ بدر تحفه بنون كالذَّهَبْ

وقوله (إذ لقريش عقبة نماه) يشير به إلى ما حصل فى عرق الظبية فى قفول رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر حيث إنه لما عرض الأسرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحَدَّ النظر فى عقبة بن أبى مُعيط قام عقبة يحرض المهاجرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أأقتل صبراً بين قريش ؟ بين من أنا إذاً ؟ وذلك لظنه أنه من صميم قريش من عبد شمس بن عبد مناف ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « حنَّ قدح ليس منها إنك من يهود صفورية » أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، وقيل إن الذى قال هذا عمر بن الخطاب ولكن بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم « والله أعلم » .

[فَلْتَقِ نَفْسَكَ بكَفَّيْكَ وَلَا تَسُمْ فَصِيحَ النُّطْقِ بالتَّشَدُّقِ]
[فَذَاكَ خيرٌ لَّك واسْتَمِعْ إلى نُصْح الْحَكِيم الْمَاهِر المُحَقِّقِ]

الوِقَايَةُ : الحفظ وقد وقاهُ الله السوء وِقاية بالكسر حفظه والوقاء مثل كتاب كل ما وقيت به شيئاً ، والتمشدق بالميم كلمة مولدة وإنما العربية المحضة التشدُّق بشد الدال بلا ميم ففي الصحاح وغيره المتشدق الذى يلوى شدقه للتفصح .

[فكُنْ مُهذَّبَ الطِّبَاعِ حَافِظاً لِحكَمٍ وأدَبٍ مُفْتَرِقِ]
[وعَاشِرِ النَّاسِ بحُسْنِ خُلُقِ تُحْمَدْ عَلَيْهِ زَمَنَ التَّفَرُّق]

التَّهْذِيبُ : التنقية والإصلاح تقول هذبت النخلة إذا نقيت عنها الليف ، ورجل مهذب منقح الأخلاق ، قال نابغة ذبيان :

ولستَ بمستبقٍ أخـا لاتلمـه   على شعثٍ أى الرجال المهذب ؟

والطباع بالكسر السَّجية التي جبل عليها الإنسان وهو لفظ مفرد يجمع على طُبُعٍ ككتاب وكتب ، وليس الطباع جمعاً لطبع كما يتوهم .

[ولَا تُصَاحِبْ مَن يَرى لِنَفْسِهِ   فَضْلاً بِلَا فَضْلٍ وغَيْرَ المُتَّقي]
[وكُلُّ مَنْ لَيْسَ له عَلَيْكَ مِنْ   فَضْلٍ فَلَا تُطْمِعْـهُ بِالتَّمَلُّـقِ]

معنى البيتين معروف ظاهر ، والأول منهما يشير إلى المثل المشهور « ولا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له » وفى مثل هذا يقول الشاعر جحظة البرمكى :

تَذلَّلْ لِمَنْ إن تَذَلَّلْت لَهْ   يَرى ذاكَ لِلْفَضْل لا لِلْبَلَـهْ
وجَانِبْ صَدَاقَة من لَمْ يَزلْ   عَلَى الأَصْدِقَاءِ يَرى الفَضْلَ لَهْ

والتواضع محمدة وهو أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس ولا تذلل ، بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطي كل ذي حق حقه فى تواضع وعزة نفس والله الموفق .

[وَفَوِّقَـنْ سَهْمَ النُّمَيْرِىِّ لِمَنْ   لِطُرقِ الْعَلْيَـاءِ لم يُوفَّـقِ]

فَوَّق السهم تفويقاً إذا جعل له فَوْقاً وهو الحزُّ الذي يجعل فيه الوتر ، وإذا وضعت السهم فيه لرَمي قلت أَفَقْته إفاقةً ؛ وأمَّا السهم فهو واحد النبل وقيل السهم نفس النصل ، والنميري يأتى خبره .

والعلياء فعلاء من العلو وهي فى الأصل وصف للمنزلة العالية حسّاً أو معنىً ثم كثر استعمالها فى الخصلة المحمودة حتى التحقت بالأسماء .

ومعنى البيت الحث على علو الهمة والترفع عن سفاسف الأمور .

ذكر سهم النميرى

النميري هذا الذي يُنْسَبُ إليه هذا السهم الذى يضرب به المثل هو أبو حية الهيثم بن الربيع بن زرارة من بني نمير بن عامر بن صعصعة ، وهو شاعر مشهور كان من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية .

وكان من خبره أنه لكذبه ادعى يوماً أنه رمى ظبيًا بسهم فراغ الظَّبْيُ عن السهم فعارضه السهم ثم راغ فعارضه فمازال يروغ ويعارضه السهم حتى أصابه .

ويحكى : أنه قال إنه رمى ظبية بسهم ثم تذكر بالظبية حبيبةً له فعدا خلف السهم حتى أخذه وقبض على قذذه قبل أن يدرك الظبية ، فصار مضرباً للأمثال لدى الشعراء ، وممن ضرب به المثل « ابن نباتة » حيث يقول :

وبديع الجمال لم ير طرفي مثل أعطافه ولا طرف غيري
كلما حِدْت عن هواه أتاني سهم ألفاظه كسهم النميري

وأبو حية هذا مشهور بالكذب والجبن وله نوادر كثيرة فى ذلك مسطورة فى الأغاني .

[وَافْعَلْ بِمَنْ تَرْتَابُ مِنْهُ مِثْلَ فِعْـ ـلِ المُتَلَمِّسِ اللَّبيب الحَذِقِ]
[ألقى الصَّحيفَةَ بِنَهْرِ حِيرَةٍ وَقَالَ يا ابْنَ هِنْدٍ ارْعِدْ وازْبُدِ]

الارتياب : الشك والتهمة فإذا قلت ارتبت فيه فمعناه شككت وإذا قلت ارتبت منه فمعناه اتهمته أو تخوفت منه وهو المراد هنا .

واللبيب العاقل وجمعه أَلِبَّاءُ وهو من اللُّبِّ بالضم وهو العقل وأصله الكامل من كل شيء ، وقد لَبِبْتَ بالكسر تَلَبُّ لَبابة أي صِرْتَ ذا لُبٍّ .

والحاذق : الماهر ، وقد حذق الصبي القرآن : مهر فيه .

الصحيفة الكتاب والجمع صحائف وصُحُف ؛ والحيرة بلد معروف .

وأرعد الرجل وأبرق إذا أوعد وتهدد ، قال ابن أحمر :

يا جل ما بعُدت عليك بلادنا وطلابنا فابرق بأرضك وارعد

ذكر الحيرة وما قيل فيها

الحيرة بالكسر : بلد قريب من الكوفة والنسب إليها حيري على القياس وسمع حَارِيٌّ على غير قياس وهى غير داخلة فى حكم السواد لأن خالد بن الوليد فتحها صلحاً فى زمان أبى بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ ثم كان فتح السواد فى زمان عمر ــ رضي الله عنه ــ ، والحيرة كانت فى الجاهلية دار ملك اللخميين من آل المنذر .

وقيل سميت بالحيرة لأن أبا كريب أحَدَ التبابعة كان قد غزا المشرق فمر بأرض الحيرة فتحيَّر عسكره هناك فخلف فيها قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة .

ذكر المتلمس وصحيفته

أما المتلمس فهو جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد بن دوقل بن حرب ابن وهب بن جلى بن أحمس بن ضبيعة وهو الأضجم بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الضبعى ، وإنما سمي بالمتلمس باسم الفاعل لقوله من قصيدة :

فهذا أوان العرض طن ذبابه زنابيره والأزرق المتلمس

وهو من ضبيعة أضجم كما ذكرنا ، وأما صاحبه وابن أخته طرفة بن العبد فهو من ضبيعة قيس وكان المتلمس قد نشأ فى أخواله من بنى يشكر ويقال إنه ولد فيهم وساكنهم حتى كادوا يغلبون على نسبه ، وهو أحد الثلاثة المقلين الذين اتفق العلماء بالشعر على أنه أشعرهم : المتلمس والمسيب بن علس والحصين بن

الحِمام ، وقال ابن فضل الله فى حقه : هو رجل نبيه الذكر معروف بصحة الفكر وهو الذى يضرب المثل بصحيفته ، ومن جيد شعره قوله :

ألم تر أنَّ المرء رهن مَنيةٍ صريعاً لعافي الطير أو سوف يُرمسُ
فلا تقبلن ضيماً حذار منيةٍ وموتَنْ بها حُرًّا وجلدك أملس
فمن حَذَرِ الأوتار ما حزَّ أنفَهُ قَصيرٌ وخاضَ الموت بالسَّيفِ بَيْهَسُ

ومن جيد شعره أيضاً قوله :

إلى كل قوم سُلَّمٌ يرتقى به وليس إلَيْنَا فى السلالم مَطْلَعُ
ويهْرُبُ منا كل وحشٍ وينتمى إلى وحشنا وحش البلاد فيرتَعُ

ومن جيد شعره أيضاً قوله :

لحفظُ المالِ خيرٌ مِن ضَيَاعٍ وسَيْرٍ فى البلاد بغير زادِ
قليلُ المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

إلى غير ذلك مما يطول ذكره .

وأما الصحيفة فكان من حديثها ما حكاه المفضل الضبي وغيره قال إن عمرو بن هند وعمرو بن المنذر بن ماء السماء ، وماء السماء أمه ، وفي زمنه ولد النبى صلى الله عليه وسلم كان يرشح أخاه قابوس ابن المنذر ليملك بعده .

وهما معاً لهند بنت الحرث بن عمرو المقصور بن حجر آكل المرار ملك كندة فوفد عليه المتلمس وابن أخته طرفة بن العبد فجعلهما فى صحبة قابوس وأمرهما بلزومه وكان قابوسُ شاباًيعجبه اللهو وكان يركب يوماً للصيد فيركض ويتصيد وهما معه يركضان حتى يرجعا عشية ثم يكون قابوس فى الغد في الشراب فيقفان بباب سرادقه إلى العشي فكان ذلك دأبهما معه حتى كان قابوس يوماً على الشراب فوقفا ببابه النهار كله ولم يصلا إليه فضجر طرفة وقال :

فليت لنا مكان المْلْكِ عمروٍ رغوثاً حول قُبَّتنا تَخُورُ

من الزمرات أسبل قادماها	وضرتها مركنـــــــــة تَدور
يشاركنا لنا رِخْـــلانَ فيها	وتعلوها الكباشُ فما تنـــورُ
لعمركَ إن قابوس بن هندٍ	لَيَخْلِطُ ملكــه نَوْكٌ كبيـــرُ
فسمت الدهر فى زمن رَخىٍّ	كذاك الدَّهْر يقصد أو يجورُ
لنـــا يومٌ وللكـــــروان يومٌ	تطير البـائسات ولا نطيـــرُ
فأمَّا يومهـــنَّ فيـــوم نحسٍ	تطاردهنَّ بالْحَرَب الصُّقُـــورُ
وأما يومنا فَنَظَـــلُّ ركبـــاً	وقوفـــاً ما نَحِـــلُّ ولَا نَسيـــرُ

ومعنى الأبيات ليت لنا بدل هذا الملك شاة قليلة الصوف ضعيفة الحركة يرضعُها ولدان حتى لا يكون فيها خير .

وكان عبد عمرو بن بشر ابن عم طرفة بن العبد وزوج أخته ، كان من سادات زمانه ومن أكرم الناس على عمرو بن هند ، فشكت أخت طرفة إليه يوماً شيئاً من أمر زوجها عبد عمرو فعابه طرفة ووصفه فى شعره وكان سميناً بادناً فقال :

فيا عجبا من عبد عمرو وبغيه	لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما[١]
ولا خير فيه غير أنَّ له غِنًى	وأن له كشحاً إذا قام أهضما[٢]
تظل نساء الحي يعكفن حوله	يقلن عسيبٌ[٣] من سرارة ملهما[٤]
له شربتان بالعشي وأربـــع	من الليل حتى ءاض سُخْداً[٥] مورَّما
ويشرب حتى يغمرُ المحضُ قلبَه	وإنْ أُعْطَهُ أَتْرُكَ لقلبي مَجْثِما

ثم إن عمرو بن هندٍ خرج يوماً إلى الصيد ومعه عبد عمرو فرمى الملك حماراً فعقره وقال لعبد عمرو انزل فاذبحه فنزل فعالجه فأعياه فضحك منه عمرو بن هند

(١) أنعم : بالَغ .
(٢) أهضم : وصف للكشح أى لطيف .
(٣) عسيب : جريدة النخل المستقيمة .
(٤) ملهم : قرية باليمامة كثيرة النخل .
(٥) السُّخد : بالضم الورم ، وقيل هو المشيمة .

وقال كأنَّ ابن عمك طرفة قد راك حين قال : وأن له كشحاً إذا قام أهضما ، ويقال إنه دخل معه الحمام وتجرد فرأى كشحه فقال له ذلك ، فأنف عبد عمرو وقال أبيت اللعن ما قال فيك أقبح قال فما قال ؟ فأنشده : ليت لنا مكان الملك عمرو : الأبيات ، فقال عمرو ما أُصَدِّقك عليه ، وقد صدقه فى باطنه ولكنه خاف أن تدركه الرحم فينذره ، فمكث غير كثير ثم دعا المتلمس وطرفة لأنه خاف إن مكر بطرفة أن يهجوه المتلمس ، فقال لهما لعلكما اشتقتما إلى أهلكما ويسركما أن تنصرفا ، قالا نعم فكتب لهما إلى أبي كرب عامله بهجر أن يقتلهما وأخبرهما أنه كتب لهما بصلة ومعروف وأعطى كل واحد منهما شيئاً ، فخرجا وكان المتلمس قد أسنَّ فلما مَرّا بنهر الحيرة على غلمان يلعبون قال المتلمس لطرفة هل لك أن نستقرئ ما فى كتابنا ؟ فإن كان فيهما خير مضينا له وإن كان شراً اتقيناه فأبى طرفة عليه ، فأعطى المتلمس كتابه بعض الغلمان فقرأه عليه ، فقال الغلام : ثكلت المتلمسَ أمُّه فيقال إنه اكتفى منه بذلك وانتزعها منه ووضعها فى النهر ثم قال لطرفة تعلَّمْ والله أن الذى فى كتابك لمثل الذى فى كتابي فقال طرفة لئن اجترأ عليك ما كان ليجترئ علي وأبى أن يطيعه ، ومر المتلمس من فوره حتى لحق بملوك غسان من آل جفنة بالشام ، وقال فى ذلك أشعاراً منها قوله :

إذا جاوزت من ذات عرق ثنيةً فقل لأبي قابوس ما شئت فارعِدِ

وقال أيضاً فى أبيات :

وإذا حللت ودون بيتي غارةٌ فابرق بأرضك ما بدا لك وارعُدِ

وهو معنى قول الناظم : يا ابن هندٍ ارْعُدْ وأبْرِق :

ولما وصل خبر فراره إلى عمرو بن هند ولحاقه بآل جفنة أقسم أن لا يصل إليه من حب العراق شيء ، فقال المتلمس فى ذلك :

آلَيْتَ حبَّ العراق الدَّهْرَ أطْعَمُهُ والحبُّ يأكُلُهُ فى القَريَة السُّوسُ
أغنيت شأني فأغنوا اليوم شأنَكُمْ وألْحفُوا فى مراس الحرب أو كيسُوا

وقال المتلمس فى نصحه لطرفة وعدم قبول طرفة منه :

مَن مُبْلِغُ الشعراءِ عن أخويهمُ نبأً فتصدقَهـمُ بذاك الأنْـفُسُ
أودى الذي علق الصحيفة منهما ونجا حذا رَحبائه المُتَلَـمِّسُ
ولقد نصحتُ له فرد نصيحتي وجرتْ له بعد السعادة أنْحُسُ

وقيل فى خبر الصحيفة غير ذلك ، وهلك المتلمس فى الجاهلية .

وقع ذكر صحيفة المتلمس فى الحديث فى سنن أبى داود فى آخر كتاب الزكاة وذلك أن عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس التميمي قدما على النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه فأمر لهما صلى الله عليه وسلم بما سألا وأمر معاوية فكتب لهما بذلك ، فأما الأقرع فأدخل كتابه فلفه فى عمامته وانطلق وأما عيينة فأخذ كتابه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم مكانه وقال يا محمد أتراني حاملاً إلى قومي كتاباً لا أدري ما فيه كصحيفة المتلمس فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « **من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار ، قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال قدر ما يغديه أو يعشيه** » ، « والله أعلم » .

[وَلَا تَعِدْ بِوَعْدِ عُرْقُوبٍ أخاً وَفِهْ وَفَا السَّمَوْأَلِ بالأبلـق]
[شحَّ بأَدْرُعِ امرئِ القَيْسِ وَقَدْ تَرَكَ نَجْلَهُ غَسِيلَ الْعَلَـقِ]

الوعد يستعمل فى الخير والشر قال الفراء يقال وعدته خيراً ووعدته شَراً ، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا فى الخير الوعد والعدة وفى الشر الإيعاد والوعيد قال عامر بن الطفيل :

وإني وإن أوعَدْتُهُ أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وعرقوب بضم العين يأتي خبره إن شاء الله ، والوفاء ضد الغدر يقال وفا بعهده وأوفى به ثلاثياً ورباعياً ، وقد جمع الشاعر بينهما فقال :

أمّا ابن طوق فقد أوفى بذمته كما وفى بقلاصِ النجم حاديها

والوصف منه وَفِيّ والجمع أوفياء مثل غني وأغنياء .

والسَّموأل يأتى خبره بإذن الله ، والأبلق هو الأبلق الفرد الذي تقدم ذكره والشُحُّ بتثليث الشين المعجمة : البخل مع حرص وشحَّ يشح كبخل يبخل وزناً ومعنىً وفى لغةٍ من بابي قتل ونصر فهو شحيح وشحاح وقوم أشحة وأشحاء ، وتشاحوا إذا شحَّ بعضهم على بعض .

والأدرع بالدال المهملة جمع درع بكسر فسكون هو الآلة التى تلبس فى الحرب من الحديد وهى مؤنثة وقد تذكر وتُصَغَّرُ على دُرَيْع شذوذاً وتجمع على أدراع في القلة وأدرُع وفى الكثرة على دروع ، وأما درع المرأة وهو قميصها فمذكر والنجل : الولد وهى فى الأصل مصدر نجله أبوه إذا ولده ، قال الأعشى :

أنْـجبَ أيَّـامَ والـداه به إذْ نجلاه فنِعْـمَ ما نَجـلَا

والعلق بالتحريك : الدم عامة وقيل الشديد الحمرة وقيل الغليظ المتجمد واحده علقة ومنه قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ خلَقْنا المُضْغَةَ عَلَقة** ﴾[1] أي دماً غَليظاً متجمداً « والله تعالى أعلم » .

والبيتان يرميان إلى الحث على الصدق وتجنب الكذب والغدر ، والتمسك بالوفاء بالعهد وصدق الوعد ، وهذا مطلوب من أكل أحد .

ذكر عرقوب ووعده المكذوبْ

اختلف فى عُرقوب هذا ممن كان ، قيل كان رجلاً من أهل خيبر وقيل كان من الأوس ، وقيل هو عرقوب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وبنو سعد يقولون هو منا ، والصحيح أنه من عمالقة الحجاز من بني عبد شمس بن ثعلبة منهم ، وهو عرقوب بن صخر وقيل بن سعد بن أسد أكذب أهل زمانه .

أتاه أخ له يسأله تمراً فوعدهُ ثمر نخلة من نخله وقال له إذا طلع النخل فائتني ،

---

(١) الحج الآية (٥) .

فلما طلع قال إذا أبلح ، فلما أبلح قال إذا أزهى فلما أزهى قال إذا أرطب فلما أرطب قال إذا صار تمراً ، فلما صار تمراً جذّه ليلاً ولم يعطه فضربت العرب المثل به في إخلاف الوعد والكذب قالوا أخلفُ من عرقوب ، وأكذب من عرقوب ، قال المتلمس يهجو عمرو بن هند :

فطردتني حذر الهجاء ولا … والـلّاتِ والأنصاب لاتئل
أدنَى الملوك وشرهم حَسَباً … فى الناس مَنْ عُرِفوا ومَنْ جُهلوا
من كان خُلْفُ الوعد شيمته … والقدر عرقوبٌ له مَثَلُ

وقال آخر :

وأكَذبُ من عرقوب يِثرب لهجةً … وأبينُ شُؤْماً فى الحوائج من زُحَلْ

وقال آخر :

وعدت وكان الخلف منك سجيةً … مواعيدَ عرقوبٍ أخاه بيثربِ

والشعر فى هذا كثير .

ذكر السَّمؤْأل ووفائه

هو السَّموأل بن عاديا قيل نسبه فى غسان وقيل هو من بني الكاهن بن هارون بن عمران عليه السلام وإنما كانت أُمه غسانية ، وكان الأبلق الفرد لجدّه عاديا واحتفر فيه بئراً عَذْبَةً ، وقد ذكرتْه الشعراء ، وكانت العرب تنزل به فيضيفها وتمتار من حصنه وتقيم هناك سوقاً كما في الأغانى .

وقيل إن الذى بناه عاديا ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك والاستشهاد عليه ببيت السموأل كما سبقت الإشارة إلى أن الزباء غزته كما غزت مارد وقالت عز الأبلق وتمرد مارد ، ولا يخفى ما فى ذلك من التعارض لما بين زمن الزباء وزمن عاديا .

والذى يجمع بين القولين أن الأبلق بناه سليمان بن داود « عليه السلام »

ولكن عاديا أصلح فيه بعض الإصلاحات وأدخله بعض التحصينات أو ما أشبه ذلك « والله أعلم » .

وأما وفاؤه الذي يضرب به المثل فكان من حديثه أن امرأ القيس بن حُجر ابن الحرث بن عمرو المقصور بن حجر الأكبر وهو آكل المرار الكندي كان والده ملكاً على بني أسد بن خزيمة وغطفان فعدوا عليه فقتلوه واتصل مقتله بابنه امرئ القيس الشاعر وهو باليمن لأن والده طرده آنِفاً من قوله الشعر والغزل فشمر للأخذ بثأر أبيه وسار إلى بكر وتغلب يستنصرهم وساروا معه حتى أوقع ببني كنانة يظنهم بني أسد فكره من كان معه ذلك وتفرقوا عنه حتى بقي في نفر يسير ، وألحَّ المنذر بن ماء السماء فى طلبه وكان عدواً لأسلافه فصار يستجير بأشراف العرب فجاء إلى عمرو بن جابر الفزاري فطلب منه الجوار حتى يرى ذات غيبة ، فقال له ياابن حُجر إنى أراك فى خلل من قومك وبينك وبين اليمن ذؤبان قيس ، وأهل البادية أهلُ وبرليست لهم حصون تمنعهم أفلا أدلك على رجل من شأنه كيت وكيت ؟ فذكر له السموأل وحسن جواره وحصنه فدله عليه وعلى من أوصله إليه ، وكان مع امرئ القيس دروع لأبيه كان الملوك من بني آكل المرار يتوارثونها ومعه أيضاً بنته هند وابن عمه يزيد بن الحرث بن معاوية ، فعرف السموأل لهم حقهم وبنى للمرأة قبة من أدم وأنزل الرجال فى مجلس له براح ، فكان عنده ما شاء الله ثم إنه طلب إليه أن يكتب إلى الحرث بن أبي شمر الغسَّانى بالشام ليوصله إلى قيصر ففعل واستصحب معه رجلاً يدله على الطريق وأودع بنته وماله وأدرعه السموأل وخلَّف ابن عمه يزيد بن الحرث مع ابنته هند ومضى حتى انتهى إلى قيصر فَقَبِلَهُ وأكرمه وضم إليه جيشاً كثيفاً فيه جماعة من أبناء الملوك يتوصل به إلى ملك أبيه ، ثم إن الطمَّاح الأسدي أفسد عليه أمره حيث سعى به عند الملك بما كان سبباً فى هلاكه فى خبر يطول ذكره .

وكان المنذر بن ماء السماء قد وجه الحارث بن ظالم المري إلى السموأل ليأتيه بمال امرئ القيس وأدراعه ، وقيل إن الذى طالب بأدراع امرئ القيس هو الحرث

ابن أبي شمر الغساني وأنه جاء بنفسه إلى السموأل ، فامتنع السموأل من إعطاء الأدراع والمال وتحصن بحصونه وكان له ابن قد يفع فخرج إلى القنص فلما رجع أخذه أحد الحارثين ثم قال للسموأل أتعرف هذا ؟ قال نعم هو ابني ، فقال إمّا أن تُسلم ما قِبَلَك وإمّا أن أقتله ، فقال شأنك به فإني لا أُخفِرُ ذمتي ولا أُسلم مال جاري ، فضرب الحرث وسط الغلام فسقط نصفين وهو ينظر ثم انصرف عنه ، ثم إن السموأل وافى الموسم بما كان معه من الدروع والمال فأسلمه إلى ورثة امرىء القيس ، وقال في ذلك .

وفيت بأدْرُع الكندي إني ... إذا ما خان أقوامٌ وَفَيْتُ
وأوصى عاديا يوماً بأن لا ... تُهدِّمَ ياسموأل ما بنيتُ
وقالوا إنـّه كنز عظيمٌ ... ولا والله أغدر ما حييتُ
بنى لي عاديا حصناً حصيناً ... وماءً كُلّما شئْتُ استَقَيْتُ

[وَمِثْلَ جَارٍ لِأَبِي دُوَادَ لَا ... تَطْمَعْ بِهِ إِنْ لَمْ تَكُنْ بالأَحْمَقِ]
[واحْمَدْ جلِيساً لَا تَخَافُ شَرَّهُ ... وكَابْن شَوْر لَنْ تَرَى مِن مُطْرِقِ]

معنى البيتين أن هذا الزمان قد كثر شره وقل خيره وبنوه مثله فإذا ظفرت بجليس يكفُّ عنك الأذى فاحمده واشدد يدك عليه ، وأين هو اليوم ؟ فأما طمعك أن تجد جاراً مثل أبي دواد أو ترى جليساً مثل ابن شور فهو من المحال فلا تشغل به بالك يوماً من الأيام .

الْجَارُ : يطلق ويراد به المجير الذي يجير غيره أي يؤمنه مما يخافه ، وأبو دواد رجل يأتي خبره إن شاء الله .

والحمْقُ فساد العقل قاله الأزهري ، وحمِق يحمَق فهو حمِق من باب تعب ، وحمُق بالضم فهو أحمق والأنثى حمقاء ، والحماقة اسم منه .

والْجَلِيسُ : المجالس كالنديم بمعنى المنادم والكليم بمعنى المكالم ، وابن شور

يأتي خبره بإذن الله ، وأطْرَقَ الرجل إذا سكت فلم يتكلم ، وأطرق أرْخَى عينيه ينظر إلى الأرض .

أمّا جار أبي دواد

فهو كعب بن مامة الإيادي الجواد المشهور وكان إذا جاوره رجل قام بكل ما يصلحه وأهله وحماه ممن يريده وإن هلك له بعير أو شاة أو عبد أخلفه عليه وإن مات وداه فجاءه أبو دواد الإيادي الشاعر مجاوراً له فكان كعب يفعل به ذلك ثم اقتدى هو به وصار يفعل بمن جاوره ذلك كما كان كعب يفعل به ، فضربت العرب به المثل في حسن الجوار ، قال قيس بن زهير :

أُطَوِّفُ ما أطــوِّف ثم آوي إلى جار كجار أبي دوادي

وقال طرفة بن العبد :

إني كفاني من أمر هممت به جار كجار الحُذَاقيّ الذى اتصفا

والحذاق بضم الحاء المهملة وبالذال المعجمة وقاف هو الحارث بن الحجاج وهو أبو دواد ، وهو منسوب إلى حُذَاقَة : بطن من إياد .

قال في الأصل : وما ذكرناه من أن جار أبي دواد هو كعب بن مامة هو الذى ذكره غير واحد ، وفي الأغاني أن جار أبي دواد هو الحرث بن همام بن مرة ابن ذهل بن شيبان وكان أبو دواد في جواره فخرج صبيان الحي يلعبون في غدير فغمس الصبيان ابن أبي دواد فيه فقتلوه فخرج الحرث فقال لا يبقي صبي في الحى إلا غُرِّق أو يرضي أبو دواد ، فودى ابن أبي دواد عشر ديات فرضي ، وهو قول أبي دواد .

وأمّا ابْنُ شـور

فهو القعقاع بن شور أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة ، كان

تابعياً جواداً يضرب به المثل فى حسن العشرة وكرم المجالسة فكان إذا جالسه أحد فعرّفه بالقصد إليه جعل له نصيباً من ماله وأعانه على عدوه وشفع له فى حاجته وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً .

ودخل القعقاع على معاوية — رضي الله عنه — ومجلسه غاص بأهله فلم يجد موضعاً فأوسع له بعض جلسائه حتى جلس بجنبه ثم أمر معاوية للقعقاع بمائة ألف درهم فقال القعقاع لجليسه اقبضها فلما قام ليذهب قال له الرجل خذ مالك فقال ما دَفَعْتُه إليك وأنا أريد أن أسترجعه ، كذا فى الثمار .

وفى الشريشي على مقامات الحريري عن أبى عبيدة أن القعقاع كان من جلساء معاوية — رضى الله عنه — فأهديت إلى معاوية — رضى الله عنه — هدايا يوم المهرجان فيها جَامات ذهب وفضة فدفعها إلى جلسائه ودفع إلى القعقاع جام ذهب وفى القوم أعرابى إلى جنب القعقاع فدفع إليه الجام فأخذه الأعرابي ونهض يُنشد :

وكنتُ جليس قعقاع بن شور ولا يَشْقى بقعقــاع جلــيسُ
ضحوك السنِّ إن نطقوا بخير وعنـد الشر مطـراق عبـوسُ

وهذا معنى قول الناظم « لن ترى من مطرق » وقال المبرد : وحدثنى التوزي أن رجلاً جالس قوماً من بني مخزوم بن يقظة فأساءوا عِشْرته وسعوا به إلى معاوية — رضي الله عنه — ، فقال :

شقيت بكم وكنت لكم جليساً فلستُ جليسَ قعقاع بن شَوْر
ومن جهل أبو جهـل أخـوكم غزا بدراً بمجمــرة وتـــور

فنسبه إلى التخنث وكان أبو جهل يُرمى بِذلك « والله أعلم » .

[وَلَتَكُ أَبْصَرَ من الهُدْهُد وَالزَّرْ قَا بِعَيْبِ نَفْسِكَ المُحَقّـقِ]

معنى البيت حث على التَّغَافُلِ عن عيوب الناس وأن لا يُظَنَّ بهم سوءٌ فإن

لن أكذب الحديث فإن لم يكن إلا البحث عن العيوب فبحث المرء عن عيب
سه أولى من بحثه عن عيوب الناس فعيبه محقق وعيوب الناس مظنونة ويرحم الله
نائل :

تلتمس من عيوب الناس ماستروا   فيكشف الله سِتراً عن مساويكا
اذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا   ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فيكا

ذكر الهدهد والزرقاء وبصريهما

أما الهُدهد فهو طائر معروف ذو خطوط وألوان كثيرة ويذكر عنه أنه يرى الماء فى بطن الأرض كما يراه الإنسان فى باطن الزجاجة وزعموا أنه كان دليل سليمان عليه السلام على الماء ولذا تفقده ، وضرب به المثل فى شدة الإبصار فقيل أبصر من الهدهد ، وفى « الكامل » للمبرد وشُعَب الإيمان للبيهقى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس ـــ رضي الله عنهما » فقال : يا ابن عباس سليمان عليه السلام مع ما خوله الله من الملك كيف عُنيَ بالهدهد مع صغره ؟ فقال له ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ إنه احتاج إلى الماء والهدهد كانت له الأرض كالزجاج ، فقال ابن الأزرق يا وقّاف ! كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يرى الفخّ إذا غُطي له بقدر أصبع من تراب ؟ فقال ابن عباس : إذا نزل القضاء عُمِيَ البصر . وفي ثمار القلوب أن هذا البصر خاص بهدهد سليمان « عليه السلام »   والله أعلم » .

وأمّا « الزرقاء » : فهى امرأةٌ من جديس من العرب العاربة وقيل من طسم وإنما كانت متزوجة فى جديس ، وكانت زرقاء وكانت الزباء زرقاء كما كانت البسوس زرقاء ، قال : والعرب تتشاءم بذلك لندوره فيهم ولأنه من صفة الأعاجم ولذا قالوا فى الشديد العداوة : عدو أزرق ، وكانت الزرقاء كما يقال تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام وترى الشعرة البيضاء فى الليل البهيم ، وكانت تدعى اليمامة بنت مرة ، وبها سميت بلدتها لأنها صلبت على بابها كما سيأتي ، ثم

أضيفت إليها فقيل زرقاء اليمامة ، واسم البلدة القديم « جو » ، قال المتنبي :

وأبصر من زرقاء جوٍّ لأنني إذا نظرت عيناىَ شأوهما علمى

ومما يؤثر من شدة بصرها أنها كانت لها قطاة فمر بها سرب قطاً يطير بين جبلين فقالت : ليت الحمام ليهْ .. إلى حمامتيهْ .. ونصفه قديهْ .. تم الحمام مايهْ .

فاتفق أن ذلك الحمام وقع برمته فى شبكة صياد فعدوه فإذا هو ست وستون حمامة ، والقطا نوع من الحمام ، وقيل عدوه على الماء .

وسيأتى خبر إنذارها قومها وكيف قتلها تبع حسان بن أبى كريب عند ذكر قصة طسم وجديس عند قول الشاعر : وكن كمن أتى .. بالجيش خلف شجر ذي ورق ..

[وكن كَمِثْل واسطي شفقةً عَن شَتْمِ ضَارِعٍ وعَتْبِ سُقُقِ]

الواسطي نسبة إلى واسط بلد معروف بين البصرة والكوفة .

والضارع : الضعيف ، وقد ضرع له يضرع بالفتح ، ذلَّ وخضع وضرع بكسر الراء من باب فرح لغة فيها ، وتضرع إلى الله ابتهل ، وأضرعته الحمّى أَوْهَنَتْهُ ، وعتب عليه عتْباً ومَعْتَباً من بَابَيْ ضرب وقتل : لامه فى تسخط فهو عاتب وعتّابٌ والسُّقُقُ بضمتين والسين المهملة المغتابون للنّاس قاله فى القاموس ، ومعنى البيت الحث على التمسك بالأخلاق الحميدة من عدم مشاتمة الدنيئ ومخاصمة اللئيم والسفية لأن ذلك أبقى للمروءة وأصون للعرض وأنبه للقدر ، ومن الحِكَم قولهم : من سكت عن جاهل فقد أوسعه جواباً ولله در القائل :

ولقد أمر على اللئيم يَسُبُّنِى فأعُفُّ ثم أقول لا يعنيني
غضبان ممتلئاً علىَّ إهابه إنّى وربك سُخْطه يُرضينى

وقال آخر :

لا ترجعنَّ إلى السفيه جوابه إلّا جوابَ تحية حيَّاكَها

فمتى تُحَرِّكْهُ تُحَرِّكْ جيفةً تَزْدَادُ نَتْناً ما أَرَدْتَ حِرَاكَهَا

ذكر غفلة الواسطي والسبب فيها

قال المبرد فى قولهم : تَغَافَلْ كَأَنَّكَ وَاسِطِيٌّ ، أصله أن الحجاج كان يُسَخِّرُ أهل واسط فى البناء فكانوا يهربون وينامون وسط الغرباء فى المساجد فيجيء الشرطي ويقول : يا واسطي فمن رفع رأسه أخذه فلذلك كانوا يتغافلون .

لطيفة تتعلق بذكر واسط :

يحكى أن الحجاج بن يوسف لما بنى واسط كان يعاقب من أحدث فى شوارعها ، فاتفق أن أعرابياً بال فى بعض أرباضها فسجنه الحجاج وغفل ومكث فى السجن اثنتي عشرة سنةً حتى مات الحجاج فأخرج من كان فى سجنه ومن بينهم الأعرابي المذكور فسئل عن ذنبه الذي سجن من أجله فقال بُلتُ فى ربض واسط وانطلق يعدو ويقول :

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خَرِئْنَا وبُلْنَا لا نخاف عقابا

[واغْدُ عَلَى رِجْلَيْ سُلَيْكٍ هَارِباً مِنْ قُرْبِ كُلِّ خُنبُقٍ وسَهْوَقِ]

الخُنبُقُ : كقُنفُذٍ البخيلُ الضيِّقُ ، والسَّهْوَقُ كجعفر : الكذاب .

ومعنى البيت الفرار من اللئيم الذميم حتى لا يصل إليك ولا تصل إليه ولا يفحش عليك ولا ترد عليه ، ومن قولهم : معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار ، وعن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — : فى العزلة راحة من القرين السوء ، ولله در القائل :

فَخَفْ أبناءِ دهرك واخشينهم كما تخشى الضراغم والسبنتى
وخالطهم وزايلْهُمْ حذاراً وكن كالسامريِّ إذا لمستا

ومن كلام أبي الدرداء — رضي الله عنه — : وجدت الناس « اخْبُرْ تُقْلِهْ »

أي مقولاً فيهم عند تجربتهم اخبر تُقْله ، ونظم ذلك بعضهم على سبيل التلميح فقال :

ليت شعري كيف الخلاص من النّـ ـاسِ وقد أصبحوا اذياب اعْتِدَاءِ
فقلت لما بلاهم صدقُ خُبْري رضي الله عن أبي الـدَّرداء

ذكـر السُّليك وعـدوه

هو السليك بن السلكة وهى أُمُّهُ أَمَةٌ سوداء ومنها سرى إليه السواد وهو شاعر جاهلي قديم وهو أحد صعاليك العرب ولصوصهم العدايين الذين كانوا لا يلحقون ولا تلحق بهم الخيل مثل المنتشر بن وهب الباهلي وأوفى بن مطر المازنى وعمرو بن برَّاق الأزدي وتأبط شراً والشنفرى وأضرابهم .

والسليك هذا هو ابن عمر من بني سعد بن زيد مناة بن تميم على القول الصحيح ، وقد سار به ضرب المثل فى العدو ، ويقال إنه طفر طفرة فعد له فيها أربع وعشرون خطوة وهو أحد سودان العرب وهم غيره : عنترة بن شداد العبسي وخفاف بن ندبة السلمي وأبو عمير بن الحباب ؛ وهو أيضاً أحد الأربعة الذين استثناهم عمرو بن معد يكرب لعمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حيث قال له لو سرت بظعينة وحدي على مياه مَعَدٍّ كلها ما خفت أن أُغلب عليها ما لم يلقنى حرّاها أو عبداها ، وقد تقدم ذلك عند ذكر عمرو بن معد يكرب — رضي الله عنه — .

ويُحكى أنه كان يستودع فى الشتاء ماء السماء بيض النعام ويدفنه فإذا كان الصيف وانقطعت غارة الخيل أغار هو على رجليه وكان أدلَّ من قطاة فيجيء حتّى يقف على البيضة وكان لا يغير على مضر بل على اليمن فإذا أخفق أغار على ربيعة ، ويقال إنه كان يصيد الظباء على رجليه ، ويحكى أنه كان يدعو بهذا الدعاء ، يقول : اللهم إنك تهيئ ما شئت لمن شئت إذا شئت اللهم إنى لو كنت ضعيفاً لكنت عبداً ولو كنت امرأةً كنت أمةً اللهم إنى أعوذ بك من الخيبة فأما الهيبة فلا هيبة .

هذا وأخبار السليك طويلة والحكايات عنه تشبه الخيال الأسطوري وفي الأصل منها ما يطول ذكره وفي الأغاني وكتب الأدب المطولة فليراجعها من شاء « والله تعالى أعلم » .

[وَكُنْ نَديمَ الْفَرْقَدَين تَنْجُ منْ مُنَغَّصٍ وَمِنْ طُرُوِّ الرَّنَقِ]

النَّديمُ : هو الذي يجالس المرء على الشراب ويحادثه عليه وجمعه نِدام بالكسر ونُدَماء ككرماء ، ويقال فيه أيضاً ندمان قال :

إذا كنت ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلم

وجمعه ندامى ، والمنادمة مشتقة من الندم والندامة لأن معاقر الخمر إذا سكر تكلم بما يندم عليه وقيل من المدامنة لأنه يدمن الشراب مع نديمه .

والفرقدان : كوكبان يضرب بهما المثل فى طول الصحبة ، قال الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمنغَّص : المكدر فالتنغيص هو التكدير يقال نغَّص الله عليه العيش تنغيصاً أي كدره وتنغَّصت عيشته أي تكدرت وقد نغِصَ الشرابُ نَغَصاً من باب فرِح إذا لم يتم ، ونَغِصَ البعير إذا لم يتم شربه ، قال لبيد :

فأرسلها العراك ولم يَذُدْها ولم يُشْفِقْ على نَغَصِ الدِّخَالِ

الطُرُوُّ : المفاجأة ، والرَّنَقُ : بالتحريك مصدر قولك رنق الماء بالكسر أي كَدر وزنًا ومعنىً ورنَّقْتُه أنا ترنيقاً وأرنقته كدَّرته ، وعيش رنق أي كدر « والله أعلم » .

ومعنى البيت حثٌ على مجانبة الناس لأن غالبية الناس الأشرار وقد حث فى السابق على مجانبة الأشرار ولما كان الأخيار الذين ترتضي صحبتهم أقل من القليل بشهادة الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام حيث يقول : « الناس كإبل مائة

لا تجد فيها راحلة » ، أمرك هنا بالتخلى عن الناس واعتزالهم جملة ، فالمرء اليوم إن عثر على أخ صالح يدل على الله تعالى بفعله وقوله فليحمد الله وليعلم أن ذلك من خرق العادات ومن جيد قول أبي الطيب قوله :

ولما صار وُدُّ الناس خِبًّا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلميَ أنه بعض الأنام

واختلفوا فى أيتهما أفضل الخلطة أم العزلة ؟ فبعضهم يقول الخلطة إن انتفت آفاتها أفضل وبعضهم يقول العزلة أفضل لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ولله در القائل :

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الإكثار من قيل وقال
فقلل فى لقاء الناس إلّا لأخذ العلم أو إصلاح حال

ذكر نديم الفرقدين وما كان من أمره

نديم الفرقدين هذا هو جذيمة الوضاح الذى قتلته الزباء وقد مر خبره عند قول الراجز :

[فإن تلك الزبا دخلت خدرها وكقصير سقتها للنفق]

وأما مُنادمته للفرقدين فإن سببها أن جذيمة المذكور كان قد اتخذ صنمين يقال لهما الضيرتان يستسقي بهما ويستنصر بهما على أعدائه وكانت إياد قد خرجت من الحجاز وانتشروا فيما بين البصرة والكوفة وتمكنوا فيما يلي الحيرة فخرج جذيمة غازياً لهم وكان فيهم غلام من لخم هم أخواله يقال له عدي بن نصر ذو جمال وظرافة ولباقة ، ولما نزل جذيمة بساحتهم أرسلوا من سقى سدنة صنميه الخمر وسرقوهما وبعثوا إلى جذيمة يقولون : إن صنميك قد صارا فينا زهداً فيك ورغبة فينا فإن عاهدتنا أن لا تغزونا رددناهما إليك ، قال : وتعطونى عدي بن نصر ، ففعلوا وانصرف عنهم فضم عديًا إلى نفسه وولاه شرابه وأمر مجلسه ، وكان

لجذيمة أخت تدعى رقاش بكراً فأحبت عديًا وأحبها فراسلته وسألته أن يخطبها من جذيمة قال لا أجترىء على ذلك فقالت له إذا سقيت القوم فامزج لهم وعرِّف للملك فإذا أخذت منه الخمر فاخطبنىْ إليه فإنه يزوجك فأشهد القوم إن فعل ففعل الغلامُ وخطبها فزوجه جذيمة وأشهد عليه وانصرف إليها فعرفها الخبر فقالت ادخل بأهلك فلما أصبح غدا على جذيمة متضمخاً بالخلوق فقال ما هذه الآثار يا عدى ؟ فقال آثار العُرْس قال وأى عرس ؟ قال عرس رقاش فقد زوجتنيها فنخر وأُكبَّ على الأرض مَغْشياً عليه وفر عدى فلما أفاق جذيمة طلبه فلم يجده ، وأرسل جذيمة إلى أخته يقول :

حَدِّثيني رقاش لا تكذبيني أبحرٌ زَنيت أم بهجين
أم بِعَبْدٍ فأنت أهل لعبد أم بدون فأنت أهل لدون

فأجابته قائلة :

أنت زوجتنى وما كنت أدرى وأتانى النساء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفا وتماديك فى الصبى والمجون

ثم نقلها جذيمة إلى قصره وحصنها وقد اشتلمت على حمل ، وأقسم جذيمة بعد هذه الواقعة لا ينادم إلا الفرقدين فكان يشرب كأساً ويصب لهما كأساً أما رقاش فقد ولدت ولداً وسمته عمراً فلما ترعرع عطرته وألبسته حلة فاخرة ثم أزارته خاله فألقيت عليه محبته وأعجب به وخلطه بولده ، قيل ولم يكن له ولد فتبناه وتفرس فيه النجابة وطوقه بفضة فكان أول عربى لبس الطوق ، ثم إن الجن استطارته فطلبه جذيمة فى الآفاق فلم يجده وأيس منه إلى أن أقبل رجلان من قضاعة أخوان هما مالك وعقيل ابنا فارج بن مالك فأقبلا من الشام يريدان جذيمة وقد أهديا له طرفا فلما نزلا وادى السماوة ومعهما قينة فنصبت قِدْراً وهيأت لهما طعاما فَبَيْنَاهُمَا يأكلان إذ أقبل فتىً أشعثُ أغبرُ قد ساءت حاله وتلبد شعره وطالت أظفاره فجلس بجزر الكلب ومد يده فناولته القينة كراعا فأكله ثم استزادها فقالت لاتطعم العبد الكراع فيطمع فى الذراع ، فأرسلتها مثلا ، فقال له

الرجلان : من أنت ؟ فقال إن تنكرانى فلن تنكرا نسبي أنا عمرو بن عدى اللخمي ابن أخت جذيمة فقاما إليه وسلما عليه وأصلحا من شأنه وألبساه من طرائف ثيابهما وقالا ماكنا لنهدى إلى الملك هدية هى أنفس عنده من ابن أخته قد رده الله إليه ، فخرجا به حتى إذا وقفا بباب الملك بَشَّراه به فسر سرورًا عظيمًا وبعث به إلى أمه فأصلحت من شأنه وألبسته طوقًا من ذهب لنذر كان عليها ثم أمرته بزيارة خاله فلما رأى لحيته والطوق فى عنقه قال : شبَّ عمرو عن الطوق ، فأرسلها مثلا ، وأقام عمرو مع خاله وتحمل عنه عامه أمره حتى كان من أمره مع الزباء ماكان فأخذ عمرو هذا بثأره على ماتقدم ذكره وأما مالك وعقيل فإنهما لما أتيا جذيمة بابن أخته قال لهما حُكمَكُمَا فقالا حكمُنا منادمتك مابقيت وبقينا فقال لكما ذلك فنادماه على ما قيل أربعين عامًا فما حدثاه حديثا حدثاه به فهما ندماني جذيمة المضروب بهما المثل فى طول الصحبة ، قال متمم بن نويرةْ :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكــا ... لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلةً معا

وقيل إن جذيمة سكر أيضا وقتلهما وبنى عليهما الغربين وهما بناءان طويلان بظاهر الحيرة ، وقيل إن صاحب الغربين هو المنذر بن ماء السماء « والله تعالى أعلم » .

[وَكُنْ كَعَقْرَبٍ وضَبٌّ مَعَ مَنْ ... عَلَيْكَ قَلْبُهُ امْتَلَا بِالْحَنَقِ]
[ثُمَّتَ لا تَعْجَلْ وَكنْ أَبْطَأَ مِنْ ... غُرابِ نُوحٍ أَوْ كَفِنْدِ الموسِقِى]
[مَضَى لِنَارٍ طالِباً وبَعْدَ عَا ... مٍ جَا بِهَا يَسُبُّ فَرْطَ الْقَلَقِ]

ثمت : هى ثم العاطفة وفيها أربع لغات : ثم وفم بالفاء بدل الثاء ، وثمتْ بتاء التأنيث الساكنة ، وثمت بالتاء المفتوحة .

وبَطُأَ : بضم الطاء بُطأً وبطاءً وأبطأ ضد أسرع ، ويقال فى صيغة التفضيل هو أبطأ منه فإن كان من الثلاثى فمقيس وإن كان من الرباعى فجَائز عند سيبويه فى هذا الوزن ، ونوح عليه الصلاة والسلام هو أول رسول أرسله الله إلى الأرض

وهو أحد أولى العزم من الرسل ، وفند رجل يأتى خبره إن شاء الله .

والمويسيقى معناه المغني نسبه إلى فن المويسيقى الذى هو صناعة الألحان وأصلها كلمة يونانية معناها علم النعمات والألحان .

ومعنى الأبيات الحث على عدم مغاضبة السفيه ومواثبته والصبر على أَذَاهُ مع تحين الفرص بالملاينة له حتى يظفر به ويتمكن منه ، وفى هذا المعنى يقول المتنبى :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أوَّلٌ وهيَ المحلُّ الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حُرَّةٍ بلغت من العلياء كل مكان

ثم أمره بالتأني فى تحين الفرصة بعدوه فإن من كلام العرب : « الثبات يكسر الوثبات » ، و« العجول مخطىء وإن ملك والمتأنى مصيب وإن هلك » ، ولبعض الحكماء : إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة فصاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويحمد قبل أن يجرب ، ولن تصحب هذه الصفة أحد إلا صحب الندامة وجانب السلامة .

تنبيه : هناك أمور مستثناه من طلب التأنى بل تطلب فيها المسارعة وهى : التوبة من الذنب ، ورد المظالم ، والصلاة بعد دخول الوقت ، وإخراج الزكاة بعد حلول الحول ، وتجهيز الميت ، وإنكاح البكر ، وقرى الضيف ، وفطر الصائم ، وأوبة المسافر ، وقضاء الدَّين بعد حلوله و« الله أعلم » .

ذكر الضبّ والعقرب وما قيل فيهما

الضبّ حيوان معروف طويل العمر لايشرب الماء ، يضرب به المثل فى الخداع ،يقولون : أخدع من ضب .

وأما العقرب فمعروفة أيضا وتضرب العرب بها المثل فى المكر والخداع كما تضربه بالضب فأما الضب : فيقولون : فُلَانٌ خب ضَبٌّ ، فيشبهون الحقد الكامن فى قلبه الذى يسرى ضرره بحقد الضب فى جحره ؛ وأما العقرب فإنهم يقولون : سرت عقارب فلان ، وفلان تَرْبٌّ عقاربه إذا خفى مكان شره .

وتزعم العرب أن بين الضب والعقرب أَلْفَةً وأنها لذلك تأتى إلى جحره فتذب عنه قال الشاعر :

وأخدع من ضب إذا جاء حارسٌ أعَدَّ له عند الذنابة عقربا

لطيفه : يحكي أن دار نصر بن حجاج السلمى كان بها عقارب إذا لسعت قتلت ، ففى بعض الليالى دبَّ ضيفٌ لهم إلى بعض أهل الدار فلسعته عقرب فى مذاكيره ، فقال نصر يعرض به .

وداري إذا نام سُكانُهـــــا أقَـامَ الحدودَ بها العَقْـرَبُ

إذا غفل الناس عن دينهم فإنَّ عقـــــــاربها تَضْربُ

فلا تأمنـــنَّ سُرى عَقْـرِبٍ بليـــــلٍ إذا أذنبَ المذنبُ

ذكر غراب نوح وفِنْد وَبُطْئهما

قال المؤرخون : لما استقرت سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على الجودي بعث نبى الله تعالى الغراب ليأتيه بخبر الأرض هل جفَّت أم لا فوقع على جيفة فلم يرجع إليه فضرب المثل ببطئه ، فبعث الحمامة فجاءت بِوَرَقِ زَيْتُونٍ فى منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح عليه الصلاة والسلام أن الماء قد ذهب ودعا على الغراب فَغُلَّت رجلاه وخاف من الناس فلذلك لا يألف البيوت وإذا وقع لا يلبث أن يطير ، وطوق الحمامة بالخضرة التى فى عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم ألفت البيوت و« الله تعالى أعلم بالحق من ذلك » .

وأما فِنْدُ ، فهو أبو زيد مولى عائشة بنت سعد بن أبى وقَّاص « رضي الله عنه » ومنشأُهُ المدينة المنورة وكان خليعا متهتكا وهو أحد المغنين المجيدين ، وكانت عائشة مولاته أرسلته ليأتيها بنار فخرج لذلك فلقى عيراً تخرج إلى مصر فخرج مَعَهَا فلما كان بعد سنة رجع فأخذ ناراً فدخل على عائشة وهو يعدو فعثر وقد قرب منها وتبدد الجمر فقال تعست العجلة فأرسلها مثلا وهذا هو السبب الذى أشار إليه الناظم ، فضرب به المثل وقيل أبطأ من فند كما قيل أبطأ من غراب نوح وقد قيل فى ذلك :

ما رأينـا لسـعيـد مثـلاً إذ بعثنـاه يجى بالمشـملـة
غير فنـد بعثـوه قابسـاً فثوى حولاً وسبَّ العجلة

المشملة بكسر الميم كساء دون القطيفة يُشتمل به و«الله أعلم» .

[وَخُذْ بِثَأْرِكَ وَكُن كَمَنْ أَتَى بِالْجَيْشِ خَلْفَ شَجَر ذى وَرَقِ]

الثَّأْرُ : الدم والطلب به وثأرت للقتيل وثأرت به إذا قتلت قاتله ، والجيش الجمع الكثير السائرون لحرب أو غيره ، مأخوذ من جاش البحر والقدر وغيرهما إذا غلى ، يجوش جيشاً وجيوشاً وجيشاناً .

ومعنى البيت حث على أنك إن قررت الأخذ بحقك مع أن الأفضل لك العفو ، فلتستعمل الحيلة حتى تصل بها إلى المطلوب ، اعلم أن الله قد أذن للمعْتَدىٰ عليه فى الانتصار لنفسه بقوله تعالى ﴿ **وَلَمَنِ انتصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئكَ مَاعَلَيهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **والذِينَ إذاَ أَصَابَهُمُ البَغْي هُمْ يَنْتَصِرون** ﴾[2] غير أنه تبارك وتعالى أرشد إلى أن العفو أحسن من الانتصار للنفس قال تعالى ﴿ **وأن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإذا ماغَضِبوا هُمْ يَغْفِرون** ﴾ فالانتصار حسن لإذن الله فيه والعفو أحسن منه ، ومن حكمة التشريع الإسلامى تبيين الحسن ثم الإرشاد إلى ماهو أحسن منه مبالغة للخلق فى مصالحهم جعلنا الله والمسلمين ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه إنه سميع مجيب .

ذكر طسم وجديس ومهلكهما

أما طسم فهو ابن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح « عليه السلام » وأما جديس فهو ابن كاثر بن إرم بن سام بن نوح ، فهما ابنا عم وقيل هما أخوان كلاهُما ولد لاوُذ ، ولما تبلبلت الألسن وتفرقت الأمم نزلت طسم وجديس أرض اليمامة واسمها

(١) الشورى الآية (٤١)
(٢) الشورى الآية (٣٩)

يومئذ جو ، و كانت من أفضل البلاد وأكثرها نخيلا وأعنابا فغبروا بها دهراً طويلاً وكثرت طسم وصار الملك فيهم إلى أن ملكوا عليهم عملوق بن جديس فكان ملكاً على القبيلتين معاً فعظم أمره وقويت شوكته وكان ظلوماً غشوما فسام جديس من أنواع الخسف الكثير الذى يطول ذكره حتى أنه أمر ألا تتزوج امرأة من جديس فتزف إلى زوجها قبل أن تُحمل إليه هو فيفترعها قبل زوجها ، فلقوا من ذلك بلاءً وذُلاً كبيراً ولم يزالوا على تلك الحالة من الهوان حتى تزوجت غفيرة بنت غفار أخت الأسود بن غفار سيد جديس وكبيرها يومئذ ، وكانت غفيرة تُدعى الشموس ، فلما حانت ليلة زفافها انطلقوا بها إلى عملوق لينال منها قبل زوجها على عادته ومعها القيان يغنين ويقلن :

ابْدَيْ بعملوق وقومى واركبى ... وبادري الصبح لأمر معجب
فسوف تلقين الذى لم تطلبي ... فما لِبكْرٍ بعدكم من مهرب

يعنون أنها إن فعل بها وهى أخت سيدهم فغيرها أولى ، فلما أُدْخِلَت على عملوق وافترعها وخلَّى سبيلها خرجت على قومها شاقة ثوبها عن عورتها ودمها يسيل وهى فى أقبح منظر وتقول :

لا أحــدٌ أذلّ من جديس ... أهكــذا يفعــل بالعــروس ؟
يرضى بهذا يا لقومِى حُرُّ ؟ ... أُهْدَى وقد أعطى وسيق المهر
لخوضه بحر الردى بنــفسه ... خير من أن يفعل ذا بعرسه

وامتنعت من الذهاب لزوجها وقالت تحرض قومها :

أَيَحْمَلُ ما يؤتى إلى فتياتكم ... وأنتم رجال فيكم عدد النمل
وتصبح تمشى فى الدماء فتاتكم ... صبيحة زفت فى النساء إلى البعل
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساءً ماتفيق من الكحل

من قصيدة لها ، ولما سمع أخوها ذلك ، وكان سيداً مطاعاً فى قومه ، فقال لهم إن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم فى داركم إلا بما كان من ملك صاحبهم ، فأطيعونى فيما آمركم به فإنه عزُ الدهر وذهاب ذل العمرِ وإلا اتكأت على سيفى

حتى يخرج من ظهرى ، قالوا نطيعك ولكن القوم أكثر وأقوى مِنَّا ، قال أنا صانع لعملوق وقومه طعاماً وأدعوهم فإذا جاءوا متفضلين فى الحلل والنعال ثرنا عليهم بأسيافنا فانفردت أنا بالملك وانفرد كل رجل منكم برجل منهم ، ثم إنَّ الأسود دعا القوم وأمر قومه باختراط السيوف ودفنها فى الرمل حيث أعدوا الطعام وكان ذلك بظاهر البلد ثم قال لقومه إذا أتاكم القوم يرفلون فى حللهم فشدوا عليهم بالسّيوف وابدءوا بالرؤساء ، فلما وصل القوم إلى المدعاة وثبتْ جديس فاستلت سيوفها وشدوا على عملوق وأصحابه فاستأصلوهم إلا قليلاً ثم ذهبوا إلى ديارهم فنهبوها ثم إن رجلا من طسم اسمه رياح بن مرة وهو أخو اليمامة الزرقاء نجا من الوقعة فقصد تبع اليمن حسان بن أبى كرب فاستغاث به وكان قد عمد إلى جريدة نخل رطبة فجعل عليها طيناً رطباً وحملها معه واستصحب معه كلبة فلما قرب من صنعاء كسر يد الكلبة ونزع الطين عن الجريدة فخرجت خضراء ودخل على حسان فاستغاثه وأخبره بالذى صنعت جديس بقومه فسأله الملك من أين جئت قال جئت أبيت اللعن من أرض إلى جنبك من عند قوم انتهك منهم مالم ينتهك من أحد وقصَّ عليه ماحل بهم جراء غدر جديس بهم ، فقال أمن بلدك جئت بهذه الجريدة وهذه الكلبة ؟ قال نعم ، قال حسان إن كنت صدقتني فقد جئت من قريب ، ووعده النصر فنادى فى حمير بالمسير وأعلمهم بما حل بطسم ، فخرجوا بعد مشورة بينهم استقر الرأىُ بعدها أن يخرجوا لنصرتهم وخرج الملك نفسه فى مقدمتهم ، فلما كانوا من اليمامة على ثلاث قال رياح أبيت اللعن إن لى أختاً متزوجة فى القوم ترى الراكب على مسيرة ثلاثة أيام وإنى أخاف أن تنذر القوم بك والرأى أن تأمر كل رجل أن يقتلع شجرة فيجعلها أمامه ثم يسير فأمرهم حسان بذلك ففعلوه ، وكانت الزرقاء صعدت على منازلها فرأت الشجر مقبلاً فارْتَابَتْ وقالت ياجديس لقد سارت إليكم الشجر أو لقد غزتكم حِمْير ، قالوا وما ذاك ؟ قالت أرى شجراً من ورائها بشر وإنيِّ لأرى رجلاً ينهش كتفاً أو يخصف نعلا وكان كذلك فكذبوها ثم إن حسان صبحهم فأفناهم وسبا نساءهم وصبيانهم وفر الأسود بن غفار فنزل بجبلى طيىء حتى قتلته طيىء بعد حين .

ثم إن حسان أمر باليمامة بنت مرة وكانت زرقاء فأمر بعينيها فنزعتا وإذا بداخلهما عروق سود فسألها عن ذلك فأخبرته أنه الإثمد كانت تكتحل به وقيل إنها أول من اكتحل به فاتخذه الناس كحلاً بعدها، وأمر بها فصلبت على باب مدينة جو، و« الله تعالى أعلم ».

[وانتهزِ الفُرْصَةَ مِثْلَ بَيْهَسٍ وبالْمُدَى لَحْمَ الْعُدَاةِ شَرِّقِ]

الانتهازُ هَو الانتهاض والمبادرة فقولهم انتهز فلان الفرصة يعني انتهضَ إليها مبادراً والفرصة : أصلها النوبة اسم من تفارص القوم الماء إذا جعلوا لكل واحد منهم نوبة فيقال يافلان جاءت فرصتك أي نوبتك التي تسقي فيها، ثم توسع فيه فاستعمل في كل مايمكن ويتأتى مما يخاف فواته في وقت آخر.

والْمُدَى جمع مُدية بالضم : الشفرة وفي القاموس أنها مثلثة الميم.

والعُداة : جمع عاد بمعنى العدو، والاسم العداوة ضد الصداقة.

وقوله شَرِّق : أي قطع وقَدِّدْ إذْ التشريق تقطيع اللحم وتقديده ومنه سميت أيام التشريق لأن أيام الأضاحي تشرق فيها أي تقدد وتُشَرَّحُ، وقيل في وجه تسميتها غير ذلك و« الله أعلم ».

ومعنى البيت أن التأني مطلوب مالم يخرج بصاحبه إلى حد التفريط والتواني وتضييع الفرص فالتَّأني محمود والتواني مذموم، ويقول : وإذا أمكنتك الفرصة من عدوِّك نكِّلْ به ولاتُبْقِ عليه، وهذا رأى درج عليه الشعراء ومنه قول المتنبي :

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روَّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الرَّدى الجاري عليهم بآثم

وهذا الرأى مرفوض من قبل الشرع الطاهر، فالذى هو له أن يعاقب على قدر الجريمة التي فُعِلت به من غير زيادة ولا نقصان ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) الآية، علماً بأنه بين أن العفو خيرٌ من الأخذ بالحق كما تقدمت الإشارة إليه قريبا و« الله أعلم ».

---

(١) البقرة

ذكر بيهس وفرصته

بيهس هذا كان رجلا من فزارة بن ذبيان بن بغيض وكان سابع سبعة إخوة فأغار عليهم ناس من أشجع بينهم وبينهم حرب وهم فى إبلهم فى موضع يقال له الأثلات ويقال إن إخوة بيهس خرجوا مغيرين على بنى ضبيعة فلقيهم القوم من أشجع فقتلوهم إلا بيهساً وكان أصغرهم وكان يُحمَّقُ فأرادوا قتله ثم قالوا وما تريدون فى قتل هذا ؟ يحسب عليكم برجل ولا خير فيه فتركوه ، فقال دعوني أتوصل معكم إلى حيى فإنكم إن تركتمونى وحدى أكلتنى السباع وقتلنى العطش ففعلوا فأقبل معهم فلما نزلوا نحروا جزوراً من وسيقتهم فى يوم شديد الحر فقالوا ظللوا لحمكم لا يصِلُّ أى لاينتن ، فقال بيهس : لكن بالأثلات لحم لا يظلل يعنى لحم إخوته فأرسلها مثلا ، فقال أحدهم إنى لأسمع من هذا الأُنيسان أمراً يمكن أن يكون من ورائه شرٌ فاقتلوه فقال زعيم القوم : أَيُعَدُّ علينا هذا بقتيل ؟ فتركوه وظلوا يشوون ويأكلون فقال أحدهم ما أطيب يومَنَا هذا وأخصبَه ، فقال بيهس : لكن على بلدمَ قوم عجفَى ، فأرسلها مثلا ثم انشعب طريقهم ففارقهم وأتى أمه فقالت له أين إخوتك أمورق أنت أم مخفق ؟ قال بل مخفق وأخبرها الخبر ، قالت فما جاءنى بك من بين أخوتك ؟ فقال بيهس : لو خيرت لاخترت ، فأرسلها مثلا ، وكانت أمُه تُبغضه وتحب إخوته ثم إنها عطفت عليه ورقت له فقال الناس : لقد أحبت أم بيهس بيهساً ، فقال بيهس : ثكلُ أرأمها ولداً ، أى ثكلها لأولادها هو الذى أرأمها ولو بقوا لها ماأحبتنى فأرسلها مثلا ، ثم إن أُمه جعلت تعطيه بعد ذلك ثياب إخوته فيلبسها ثم يقول : ياحبذا التراث لولا الذلة ، فأرسلها مثلاً ، ثم إنه أتى على ذلك ما شاء الله فمر بنسوة من قومه يصلحن امرأة تهدى لبعض القوم الذين قتلوا إخوته ، فقيل إنه تجرد وجعل يرقص مع النساء ، فقلن له ويحك ماتصنع يابيهس ؟ فقال :

البَسْ لكـل حالـة لبوسهـا إمـا نعيمهـا وإمَّـا بؤسهـا

فأرسلها مثلاً ، ثم أمر نساءً من كنانة أن يصنعن له طعاماً ففعلن فصار يأكل

ويقول حبذا كثرة الأيدى فى غير طعام ، فأرسلها مثلا ، فقالت أمه لايطلب هذا بثأر أبداً فقالت الكنانية : لا تأمنى الأحمق وفى يده سكين ، فأرسلتها مثلا ، ثم إنه ذات يوم بينما هو يرعى غنمًا له فى أكمة إذ ألجأه الحر إلى غار يستظل فيه فرأى قتلة إخوته وهم عشرة قد عقلوا إبلهم على فم الغار وحلبوها وشربوا منها حتى خثروا فهم روبى نيام ، فترك غنمه وبادر نحو الحى فاستلأم وأتى خالاً له يقال له أبو حنش وكان من أنخب العرب أى من أضعفهم قلباً فقال له هل لك فى غار فيه ظباء ؟ ويُروى أنه قال له هل لك فى غنيمة باردة ؟ فأرسلها مثلا ، قال نعم ، قال فتنكب قوسك وتقلد سيفك وحى هلا ورائي ثم جاء بيهس بأبى حنش حتى أقامه على فم الغار ثم دفعه فإذا هو فى وسطه وقال ضرباً أبا حنش فلما علم أنه تورط وأنه لاينجيه إلا الضرب أعمل سيفه فيهم ، يقول أحدهم إن أبا حنش لبطل فيقول مكره أخاك لابطل ، ويروى بلغة الأعراب فأرسلها مثلا ، ومازالا بهم حتى أبادوهم ورجعوا بأسلابهم إلى الحى فعُرِفت شهامة بيهس وصرامته وأنه أدرك ثأره ، وفى ذلك يقول المتلمس :

ومن طلب الأوتار ما حزَّ أنفه قصير وخاض الموت بالسيف بيهس
نعامة لما صرَّع القوم رهطه تبين فى أثوابه كيف يلبس

وقوله نعامة يعنى بيهساً لأنه كان يلقب نعامة قيل لأنه كان طويل الرجلين وقيل لأنه كان أصم والعرب تصف النعام بالصمم لأنه مصلم الأذُنين ، وتزعم العرب أن النعامة ذهبت تطلب قرونا فقطعوا أذنيها ولهذا سموا الذكر ظليما لأنه ظلم بقطع أذُنيه « والله أعلم » .

[وكابْنَ قَيْسٍ بِهِمْ كُن مُولِماً وَليمةً شَهيـــرَةً كَالْفَلَـــقِ]
[يَوْمَ مِلَاكِـــهِ بِأُمِّ فَرْوَةٍ عَرْقَبَ كُلَّ ذاتِ أَرْبَعٍ لَقِي]

الوليمة اسم لكل طعام يتخذ لجمع ، وقيل هى طعام العرس ، وأَوْلَمَ زيد صنع وليمة وفى الحديث « أَوْلِمْ ولو بشاة » ، وقد جمع بعضهم أسماء الولائم فقال :

وليمةُ إعراسٍ وخُرْسُ ولادةٍ عقيقةُ مولودٍ نقيعـــة قادِمِ
وَضيمَةُ حُزْن والبنـاءُ وكيرَةٌ عذيرَةُ خَتْنٍ مأدباتُ المكارم

ومِلاكِه وإملاكِه بالكسر فيهما تزوجه أو عقده ، وأملكه إياها زوجه إياها ولا يقالُ ملك بها ، وقال فى المصباح : قد يقال ملكت بامرأة على لغة من قال تزوجت بامرأة .

وعرقب الدابة إذا قطعَ عُرقُوبها وهو العصب الغليظ فى رجلى الدابة يكون بمثابة الركبتين فى يديها « والله أعلم » .

ومعنى البيتين حَثٌّ من الناظم على التنكيل بالعدو والتمثيل به وأن لا يدخر فى ذلك وسعاً ، والمُثْلَةُ حرام حتى فى حق الكفار ، فهذا سهيل بن عمرو لما أُسِرَ يوم بدرٍ قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ : دعنى أنزع ثناياه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً بعدها ، فقال رسول الله ﷺ لا أمثل فيمثل الله بى وإن كنت نبياً ، أو كما قال ﷺ ، فإن قِيلَ : مثل ﷺ بالعُرَنِيِّين فما بالكم تقولون بحرمة التمثيل ؟ فالجواب : أن العرنيين جمعوا بين الكفر والقتل والسرقة والكفر بعد الإيمان فقد حاربوا الله ورسوله ، ولذلك مُثِّلَ بهم ، والعلم عند الله تعالى » .

ذكر ابن قيس ووليمته

أما ابن قيس فهو الأشعث بن قيس بن معد يكرب بن معاوية بن جبلة بن عدى بن ربيعة بن معاوية بن الحرث الأصغر بن معاوية بن الحرث الأكبر بن معاوية بن كندة الكندى الصحابى الشجاع الرئيس المشهور يُكْنَى أبا محمد .

وفد على رسول الله ﷺ سنة عشر رئيساً لوفد كندة .

قال ابن عبد البر : ارتد الأشعث بن قيس بعد النبى ﷺ وأُتِي به أبو بكر رضي الله عنه أسيراً فدار بينه وبين أبى بكر حديث فقال له الأشعث استبقني لحربك وزوجني أختك ففعل أبو بكر ثم خرج من عند أبى بكر ودخل السوق

واخترط سيفه ثم لم تلقه ذات أربع إلا عرقبها من بعير وبقرة وشاة ودخل داراً من دور الأنصار فقال الناس هذا الأشعث قد ارتد ثانية ، فبعث أبو بكر رضي الله عنه إليه فأشرف من السطح وقال يأهل المدينة إنى غريب ببلدكم وإنا والله لو كنا ببلدنا لأولمنا فاجتزروا من هذه اللحمان وتصادقوا فى الأثمان وليغد عليَّ من كان له قبلى حق ، فلم تبق دار من دور المدينة إلا دخلها من ذلك اللحم ولا رُؤيَ يوم أشبه بيوم الأضحى من ذلك اليوم فضرب أهل المدينة به المثل فقالوا : أَوْلَمَ مِنْ الأشعث .

ثم شهد الأشعث اليرموك بالشام وحروب العراق مع سعد بن أبى وقاص ثم شهد صِفّين مع علي « رضي الله عنه » وسكن الكوفة وتوفى « رضي الله عنه » بعد علي رضي الله عنه بأربعين يوماً وصلى عليه الحسن بن على « رضي الله عنهما » وقيل مات سنة ٤٢ هـ و« الله أعلم » .

[وَلَا تَدَعْ وإنْ قَدَرْتَ حِيلَةً فَهْيَ أَجَلُّ عَسْكَرٍ مُدَهْرِقِ]

الحيلة بكسر الحاء تقليب الفكر فى العواقب حتى يهتدى إلى المقصود ، واحتال طلب الحيلة ودهرقت الشيء ودهقته كسرته قال حجر بن خالد :

ندهرق بضع اللحم للباع والندى وبعضهم تغلى بذمٍّ منافعه

ومعنى البيت الحث على استعمال الحيلة مع العدو وإن كان قادراً على الانتصاف منه بقتال ونحوه فالحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهى حسنة ما لم يُسْتَبَحْ بها مُحَرَّمٌ وإلاَّ حرمت .

وقد عقد البخارى كتاب الحيلة فى الرد على من يسلك الحيلة فى فتواه . ومن أمثال العرب : رُب حيلة أنفع من قبيلة ، وقال بعضهم ، كن بحيلتك أوثق منك بشدتك وبحذرك أفرخ منك بنجدتك فإن الحرب حتف للمتهور وغنيمة للمتحذر ، وقال أبو الطيب :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أوّلٌ وهْىَ المحلُّ الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل عنان
ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران

[إنْ كَانَ فى سَفْكِ دَمِ الْعِدَا الشّفَا سَفْكُ دَمِ الْبَرِيءِ غَيْرُ أَلْيَق]

والمقصود من هذا البيت التنبيه على أن مجاوزة المذنب إلى من لاذنب له محظور وغير لائق شرعاً وطبعاً قال تعالى ﴿ وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ﴾ [1] وفي المسألة هنا فى الأصل بحث نفيس فى معالجة الأدلة التى يظهر لغير المطلع تعارضها فى ذلك ، فليقف عليه من شاء .

لطيفة بمناسبة أخذ الإنسان بجريرة غيره : حَكى الجاحِظُ أن امرأةً أتت معلماً بابن لها وكان المعلم طويل اللحية فقالت إن هذا الصبى عاق لايطيع أُمه فأُحِبُّ أن تُفْزِعَهُ ، فأخذ المَعَلم لحيته والتقمها فى فمه وحرك رأسه وصاح صيحة هائلة فضرطت المرأة من الفزع وقالت إنما قلت لك أفزع الصبى ليس إيَّايَ فقال لها : ياحمقاء إن العذاب إذا نزل أهلك الصالح والطالح .

قلت : وَيُحْكى أيضاً أن الحجاج بن يوسف فَرَّ مِنه رجل كان يطلبه فقيل له هذا خاله موجود ، أو ذو قرابة منه فاستدعاه وأراد النكال به فقال الرجل علام تنكلون بى ؟ قال الحجاج من أجل قريبك فلان ، قال الرجل : أَوَلَوْ جئتك بشاهدين يشهدان على براءتى من ذلك ؟ قال الحجاج ومن يشهد لك ؟ قال : موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، قال الحجاج : وكيف يشهدان لك ؟ فتلا الرجل قوله تعالى ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبأ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وإبراهِيمَ الَّذِى وَفَّى أَلَّا تَزِرَ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾[2] الآية ، فضحك الحجاج وقال : هذا قد أُلْهِمَ حجته فاتركوه والله أعلم .

ومن المعلوم أن الحجاج كان ممن يؤاخذ المرء بجريرة غيره ، وذلك معلوم من خطبته الشهيرة التى خطبها حين قدم العراق أميراً عليه والتى قال فيها بالحرف

---

(١) الأنعام (١٦٤) .

(٢) النجم الآية (٣٨) .

الواحد : [والله لألحونّكم لحو العود ولأعصبنّكم عصب السَّلمةِ ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل ولآخذنّ البرىء بالسقيم والمحسن بالمسيء والمطيع بالعاصى حتى تستقيم لى قناتكم .

إلى غير ذلك « والله أعلم » .

[وَلَا تُحَارِبْ سَاقِطَ الْقَدْرِ فَكَمْ مِنْ شِهَةٍ قَدْ غُلِبتْ بِبَيْذَقِ]

الشِّهَةُ المراد بها عود من أعواد رقعة الشطرنج ينزل من سائر أعواده منزلة الملك من الرعية ، وإنما المعروف شَاه ومعناه فى لغة الفرس الملك وأما الِشّهة كما نطق به الناظم فمولد عامى ، وقول الفرس شاهانشاه معناه ملك الملوك والبيذق : هو بفتح الباء الموحدة والذال المعجمة بينهما تحتية ساكنة والمرادُ به هنا عود الشطرنج الذى هو فى آخر مرتبة منهاوهو فى الأصل معرب بيفه بالفَاء ومعناه فى لغة الفرس الراجل فى الحرب ويجمع على بياذق .

القول فى الشطرنج والنَّرد وما يتعلق بهما

والكلام عليهما من أربعة أوجه : تفسير لفظيهما وبيان واضعيهما والكشف عن سرهما وحكم اللعب بهما .

أما لفظهما : فالنرد بفتح النون وسكون الراء عجمى معرب ويقال له النردشير نسبة إلى واضعه وهو : أزد شير بن بابك كما سيأتي ، ومعنى أزد شير بالعربية دقيق وحليب وقيل دقيق وحلاوة .

وأما الشطرنج فهو بكسر الشين وفَتْحُهُ من لحن العامة كما نص عليه ابن هشام وقيل إن اشتقاقه شدرنج ومعناه أن من اشتغل به ذهب عناؤه باطلاً ، وحكى الوطواط أنه مشتق من شِشْ رَنْك ومعناه ستة ألوان فالشاه لون ، والفرزان لون ، والفيل لون ، والرخ لون ، والفَرَس لون ، والبيذق لون ، وهذا الأصح والأقرب .

وأما واضعهما ، فإن النرد وضعه أزد شير بن بابك أول ملوك الساسانيين وضربه مثلا للقضاء والقدر كما سنوضحه بإذن الله .

وأما الشطرنج فقد وضعه الحكيم صِصَّةْ بن داهر الهندي ، وقد اضطرب ابن خلكان فى اسم الملك الذى وضعه له هذا الحكيم فتارة سماه شِهْرام بكسر الشين المعجمة وتارة سماه بلهيث بثاء مثلثة ، والذى عند الوطواط ونقله الدميرى عن شيخه اليافعى وغيره أنه بلهيث .

واختلف فى السبب الذى من أجله وضعه ، فقيل إن الفرُس لما وضَعت النرد افتخرت بذلك فوضع الحكيم صصَّة لملك عَصْره الشطرنج فقضت حكماء ذلك العصر بترجيحه على النرد لأمور يطول شرحها ؛ وقيل إن ملك الهند أحب أن يرى الحرب وتدبيرها فى خفض ودعة فوضع له الحكيم المذكور الشطرنج ؛ وقيل إن السبب فى وضعه أن بعض ملوك الهند كان له ولد يسمى شاه أغزاه بعض الجهات فقتل فيها فهاب الناس أن يعلموه بموته فوضع لهم حكيمهم الشطرنج ولعب به الوزير مع الملك فقال الملك شاه مات فقال الوزير من الملك سمعتها فعلم الملك أن ولده قد مات وأمر أن يُعَزَّى فيه ؛ ولما عرض الشطرنج على ملك الهند أعجبه وفرح به كثيراً وأمر أنْ يكون فى بيوت الديانة ورآه أفضل ما علم لأنه آلة للحرب وعز للدين والدنيا وأساس لكل عدل ، وقال لصصة اقْتَرِحْ عليَّ ماتشتهي فقال له أشتهى أن تضع فى البيت الأول حبه بُرٍّ ولا تزل تضعفها حتى تنتهى إلى آخر البيوت فما بلغ تعطينى فاستصغر الملك ذلك وأنكر عليه لكونه قابله بالنزر واليسير وقال كنت أظن رجاحة عقلك ، فقال أيها الملك إنك لما صرفتنى إلى التمني لم يخطر ببالى غير ذلك ولا سبيل إلى الرجوع عنه فأمر الملك بما سأل وأمر الحسابين باستخراج ذلك فإذا به شيء لا يفي به حصر فقال الملك لاأدرى أيهما أعجب الشطرنج أم الأُمْنِيَةُ ؟

وأما سر النرد فقد وضع ضربه للقضاء والقدر فَجَعَلَه واضِعُه مثالاً للدنيا وأهلها فرتب الرقعة إلى اثْنَىَ عشر بيتاً بعدد شهور السنة وجعل المهارك ثلاثين

بعدد أيام الشهر وخالف بين ألوانها كاختلاف سواد الليل وبياض النهار وجعل منازل الرقعة أربعاً وعِشرينَ منزلة بعدد سوائع الليل والنهار ثم قسم المنازل أرْبَع مرات كعدد الفصول الأربعة التى هى الشتاء والربيع والصيف والخريف وشبه جوانب كل فص وهى ستة بالجهات الست إلى غير ذلك من تفصيله الذى لايستطيعه إلا من هو ملم به ودخل فى الأصل فى تفصيل كل شيء فليقف عليه من شاء .

وأما الشطرنج فاللعب به معروف وتحته رموز وأسرار جُلُّها ترجع إلى مكائد الحرب وقد قال الشاعر فى وصفه :

وكتيبَتَيْ زنج وروم أذْكيَا — حرباً يَسُلُّ بها الذكاء مناصلا
فى مَعْرَكٍ قَسَمَ النّزالُ بقاعِهِ — بين الكماةِ المعلمين منازلا
لم يسفكا فيه دما وكأنما — رشَّ الدّماء أعالياً وأسافِلا
تبدى لعينك كلما لاحظتها — قرنين جالا مُقْدماً ومخاتلا
فكأنَّ ذا صاحٍ يسير مُقوَّماً — وكأن ذا نشوان يخطر مائلا
فاعْجَبْ لها حربا تُثيرُ إذا ٱلتَظَتْ — فضل الرجال ولا تثير قساطلا

وصاحب كتاب الصادح والباغم أبو يعلى الهاشمى المعروف بابن الهبارية ذكر ثمرة النوعين وفرض ذلك فى مفاخرة وقعت بين شخصين أحدهُما هندي والآخر فارسي فليراجع الأصل من شاء الوقوف عليه .

وأما حكم اللعب بهما ففى الصحيح عن بريرة أن النبى ﷺ قال : « **من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه** » وفى الموطأ عن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « **من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله** » واخْتُلفَ فى علة تحريمه فقيل لأنه يورث العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغل القلب فيحرم اللعب به باتفاق السلف بل حَكَى بعضهم عليه الإجماع ونُوزِعَ فيه ، وقيل حرام لأن فيه إحياء سُنةِ المجوس المُتَكبرين على الله .

وأما الشَطرنج فقد ذهب جمهور العلماء إلى تحريم اللعب به وعليه الأئمة الثلاثة مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وحكى البيهقى إجماع الصحابة على ذلك وحكى عن الشافعى كراهته تنزيهاً على الصحيح المشهور عنه .

قال النووى هو مروى عن جماعة من التابعين ، لكن أنكر صاحب المقدمات ما روي من ذلك عن التابعين وقال هى أحاديث لا أصل لها من أحاديث الكوفة وكان مالك يسميها دار الضرب ، ثم الكراهة عند الشافعى مقيدة بما لم يواظب عليه ، وتعتبر المواظبة عليه بالعرف ، وما لم يلعب مع معتقد تحريمه ، أو يكن على شكل الحيوان أو يهدى عليه ، وما لم يقترن به قمار ، ولم يلعبه على الطريق ولم يؤخر به الصلاة والا حُرّمَ فى الجميع ؛ وماقتضاه ظِاهر مختصر خليل من عدم حرمته حيث جعله من أفراد مالا يليق خلاف المذهب وفى الحطاب قول بجواز اللعب به مع نظيره فى خلوة لا مع الأوباش وعلى كل حال فالإدمان عليه قادح فى الشهادة « والله تعالى أعلم » .

[وَكَمْ حُبَارى أمَّهَا صَقْرٌ فَلَمْ يَظْفَرْ بِغَيْر حَتْفِهِ بِالذُّرِقِ]
[وَكَمْ عُيُونٍ لأسُودٍ دَمِيَتْ بِالْعَضِّ مِنْ بَعُوضها المُلْتَصِقَ]

الحبارى طائر معروف يقع على الذكر والأنثى والمفرد والجمع بلفظ واحد وألفه للتأنيث خلافاً للجوهرى قال ولو لم تكن له لانصرفت ، ويصغر على حُبَيْرى وحُبيِّر قال ابن مالك :

وعند تصغير حبارى خيِّر بين الحبيْرى فادر والحُبَيِّر

وهى من أشد الطير طيراناً وأبعدها شوطاً وذلك أنهم قالوا إنها تصاد بالبصرة فيوجد فى حواصلها حبوب منابت شجرها بالشام .

والصقر هو كل طائر من البُزاة والشواهين ويقال بالصاد وبالسين والزاى لأنهم كثيرا مايبدلون الصاد سيناً إذا كان فى الكلمة قاف أوطاء أو غين أو خاء قاله الجوهرى ، وقال الصيدلانى فى شرح مختصر المزني كل كلمة فيها صاد وقاف فيها اللغات الثلاث كالبصاق والبزاق .

الحتف : الهلاك ولا يبنى منه فعل على التحقيق ، ومات حتفَ أنفه أى على فراشه يتنفس حتى مات ؛ وذَرْقُ الطائر بالذال المعجمة وسكون الراء خُرْءُهُ ويقال فيه بالزاى بدل الذال فى جميع تصاريفه .

والبعوض : معروف وقيل إنه على خلقة الفيل إلا أنه أكثر منه أعضاءً واشتقاقه من البعض وهو القطع كالْبَضْعِ والعضْبِ وأنشدوا على ذلك قول الشاعر :

لنعم البيتُ بيتُ أبى دِثار إذَا ما خاف بعضُ القوم بعْضَا

أى إذا ماخاف بعض القوم عض البعوض ، وقد تقدم هذا المعنى عند قول الناظم :

[ودع يسوق بعضها بعضا فقد دنا ولوجها بوعر ضيق]

ومعنى الأبيات الثلاثة المتقدمة أعنى ابتداءً من قوله ولا تحارب ساقط القدر إلخ أن العاقل لاسيما من كان من أهل الأقدار والهيآت لاينبغى له أن يحارب من لاقدر له بأن يبارزه ويقاتله لما فى ذلك من المعرة إذا كان مغلوباً وعدم المزية إذا كان غالبا وبرهن على ذلك أن أرق قطعة فى الشطرنج هى الملك وقد يأسره البيذق وهو أضعف قطعة فيه ، وأن الصقر وهو أسد الطيور قد يلقى حتفه بسبب ذرق الحبارى .

ذكر الجاحظ أن للحبارى خزانة فى دُبرها وأمعائها لها أبداً فيها سَلْحٌ رقيق فمتى أَلَحَّ عليها الصقر سلحت عليه فينتتف ريشه كلُّه وفى ذلك هلاكه ، فقد جعل الله سَلْحَها سلاحاً لها ؛ وفى ثمار القلوب : سلاح الحبارى يضرب مثلاً للضعيف يستعين بالآلة اللئيمة على مقارعة من هو أقوى منه فربما يغلبه بها . قال فى المعنى أبو فراس الحمدانى :

ولا خير فى دفع الرَّدَى بمذلَّة كما ردها يوماً بِسَوْءَتِهِ عَمْرُوُ

هذا ، وقد أخذ ناظمنا قوله وكم عيون لأسود دَميت الخ .. من قول القائل :

لا تحقرنَّ ضعيفاً فى عداوته إنَّ البعوضة تُدمى مقلة الأسدِ

وللشرارة نار حين تُضْرِمُها وربما أضرمت ناراً على بلدِ

ومما ينخرط فى هذا قولهم فى المثل : « أشْرَى الشَّرِّ صِغَارُه » وأصله كما فى الميدانى أن صياداً قدم بنحْي من عسل ومعه كلب له فدخل على صاحب حانوت فعرض عليه العسل ليبيعه له فقطرت من العسل قطرة فوقع عليها زنبور وكان لصاحب الدكان ابن عرس فوثب على الزنبور فوثب كلب الصياد على ابن عرس فقتله فضرب صاحب الدكان كلب الصياد بعصاه فقتله فوقع الصياد على صاحب الدكان فقتله فاجتمع أهل قرية صاحب الدكان على الصياد فقتلوه فبلغ الخبر قرية الصياد فاقتتلوا مع أهل قرية صاحب الدكان حتى تفانوا ، فقيل هذا المثل « والله أعلم » .

« وَالْخُلْدُ قَدْ مَزَّق أَقْوَامَ سَبَا وَهَدَّ سَدّاً مُحْكَمَ التَّأَنُّق]

الخُلْدُ : بضم الخاء وسكون اللام ، وفى شرح مختصر خليل المالكى عند قوله : كيربوع وخلد بتثليث الخاء مع فتح اللام وسكونها ؛ قال الجاحظ : هو دويبة عمياء صماء لاتعرف مابين يديها إلا بالشم فتخرج من جحرها وهى تعلم أن لا سمع لها ولا بصر فتفتح فاها وتقف عند جحرها فيقع الذباب على شدقيها ويمر بين لحييها فتدخله جوفها بنفسها ، وجمع الخلد مناجذ من غير لفظه نسبه فى الأصل للقاموس ؛ والتمزيق : التفريق والتقطيع يكون فى الثوب ونحوِه ويستعار لغير ذلك ، وهَدُّ البناء هدمه بشِدَّة صوت ؛ والسَّدُّ : بناء يجعل فى وجه الماء والجمع أسداد ، والسدُّ الحاجز بين الشيئين بالضم فيهما والفتح لغة وبهما قرئ القرآن وتأنّق في الشيء إذا عمله بإتقانٍ وحِكْمه .

ذكر أهل سبأ وتفرقهم وخراب السَّدّ والسبب فى ذلك

هذه القصة مذكورة فى كتاب الله فى سورة سبأ قال تعالى : ﴿ **لقد كانَ لِسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق** ﴾ [1] وعن فرة بن مسيك المرادي قال لما أنزل الله فى

---

(١) سبأ الآية (١١٥ - ١٢٠) .

سبإ ما أنزل قال رجل : يارسول الله وما سبأ أرض أم امرأة ؟ قال ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من الولد فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم ، وجُذام ، وغسَّانٌ وعاملةٌ ، وأمَّا الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار ، فقال الرجل يارسول الله وماأنمار ؟ قال الذين منهم خثعم وبجيلة أخرجه الترمذى مع زيادة وقال حسن غرِيب ،

فسبأ لقب عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان أحد ملوك اليمن العظام كما مر فى ذكر دولتهم وتعداد ملوك هؤلاء] .

وأما السَّدُّ فهو سد مأرب بفتح الميم وسكون الهمزة المبدلة ألفا وكسر الراء وباء موحدة فى آخره ، وهى بلدة أو قصر باليمن بينه وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

قال البغوي فى تفسيره عند قوله تعالى ﴿ **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ قال أبو زيد لم يكن يُرى فى بلدتهم بعوض ولا ذباب ولابرغوث ولا عقرب ولاحية ، وكان الرجل يمر ببلدتهم وفى ثيابه القمل فيموت قمله من طيب الهواء .

وقد اخْتُلِفَ فى باني هذا السد فقيل بَنَتْهُ بلقيس وقيل بناه لقمان بن عاد ، والذى ذهب إليه السهيلى أنه من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كما تقدمت الإشارة إليه فى ذكر ملوك حِمْير ، وقد رجح ابن خلدون هذا القول وقال إنه هو الأليق والأصوب .

وقد كانت أرض سبأ من أخصب أرض اليمن وأثراها وأكثرها جنانًا وغيطانًا وأفسحها مروجاً وبنياناً وكانت أشجارها متكاثفة وظلالها ممتدة أكثر من مسيرة شهر فى شهر للراكب المجد ، وكانت المرأة تخرج ومعها مغزلها والمكتل على رأسها وهى تمشي تحت أغصان الشجر وتغزل فلا ترجع إلى بيتها إلا وقد امتلأ المكتل من الثمار ، فكان لهم ملك ضخم وشوكة تامة فكانوا تاج الأرض وزينة الدنيا .

وذكر وهب بن منبه أن الله أرسل إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله

وذكروهم نعمة الله عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا مانعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس عنا هذه النعمة إن استطاع ، وفى ذلك تقول امرأة منهم كما نسبه إليها فى مروج الذهب :

إن كان مانصبح فى ظلاله من ربكم فلينطلق بماله
إليه عنا وإلى عياله

قال : فذلك قوله تعالى ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِم سَيْلَ العَرِمِ ﴾ .

وذكر المسعودى أنه لاخلاف بين أهل الرواية منهم أن العَرِمَ هو المسنَّاة التى أحكموا عملها لتكون حجزاً بين ضياعهم وبين السيول ففرجته فارة ليكون ذلك أظهر فى الأعجوبة ، وذلك مذكور فى أشعارهم متواتر عند عامتهم وخاصتهم .

وكان لملكهم أخ عقيم كاهن يدعى عمران بن عامر وزوجته كاهنة من أهل ردمان من حمير تدعى طُرَيْفَةَ بنت الخير ، وملكهم هذا هو : عمرو بن عامر المعروف بمُزَيْقياء ابن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امريء القيس البهلول ابن ثعلبة البطريق بن مازن الشَّدَّاخ بن الأزد بن الغوث ، وكان من كبار ملوك كهلان ، وإن ماء السماء هذا لقب له لجودته وسخائه وليس هو ماء السماء المعروف فى نسب ملوك العراق المنذر بن ماء السماء فتلك أُمه من النمر بن قاسط لقبت بذلك لحسنها وجمالها .

قال المسعودى : وكان أول شيء ظهر من أمر سيل العرم أن عُمران الكاهن رأى فى كهانته أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ويباعد بين أسفارهم فذكر ذلك لأخيه عمرو الملك وهو مزيقيا الذى كانت محنة القوم فى زمنه ، ثم إن الكاهنة طريفة رأت فى منامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم أصعقت فأحرقت ماوقعت عليه ففزعت لذلك وذعرت ذعراً شديداً وأتت الملك وهي تقول : مارأيت كاليوم ، قد ذهب عنى النومْ ، رأيت غيماً أبرق ، وأرعد طويلا ثم أصعق ، فما وقع على شيء إلا وأحرق ، فما بعد هذا إلا الغرق ، فسكنوا من رَوْعِهَا ثم إن الملك دخل حديقة له ومعه جاريتان له فبلغ ذلك طريفة فخرجت

نحوه وأمرت وصيفا له يقال له سنان أن يتبعها فلما برزت من بيتها عارضها ثلاث مناجذ منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهنَّ فلما رأتهن طريفة وضعت يديها على عينيها وقعدت إلى الأرض وقالت للوصيف إذا ذهبت هذه المناجذ فأعلمنى ففَعل فانطلقت مسرعة فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها الملك وثبت من الماء سلحفاة فوقعت فى الطريق على ظهرها وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع فتستعين بذنبها وتحثو التراب على بطنها وجنبيها وتقذف بالبول فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة حتى دخلت على عمرو الحديقة حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها فإذا الشجر يتكفَّأ من غير ريح فلما رآها قال هلم ياطريفة إلى فراشك ، فكهنت وقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لتالف ، وليعودنَّ الماء كما كان فى الدهر السالف ، قال عمرو : من خبرك بهذا ؟ قالت أخبرنى المناجذ ، سنين شدائدْ ، يقطع فيها الولد الوالدْ ، قال : ماتقولين ؟ قالت : قول الندمان لهفى ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة فإذا الشجر يتكفَّا ، قال عمرو : وما ترين ذلك ؟ قالت : هى داهية ركيمة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة ، قال : وماهى ويلك ؟ قالت أجل إن لي فيها الويل ، ومالك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيء به السيل ، فألقى عمرو نفسه على الفراش وقال : ماهذا ياطريفة ؟ قالت : هو خطبٌ جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ، والقليل خير من تركه ، ثم طريفة لم تزل به حتى تيقن الأمر النازل ورأى هو سيل العرم فى نومه فعلم أن ذلك واقع وأن بلاده ستخرب فقرر أن يبيع كل مايملكه بأرض سبأ وأن يخرج هو وولده منها ثم خشي أن يستنكر الناس ذلك فصنع طعاما وأمر بإبل فنحرت وبغنم فذبحت ثم بعث إلى أهل مأرب أن عمرًا صنع يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه ثم دعا ابناً له يقال له مالك وقيل كان يتيمًا فى حجره ، فقال إذا أنا جلست أطعم الناس الطعام اجلس أنت عندى ونازعني الحديث وارده عليَّ وافعل بي مثل ماأفعل بك ففعل الولد ماأمره به الملك فلطم عمرو وجهه وشتمه فصنع هو بعمرو مثل مافعله به ، فقام

عمرو يصيح واذُلاه يوم فخر عمرو يشتمه صبي ويضرب وجهه وحلف ليقتلنّه فلم يزالوا به حتى تركه وقال لا أقيم ببلد صنع بي فيه هذا ولأبيعن عقاري الذى فيه وأموالى فقال الناس اغتنموا غضبة عمرٍو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب وفشا بعض حديثه فيما بلغه من سيل العرم فخرج ناس من الأزد وباعوا أموالهم فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك وأمسكوا أيديهم عن الشراء ، فلما اجتمعت لعمرو مزيقيا أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ثم تحمل فى أهله وولده وتبعه جل أهل سبأ ثم نقَّبَ الخلد أسفل السد ففرَّق الماء جناتهم وأخرب أرضهم وأهلك بقيتهم ومُزِّقُوا كل مُمَزِّقٍ حتى صاروا مثلاً عند العرب يقولون : ذهبوا أيدى سبأ ، وتفرقوا أيادى سبأ .

ولما فصل مزيقيا بمن معه قالت لهم الكاهنة طريفة : لاتؤموا مكة حتى أقول ، وما علمنى ماأقول إلا الحكيم المحكم ، رب جميع الأمم ، من عرب وعجم ، قالوا لها : ما شأنك ياطريفة ؟ قالت خذوا البعير الشدقم ، فخضبوه بالدم ، يكن لكم أرض جرهم ، جيران بيته المحرم ، فلما انتهوا إلى مكة وأهلها يومئذ جرهم وكانوا قد قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بني إسماعيل « عليه الصلاة والسلام » ، أرسل إليهم عمرو مزيقيا ولده ثعلبة يسألهم المقام معهم إلى أن يرجع إليه رواده الذين أرسلهم إلى أصقاع الأرض يتطلبون له موضعاً يسعه ومن معه من قومه فأبوا عليه فاقتتلوا ثلاثة أيام فانهزم جرهم ولم يفلت منهم أحد إلا الشريد ، وأقام ثعلبة بمكة وما حولها فى قومه وعساكره حولاً فأصابتهم الحمى وماكانوا يدرون ما الحمى ببلادهم فاضطروا إلى الخروج وقد رجع إليهم روادهم فافترقوا بإشارة طريفة ، وقيل بإشاره زوجها عمران ، ففرقة منهم توجهت إلى عُمان بضم العين وهم الأزد وكندة وحِمْير ومن يتلوهم ، وسار ثعلبة إلى الشام فنزل الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الأنصار ، وذهبت غسان إلى الشام وغسان ماء نزلوا قربه فى طريقهم من اليمن إلى الحجاز فشربوا منه فسموا به ، فانخزعت خزاعة بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقيا وربيعة هذا هو لُحَيٌّ بالتصغير فولي أمر مكة وابنه عمرو بن لحي هو أول من غير الحنيفية دين

إسماعيل « عليه السلام » ، وهلكت طريفة بمكة وفى يوم موتها ولد شق وسطيح الكاهنان المشهوران اللذان بشرا بظهور النبى « صلى الله عليه وسلم » وقال ابن خلكان إن كل واحد منهما عاش ستمائة سنة .

قلتُ : وقد أشار فى عمود النسب إلى حديث فروة بن مسيك الذى قدمنا قال العلامة الشيخ أحمد البدوي المجلسي الشنقيطي :

نسب خير مرسل نبينـــا عَشَرَةً الأُزْدَ الأشْعَرِينَـــا
وحميراً ومذحجـــا وكنـــدة أنمارُ سَادسٌ لهم فى العِدَّةْ
وقد تيامنوا ومن أشأم له غسَّان لَخْمٌ وجُذَامٌ عَامِلَةْ

كما أشار رحمه الله فى نظمه المفيد هذا عمود النسب إلى ماذكر من طيب هواء سبإ وموت الهوام والعقارب والقمل بأرضهم فقال :

طيبُ هواء سبإٍ يموتُ لَهْ مِنْ حينه قَمْلُ غرِيبٌ نَزَلَهْ
ومـــا تولّـــد مِن العُفونَـــهْ ومن ذوات السُّمِّ لايرونـــهُ

[وَلَا تُنَغِّصْ أحـداً فَكُلُّنَـــا مِن رَجُلٍ وأصْلُنَا مِنْ عَلَقِ]

معنى هذا البيت أنه ينبغى أنك إذا رفعت نفسك عن محاربة الدنى ومبارزته فإياك أن يكون لك تنغيص له لا باللسان ولا بالجنان فلا تسبه ولا تسخر منه ، قال تعالى ﴿ لا يَسْخَرْ قومٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أن يكونوا خيراً مِّنهُمْ ﴾[1] الآية ونسب فى الأصل لمحمد الباقر رحمه الله أنه قال لابنه : يابنى إن الله أخفى ثلاثا فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته فلا تحقرنَّ من الطاعة شيئا لعل فيها رضا الله ، وأخفى سخطه فى معصيته فلا تحقرنَّ من المعصية شيئا فلعل سخطه فيها ، وأخفى أولياءه فى خلقه فلا تحقرن من عباد الله أحداً فلعله ذلك الولى ، قال الشاعر :

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم وما عليك إذا أذنبت من باس
إلا اثنتين فلا تقربهما أبـداً الشرك بالله والإضرار بالناس

وقد أشار الناظم بقوله « فكلنا من رجل وأصلنا من علق »

---

(١) الحجرات الآية ١١

إلى أن أصل الإنسان شيء حقير فلا معنى لافتخاره وترفعه لا بالنظر إلى غيره ولا بالنظر إلى ذاته على الخصوص ، يروى أن عيسى « عليه الصلاة والسلام » سئل أى الناس أفضل فقبض قبضتين من تراب وقال أى هذا أفضل ؟ قال تعالى ﴿ يأيها الناسُ إنا خلقْناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شُعُوباً وقبائِلَ لِتعارَفوا إن أكرمكم عِند الله أتقاكمْ ﴾[1] وروى أبو داود والترمذى وابن حبان من حديث أبي هريرة « رضي الله عنه » أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقى أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن ».

وعن علي « رضى الله عنه » أنه قال ما لابن آدم والفخر ؟! إنما أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة ، قال الشاعر :

ما بال من أولــه نطفــة ... وجيفــة آخـــره يفخَـــرُ

[لاتُلْزم الْمَرْءَ عُيُوبَ أصْلِه ... فَالمِسْكُ أَصْلُهُ دَمٌ فى العُنُقِ]
[والْخَمْرُ مَهْمَا طَهُرَتْ فَبَيْنَنَا ... وبَيْـنَ أَصْلِهَا بِحُكْـمٍ فَرِّقِ]

ومعنى البيتين النهى عن تنغيص أحد من خلق الله وإن كان أصله ناقصا لأن التعيير بالآباء من أخلاق الجاهلية كالافتخار بهم وقد قال رسول الله ﷺ لأبى ذر رضى الله عنه : ياأبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية أي خصلة من خصال الجاهلية ، وذلك أنه عيرَّ غلاماً بأمه ، ولأنه قد يكون ذلك غير لازم ولا مطرد فقد يكون الأصل خسيساً والفرع شريفا نفيساً كالمسك فإن أصله الدم القذر وقد أثنى عليه ﷺ : المسك أطيب الطيب ، وقد أحسن ابن الرومى حيث يقول :

وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرا شَرَفٍ ... كما علت برسول الله عدنان

ولأبى الطيب فى هذا المعنى قوله :

---

(١) الحجرات الآية (١٣)

رأيتك فى الذين أرى ملوكاً كأنك مستقيمٌ فى مُحَـــالِ
فإن تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم فإن المسك بعضُ دم الغَزال

لطيفه : يحكى أن أبا الحسن محمد بن أحمد الشاعر قال كان سيف الدولة يُسَرُّ بمن يحفظ شعر أبى الطيب فأنشدته يوما .. رأيتك فى الذين أرى ملوكاً .. البيتين ، فقلت ، وكان أبو الطيب حاضرا : هذا البيت والذى بعده لم يسبق إليهما أبو الطيب ؛ فقال سيف الدولة : كذا حدثنى الثقة أن أبا الفضل محمد بن الحسن قال كما قلت ، فأعجب أبو الطيب واهتز ، فأردت أن أحركه فقلت إلا أن فيه عيباً فى الصنعة ، فالتفت أبو الطيب التفات الحنق وقال : ماهو ؟ قلت : قولك « مستقيم فى محال » والمحال ليس من ضد الاستقامة بل ضدها الاعوجاج ، فقال الأمير : هب القصيدة جيمية فكيف تعمل فى تغيير قافية البيت ، فقلت على البديهة : فإن البيض بعض دم الدجاج :
فضحك ثم قال حسن مع هذه السرعة إلا أنه يصلح أن يباع فى سوق الطير لا مما يمدح به أمثالنا ياأبا الحسن .

وقال آخر مضمنًا عجز بيت أبى الطيب .

جرحت بناظرى خديه لطفاً فخالوا خاله أثر اندمـــال
ولما فَاحَ طيبا قيل مسكٌ فقلت المسك بعض دم الغزال

وذكر الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » أن المشهور أن غزال المسك كالظبى لكن لونه أسود وله نابان لطيفان أبيضان فى فكه الأسفل وأن المسك دم يجتمع فى سرته فى وقت معلوم من السنة فإذا اجتمع ورم الموضع فيمرض الغزال إلى أن يسقط منه ، ويقال إن أهل تلك البلاد يجعلون له أوتاداً فى البريه يحتك بها ليسقط ، وقيل فيه غير ذلك من أقاويل مختلفة كثيرة .

وأما ما أشار إليه من حكم طهارة الخل ونجاسه أصله الذى هو الخمر فهو موضوع بحث وخلاف معروف ، فقد حكى النووى الإجماع على أن الخمر إن

تخللت بنفسها طهرت ، والمذكور فى كتب المالكية عن مالك فيها ثلاث روايات ، فعنه أنها إن خُللت فقد فعل حراماً فهو عاص بتخليلها وتطهر ؛ قلت : وعليه مشى فى مختصر خليل حيث قال فى الطاهر : [وخمر تحجر أوخلل] — وهو المشهور فى المذهب المالكى ا هـ .

والرواية الثانية عن مالك أن التخليل حرام ولا أثر له بمعنى أنها لا تطهر به ، والثالثة : أن التخليل يجوز وتطهر به قاله النووى « رحمه الله » .

ومذهب الإمام الشافعى والإمام أحمد أن التخليل لا يجوز ولا تطهر به لأن الخمر ، تجب إراقتها ، وقال الليث والأوزاعى وأبو حنيفة أنها تطهر بالتخليل .

قلت : علما بأن الخلاف واقع فى نجاسة الخمر أصلاً بين العلماء وإن كان الجمهور على نجاستها والعلم عند الله تعالى .

[وَلَا تُؤيِّسْ طَامِعاً فِي رُتْبَةٍ لِنَيْلِهَا نَظِيرُهُ لَمْ يَرْتَقِ]
[فالزَّرْدُ يَوْمَ الْغَارِ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ فَضْلٌ وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْخَدَرْنَقِ]

والمرتبةُ : بالضم المنزلة والمكانة والجمع رُتَبٌ كغُرفَة وغُرف
والنيل : الإدراك والإصابة .
والزَّرَدُ بالتحريك هى الدرع المزرودة ، وسكنها الناظم هنا لضرورة الوزن والغار هو كهف فى أعلى جبل ثور فى يمين مكة مكث فيه النبى ﷺ وأبو بكر « رضى الله عنه » ثلاثا عند خروجهما للهجرة .

والخدرنق على وزن سفرجل وبالدال المهملة وقيل يجوز فى داله الإعجام ، هو العنكبوت أو العظيم منها ، قال الراجز :

ومنهلٍ طامٍ عليه الغَلْفَقُ يُنيرُ أو يُسْدى به الخدرنقُ

قال فى الأصل والخدرنق يجمع على خدارق وخدارن والله أعلم .

ومغزى البيتين النهي عن ملازمة همة النظير بهمه نظيره فقد تكون همة هذا ساقطة وهمة نظيره عالية جداً سواء أكان ذلك النظير فى السن أو فى النسب أو غير

ذلك فكم رأينا من شخصين تِرْبَيْنِ قد سمت بأحدهما همته إلى المعالى فنالها شابًّا وقعدت بالآخر نذالته حتى بقي فى الحضيض .

ومن الحكيات المناسبة لهذا المقام ماذكره الخطيب فى تاريخه أن يحيى بن أكثم قاضي المأمون كان قد ولى قضاء البصرة وسنهُ عشرون سنة أو نحوها فاستصغروه فقالوا كم سن القاضى ؟ فعلم أنه قد استُصْغِرَ فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله ﷺ على مكة عام الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجهه رسول الله ﷺ قاضيًا على اليمن وأنا أكبر من كعب بن سَوْرٍ الذى وجه به عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قاضيا على البصرة . فأفحمهم .

وأما فى النسب فكم من أخوين كان بينهما من البعد والبون مابين الضب والنون كما قال الشاعر :

عليٌّ وعبد الله بينهما أبٌ ... وشتَّان مابين الطبائع والفعل
ألم ترَ عبد الله يَلْحَى على النَّدى ... عَليًّا ويَلحاهُ عليٌّ على البُخْلِ

وقال الآخر

أبو الحسن الطبيبُ ومُقتفيه ... أبو البركات فى طَرَفَيْ نقيضِ
فهذا بالتواضع فى الثريا ... وهذا فى التكبر فى الحضيضِ

[وَقَوْسُ حَاجِبٍ بِرَهْنِهَا لَدى ... كِسْرَىَ اطمَأنَّ قَلْبُهُ بِما لَقِى]

ومعنى البيت شاهد لمغزى البيتين قبله ، فهذه القوس كانت من جملة الأقواس التى لاتساوى كبير فائدة ومع ذلك فقد حصلت مزية كبيرة وأكسبت صاحبها منقبة كبيرة وأحيت أُمة من الأمم واشتهر ذكرها عند العرب والعجم .

ذكر حاجب وقوسه

أما حاجب فهو ابن زُرارة بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمى الدارمى أحد أشراف بنى تميم وسادتها فى الجاهلية وهو الذى يعنيه الفرزدق بقوله :

ومنا الذى أحيا الوئيد وغالبٌ وعمروٌ ومنا حاجب والأقارعُ

قال المبرد : حاجب بن زرارة سيد تميم فى الجاهلية غير مدافع ، وذكر أيضاً أن بيوتات العرب ثلاثة : فبيت تميم بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زرارة ، وبيت قيس بنو فزارة ومركزه بنو بدر ، وبيت بكر بن وائل بنو شيبان ومركزه بنو ذى الجدين ا .هـ .

وأمّا قوس حاجب فكان من خبرها أن حاجبا كان قد وفد على كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان فى جَدْبٍ أصاب مضر بدعوة رسول الله ﷺ حيث قال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مضر وابعثها عليهم سنين كسنى يوسف » أو كما قال ﷺ ، فمنع كسرى تميماً من دخول ريف العراق فوفد عليه حاجب ابن زرارة فلما استأذن عليه أرسل إليه : أسيد العرب أنت ؟ قال لا ، قال أفسيد مضر ؟ قال لا ، قال أفسيد بنى أبيك ؟ قال لا ، فأذن له ، فلما دخل عليه قال من أنت ؟ قال أنا سيد العرب ، قال أليس قد أوحيت إليك أسيد العرب أنت فقلت لا حتى اقتصرت بك على بنى أبيك فقلت لا ؟ فقال أيها الملك إنى لم أكن كذلك حتى دخلت على الملك ، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب ، فقال كسرى املئوا فاه ذهبًا ثم سأله حاجب أن يأذن له ولقومه فى دخول الريف من بلاده حتى يحيوا أى يصيبهم المطر ، قال كسرى إنكم معاشر العرب قوم غُدُرٌ فإذا أذنت لكم أفسدتم البلادَ وأغرتم على العباد وآذيتموني ، قال حاجب إنى ضامن لك أن لا يفعلوا ، قال فمن لى بأن تفى أنت ؟ قال : أرهنك قوسى . فلما جاء بها ضحك القوم وقالوا : أهذه العصا يفي ؟ قال كسرى خذوها ما كان ليسلمها فى شيء أبداً ، فقبضها منه وأذن لهم فدخلوا الريف ، ولما ارتحلت تميم وقد هلك حاجب جاء ولده عُطارِدُ « رضي الله عنه » إلى كسرى يريد القوس فقال مأأنت بالذى رهنها قال أجل أيها الملك ، قال فما فعل راهنها ؟ قال هلك وهو أبي وقد وفى له قومه ووفَّى هو للملك ، فردها عليه وكساه حلةً ، فلما وفد عطارد على رسول الله ﷺ فى وفد تميم وهو سيدهم أسلم هو وأصحابه وأهدى إليه تلك الحلة فلم يقبلها ﷺ فباعها عطارد بأربعة آلاف درهم من يهودى .

ويحكى أن كسرى قال لحاجب : إن قوسك هذه لقصيرة معوجة ، قال أيها الملك وإن وفائي لطويل مستقيم .

قالوا وصارت تلك القوس مفخرة كبيرة لبني تميم وبقيت عند بني عطارد يتوارثونها ، وقد ذكرها أبو تمام في قصيدته التي يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي وهو من ربيعة فقال :

إذا افتخرتْ يوماً تميم بقوسها وزادتْ على ما وطَّدتْ من مناقب
فأنتم بذِى قار أمالت سُيُوفكم عروشَ الذين استرهَنوا قوس حاجب

[لَاتَغْشَ دَارَ الظُّلْمِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا أَخْرَبُ مِن جَوْف حِمَارٍ خَلَقِ]

غشْيَانُ المنزل إتيانه ، والغاشية السُّؤَّال يأتونك والزوار يتَنَاوَبُونَك .

قلت : والغاشية واحدة الغواشي وهى الغطاء ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ومن فَوْقِهِم غَوَاش ﴾ الآية قال الراغب الأصفهاني في المفردات في غريب القرآن : والغاشية كل مايغطى الشيء كغاشية السرج وقوله ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ ﴾ أى نائبة تغشاهم وتجللهم .

وغشيت الموضع أتيته وقد كنى به عن الجماع يقال تغشَّاها ﴿ فلمَّا تغشَّاها حَمَلَتْ ﴾ والظلم معروف وهو وضع الشيء في غير محله وبه سمى الشرك لأنه وضع للعبادة في غير محلها ولغير مستحقها .

والجوف من الحيوان بطنه ، والجوف موضع معروف ، وجوف حمار واد بأرض عاد حماه رجل اسمه حمار .

وخَلَق بالتحريك صفة مشبهة من خَلُق الثوب إذا بَلِي وقد تُفْتَحُ عين الفعل وتكسر وقد يقال أخلق بالهمزة .

ذكر جوف حمــار

إنَّ من أمثال العرب قولهم « أخربُ من جَوْف حِمار » و « أخلى من جوف

حمار » واختلف الناس فى المراد بحمار فى هذا المثل ، فقيل هو رجل من بقية عاد يقال له حمار بن مويلع ، وقيل حمار بن مالك بن نصر الأزدى كان مسلما أربعين سنة فى كرم وجود وكان له وادٍ يقال له جوف طوله مسيرة يوم فى عرض أربعة فراسخ لم يكن ببلاد العرب أخصب منه فيه من كل الثمار فخرج بنوه وهم عشرة يتصيدون فأصابتهم صاعقة فماتوا فكفر وقال لا أعبد من فعل هذا ببنيَّ ثم دعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله فأهلكه الله وأخرب واديه فضربت العرب به المثل فى الخراب والخلاء ، وضرب به المثل أيضاً فى الكفر قالوا « أكفر من حمار » وقد ذكر ذلك فى شعر العرب قال الأفوه الأودى :

بشؤم البغي والغشم قديما ... ما خلا جوفٌ ولم يبق حمارُ

وقال آخر

ألم تر أنَّ حارثة بن بدر ... يصلي وهو أكفر من حمار ؟

وقيل فيه غير ذلك والله تعالى أعلم

[وَلَاتَبِعْ عِرْضَكَ بَيْـعَ أَبِي ... غَبْشَانَ بَيْعَ ٱلْغَبْنِ والتَّبَلْصُقِ]

[بَاعَ السِّدَانَـةَ قُصَيًّا آخِـذاً ... عِوَضَهَا نِحْيًا مِنْ أُمِّ زِنْبَقِ]

العِرْضُ بالكسر النَّفْسُ والحسب ، يقال أكرمت عنه عرضي أى صنت عنه نفسي ، وفلان نقي العرض أى بريء من أن يُشتم أو يعاب .

قلت : وعبارة الفقهاء فى تعريف العرض أنه محل المدح والذم من الإنسان ، وأبو غبشان رجل من خزاعة يأتى خبره إن شاء الله .

والغَبْنُ بالسكون فى البيع وبالتحريك فى الرأى يقال غبنْتُه فى البيع وقد غُبِنَ فهو مغبونٌ ، ويوم التغابنُ يوم القيامة لأن أهل الجنة يغبنون فيه أهل النار والتَّبَلْصُقُ : طلب الشيء فى خفاء ومكر .

والسِّدَانَةُ : بالكسر خدمة الكعبة ، ويطلقونها فى الجاهلية على خدمة بيت الصنم وجاءت وزناً على فِعَالَة بكسر الفاء كسائر الحِرَفِ كالنِّجارة والتِّجارة وقد سدنها من باب قتل سَدْناً والواحد سادن والجمع سَدَنَةٌ .

وقُصَيٌّ هو بضم القاف وفتح المهملة وتشديد الياء هو ابن كلاب بن مرة أحد أجداد النبي ﷺ واسُمه زيد وإنما سمي قصياً لتقصيه عن بلاد قومه مع أمه وهو فطيم ونشوئه ببلاد عذرة ، وكان يدعى مجمعاً لجمعه أحياء قريش وإنزالهم بمكة ولذلك يقول الشاعر :

أبوكم قصى كان يدعى مُجَمِّعاً   به جَمَّعَ الله القبائل من فهر

قلت : وقد ذكر العلامة الشيخ أحمد البدوى المجلسي ثم الشنقيطى فى عمود النسب خبر الصفقة المغبونة هذه بين أبي غبشان وقصي التى ذكرها الناظم والتى سوف نتعرض بإذن الله لتفصيلها فقال :

ولم تزل خزاعة أهلَ الحرمْ   حتى أزاحهم قُصَيٌّ الخِضَمْ
بزق خمر من أبي غَبْشانِ   رئيسهم ذى الغَبْنِ والخُسْرانِ
نال المَفاتيحَ قُصَيٌّ وذَمَر   أخاه من قضَاعة حَتى انْتَصرْ
واتخذ النّدوةَ لايُخْتَرعُ   فى غيرها امْروٌ ولا تُدَرَّعُ
جاريةٌ ويعذر الْغُلَامُ   إلا بأمره بها يُرامُ
وباعها بَعْدُ حكيمُ بن حزامْ   وأَبُوهُ وتَصَدَّق الهمامْ
سيِّدُ ناديه بِكُلِّ الثّمنِ   إذ العُلا بالدِّين لا بالدِّمَنِ
حجابةٌ سقايةٌ رِفَادَةْ   لواءُ الندوة بِالقِلَادَة
أتحفَ عبد الدار إذ رآهُ   دُونَ مدى إخوته مَدَاهُ

ومغزى قوله ولاتبع عرضك .. البيتين ، هو النهى عن تدنيس العرض بسؤال الناس لما فى السؤال من المذلة والهوان فإن السائل باذل لعرضه مريق لماء وجهه وليس عن ماء الوجه عوض ولو نال بسؤاله مانال ، ولله دَرُّ القائل :

ما اعْتَاضَ باذل وجهه بسؤاله   عوضا ولو نال الغِنَى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال وزنته   رجح السؤال وخفَّ كل نوال

ذكر أبي غُبْشَانَ وصفقته

أبو غبشان بفتح الغين المعجمة وقد تضم رجل من خزاعة واختلف فى اسمه فقيل سليمان بن عمرو بن لؤي بن ملكان ، وقيل المحترش بن حُليل بن حُبيشية الخزاعى ، وكان من حديثه أن خزاعة كانت سدنة الكعبة وكان حُليل بن حُبيشية سيدهم وكان له بنون وبنت اسمها حُبّى هى زوجة قُصَيٍّ بن كلاب ثم هلك حُليل وأوصى بسدانة الكعبة إلى ابنه المحترش وكان غائبا فَدَفَعَ حُليلٌ مفاتيح البيت إلى ابنته حُبىٍّ وأمرها أن تبعث إلى أخيها المحترش ، ولما علم قصى أن حُليلاً قد هلك وبنوه غُيَّبٌ وأن المفاتيح فى يد امرأته طلب أن تدفعها إلى ابنها عبد الدار بن قصى وقال لبنيه اطلبوا إلى أمكم مفتاح بيت أبيكم فلم يزل بها حتى قالت كيف أصنع بأبى غبشان وهو وصي معى ؟ فقال قصي أنا أكفيك أمره ، فاتفق أن أبا غبشان اجتمع مع قصى فى شرب فى الطائف فأسكره ثم اشترى منه المفاتيح بزق خمر وأشهد عليه ودفع المفاتيح إلى ابنه عبد الدار وطيره إلى مكة فلما أشرف عليها قال يامعشر قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم قد ردها الله عليكم ، ثم إن خزاعة حاربت قُصَيًّا فنصره الله عليهم وتم أمره وجمع إليه قريشاً فسمى مجمعاً لذلك . « والله أعلم ».

[وَلَا تَكُنْ كأشْعَبٍ فَرُبَّمَا تَلْحَقُ يَوْماً وَافِدَ الْمُحَرِّقِ]

وهذا البيت تابع لما قبله فى ذم الطمع فإنه مضر بالعرض والدين بل وبالنفس فربما أهلك صاحبه كما أن التعفُّف والقناعة من أصلح الأشياء للدين والدنيا وأبقى لماء الوجه وديباجته . وحسبك مدحاً له ما مدح الله به فقراء المهاجرين وأثنى عليهم بقوله ﴿ يَحْسَبُهُم الجاهِلُ أغنياءَ من التَّعَفُّفِ ﴾ ، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع ، وعن علي « رضي الله عنه » : أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع ، وعن بعض الحكماء : أحسنْ إلى من شئت تكن أميره واستغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

لطيفة : يحكى أن رجلاً من معد رأى صخرة عظيمة ببلاد اليمن مكتوبا عليها العبارة التالية « اقْلبْنى أنفعْك » فاحتال فى قلبها ولقي من ذلك الأمرين ، فإذا على الجانب الآخر مكتوب « رُبَّ طَمَعٍ هدى إلى طَبَعٍ » فمازال يضرب الصخرة برأسه تلهفاً حتى انتثر دماغه فمات ، فصار يضرب به المثل فى الطمع يقال : « أطمعُ من قَالِب الصخرة » ا. هـ ولا شيء أدل على أن الطمع قاطع عنق صاحبه من قصة وافد المحرق التى أشار إليها الناظم وَسَنَقِفُ عليها بإذن الله فيما بعد ، ولله در القائل :

يخادِعُ ريبَ الدَّهرِ عن نفسه الفتى ... سَفاهاً وريبُ الدهر عنها يُخادِعُهْ
ويطمَعُ فى سَوْفٍ ويهلِكُ دُونَها ... وكم من حريصٍ أهلكَتْهُ مطامعُهْ

ذكر أشعب الذى حذر الناظم من سيرته

هو رجل من أهل المدينة صاحب نوادر مشهور بالطمع واسمه شعيب بن جبير مولى لآل الزبير وقيل إنه مولى لآل عثمان بن عفان ، وكنيته أبو العلاء ثم اشتهر بأشعب وحدث عن نفسه قال : نشأت أنا وأبو الزناد فى حجر عائشة بنت عثمان فلم يزل يعلو وأسْفُلُ حتى بلغ كل منا المنزلة التى ترى ، وكان حسن الصوت بالقراءة ، وكان صاحب سند ويروى من حديث رسول الله ﷺ : « لو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدى إليَّ كراع لقبلت » أو كما قال ﷺ ، ولما قدم بغداد فى أيام المهدى تلقاه الناس لأنه كان ذا إسناد فقالوا حدثنا ، قال حدثنى سالم ابن عبد الله بن عمر وكان يبغضنى فى الله قال « خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن » . وسكت فقالوا ماهما ؟ قال نسي سالم إحداهما ونسيت الأخرى .

وقال له عبد الرحمن بن أبى الزناد : ياأشعب أنت شيخ مسنٌّ حدثنا فهل تروي شيئاً من حديث رسول الله ﷺ ؟ قال نعم ! حدثنى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خصلتان من حافظ عليهما دخل الجنة قال فما هما ؟ قال نسي عكرمة الأولى ونسيت الأخرى .

وكان أشعب أزرق أحول أكشف أقرعَ

وكان من طمع أشعب أنه اتخذ خرقا فى بابه فكان إذا نام أخرج يده من الخرق طمعا فى أن يطرح أحد فى يده شيئاً ، فجاء بعض من كان يعبث به فسلح فى يده فلم يعد بعد ذلك إلى إخراجها .

وقال المدائنى : قال أشعب تعلقت بأستار الكعبة فقلت اللهم أذهب عنى الحرص والطمع فى الناس فمررت بالقُرشيين وغيرهم فلم يعطنى أحد شيئا فجئت إلى أمّى فقالت مالك قد جئت خائبا ؟ فأخبرتها فقالت لا والله لا تدخل حتى ترجع فتستقيل ربك فرجعت فقلت يارب أقلنى ثم جئت فلم أمر بمجلس من القُرشيين ولا غيرهم إلا أعطونى ووهب لى أحدهم غلاماً فجئت إلى أمي بحمار موفور من كل شيء فقالت ماهذا الغلام ؟ فخفت أن أخبرها بالقصة فتموت فرحاً فقلت وُهِبَ لي قالت أى شيء وهب لك ؟ قلت عين قالت أي شيء غَين ؟ قلت لام ، قالت أي شيء لام ؟ قلت ألف قالت وأي شيء ألف ؟ قلت ميم قالت وأي شيء ميم ؟ قلت : غلام ، فغشي عليها ولو لم أقطع الحروف لماتت الفاسقة فرحاً .

ويحكى أن أشعب ساوم رجلاً فى قوس فقال الرجل لا أنقصها عن دينار فقال أشعب والله لو أنى رميت بها طائراً فى السماء فوقع مشوياً بين رغيفين ماأخذتها بدينار .

وسأل سالم بن عبد الله بن عمر أشعب يوماً عن طمعه فقال قلت يوما للصبيان : هذا سالم قد فتح باب صدقة عمر فانطلقوا يعطيكم تمراً فمضوا فلما أبطئوا عني ظننت أن الأمر كما قلت لهم فأتبعتهم .

وعن المدائنى : قيل لأشعب مابلغ من طمعك ؟ قال مارأيت اثنين يتساران إلا كنتُ أراهما يأمران لى بشيء .

وحكى ابن خلكان أن أشعب قدم على يزيد بن حاتم المهلبى وهو أمير بمصر فجلس بمجلسه ودعا بغلامه فساره فقام أشعب وقبل يده يريد الانصراف فسأل

الأمير لماذا الانصراف ؟ فقال لأنى رأيتك تسار غلامك فظننت أنك قد أمرت لي بشيء فضحك الأمير وقال سأفعل إن شاء الله ووصله فأحسن إليه .

وعن المدائنى : وقف أشعب يوماً على امرأة تصنع طبقاً من خوص فقال لها زديه طوقاً أو طوقين فقالت أتريد أن تشتريه ؟ قال لا ولكن عسى أن يشتريه إنسان فيهدي إلى فيه شيئا فيكون كبيراً خير من أن يكون صغيراً .

وقال رجل يومًا لأشعب إن سالم بن عبد الله بن عمر قد مضى إلى بستان كذا ومعه طعام كثير فبادر حتى لحقه فأغلق البابُ فى وجهه فتسور عليه فقال سالم بناتى ويلك بناتى ، فناداه أشعب : « لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد » فأمر سالم بالطعام فأخرج إليه منه مايكفيه .

وقال له أحد أصدقائه يوما لو تحادثت عندى العشية فقال أكره أن يجيء ثقيل فقال ليس غيرى وغيرك ، قال إذا صليت الظهر فأنا عندك فصلى وجاء فلما وضعت الجارية الطعام إذا بصديق لصاحب المنزل يدق الباب فقال أشعب ماأرانا إلا قد صرنا إلى مانكره ، قال إنه صديقى وفيه عشر خصال إن كرهت واحدة منهن لم آذن له قال فما هى ؟ قال أولها أنه لا يأكل ولا يشرب ، قال أشعب التسع الباقية لك أدخله فقد أمنا ماكنا نحذر .

ويحكى أن أشعب صلى يوما إلى جنب مروان بن أبان بن عثمان وكان مروان عظيم الخلق والعجيزة فأفلتت منه ريح عند نهوضه لها صوت فخرج أشعب من الصف وأوهم الناس أنه هو الذى انتقض وضوؤه فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له الدية فقال دية ماذا ؟ قال دية الضرطة التى تحملتها عنك وإلا شهرتك فلم يدعه حتى أخذ منه شيئاً صالحاً .

وعن المدائنى أن صديقة لأشعب قالت له يوما : هب لى خاتمك أذكرك به ، قال اذكريني أنى منعتك إياهُ فهو أحبُّ إلىَّ .

وذكر عن أشعب أنه توضأ يوما فترك رجله اليمنى وغسل اليسرى فقيل له لم

تركت غسل اليمنى ؟ قال لأن النبى ﷺ قال أمتى غر محجلون من أثر الوضوء وأنا أحب أن أكون أغر محجل ثلاث مطلق اليمنى ، وهو محمود فى الخيل .

ويحكى أنه كانت بالمدينة عجوز شديدة العين لاتستحسن شيئا إلا عانته قد خلت على أشعب وهو يجود بنفسه فلما رآها غطى وجهه وقال يافلانة بالله عليك إن كنت استحسنت شيئا مما أنا فيه فصلى على النبى ﷺ ولاتهلكينى فغضبت المرأة وقالت سخنت عينك فأي شيء يستحسن مما أنت فيه أنت فى آخر رمق ، قال قد علمت ولكن قلت لئلا تكوني قد استحسنت خفة الموت على وسهولة النزع فيشتد عليَّ ما أنا فيه ، وخرجت من عنده وهى ساخطة تشتمه وضحك كل من كان حوله من كلامه ثم مات « رحمه الله ».

وكانت وفاته فى خلافة المهدى . وقد تركنا كثيراً من نوادره تحاشيا لها عن قصد والله الموفق ، وممن ذكر طمع أشعب فى شعره ابن أشرف حيث يقول :

وما بلوغ الأمانى فى مواعدها إلا كأشعب يرجو وعد عرقوب
وقد تخالف مكتوب القضاء به فكيف لى بقضاء غير مكتوب

وقال آخــر :

ووعدتنى وعداً ظننتك صادقا فظللت من طمع أجىء وأذهب
فإذا اجتمعت أنا وأنت بمجلس قالـوا مسيلمـة وهـذا أشعب

ذكر وافد المُحَرِّق

وأما وافد المحرق فهو وافد البراجم واسمه عمار بن صخر التميمى ثم البرجمى ، والبراجم خمسة من أولاد حنظلة بن زيد مناة بن تميم وهم قيس وكلفة وظُلَيْمُ وغالبٌ وعمرو وسموا بالبراجم لتبرجمهم أى تجمعهم فشبهوا ببراجم الكف ،

والمحرق باسم الفاعل هو عمرو بن هند اللخمى ، وهو المراد هنا .

فالمحرقون من ملوك العرب ثلاثة هم : الحرث بن عمرو الغسانى وهو أول من حَرَّقَ من ملوك العرب فقد حرق العرب فى ديارهم فهم يدعون آل محرق وإياهم عنى حسان « رضى الله عنه » بقوله :

ولدنا بنى العنقاء وابن محرق ... فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابْنما

والثانى هو امرؤ القيس بن عمر اللخمي جد عمرو بن هند ، وهو المراد بقول الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد

وقول النابغة الجعدي رضي الله عنه :

نَداماىَ عند المنذر بن محرق ... أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا

والثالث عمرو بن هند هذا وهند أمه وهو ابن المنذر بن ماء السماء ، وماء السماء أيضاً اسم أم المنذر ، فهند أم عمرو هى بنت الحرث بن عمرو المقصور بن حجر آكل المرار الكندي ، وماء السماء أم المنذر بنت عوف بن جشم بن النمر بن قاسط وأما نسب عمرو بن هند فهو ابن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن امرى القيس بن عمرو بن عدى بن نصر اللخمى ، وقيل فى نسبه غير هذا ، وكان عمرو بن هند هذا يقال له مضرط الحجارة لقساوته وشدة بأسه .

وسمى محرقاً لأنه حَرَّق مائة من بنى تميم وقيل سمى به لغير ذلك .

وكان من خبر تحريقه لبني تميم أنه كان عاقد طيئاً أن لاينازعوه ولا يفاخروه ولا يغزوه ولايغزوهم ثم إنه غزا اليمامة فمر فى رجوعه بطيىء فقال له زرارة بن عُدس الدارمى والد حاجب صاحب القوس ، أبيت اللعن أصب من هذا الحى شيئا قال له ويلك إن لهم عقداً قال وإن كان فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأذواداً فقال فى ذلك عارق الطائي وهو قيس بن جروة :

ألا حيِّ قبل البين من أنت عاشقه ... ومن أنت مشتاقٌ إليه وشائقه

إلى آن قــال :

فهبْك ابن هند لم تعقْك أمانةٌ وما المرء إلا عقدُه ومواثقُهْ
فأقسمت جهراً بالمنازل من مِنىً وما خَبَّ فى بطحائهن درادقُهْ
لئن لم تغير بعض ماقد صنعتمُ لأنتحينَّ العظمَ ذو أنا عارقُهْ

فلما بلغه شعره غضب وتوعده وحلف ليقتلنه فبلغ ذلك عارقاً فقال أبيات يقول فيها :

أيوعدنى والرمل بينى وبينه تبين رويدا ما أُمامة من هند
غدرت بعهد كنت أنت احتذيتنا عليه وشر الشتيمة الغدر بالعهد

ولما بلغ عمرو بن هند شعره هذا غزا طيئا وأسر أسرى من بنى عدى بن أخزم رهط حاتم الطائي الجواد فوفد عليه وأطلقهم له .

وكان المنذر بن ماء السماء قد أرضع ابنا له فى تميم اسمه مالك وقيل اسمه أسعد عند زرارة بن عُدس فشب فيهم وخرج ذات يوم للصيد فأخفق ولم يصب شيئا فمر بإبل سويد بن ربيعة من بنى دارم وهو زوج ابنة زُرارة بن عُدس ولدت له تسعة أولاد ذكور ، فأمر أسعد بن المنذر بناقة من إبل سويد فنحرت وأكل من شوائها وسويد نائم فلما انتبه شد على الغلام فضربه بعصىً على رأسه فقتله وشرد سويد ولحق بمكة فحالف بنى نوفل بن عبد مناف بن قصى ، وكانت طيء تطلب عثرات زرُارة بن عُدس وبنى أبيه فلما بلغهم مافعلوا بأخى الملك قال عمرو بن ثعلبة الطائى :

من مبلــغٌ عمـــرا بأ نَّ المرء لم يخلق صبــارة
وحــوادثُ الأيــام لا يبقـى لها إلا الحجــارة
ها أنَّ عُجْـزَة أمــه بالسَّفْـح أسفـلَ من أَوَارة
تَسْفي الريـاح خلال كَشْـ حَيْهِ وقـدْ سلبـوا إزاره
فاقْتُـلْ زُرارة لا أرى فى القـوم أوفى من زُراره

ومعنى الأبيات تحريض لعمرو بن هند على قتلة أخيه يقول له إنك لم تخلق

حجراً حتى لاتؤثر فيك الحوادث فخذ بثأر أخيك آخر ولد ولدته أمك والعجزة بكسر العين وقد تضم آخر ولد الرجل .

فلما بلغ الشعر عمرو بن هند بكى حتى فاضت عيناه وبلغ الخبر زُرارة ففر وركب عمرو بن هند فى طلبه فلم يقدر عليه فأخذ امرأته وهى حبلى فقال أذكر فى بطنك أم أنثى ؟ قالت لاعِلم لي بذلك ، قال مافعل زرارة الغادر الفاجر ؟ فقالت إن كان ماعلمت الطيب العرَق ، السمين المرق ، يأكل ماوجد ، ولا يسأل عما فقد ، لا ينام ليلة يخاف ، ولا يشبع ليلة يضاف ؛ فبقرها وذهب .

ثم إن قوم زُرارة قالوا له والله ماقتلت أخا الملك ولا يضرك أن تأتيه وتصدقه الخبر ففعل فقال جئنى بسويد فقال : قد لحق بمكة ، قال علي ببنيه التسعة وأمهم بنت زُرارة فأتاه بهم فقتلهم جميعا وزُرارة ينظر ، ثم إن عمرو بن هند أقسم ليحرقن مائة من بنى دارم فخرج يريدهم وجعل على مقدمته عمرو بن ثعلبة الطائي صاحب الشعر المتقدم فوجدوا القوم قد نذروا بهم فأخذوا منهم ثمانية وتسعين رجلا بأسفل أوارة من ناحية البحرين فضربت للملك قبةٌ بهذا الموضع وأمر بأخدود فخدت وأوقدت فيها النار فلما تلظت قذف بهم فيها فاحترقوا ، ومر رجل منهم فاشتم رائحة القتار فظن أن الملك قد اتخذ طعاماً وكان ساغباً فعرج على النار مع المساء وجاء يوضع به بعيره حتى أناخ أمام قبة الملك فقال ما جاء بك ؟ قال الطعام فلم أذق طعاما منذ ثلاثة أيام قال ممن أنت ؟ قال من البراجم ، قال عمرو بن هند : إن الشقى وافد البراجم فأرسلها مثلا وأمر به فقذف فى النار وأقام عمرو لايرى أحداً فقيل له أبيت اللعن لو تحللت بامرأة منهم فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلا ، فدعا بامرأة منهم من بنى حنظلة فقال من أنت ؟ قالت أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر وأنشدت :

إنى لبنت ضمرة بن جابر ساد معدّاً كابراً عن كابر

فقال عمرو أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار ، قالت أما والذى أسأل أن يضع وسادك ، ويخفض عمادك ، ماقتلت إلا نساءً أعلاهن ثدىٌ وأسفلهن حُلِىٌّ ، فقذفوها فى النار .

وقد ذكرت الشعراء هذه القصة فى أشعارها . من ذلك قول الأعشى :

وتكـــون فى الشرف الموا زى منقــراً وبنـــى زُرارة
أبنـــاء قَوم قُتِّلــــوا يوم القصيبـــــة من أَوَارة

وبسبب هذه الواقعة كانت بنو تميم تعير بِحسب الطعام ، ومن ذلك قول يزيد بن عمرو بن الصعق :

ألا أبلـغ لديك بنـــى تميم بآيـــة مايحبـــون الطعامـــا

وقال أبو المهرش الأســدى

إذا ما مات ميت من تميم فسرَّك أن يعيش فجىء بزادِ
بِخُبْـز أو بلحْـمٍ أو بتمرٍ أو الشيءِ المُلفَّفِ فى البِجادِ
تَراهُ ينـقب البطحـــاء حولاً ليأكل رأس لُقمان بن عادِ

ويُحكى أن الأحنف بن قيس دخل على معاوية رضى الله عنه فقال معاوية للأحنف ما الشيء الملفَّفُ فى البجاد يا أبا بحر ؟ قال : السخينة يا أمير المؤمنين ، وهى طعام تعير به قريش كما كانت تميم تعير بالشيء الملفف فى البجاد . قالوا : فلم يُرَ متمازحان أوقر منهما .

[وَلَا تَكُنْ كوَاوِ عَمْرو زائداً فِى الْقَوْمِ أو كَمِثْل نُون مُلْحَقِ]

ومعنى هذا البيت النهى عن التطفل وما فى معناه ، والتطفل مشتق من لفظ طفيل كزُبير وهو رجل من أهل الكوفة من بني عبد الله بن غطفان وكان يجيىء الولائم من غير أن يدعى إليها فكان يقال له طفيل الأعراس وكان يقول وددت أن الكوفة بركة مصهرجة فلا يخفى عليَّ منها شيء .

اشْتُقَّ الفعل من اسمه ونسب إليه كل من يتعاطى حرفته فقيل تطفل فلان فهو طفيلى ومن وصايا طفيل المذكور لأصحابه : إذا دخلتم عرساً فلا تلتفتوا إلى الملاهي وتخيروا المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام فليمض أحدكم ولا ينظر فى وجوه الناس ليظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة ويظن أهل المرأة أنه من أهل الرجل وإن كان البواب فَظًّا وقوحاً ليبدأ به يأمره وينهاه من غير عنف ولكن بين

النصيحة والإذلال .

ومما يروى عن طفيل ، ليس فى الأرض أكرم من ثلاثة أعواد : عصى موسى عليه السلام ومنبر الخليفة وخوان الطعام .

وقوله واو عمرو يشير إلى من يأتي الولائم من غير دعوة وحده وأشار بقوله نون ملحق إلى من يأتى الولائم تبعاً لمدعو وهو الذى يقال له الضيفن ، قال الشاعر :

إذا جاء ضيف جاء للضيف ضيفنٌ فأودى بما نقرى الضيوف الضيافن

وهذا الاسم هو الذي ألغز فيه الحريري فى المقامة النحوية بقوله : وما وصف إذا أردف بالنون ، نقص صاحبه فى العيون ، وقوم بالدون ، وخرج من الزبون ، وتعرض للهون ؛ قال الحريري : وهو الذي يتبع الضيف ، وينزل فى النقد منزله الزيف .

[واعْضُلْ كَهَمَّامٍ بَنَاتِ فِكْرِةٍ ضِنًّا بِهَا عَنْ غَيْرْ فَحْلٍ مُعْرِقِ]
[كَيْ لَاتَقُـول بلسَانِ حَالِهَـا مَقَالَ هِنْدَ أَلْقِ مَن لَمْ يَلقِ]

العَضْلُ : المنع والتضييق وقد عضل الرجل كريمته عضلاً من بابي قتل وَضَرَب : منعها التزويج وقيده فى القاموس بكونه ظلما ، وعضل الأمر اشتد ومنه داءٌ عُضال بالضم أي شديد .

والضِّن والضِّنة بالكسر فيهما والضنانة كسحابة البُخْلُ ، وقد ضننْتَ يازيدُ بشيئك تَضَنُّ من باب تعب وقد يأتى من باب ضرب وهذا علق مَضَنَّةٌ بالكسر والفتح أي نفيس مما يضَنُّ به .

والفحل : الذكر من كل حيوان ؛ والمعرق اسم فاعل من أعرق إذا صار عريقاً فى الكرم أو فى اللؤم ، والمراد هنا الأول ، وهو مشتق من أعرق الشجر إذا اشتدت عروقه فى الأرض .

ومعنى البيتين أنه لما كان الشاعر لابد له من التزلف بشعره والاستجداء به لدى الملوك ومن فى معناهم لم يمنعه ذلك بالكلية بل رخص له فى استجداء من هو أهل للاستجداء وهو من اجتمع فيه أمران : أن يكون كريماً وأن يكون من أبناء الكرام ونهاه عن استجداء من لم يتأصل فى الكرم ، قال الشاعر :

إذا ما رماك الدهر فانتَجعْ قديمَ الغنى في الناس إنك حامده
ولا تطلبن الخير ممن أفــاده حديثاً ومن لم يُورث المجد والده

واعلم ما سلكه الناظم فى حق بنات الأفكار من صون منصبها عن الأخساء وعضلها إلا عن الأكْفاء معنى مطروق للمتقدمين موجود فى كلام السلفاء والمولدين ، ومن ذلك قول القائل :

فلأعضُلَنَّ قصائدى من بعده حتى أزوجَهَا من الأكْفاء

وعاتب محمد بن عبد الملك الزيات أبا تمام على مدحه غيره فاعتذر إليه بقوله :

أما القوافى فقد حصنت عُذرتها فلا يصابُ دمٌ منها ولا سَلَبُ
منعتُ إلّا مِن الأكفاء منكحها وكان منها عليك العطف والحَدَبُ
ولو عضلت عن الأكفاء أيمها ولم يكن لك في أطهارها أَرَبُ
كانت بنات نصيب حين ضنَّ بها على الموالي ولم تَحْفِلْ بها العربُ

ومعنى الأبيات أما عذارى قصائدي فهى مقصورة عليك وأما ما دون ذلك وهي الأيامي فأنت لا ترغب فيها فلم تمنعني من أن أبعث بها إلى أكفائها فمن هو دونك في القدر وإلا كانت كبنات نصيب فقد ضنَّ بهن عن أكفائهن من العجم ولا ترغب العرب فيهن فبقين منسيات وصرن يضرب بهن المثل .

ذكر همام وماتفق له مع بناته

هو همام بن مرة بن ذهل الأصغر بن شيبان الأكبر بن ثعلبة بن عكابة بن

صعب بن علي بن بكر بن وائل وهو أخو جساس قاتل كليب المتقدم الذكر وكان من خبر همام مع بناته ما ذكره صاحب القاموس قال : كان لهمام بن مرة ثلاث بنات فأبى أن يزوجهن فلما عنسن واغتلمن قالت إحداهن بيتاً وأسمعته إياه متجاهلة :

أهمام بن مرة إنَّ همي لفى اللَّائِي يكون مع الرجال

فأعطاها سيفاً وقال هذا يكون مع الرجال ، فقالت لها الأخرى ما صنعت شيئاً ولكن أقول .

أهمام بن مرة إن همي لفى قنفاء بارزة القذال

والقنفاء تطلق على الغليظة من آذان المعزى وتطلق على كمرة الرجل وهي مراد القائلة ، ففالطها وجاءها بمعزى ، فقالت الأخرى ما صنعت شيئاً ولكني أقول :

أهمام بن مرة إنَّ همي لفى إير أسد به مبالِ

فقال أخزاكن الله وزوجهن ؛ وقيل فى خبرهن غير ذلك .

وأما قوله : مقال هند ، فهي بنت النعمان بن بشر الأنصاري ــ رضى الله عنه ــ ومقالها ما قالته فى زوجها روح بن زنباع أو هو الحجاج بن يوسف الثقفى :

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بَغْلُ
فإن ولدت فحلا فلله درها وإن يك أقرافٌ فما أنجب الفحلُ

والمشهور أنها تعني به روح بن زنباع ويشهد لذلك قول ابن صاره الشنتريني .

وصاحب لى كداء البطن صحبتُهُ يودنى كوداد الذئب للراعِى
يُثنى علىَّ جزاه الله صالحةً ثناءَ هندٍ على روح بن زنباع

[وَسَلْ مُهُور كِنْدَةٍ إن تُهْدِهَا لِذِي نَدىً كالبَحْرِ في تَدَفّقِ]

المهور جمع مهر بفتح فسكون وهو صداق المرأة ويجمع على مهورة كبعولة وفي المثل : كالممهورة إحدى خدمتيها ، طالبت حمقاء بعلها بمهرها فنزع إحدى خدمتيها ودفعها إليها ، وفي المثل أيضاً : كالممهورة من مال أبيها ، وذلك أن رجلاً أعطى مالا لآخر فتزوج به ابنة المعطى ثم امتنّ عليها بما مهرها . ويقال أمهر بالهمزة ، قال قُحيف العُقيلي :

أخِذْنَ اغتصاباً خِطبةً عجرفيةً وأمْهرنَ أرماحاً من الخط ذبَّلا

وكندة أبو حي من اليمن واسمه ثور بن عفير وإنما قيل له كندة لأنه كند أباه النعمة أى كفرها ولحق بأخواله .

والندى بالفتح أصله المطر ثم كثر استعماله في العطاء والجود حتى صار حقيقة عرفية فيه ، يقال ندي الكف إذا كان جواداً .

ومعنى الكلام أن مثل هؤلاء الأكابر إذا سئلوا ينبغى أن تعظم المسألة لديهم ويستكثر من الاقتراح عليهم ، قال هشام بن عبد الملك لنصيب الشاعر سلني قال كفاك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة فدفع إليه ألف دينار ولما مدح أبو تمام الحسن بن رجاء بقوله :

لمَّا وردنا ساحة الحسن انقضى عنَّا تَعجْرُفُ دولة الإمحالِ
أحيا الرجاء لنا برغم نوائب كثرت بهنَّ مصارع الآمال
أغْلى عَذاري الشعرِ أنْ مهورها عند الكريم إذا رخُصْنَ غَوَالِ

قام الحسن على قدميه وقال والله لا أتممتها إلا وأنا قائم فقام أبو تمام لقيامه فلما أتمها قال لأبي تمام ما أحسن ما جلوت هذه العروس قال أبو تمام والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها .

وذكر المبرد أن لبيد بن ربيعة ــ رضى الله عنه ــ هبت عليه الصبا يوماً

بالكوفة وهو مملق وكان قد نذر ألا تهب إلا نحر الإبل ، وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط والياً على الكوفة من قبل عثمان — رضى الله عنه — ، فخطب الناس وقال قد عرفتم نذر أبي عقيل فأعينوا أخاكم ثم بعث إليه بمائة ناقة وبعث الناس إليه فقضى نذره ، وفى غير المبرد أنه اجتمعت عنده ألف من الإبل ، وكتب إليه الوليد بأبيات قال فيها :

أرى الجزار يشحذُ شفرتيه   إذا هبت رياح أبي عقيل
أغر الوجه أبيض عامريٌّ   طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرى بحلفتيه   على العلات والمال القليل
بنحر الكوم إذ سُحِبَتْ عليه   ذيول صباً تجاوب بالأصيل

ولما بلغه الشعر وكان قد ترك انتحاله منذ أسلم قال لابنته أجيبيه لعمري لقد عشت برهة من الزمن وما أعيا بجواب شاعر ، فقالت :

إذا هبت رياح أبى عقيل   دعوت لها لهبَّتها الوليدا
أشم الأنف أصيد عبشميا   أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كان ركباً   عليها من بنى سام قعوداً
أبا وهب جزاك الله خيراً   نحرناها وأطعمنا الثريدا
فَعُدْ إنَّ الكريم له معادٌ   وظَني بابن أروى أن يعودا

فقال لها لبيد قد أحسنت لولا أنك استزدتيه فقالت إن الملوك لا يستحيى من مسألتهم ، فقال وأنت يابنية فى هذه أشعر : ا هـ . وهو الشاهد لما أشار إليه الناظم — رحمه الله — .

وأما مهور كندة فإنها كانت لا تزوج بناتها إلا على مائة من الإبل وربما مهرت الواحدة منهن ألفاً منها فصارت مهور كندة مثلاً في الغلاء .

[لاتَنْسَ مِنْ دُنياك حَظّاً وإلى   كالطَّالَقَانِي وَالخَصيب انْطَلِق]

قوله : لا تنس من دنياك حظاً ، مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ولا تنس

نصيبك من الدنيا ﴾[1] .

وأشار بقوله وإلى كالطالقانى إلخ أنه لا مانع من استجداء الأديب ممن لا تلحقه معرة في استجدائه .

ذكــر الطَّالقانــي

الطالقانى هذا هو الصاحب بن عبَّاد وهو أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن القاسم بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقانى نسبة إلى طالقان قزوين لا طالقان خراسان ، كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر فى فضائله وكرمه ، قال أبو سعيد الرستُمي فى حقه :

ورث الوزارة كابراً عن كابر ... موصولة الإسنــاد بالإسنــاد
يروى عن العباس عبادٌ وزا ... رتـه وإسماعيــل عن عبَّـاد

قال الثعالبى فى يتيمة الدهر فى حقه : ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب وجلالة شأنه فى الجود والكرم وتفرده بالغايات في المحاسن وجمعه أشتات المفاخر لأنَّ همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه وجهدُ وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه .

وقال أبو بكر الخوارزمي فى حقه : الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها ودبَّ ودرج من وكرها ورضع أفاويق درها وورثها عن آبائه .

وكان قد ولي الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بُوَيْه الديلمي ، فلما توفي مؤيد الدولة بجرجان وتولى على المملكة أخوه فخر الدولة أبو الحسن أقره على وزارته وكان مبجلاً عنده .

وأما أخباره فى الجود والكرم فمنها أنه أنشده أبو القاسم الزعفرانى يوماً أبياتاً نونية من جملتها :

---

(١) القصص آية (٧٧) .

أيامن عطاياه تهدى الغِنَـــى إلى راحتيى من نأىٰ أودنا
كسوت المقيـــمين والزائريـــن كُسىً لم نخَلْ مِثْلَها مُمْكِنا
وحاشيـــة الـــدار يمشون فى صنوف من الخزِّ إلَّا أنـــا

فقال الصاحب قرأت فى أخبار معن بن زائدة الشيبانى أن رجلاً قال له احملنى أيها الأمير فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ثم قال لو علمت أن الله تعالى خلق مركوباً غير هذا لحملتك عليه ، وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودُراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه .

وله مؤلفات وتصانيف كثيرة وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره فى رثاء الوزير أبى على كثيرُ بن أحمد :

يقولون قد أودى كثيرُ بن أحمد وذلك رزء فى الأنام جليلُ
فقلت دعونى والعُلا نَبْكه معا فمثل كثير فى الأنام قليـلُ

وتوفى الصاحب بن عباد ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وكانت ولادته لأربع عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة ست وعشرين وثلاثمائة باصطخر وقيل بالطالقان ، وكانت وفاته فى أصبهان وقد تنافس الشعراء فى رثائه ؛ فمن ذلك مارثاه أبو سعيد الرستمى بقوله :

أبعدَ ابن عبَّادٍ يَهَشُّ إلى السُّرى أخو أمـل أو يستماحُ جوادُ
أبى الله إلا أن يموتا بموته فماهمـا حتـى المَعَـادِ معـــادُ

ورثاه أبو القاسم بن أبى العلاء الأصبهانى بقوله :

يا كافىَ الملك ما وفيت حقَّكَ مِن مدح وإن طال تقريض وتأبينُ
فُتَّ الصفات فما يرثيك من أحد إلا وتزيينه إيـــاك تهجيـــنُ
ما متَّ وحْدَك بل قد ماتَ مَنْ وَلَدتْ حوَّاءُ طُرّاً بـــل الدنيا بل الدينُ

هاذى نواعى العُلا مُذْ متّ نادبةً | من بعد ماندبتْكَ الخُرَّدُ العينُ
تبكي عليك العطايا والعفاةُ كما | تبكي عليك الرَّعايا والسلاطينُ
قام السعاةُ وكان الخوفُ أقعدهم | واستيقظوا بعدما نام الملاعينُ
لا يعجب الناسُ أنْ قد متَّ فانتشروا | مضى سليمان فانحلَّ الشياطينُ

ذكر الخصيب

وأما الخصيبُ فهو أبو نصر الخصيب بن عبد الحميد أحد عمال الرشيد وصاحب ديوان الخراج بمصر كان من الأجواد المقصودين والسمحاء المعدودين ، قصده أبو نواس الحسن بن هانئ من بغداد إلى مصر ومدحه بمدائح بليغة فأحسن إليه غاية الإحسان حتى حسده الخليفة على ذلك ، ويروى أن أبا نواس لما وفد عليه استاذن فأذن له وعنده الشعراء فأنشدوا أشعارهم فلما فرغوا قال أبو نواس : أنشد أيها الأمير قصيدة هي كعصى موسى تلقف ما صنعوا ، فأنشد قصيدته التي أولها :

أجارة بيتنا أبوك غيورُ | ومَيْسُورُ مايُرْجَى لَدَيْكِ عَسيرُ

إلى أن قال :

تقول التى من بيتها خفَّ مِحْمَلِي | عزيزٌ علينا أن نراكَ تَسيرُ
أما دُونَ مصر للغِنَى مُتَطَلَّبٌ | بلى إنَّ أسْبَابَ الغنَى لكثيرُ
فقلت لها واستعجلتها بوادرٌ | جرتْ فجرَى من جريهنَّ غَديرُ
ذريني أكثر حاسديك برحلة | إلى بلدة فيها الخصيب أميرُ
فتىً يَشترى حُسْنَ الثناء بماله | ويعلم أنَّ الدائرات تَدُورُ
فما جازه جود ولا حلَّ دونه | ولكن يسيرُ الجودُ حيث يسيرُ

إلى أن قال :

زهى بالخصيب السيفُ والرمح والوغى | وفى السلم يزهو منبرٌ وسريرُ
جوادٌ إذا الأيدى قبضن عن الندى | ومن دون عورات النساء غيورُ

وإنى جديرٌ أن بلغتُك بالمنى وأنت بما أمَّلْتُ منك جديرُ
فإنْ تُولني منك الجميلَ فأهلُه وإلا فإنى عاذرٌ وشكــــورُ

فاهتز الخصيب لهذه القصيدة وأجازه عليها بألف دينار ووصيف ووصيفة وكان الخصيب قبلة السائلين واشتهر بالكرم وحسن السيرة والسماحة والجودة حتى إن أقارب الخليفة كانوا يقصدونه من بغداد إلى مصر فيحسن إليهم ويجزل العطاء لهم ، فاتفق أن أمير المؤمنين فقد أحد أقاربه فلم يجده ثم جاء بعدُ فسأله فقال كنت عند خصيب ثم ذكر له ما وصله فإذا هو شئ كثير فحسده الخليفة وأمره بالحضور إلى بغداد فلما وصل سمل عينيه وطرحه فى السوق .

ويحكى أن بعض الشعراء مر به وهو على تلك الحالة فقال يا خصيب إني كنت قد قصدتك من بغداد إلى مصر مادحاً لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها الآن فقال كيف بسماعها وأنا على ما ترى ؟ قال إنما قصدي أن تسمعها وأما العطاء فقد أغنيت الناس جزاك الله خيراً قال افعل ، فأنشده قصيدة أولها :

أنت الخصيبُ وهــذه مصرُ فتعفقـــا فكـــلاكما بحرُ

فلما أتى على آخرها أخرج له الخصيب من جيبه ياقوته نفيسة كان ادخرها عنده ليوم فأبى الشاعر أن يقبلها فعزم عليه حتى قبلها وذهب بها إلى سوق الجوهريين فقالوا هذه لا تصلح إلا للخليفة وانتهى خبرها إلى الخليفة فأحضر الشاعر وسأله فأخبره الخبر فندم على ما فرط منه فى خصيب وأحضره وأجزل عطاءه وحكمه فاقترح عليه أن يقطعه المنية التي بمصر ففعل فسكنها خصيب إلى أن مات بها وأورثها بنيه فتوارثوها حتى انقرضوا ، ولذلك سميت بالمنية لأنها منية خصيب ، نقله فى الأصل عن رحلة ابن بطوطة .

[لا تَهْجُ مَن لَمْ يُعْطِ واهْجُ مَنْ أتَى إلى السَّرَابِ بالدِّلَاءِ يَسْتَقِي]

ومعنى البيت أنَّه لَالَوْمَ على البخيل ، فى منعه سؤال من سأله وإنما الملامة على

الذي يطمع فى نواله ، وهذا كما قال نصيب الشاعر لمسلمة بن عبد الملك حين قال له فلان سألته فلم يعطك فلم لم تهجه ؟ فقال نصيب : لا والله لا ينبغي أن أهجوه وإنما ينبغى أن أهجو نفسي حين مدحته ، فقال مسلمة : هذا والله أشد الهجاء ، ولأبي الطيب فى المعني :

أبعين مفتقر إليك نظرتني ... فأهنتني وقذفتنى من حالق
لست الملومَ أنا الملومُ لأنني ... أنزلت آمالى بغير الخالق

وقال مهيان الديلمي :

أكرم يديك عن السؤال فإنما ... قدر الحياة أقلُّ من أن تسألا
تلحى على بُخْلِ البخيل بماله ... أفلا تكون بِمَاء وجهك أبخلا

[وَعُدْ لِما عودت من بذل اللهى ... فالْعَوْدُ أحْمَدُ لِكُلِّ مُمْلِقِ]

العود : الرجوع وسميت العادة لأن صاحبها يعاودها ويرجع إليها مرة بعد أخرى وعودته كذا فاعتاده وتعوده أي صيرته له عادة .

بَذْلُ الشئ إعطاؤه عن طيب نفس .

اللُّهى : جمع لُهوة بالضم ويقال لهية بالياء بدل الواو ، العطية من أي نوع كانت وقيل هي أفضل العطايا وأجزلها ، وفى المثل « اللُّهى تفتح اللهى » ومعناه الإحسان يطلق اللسان بالحمد والشكر .

والمملق : الفقير المحتاج ، وفى التنزيل ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملق ﴾[1] أي فقر وحاجة « والله تعالى أعلم » .

ومعنى البيت أنه لما نهاك عن سؤال البخيل وحضك على لوم نفسك بدلاً من لومه على بخله ، ذكر أن المسئول إن كان قد عودك عطاءه ووقعت منه نبوة مرة

(١) الإسراء آية (٣١) .

فلا تجعلن تلك النبوة لهجران هذا الكريم فعُدْ لما عودك من بذل معروفه فسوف تلقى عنده ما يسرك .

يحكى أن أبا جعفر محمد بن قاسم الكرخي عرض على أبي الحسن على بن محمد بن الفرات رقعة في حاجة له فقرأها ووضعها من غير أن يوقع فيها بشيء فأخذ الكرخي رقعته ومضى وهو ينشد متمثلاً بحيث يسمع ابن الفرات :

وإذا خطبت إلى كريم حاجة وأبى فلا تقعد عليه بحاجب
فلربما منع الكريم ومابه بُخْلٌ ولكن سوء حظ الطالب

فلما سمع إنشاده دعاه ارجع ياأبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ولكن إذا سألتمونا حاجة فعاودونا فإن القلوب بيد الله تعالى ، فأخذ الرقعة ووقع عليها بما أراد .

وهذا المعنى الذي طرقه الناظم هو طريقة الأدباء . والشأن هو رفع الهمة عنه « والله الموفق » وليست ناظمنا قال في آخر بيته : « فالعود أحمد لكل منفق » فهو أحسن من أن يكون كلامه مع السائل يحرضه على المسألة ، فالصواب أن يكون مزيد الوصية والتذكير مع المنفق لأن العود منه مستحسن شرعاً وطبعاً بخلاف المملق فإن الأحسن له والأرفع له عند الناس والأحظى له عند الله هو رفع الهمة والتعفف كما قلنا .

ولعل الحامل للناظم على ذلك هو تتبعه للأدب وإيراده لأمثال العرب ونوادرها .

ذكر أول من قال العود أحمد

اختلف فى أول من قال العود أحمد ، فقيل مالك بن نويرة اليربوعي حيث يقول :

جزينا بنى شيبان أمسِ بقرضهم وعدنا بمثل البدء فالعودُ أحمدُ

والأصح أن أول من قاله خداش بن حابس التميمي وذلك أنه قد خطب فتاة من بني ذهل ثم من بني سَدُوس يقال لها الرباب بعد أن هام بها مدة ثم أقبل يخطبها فكان أبواها يمتنعان لجمالها وميسمها فردًا خداشاً فأضرب عنها زماناً ثم أقبل ذات ليلة راكباً فانتهى إلى محلتهم وهو يتغنى ويقول :

ألا ليت شعري يارباب متى أرى . لنا منك نجحا أو شفاءً فأشتفي
فقد طالما عنيتني ورددتني وأنت صفيي دون من كنت أصطفي
لحى الله من تسمو إلى المال نفسه إذا كان ذا فضل به ليس يكتفي
فينكح ذا مال ذميماً ملوماً ويترك حراً مثله ليس ينتقي

فعرفت الرباب صوته وأرسلت إلى الركب الذين هو فيهم أن انزلوا بنا الليلة ، فنزلوا وبعثت إلى خداش قد عرفت حاجتك ، فاغدُ إلى أبي خاطباً ورجعت إلى أمها فقالت يا أمه هل أنكح إلا من أهوى ، وألتحف إلا من ارتضي ، فقالت : بلى . فما ذاك ؟ قالت فأنكحيني خداشاً ، قالت وما يدعوك إلى ذلك مع قلة ماله ، قالت إذا جمع المال السيئ الفعال فقبحاً للمال ، فأخبرت الأم أباها بذلك فقال ألم نكن صرفناه عنا فما بداله ، فلما أصبحوا غدا عليهم خداش فسلم وقال العود أحمد ، والمرء يرشد ، والورد يحمد ، فأرسلها مثلاً ، ولما ملك خداش الرباب غاب عنها أعواماً فعلقها آخر من قومها يقال له سَلْمٌ ففضحها ، ثم إن سلما شردت له إبل فذهب فى طلبها فوافاه خداش فى الطريق فلما علم به خداش كتمه أمر نفسه ليعلم علم إمرأته فسأله سلم ممن الرجل ؟ فخبره بغير نسبه ، فأنشأ سلم يقول :

أغبْتَ عن الرباب وهام سلمٌ بها ولهاً بعرسك ياخــداشُ
فيالك بعلَ جارية هواهــا صبور حين تضطرب الكباش
وكنت بها أخاً عطش شديد وقد يروى على الظمأ العطاش
فإن أرجعْ ويــأتيها خداش يخبـــرْهُ بما لاقى الفـــراش

فعرف خداش الأمر عند ذلك ودنا منه وقال حدثنا يا أخا بني سدوس فقال سلم علقت فتاة غاب عنها زوجها فأنا أنعم أهل الدنيا بها وهى لذَّةُ عَيْشى فقال خداش سَرَّ عنك فأرسلها مثلاً فسار ساعة ثم قال ياأخا بني سدوس حدثنا عن خليلتك فقال تسديت خباءها ليلاً فبت بأقر ليلة أعلو وأُعْلَى وأعانق وأفعل ما أهوى فعرف خداش الفضيحة فتأخر واخترط سيفه وغطاه بثوبه ثم لحق به وقال ماآية ما بينكما إذا جئتها ؟ قال : أذهب ليلاً إلى مكان كذا من خبائها وهى تخرج فتقول :

يالَيلُ هل من سار فيك طالبٍ هوى خُلَّةٍ لا يرحمن مُلْتقاهما

فأجاوبها :

نعمْ ساهرٌ قد كابد الليل هائمٌ بهائمــة ما هَوَّمت مُقْلَتاهُمــا

فتعرف أنى أنا هو ، فدنا منه خداش حتى قرن ناقته بناقته وضربه بسيفه فطار قحفه ثم انصرف فأتى المكان الذي وصفه سلم فقعد فيه ليلاً وخرجت الرباب وهى تتكلم بذلك البيت فجاوبها بالآخر فدنت منه وهى ترى أنه سلم فقنعها بالسيف ففلق ما بين المفرق إلى الزور .

ويحكى : أن عبــد الملــك بن مروان أحضر بــدرة وقــال لمن حضره من العرب : أيكم ينشدنى صدر هذا البيت « والعود أحمد » فله جائزة ثم أمر حاجبه أن ينادي بذلك فيمن عند الباب من العرب فقام فتىً من القوم وقال أنا فـأدخلـه الحـاجب فقال عبد الملك للفتى : أنشدنا صدر بيتنا ، فقال : ياأمير المؤمنين حاجتي ، قال وما هى ؟ قال بنو عم لنا باعوا ضيعتهم بالسواد فأدخلوا ضيعتي فى ضيعتهم ، فقال عبد الملك : فإن أمير المؤمنين قد رد عليك ضيعتك فأنشدنا صدر بيتنا ، قال نعم يا أمير المؤمنين قالت تميم إنه بيتهـا ، يقول أوس بن عَجَر :

جزينا بنى شيبان صاعا بصاعهم وعدنا بمثل البدء والعود أحْمَدُ

قال أخطأت قال أمير المؤمنين أبلغني ريقي ، قال أبلعتك قال قالت اليمن إنه بيتها قال امرؤ القيس :

فإن كنت قد ساءتك مني خليقة | فعودى كما نهواك فالعود أحمدُ

قال أخطأت قال يأمير المؤمنين قالت ربيعة إنه بيتها قال الموقّش :

وأحسن فيما كان بيني وبينـــــه | وإن عاد في الإحسان فالعود أحمدُ

قال أصبت وإنك لظريف من أنت ؟ قال أنا زيد بن عمرو قال ممَّنْ ؟ قال من حي جانب عجرفة قيس وعنعنة تميم وكسكسة ربيعة وصأصأة اليمن وتأنيث كنانة أنا امرؤ من بني عذرة ، فأمر له بالبذرة ، « والله أعلم » .

[وَلاَ تَعُـــدْ لِحَرْبِ مَنْ منّ وَلَـوْ | مَنَّ فَمَـا غَـل يـدا كَمُطْلِـقِ]

معنى البيت واضح لا إشكال فيه :

ذكر أول من قال : « غلَّ يداً مُطْلِقُهَا » وسبب ذلك

قائل هذا المثل هو عمران بن حطّان السدوسى قال فى الأغانى : كنيته أبو سماك وهو الخارجي الشاعر المشهور ، وكان قبل أن يفتتن بالخارجية من طلبة العلم المشتهرين بطلبه وطلب الحديث ثم بلى بذلك المذهب فضل وهلك والعياذ بالله ، وهو الذي مدَح عبد الرحمن بن ملجم المرادى أن قتل أمير المؤمنين على بن أبي طالب — رضي الله عنه — وأبياته مشهورة وقد تركنا جلبها تنزيها لهذا الكتاب عن مثلها .

وهو الذي عير الحجاج بفراره عن غزالة الحرورية بقوله :

أســـدٌ على وفى الحروب نعـــامـــة | فتخـــاء تنفر من صفير الصـــافر
هـلاّ برزت إلى غـزالـة في الـوغى | بـل كان قلبـك في جنـاحي طـائر

ولقد كان هذا الرجل سيناً فذكرت له امرأة بارعة جمال تعتنق مذهب

الخوارج فقال أتزوجها وأردها إلى السنة ، فلما تزوجها ردته هى إلى مذهبها « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » .

يحكى أن عمران بن حطان الخارجى هذا كان من أقبح خلق الله وكانت زوجته الخارجية من أجمل الناس فأجالت نظرها يوماً فى وجهه ثم تابعت الحمد لله فقال مالك ؟ قالت : حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة ، قال كيف ذلك ؟ قالت : لأنك رزقت مثلى فشكرت ورزقت مثلك فصبرتُ ، وقد وعد الله عباده الشاكرين والصابرين الجنة .

وكان السبب فى قوله المثل المترجم له أن الحجاج كان حنقا عليه فطلبه حتى ظفر به فى جماعة من أسرى الخوارج فقال يا غلام اضرب عنق ابن الفاعلة فقال عمران : بئس ما أدبك به مؤدبك ياحجاج كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما جبهتنى به أو أفحش ، أبعد الموت منزلة أصانعك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياء مما فرط منه وقال : خلوا عنه وأمر له بفرس وسرج وسيف وخلّى سبيله ، فلما عاد عمران إلى أصحابه من الخوارج قالوا له والله يا أبا سماك ما أطلقك إلا الله فعد بنا لحرب الفاسق ، قال : هيهات ، غلّ يداً مطلقها واسترقّ رقبةً معتقُها ، فأرسلها مثلاً ، ثم قال :

أأقاتلُ الحجاج عن ملكوته ... بيـد تُقِـرُّ بأنها مولاتُـهُ
إنّى إذاً لأخو الدناءة والذى ... عفَّتْ على عرفانه جهلاتُـهُ
ماذا أقولُ إذا وقفت إزاءه ... فى الصـف واحتجت له فعَلَاتُه
وتحدَّثَ الأكفاء أنَّ صنائعاً ... غُرِستْ لديه فحنظلت نَخَلَاتُه

إلخ

[وَالعَوْدُ يُخْتَارُ عَلى مَن كَانَ كَالـ ... ـمُخْتَارِ أَوْ مَنْ كَانَ ذَا تَزندُقِ]

التزندق مصدر تزندق إذا ألحد فى الدين وطعن فيه والاسم الزنديق ، ونسب فى الأصل لفخر الدين أن المجوس يلقبون بالزنادقة لأن الكتاب الذى زعم

زرادُشتُ الذى تزعم المجوس أنه نبيها ، أنه نزل عليه من عند الله مُسَمىً بالزند والمنسوب إليه يسمى زندى ثم عرب فقيل زنديق ، وقال فى المصباح : إن الزنديق هو الذى لا يتمسك بدين ولا بشريعة ويقول بدوام الدهر .

ومعنى كلام الناظم هنا يشير إلى أنه لما نهى عن العود لمحاربة من له عليك يد أفاد هنا أن العود والمحاربة إنما تحسن وتتوجه على من كان كافراً أو زنديقاً كالمختار ابن أبى عبيد ومن سلك سبيله .

وفى كلام الناظم — رحمه الله — ما يفيد أنه لا يجوز الخروج على إمام الطاعة بمجرد الفسق حتى يثبت الكفر الصريح من غير احتمال ، وهو الحق ، ففى البخارى عن عبادة بن الصامت — رضى الله عنه — : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعُسرنا ويُسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان .

وخالف المعتزلة فجوزوا الخروج على الإمام الجائر ، وهو مذهب باطل فالصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه ، ومن المعلوم أنه إذا تقابل الضرران أو المكروهان أو المحرمان نفى الأصغر للأكبر والله أعلم .

ذكر المختار بن أبى عبيد

هو أبو إسحاق المختار بن أبى عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى ، كان أبوه أبو عبيد — رضى الله عنه — من أجلاء الصحابة وكان من ولاة عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — ، ولاه جيش العراق فلقى جافان كبير جيش الفرس بين الحيرة والقادسية فأوقع به أبو عبيد وأسره ففدى جافان منه نفسه ثم جمع يزدجرد جموعاً كبيرة ووجهها نحو أبي عُبيد فأوقعوا به على الجسر واستشهد أبو عبيد — رضى الله عنه — .

وأما المختار ولده هذا فإنه ولد عام الهجرة وليست له صحبة ولا رواية ، قيل أن أُمه أتاها آت فى المنام فقال لها :

لك البشرى بولد .. أشبه شئ بالأسد .. إذا الرجال فى كبَد .. تغالبوا على بلد .. كان له حظ الأسد ..

فولدته ، وذكر أبو عمر ابن عبد البر أنه كان يتظاهر بالفضل والصلاح ويكتم الفسق فظهر منه ما كان يضمر ، وكان يتظاهر بطلب دم الحسين ويسر بذلك طلب الدنيا والإمارة فيأتى منه الكذب والجنون .

وذكر النووى أنه اتفق العلماء على أن المراد بالكذاب فى الحديث الذى يذكر خروج كذاب من ثقيف أنه المختار بن أبى عبيد .

وقد تغلب على الكوفة وفعل بها الأفاعيل ، وقد سألوه : لم خرجت تدعو إلى هؤلاء ولم تعترف بالتشيع لهم ؟ فأجاب : لأنى رأيت مروان دبَّ على الشام وابن الزبير على مكة ، ونجدة على اليمامة ، وابن حازم على خراسان ، والله ما أنا دونهم .

وكان المختار بن أبى عبيد يدعو فى ظاهره إلى محمد ابن الحنفية ويطلب بدم الحسين ، وكان المختار بن أبى عبيد يدعى أنه يلهم ضروباً من السجع لأمور تكون ثم يحتال فيوقعها ويقول للناس هذا من عند الله ، ولما قيل لابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : إن المختار بن أبى عبيد يدعى أنه يوحى إليه قال : صدق المختار مع قول الله عز ذكره : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾[1] .

وفى طلبه لدم الحسين اعتمد على إبراهيم بن الأشتر النخعى وكان بطلاً وسيداً من سادات العرب ، فوجهه على رأس جيش إلى عبيد الله بن زياد قاتل الحسين ــ رضى الله عنه ــ وكان جيش ابن زياد أضعاف جيش ابن الأشتر فالتقى به بخارز وهو نهر بين الموصل وإربل فاقتتل الفريقان وكانت الدائرة أول النهار على أصحاب المختار ولما كان آخر النهار كانت الدائرة على ابن زياد وأصحابه ، ويُحكى أن ذلك كان نتيجة لحيلة احتال بها المختار حيث انه أودع حماماً ما بيضا

(١) الأنعام الآية (١٢١)

لاناس وقال لهم إن رأيتم الدائرة علينا أطلقوا هذا الحمام ، ثم خطب الناس وقال : إن الله ممدكم بملائكة غضاب ، تأتى فى صور الحمام دوين السحاب ، ولما أرسل أصحاب الطيور طيورهم تصايح الناس الملائكة الملائكة فتراجعوا وقويت معنويتهم ووقع القتل فى أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ووضع فيهم السيف حتى أفنوا وكان من هلك غرقاً أكثر ممن أخذه السيف ، وقال ابن الأشتر يومئذ لقد ضربت بسيفي رجلاً على شاطئ هذا النهر غولى إلى سيفي وفيه رائحة المسك ورأيت إقداماً وجرأه فضربته فصرعته فشرقت يداه وغربت رجلاه فانظروا من هو فأوقدوا النار وتطلبوه فإذا هو ابن زياد .

وكان من حيل المختار فى هذه الوقعة أنه كان عنده كرسي قديم العهد فغشاه بالديباج وقال هذا كرسي من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبى طالب فتبركوا وقاتلوا عنه فإن محله فيكم محل تابوت السكينة فى بنى إسرائيل .

ثم ان مصعب بن الزبير سار إلى المختار بن أبى عبيد من البصرة فقاتله حتى قتله ، ثم زحف عبد الملك بن مروان من الشام فقتل مصعب بن الزبير واستولى على العراق .

يُحكى أن عبد الملك بن عمير قال : كنت مع عبد الملك بن مروان بقصر الكوفة حين جيئ برأس مصعب بن الزبير فوضع بين يديه فرآني قد ارتعدت فقال لى مالك ؟ فقلت أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين ، كنت بهذا القصر بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن على بين يديه فى هذا المكان ثم كنت فيه مع المختار بن أبى عبيد فرأيت رأس ابن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ثم هذا رأس مصعب بين يديك ، قال فقام عبد الملك من الموضع وأمر بهدم الطاق الذى ... فيه . وكان مقتل المختار بالكوفة سنة سبع وستين من الهجرة .

[والصَّمْتُ حِصْنٌ لِلفَتَى مِن الرَّدَى وَقَلَّ مَنْ شَرِّ لِسَانِهِ وُقِى]
[وَإِنْ وَجَدْتَ لِلْكَلَامِ مَوْضِعاً فَكُنْ عَزاراً فِيهِ أَوْ كَالأَشْدَقِ]

الصَّمْتُ : بفتح الصاد وقد تضم السكوت ، يقال قد صمتَ صَمْتًا وصُماتًا وصُمُوتًا من باب قَتَلَ ؛ والحصن بالكسر المكان الذى لا يُقدر عليه لارتفاعه يقال قد حصُن بضم الصّاد حَصَانةً فهو حصينٌ أي منيعٌ .

والرَّدى الهلاك وقد ردي كرضي وأرداهُ غيره أهلكه « والله أعلم » .

ومعنى البيتين أن الصمت حصن ووقاية من الآفات المهلكة والمعاطب المتلفة وأنَّ جل من أرسل لسانه وأهمله قد عاد عليه وبال ذلك وشره وفى الحديث الصحيح : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** » وفيه أيضاً « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » .

ومن كلام علي — رضي الله عنه — : إذا تم العقل نقص الكلام ؛ وقال طاووس : لساني سَبُعٌ إنْ أرسلته أكلني ، ولله در القائل :

احْفَـظْ لسانك أيها الإنسانُ ... لا تَلْـدَ غَنَّكَ إنَّـه ثُعْبَـانُ
كَمْ فى المقابر من قتيل لِسَانِهِ ... كانت تهابُ لقاءَهُ الشُّجْعانُ

ثم ان كان لا بد من الكلام فلا تتكلم إلا لإحقاق حق أو إبطال باطل فإنه من صمت نجا وبالله تعالى التوفيق .

ذكر عرار وفصاحته

أما عرارٌ هذا فهو ابن عمرو بن شاسٍ بن عبيد بن ثعلبة بن ذؤيبة بن مالك بن الحرث بن سعد بن ثعلبة بن داودان بن خزيمة ، كان والده عمرو بن شاس ممن شهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مشهوراً بالبأس والشدة والنجدة والشعر المطبوع .

وعِرَار ، قال ابن عبد البر هو بفتح العين وكسرها ، فالفتح على أنه منقول من الشجر المعروف والكسر على أنه منقول من صياح الظليم ، وهو أسود اللون ابن

جارية لابيه ، وكانت زوجة أبيه أم حسان السعدية تُبغضُه وتشتمه وتُؤذيه وتعير أباه به فطلقها أبوه لأجل ذلك ثم تبعتها نفسه وله فيها أشعار كثيرة ، ومن شعره فيها وفي ابنه عرار قوله :

فإن كنت مني أو تريدين صحبتى   فكوني له كالسّمن ربَّبه الأَدَمْ
وإلا فسيري سير راكب ناقة   تيمَّمَ خِبْتاً ليس فى سيره أقم
أرادت عِراراً بالهوان ومن يُرِدْ   عِرار لعمري بالهوان فقد ظَلَمْ
وإن عِرار ان يكن غير وَاضِح   فإني أحبُّ الجون ذا المنطق العَمَمْ

ومعنى العمم التام ، وكان عرارٌ من النجباء الفصحاء ، وقد وجهه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان برأس ابن الأشعث وكتب معه كتاباً بالفتح فجعل عبد الملك كلما قرأ الكتاب وشك فى لفظ سأل عنه عراراً فيخبره فى أصح لفظ وأبلغ قول فملأ أذنه صواباً وعبد الملك لا يعرفه وقد استنقصه حين رأى سواده ودمامته فقال متمثلاً :

وإن عِراراً إن يكن غير واضح   فإني أحب الجون ذا المنطق العَمَمْ

فضحك عرار فقال عبد الملك ممَّ تضحك ؟ فقال أتعرف عراراً يا أمير المؤمنين ؟ قال لا ! قال أنا هو فضحك عبد الملك وقال : خط وافق كلمة ، وأحسن جائزته وسرحه .

وقيل فى سبب استشهاد عبد الملك بالبيت المتقدم بحضرة عرار المنشود فيه غير ذلك « والله أعلم » .

ذكر الأشدق وفصاحته

وأما الأشدق فهو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قتل جده العاص بن سعيد كافراً يوم بدر قتله على بن أبى طالب ــ رضي الله عنه ــ ، وولد أبوه سعيد بن العاص عام الهجرة

وعده ابن عبد البر من الصحابة وكان أحد أشراف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة وهو أحد كتبة المصحف لعثمان — رضى الله عنه — ، وقد ولاه عثمان الكوفة ، وكان اعتزل حرب الجمل وصفين ، فلما اجتمع الناس على معاوية — رضي الله عنه — ولاه على المدينة المنورة ، وكان له سبعة أولاد أنجبهم عمرو الأشدق الذي نحن بصدد ترجمته .

واختلف فى سبب تسميته بالأشدق ، فقيل لأن ذلك لسبب ريح أصابته فأمالت شدقه ولذلك كان يقال له لطيم الشيطان .

وذكر القسطلانى في شرح البخاري أن عمراً الأشدق صعد المنبر فبالغ في شتم علي بن أبي طالب فأصابته لغوة أمالت شدقه .

وقيل إن معاوية هو الذي سماه الأشدق وذلك أنه لما مات أبوه ودخل على معاوية فقال له إلى من أوصى بك أبوك ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن أبي أوصاني ولم يوصِ بي ، فقال : فبأي شيء أوصاك ؟ قال : بأن لا يفقد منه أصحابه غير شخصه ، فقال معاوية : إن عمراً هذا لأشدق فسمي بالأشدق ، وفى ذلك يقول الشاعر :

تشادق حتى مال بالقول شدقه   وكل خطيب لا أبالك أشدقُ

يُحكى أن سعيد بن العاص لما اختصر استدعى بنيه فقال يابني من يكون وصي فيكم ؟ فسكتوا لما يعملونه من كثرة بناته وكثرة ديونه ، فأعاد مقالته فسكتوا فقال عمرو أنا وصيك ياأبت ، قال إني أوصي بثلاث ، قال قل ياأبت ما بدا لك قال : علي ثلاثمائة ألف درهم ديناً أو قال ثلاثه آلاف درهم فقال عمرو نعم هذه واحدة فقال سعيد : إخواني الذين كنت أتعهدهم بالمعروف لا تقطع ذلك عنهم ، فقال عمرو نعم ، فقال سعيد : أما والله يابني لئن كنت فعلت لقد كنت تأملت ذلك في حماليق عينيك وأنت في المهد ، ثم إن عمراً وفى بما عهد به إليه أبوه .

ولما اختل أمر الخلافة بعد يزيد بن معاوية وثب مروان بن الحكم بالشام وعضده عمرو بن سعيد الأشدق على أمره بشرط أن يجعل له الأمر من بعده ففعل ثم كان من الأمر أن رفض مروان الشرط بعد أن تمكن وبايع بولاية العهد لابنه عبد الملك ثم لعبد العزيز ولما هلك مروان واستقل عبد الملك بالأمر طلب منه الأشدق أن يجعل له الأمر بعده فأبى فتربص الأشدق حتى خرج عبد الملك لقتال ابن الزبير بالعراق وقيل لقتال زفر بن الحرث الكلابى بقرقيسياء فخالفه إلى دمشق وأغلقها وتمكن من دار عبد الملك وبيوت المال واتصل الخبر بعبد الملك فكر راجعاً وحاصر الأشدق أياماً ثم وقع الصلح على أن يكون له الأمر من بعده وأن له مع كل عامل عاملاً ففتح الأشدق دمشق وخرج فى الخيل إلى عبد الملك فأقبل حتى وطئ فرسه أطناب عبد الملك فانقطعت وسقط السرادق ثم دخل على عبد الملك فاجتمعا ثم بعد أيام من دخول عبد الملك دمشق غدر بالأشدق فقتله بعد أن استدعاه إلى جواره فى خبر طويل ، وذلك سنة سبعين للهجرة ، وكانت أخته آمنة بنت سعيد تحت الوليد بن عبد الملك فرثته وخرجت حاسرة تبكى وتقول :

ألا يالقومى للوفاء وللغدر	وللمغلقين الباب قسرا على عمرو
غدرتم بعمرو يابني خيط باطل	وكلكمُ يبنى البيوت على غدر
كأن بني مروان إذ يقتلونه	بغاث من الطير اجتمعن على صقر
لحى الله دنيا تُعقبُ النار أهلها	وتهتك ما بين القرابة من ستر

الخ

ولما توفى عبد الملك سعى بآمنة ساعٍ عند الوليد بأنها لم تبكه كما بكته نظائرها فذكر لها الوليد ذلك فقالت صدق القائل ، ماذا أقول فى بكائه ؟ أتريدون مني أن أقول ياليته بقي حتى يقتل لى أخاً مثل عمرو بن سعيد ؟ فأعرض عنها « والله أعلم » .

[لَاتَكْتُمِ الْحَقَّ وَقُلْهُ مُعْلناً فهو جَمَالُ صوتك الصَّهْصَلْقِ]

[وَصِحْ به مِثْلَ شبيب وأبى عُروة والعَبَّاس عِنْدَ الزَّعَـقِ]

الصهصلق كجَحْمَرِشٍ الشديد ، والصهصلق العجوز الصخابة .

والزَّعَقُ بالتحريك مصدر زَعِق كفرح وعُني إذا خاف بالليل فهو زعق ككتف ، ومعنى الكلام أن إظهار الحق ونصره والإشادة به مطلوب شرعاً وعقلاً ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقِسْطِ شُهَداء لله ولَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمَ ﴾[1] الآية .

تنبيةٌ : من الفروض الإسلامية المؤكدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد دل الكتاب والسنة على وجوبهما ودل عليه إجماع الأمة المعصوم فأما الكتاب ، فقد قال تعالى : ﴿ ولتكن مِنكُمْ أُمَّةٌ يدعون إلى الخير ويأمُرونَ بِالمعروفِ وَيَنهون عن المنكر ﴾[2] الآية ، وقد ذم الله بنى إسرائيل بتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقوله : ﴿ كَانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لبئس ما كانوا يَفْعَلونْ ﴾[3] وأما السنة ففى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان .

وفى صحيح البخارى من حديث النعمان بن بشير ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً .

قلت : وما يظنه بعض المتطفلين على طلب العلم من منطوق قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكُم لا يضُرُّكُم من ضَل إذا اهتديتم ﴾[4] بأنه

(١) النساء (١٣٥)

(٢) آل عمران (١٠٤)

(٣) المائدة الآية (٧٩) .

(٤) المائدة الآية (١٥) .

إذن فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو ظن باطل وجهل بكنه الآية الكريمة فمدلولها « والله تعالى أعلم » هو أنكم إذا اهتديتم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقمتم بتبليغ حجة الله فى ذلك لا يضركم من ضل يوم القيامة وفى « الطبري » أن أبا هريرة ــ رضي الله عنه ــ سمع قوماً يقولون فى الآية إنها منسوخة فقال يابني الآية محكمة ولكن ذلك فى الآخرة ، أمّا فى الدنيا أما ترى الحبارى تموت عطشاً من ذنب ابن آدم . يعصي ابن آدم ربه فيمسك الله المطر فتموت الحبارى عطشاً فى الصحراء ، ومن تلا قوله تعالى : ﴿ **واتقوا فتنةً لا تُصِيبَنَّ الّذِينَ ظَلَموا مِنكُمْ خاصةً** ﴾[1] وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم لإحدى أمُهات المؤمنين حين سألته : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم إذا كثر الخبث ، علم بوضوح أن مدلول قوله تعالى : ﴿ **لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ يعنى يوم القيامة .

وقصة بني إسرائيل فى القرية التي كانت حاضرة البحر تشهد لما قررناه ، لأن الذين لم يرتكبوا ما نُهوا عنه ولم ينهوا المرتكبين قالوا للطائفة المؤمنة منهم التي قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ﴿ **لِمَ تعظون قوماً الله مُهلِكُهُم أو مُعَذبهم عذاباً شديداً** ﴾[2] ؟ فأجابوهم بأن ذلك كان منهم خروجاً من عهدة وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع أنهم يرجون أن يوفقهم الله ويتلقاهم بعنايته ﴿ **قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ﴾[3] .

ولما جاء عذاب الاستئصال للذين انتهكوا حُرمات الله أصاب أولئك الذين ارتكبوا المنهي عنه والذين لم ينهوا عن المنكر على حد السواء وذلك هو التحقيق لأن القرآن العظيم لم يخبرنا إلا بنجاة الذين كانوا ينهون عن السوء حيث قال : ﴿ **فَلما نَسوا ما ذُكِّروا بِهِ أنجينا الّذِينَ ينهون عَنِ السوءِ وأخذْنا الّذِينَ ظَلَموا بِعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسُقون** ﴾[4] .

---

(١) الأنفال (٢٥)
(٢ ، ٣) الأعراف (١٦٤)
(٤) الأعراف الآية (١٦٥)

فالحاصل : أن الأمر بالمعروف يلزم لزوماً باتاً وأن من يمكنه القيام بذلك ولم يقم به مع عدم المسقط عنه أحق بالعقوبة من مرتكبي المنهى عنه لأنهم شركاء فيه وسكوتهم على ذلك يؤذن برضاهم به والله ولي التوفيق وهو الهادى إلى سواء الطريق .

تتمة : يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من يعرف المعروف من المنكر لأنه إن جاز أن يلي ذلك كل من خب ودبَّ وقع النهى عن المعروف يظن منكراً والأمر بالمنكر يظن معروفاً والله ــ جل وعلا ــ يقول : ﴿ **ولا تقف ما ليسَ لكَ بِهِ عِلمٌ** ﴾[1] ويشترط فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيضاً فطنة الإفادة وبه فسر بعض المحققين قوله تعالى : ﴿ **فذكر إن نفعت الذكرى** ﴾[2] انظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لعلم زمانه والكوكب الفرد شيخنا وابن عمنا العَلامة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن أحمد نوح الجُكنى ثم اليعقوبي الموريتاني أصلاً ومنشأً وميلادا دفين المعلاة بمكة المكرمة جمعنا الله به فى مستقر رحمة الله .

كما يشترط فيه أيضاً أمن الآمر بالمعروف على نفسه من وصول الأذى إليه وهو مسقط للوجوب والاستحباب باق « والله تعالى أعلم » .

ذكر العباس ــ رضي الله عنه ــ

أما العباس فهو ابن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم وهو أشهر من أن يُعَرف بِهِ كان أسن من النبى صلى الله عليه وسلم بسنتين وكان رئيساً شريفاً فى الجاهلية والإسلام أسلم قبل فتح خيبر وكان بمكة يكتم إسلامه ثم أظهره يوم الفتح وشهد حنيناً والطائف وتبوك .

وقيل كان إسلامه فى بدر وكان يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخبار المشركين وكان المسلمون بمكة يتقوون به وكان يحب الهجرة إلى المدينة غير

---

(١) الإسراء (٣٦) .

(٢) الأعلى الآية (٩) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول له إن بقاءه بمكة خير للمسلمين ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : من رأى منكم العباس فلا يقتله فإنما أخرج مكرها ، ثم أسر وفدى نفسه وابني إخوته نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فى نفر من بني هاشم حين فر الناس عنه وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راضٍ واستسقى عمر — رضى الله عنه — بدعائه عام الرمادة فجاء الله بالمطر والخصب .

كان — رضي الله عنه — جميلاً أبيض ذا ضفيرتين طويل القامة جداً ، وفيه وفي أمثاله من بني أبيه يقول جرير :

تعالوا ففاتونا ففى الحكم مقنع إلى الغر من أهل البطاح الأكارم
فإني لأرضى عبد شمس وما قضت وأرضى الطوال البيض من آل هاشم

وذكر المبرد أن عليَّ بن عبد الله بن عباس كان إلى منكب والده عبد الله بن عباس وكان عبد الله إلى منكب العباس وكان العباس إلى منكب عبد المطلب بن هاشم وذكر المبرد أيضاً أنَّ قيس بن سعد بن عبادة كان موصوفاً بالكمال مع جماعة بذوا الناس طولاً وجمالاً منهم العباس بن عبد المطلب وولده عبد الله وجرير ابن عبد الله البجلي والأشعث بن قيس الكندي وعدي بن حاتم الطائي وزيد الخيل الطائي وكان أحد هؤلاء يقبل المرأة على الهودج وكان يقال للرجل منهم مقبل الظعن .

وكان العباس — رضي الله عنه — من أجهر الناس صوتاً ولذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم لما انهزم الناس يوم حنين ياعباس اصرخ بالناس ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، وفى تهذيب الأسماء أن العباس كان يقف على سلع بالمدينة فينادى غلمانه بالغابة فيسمعونه وبين الغابة وبين المدينة ثمانية أميال « والله أعلم » .

وتوفى العباس — رضي الله عنه — يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب وقيل من رمضان سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة قبل مقتل عثمان — رضي الله عنه — بسنتين .

ذكر أبي عروة وشبيب

وأما أبو عروة فهو رجل من العرب يضرب به المثل فى شدة الصوت وجهارته ويقال له أبو عروة السباع بالإضافة كما فى الثمار ، وقال أبو عبيدة : كان أبو عروة يصيح على الأسد وقد احتمل الشاة فيخليها ويسقط فيموت فيشق بطنه فيوجد فؤاده قد زال عن موضعه ، « والله على كل شئ قدير » ، قال النابغة الجعدي :

زجر أبي عروة السباع إذا ... أشفق أن يختلطن بالغنم

وقد طعن بعض الناس فى خبر أبى عروة هذا وفى بيت النابغة كما فى الكامل ، قالوا : إذا كان هذا أثر صوته فى السباع مع قوتها فما بال الغنم ؟ فهى أولى بالهلاك من السباع ، وأجيب بأن الغنم كانت قد ألفت منه هذا الصوت ، ألا ترى إلى صوت الرعد فلو جاء أقل منه من جهة الأرض لأهلك الناس فزعاً .

قلت : قدرة الله لا يعجزها شئ ، والاعتراض على هذه المقالة وجيه جداً والعلم عند الله تعالى .

وأمّا شبيبٌ : فهو أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نُعيم بن قيس بن عمرو ابن الصلت بن قيس بن شراحيل بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان الشيبانى الخارجى وقد تقدم تمام نسبه فى ترجمة جساس وهمام ابنى مرة ، كان أبوه قد اشترى جارية رومية حمراء طويلة من سبي الروم وكانت جميلة فقال لها أسلمى فامتنعت فضربها فلم تسلم فواقعها فحملت فلما تحرك الولد فى بطنها قالت فى بطنى شئ ينفر ، فقيل : أحمق من جهيزة ، ثم أسلمت وولدت شبيباً يوم النحرسنة ست وعشرين للهجرة فقالت لمولاها : إنى رأيت قبل أن ألد كأني

ولدت غلاماً فخرج منى شهاب من نار سطع له ما بين السماء والأرض ثم سقط فى الماء فخبأ وقد ولدته يوم النحر يوم تراق فيه الدماء وقد رجوت أن ابني هذا يعلو أمره ويكون صاحب دماء يهريقها .

ونشأ شبيب فقرأ القرآن وتفقه فى الدين ثم انتحل مذهب الخوارج الصُّفْرية وعلا أمره حتى بايعته الخوارج ودعوه بأمير المؤمنين ، وفى ذلك يقول ابن المنهال عتاب بن وصيلة الحروري يخاطب عبد الملك بن مروان وكان شبيب قد خرج فى أيامه .

أبلغْ أمير المؤمنين رسالـــةً ... وذو النُّصْح لو يُدْعَى إليه قريبُ
فلا صُلْحَ ما دامتْ منابُر أرضنا ... يقومُ عليها من ثقيفَ خطيبُ
وإنك إن لا تُرضِ بكر بن وائلٍ ... يكن لك يوم فى العراق عصيبُ
فإن يك منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشمٌ وحبيبُ
فمنا سُوَيْدٌ والبَطينُ وقَعْنَبٌ ... ومنا أمير المؤمنين شبـــيبُ

وكان خروج شبيب بالعراق بالموصل فوجه إليه الحجاج بن يوسف خمسة قواد فقتلهم واحداً بعد واحد ، وكان شجاعاً فاتكاً وبطلاً مجرباً وبلاءً مسلطاً وعذاباً مرسلاً ، فكان إذا غزاه جيش لا يقصد إلا قائده فيحمل عليه حتى يصرعه وينهزم الجيش لموت قائده ، ومن غريب أمره أن الحجاج وجه إليه عتاب ابن ورقاء الرياحي فى خمسين ألف مقاتل فصمد إليه شبيب فى ستمائة من قومه فقتل عتَّاباً واستولى على ذلك الجيش وألزمهم بيعته فبايعوه كرها ثم فر أكثرهم فى ظلام الليل ، وكان شديد الصوت جهيره إذا صاح فى الجيش انهزم لا يلوي على شئ ، وفى ذلك يقول بعض شعراء الخوارج :

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً ... والريح عاصفة والبحر يلتطم

ثم إنه خرج من الموصل يريد الكوفة وخرج الحجاج من البصرة يريدها وطمع شبيبٌ أن يلقاه قبل أن يصل الكوفة ولكن الحجاج أقحم خيله فدخلها قبل

أن يلحق به وذلك سنة سبع وسبعين للهجرة وتحصن الحجاج بقصر الإمارة واقتحم شبيب عليه الكوفة حتى وصل إلى باب القصر وضربه بعموده وسب الحجاج ، وكانت زوجته غزالة الحرورية قد نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلى فيه ركعتين تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران فأتت الجامع فى سبعين من الخوارج ووفت بنذرها ، وكان قد اتفق أن حملت فى بعض الوقائع على الحجاج ففر عنها فقال عمران بن حطان السدوسى يعيره :

أسد عليَّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

وكانت جهيزة أم شبيب تشهد الحروب أيضاً كزوجته .

ولما أعيا الحجاج أمرُ شبيب استنجد عليه عبد الملك بن مروان فأمده بنحو ستة آلاف من جنود الشام عليهم سفيان بن الأبرد الكلبي فانضم إليه الحجاج عند وصوله الكوفة وخرج الجميع لشبيب فأحسنوا دفاعه ولقي منهم شوكة لم يعهدها من قبل وماتت زوجته غزالة فى حروب يشيب الطفل لهولها ، ثم ذهب شبيب إلى كرمان يريح نفسه ، ثم إن الحجاج أمر أصحاب ابن الأبرد بالتوجه إلى شبيب بعدما بلغه رجوعه ، وبعد أن أغدق العطاء لهم فاقتتل معه أهل الشام قتالاً شديداً ثبتوا فيه ثبوت الأبطال فولى عنهم شبيب فلما كان على جسر دُجَيْل نفر به فرسه وكان مثقلاً بالحديد فوقع فى النهر فقال له بعض أصحابه أغرقاً ياأمير المؤمنين ؟ فقال ذلك تقدير العزيز العليم ، فألقاه دُجيل ميتاً فى ساحله فحمل جثمانه إلى الحجاج فأمر بشق جوفه واستخراج قلبه فوجدوه صلباً كأنه صخرة فكان يضرب به الصخرة فيثب عنها قامة الإنسان ، كذا فى « ابن الأثير » اهـ من الأصل .

[لاتَنْسَ ما أوْصَى بِهِ البَكرى أخًا فَهْوَ سَدَادٌ فَبِهِ السُّوءَ اتَّقِ]

معنى البيت معروف لوضوح ألفاظه .

ذكر وصية البكرى لأخيه

كان الحجاج بن يوسف الثقفى قد ولى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى على سجستان وما اتصل بها وأمره بمحاربة رتبيل أحد ملوك الترك فحاربه واستولى على الكثير من بلاده فلم يقنع الحجاج بذلك وكتب إليه يهدده بالخلع إن لم يتوغل فى أرض رتبيل فقرأ عبد الرحمن كتابه على الناس واستشارهم فى أمره فأجمعوا على خلعه بإشارة أبي الطفيل عامر بن واثلة « رضي الله عنه » ثم أقبل عبد الرحمن بمن معه من الناس يريد حرب الحجاج وتسامع بذلك الناس فاتفقوا على خلع الحجاج وممن أفتى بخلعه سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعامر الشعبى وأبو البحترى الطَّائي والحسن البصرى وغيرهم .

يُحكى أن عامل عبد الملك على اليمن بعث إليه بهدية ومعها جارية بارعة جمال وكان ذلك أيام خروج ابن الأشعث فلما دخلت عليه رأى جمالاً بهره فلما هم بها أعلمه الحاجب بأن رسول الحجاج بالباب فأدخله ونحى الجارية فأعطاه كتاباً من عبد الرحمن بن الأشعث فيه خمسة أسطر ، فكتب إليه : يكفيك ماأوصي به البكري أخاه زيدا ، فلما قرأه الحجاج لم يدر ماأوصى به البكرى أخاه فصاح صائحه من يعرف ماأوصى به البكرى أخاه زيداً قُضيتْ حاجته فقام أعرابى قد طالت إقامته فقال أنا أعرفها فأُدخِلَ على الحجاج فأنشده

فقلتُ لزيد لاتُتَرْتِرْ فإنَّهم يَرونَ المنايا دون قتلك أو قَتْلى
فإن وضعوا حربا فَضَعْها وإنْ أَبَوْا فَعُرضَةُ عَضِّ الحرب مثلك أو مثلى
وإن رفعوا الحرب العوان التى ترى فَشُبَّ وَقُودَ الحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ

فقال الحجاج وأبيك إنها لهيه وقضى حاجته .

وأما خبر الجارية التى سيقت إلى عبد الملك فإنه امتنع من قربها وكان يقول لها ماحصلت على فائدة أحب إلى منك ، فتقول : فما يمنعك ياأمير المؤمنين ؟

فيقول يمنعني قول القائل :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء وإن باتت بأطهار

فإني إن خرجت منه كنت ألأم العرب ، ولم يقربها حتى انقضى أمر ابن الأشعث . وكان خروج ابن الأشعث سنة ثنتين وثمانين للهجرة وكانت بينه وبين الحجاج نيف وثمانون وقعة هلك فيها خلق كثير ثم كانت الكرة على ابن الأشعث ففر إلى رتبيل ملك الترك فاستجار به ثم غدر به فقبض عليه وبعث به إلى الحجاج فألقى ابن الأشعث نفسه من شاهق فهلك وبعث برأسه إلى الحجاج فبعث به إلى عبد الملك مع عِرار بن عمرو الأسدى المتقدم الذكر وذلك سنة خمس وثمانين .

وتتبع الحجاج أصحاب ابن الأشعث فقتل منهم جماعة من القراء منهم سعيد ابن جبير « رضى الله عنه » بعد إختفائه مدة وكان الحجاج إذا جيء إليه بأحد من أصحاب ابن الأشعث قال له اشهد على نفسك بأنك كنت كافراً بخروجك على عبد الملك فإن فعل أطلقه وإلا قتله ، فجيء بشيخ يومًا فقال الحجاج ماأظن الشيخ يشهد على نفسه بالكفر ، فقال الشيخ أتخادعني عن نفسى ياحجاج والله إنى لأكفر من فرعون وهامان فضحك الحجاج وخلى سبيله ؟

[لَاتأمَنِ الدَّهر الخَئُونَ إنَّـهُ أَرْشَقُ نُبْلاً مِن رُمَاةِ الحَدَقِ]

الدهر الزمان قل أو كثر قال الشاعر :

إنَّ دَهْراً يَلُفُّ شملى بِجُمْلٍ لزمانٌ يَهُـمُّ بالإِحْسَـانِ

وقيل فيه غير ذلك

والخئون فعول من الخيانة ، والرَّشْقُ بالنبل الرمى بها ، والنُّبل السهام العربية جمع لا واحد له من لفظه وهى مؤنثة والواحد سهمٌ وقد تجمع على نِبَال وأنبال ومعنى البيت التحذير من غوائل الدهر ومكائده وتقلباته ، والتنبيه على أن العاقل لايطمئن إليه ولا يأنس به ، والعرب تسميه أبا العجب ، ومن كلامهم فيه : الدهر حبلى لايدرى متى تلد ، فالعاقل إذاً عليه أن يجعل الموت نصب عينيه

ويتزود لمعاده ويجعل الآخرة أقصى مراده ؛ وفى الحديث عن ابن عباس عند الحاكم أن النبى ﷺ قال لرجل يعظه : « **اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك** » وفى « الصحيح » عن ابن عباس أيضاً : قال ﷺ : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغُ** » ولله دَرُّ القائل .

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغتنمها ... فإنّ لكل خافقة سُكُـونُ
وَإنْ دَرَّتْ نياقُك فاحْتَلِبْها ... فما تدْرى الفصيل لمن يكون
وان ظفرتْ يدَاك فلا تُقَصِّرْ ... فإنَّ الدَّهر عادتـه يَخُـونُ

وقال الآخر وهو عمرو بن قمئة

رمتنى صروف الدهر من حيثُ لا أرى ... فكيفَ بمن يُرمَى وليس بِرَامِ
فلو أنَّها نَبْلٌ إذاً لاتَّقيتُها ... ولكنَّما أُرْمَى بِغير سِهَامِ

ويحكى أن عبد الملك بن مروان أنشد هذين البيتين قرب موته

ذكر رُمَاة الحدق وما قيل فيهم

اختلف فى رماه الحدق فقيل هم بنو طيء لأن منهم بنيِ ثُعَل وهم مشهورون بالرمي وجودته ، وقيل هم النوبَةُ ، ففى الاكتفاء عن ابن عبد الحكم أن عبد الله ابن سعد بن أبى سرح غزا النوبة سنة إحدى وثلاثين فقاتلوه قتالاً شديداً وأصيب حينئذ عين معاوية بن خديج وأبى شمر بن أبرهة وحيويل ابن ناشرة فسموا رماة الحدق فهادنهم عبد الله بن أبى سرح إذ لم يظفر بهم ، وقيل هم القارة الذين قيل فيهم : قد أنصف القارة من راماها ، وهم عَضَلٌ والريْس ابنا الهون بن خزيمة وإنما سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد الشداخ أن يفرقهم فى بنى كِنانة ، فقال شاعرهم :

دعونـا قارةً لاتنفرونـا ... فنُجْفِلَ مثلَ إجْفَالِ الظَّليم

وفي شرح الحازمية للغرناطي أن كل حاذق فى الرمي يقال له من رماة الحدق

تشبيها بهم ، قال حازم يصف قوما رماة ذوى إجادة .

قد وكلــوا أعـــينهم بأعين يُكمـنُ للصيـد بها ويُكتَمـىَ
وأحـدقَتْ بهم رمـــاةُ حَدَقٍ قد استحقوا مالعمرِو يُدَّعـى

وقيل رماة الحدق هم أصحاب خالد بن الوليد رضي الله عنه فى وقعة ذات العيون بالأنبار لأن خالداً قال لهم إنى أرى أقواماً لاعلم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولاتتوخوا غيرها فرموهم ففقئت ألف عين فصاح الناس ذهبت عيون أهل الأنبار ، وصالحوا خالداً بما يريد والله تعالى أعلم .

[لا تَرْجوَن صِفْواً بِدُون كَدَرٍ فَذَا لِغير الله لم يَتَّفِـــقِ]

مراده بهذا الكلام أن الإنسان ينبغى أن لايطمع فى وجود خير متمحض لا يتخلله شيء من الشرفإن ذلك لايتحقق إلاّ في دار الخلود لأن الجنة خير متمحض نرجو الله تعالى أن يجعلنا ووالدينا وأهلنا وولدنا ومشائخنا ومن أوصانا بالدعاء له بخير من أهلها ، وأما الدنيا فقد اقتضت حكمة الله تعاقب الخير والشر فيها فهى لا تصفو من الكدر والنكد نرجو الله تعالى أن يريد بنا وبالمؤمنين خيراً إنه بصير وبالإجابة جدير .

ولقد طرق الزمخشرى هذا المعنى قائلاً يعنى الدهر :

مليحٌ ولكن عنده كل جفوة ولم أَرَ في الدنيا صفاءً بلا كَدَرْ

[لَاتَبْخَلَــنْ بِرَدِّ ما استَعَرْتَــهُ كَضَابِئٍ فَالْبُخْلُ شَرٌّ مُوبق]
[شَحَّ بَردِّ كَلْبِ صَيْدٍ وَهَجَا أَرْبَابَـهُ ظُلْمًـا فَلَـمْ يُصَدَّقِ]
[وَمَاتَ فى سِجنِ ابْن عَفَّانَ كَمَا قَضَى الإِلَهُ مِيْتَةَ المُخَزْرَقِ]
[وَنَجْلُهُ مِنْ أَجْلِهِ أَجَلُــهُ مِنْ سَطْوَةِ الحَجَّاجِ لَمْ يَكُن وُقِي]

البُخْلُ بالضم وبالتحريك ضد الكرم وهو في الشرع منع الواجب وعند العرب منع السائل مما يفضل عندك

واستعرته استفعلته من العارية وهي من التعاور وهو التداول يقال أعرته

إعارة وعارةً بذلته له على وجه العارية وهى كما حدها ابن عرفة تمليك منفعة مؤقتة والموبِق بكسر الباء المهلك وزناً ومعنى ، والشُّحُ بتثليث الشين : البخل مع الحرص والحزرقة التضييق وفيه لغة بتقديم الراء على الزاى ، والنجل الولد ، والأَجْلُ بسكون الجيم مصدر أَجَلَ الرجل بالتحريك على قومه شراً من باب قتل جناه عليهم وكان بسببه ، والأَجَلُ بالتحريك مدة الشىء ووقته الذى يحل فيه وأجَلُ العبد وقت انقضاء عمره ، والسطوة الصولة والبطش ، والله أعلم .

ذكر ضابىء وابنه

ضابىء بصيغة اسم الفاعل هو ابن الحرث بن أرطأة بن شهاب البرجمى وهم أولاد حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم كما تقدم .

وكان ضابىء شاعراً مقلاً وكان سبب حبسه الذى أشار إليه الناظم أنه استعار من بعض بنى حنظلة كلباً يصيد به ، وقيل استعاره من قوم من الأنصار يصيد به الظباء فحبسه عنهم فأخذوه منه قهراً فهجاهم بقوله :

أيا راكباً إمَّا عرضت فبلغن ... أُمَامة عنى والأمــور تدور

إلى أن قال

تجشَّمَ نحوى وفد قُرْحَانَ سَرْبَخاً ... تظل به الوجناءُ وهي حسيرُ

فأردفتهم كلباً فراحوا كأنَّما ... حباهــم بتاج الهرمـزانِ أميـرُ

وقلَّدتهم ما لــو رميتُ مُتالعا ... به وهـو مقبر لكـاد يَطيرُ

فكلبكم لاتثكلوا فيه أُمَّكـم ... فإن عقـوق الأمهات كبيـرُ

إذا عبقت من آخر الليل دخنةٌ ... يبيتُ له فوق الفراش هريرُ

فيالك كلباً قد ضريـت بحرفة ... سميعٌ بما تحت الإزار بصيرُ

فشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فعزره وحبسه وقال والله لو كان رسول الله ﷺ حياً لنزل فيك قرآن وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك ، ومكث فى سجن عثمان إلى أن مات ، وقوله وفد قُرحان هو اسم

الكلب المذكور ، ولما قتل عثمان رضى الله عنه اقتحم عمير بن ضابىء عليه داره فوجده قد قتل فوثب عليه فكسر ضلعين من أضلاعه وقال سجنت أبى حتى مات فى السجن ثم أنشد يقول شعره الذى منه قوله :

همت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

فكان من قدر الله أن عميراً عاد إلى الكوفة وأقام بها إلى أن ولى الحجاج على العراق سنة خمس وسبعين من الهجرة فقام خطيباً يستحث الناس على الخروج لقتال الخوارج مع المهلب بن أبى صفرة ، فلما كان بعد ثلاث سمع الحجاج تكبيراً فى السوق فقام خطيباً وقال : ياأهل العراق ، وأهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق إنى سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذى يراد به وجه الله ولكنه التكبير الذى يراد به الترهيب وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف ، يابنى اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الإماء ألا يربع رجل منكم ظَلْعه ويُحسنُ حقن دمه ويعرف موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها ، وكان الحجاج أقسم أن لا يتأخر أحد عن الخروج إلى المهلب أكثر من ثلاث إلا ضرب عنقه ، فلما قال الحجاج ماذكرناه آنفا تقدم عمير بن ضابئ وكان قد أسن وقال أصلح الله الأمير أنا فى هذا البعث وأنا شيخ كبير عليل وابنى هذا مكانى ، قال الحجاج هذا خير لنا من أبيه ثم قال ومن أنت ؟ قال أنا عمير بن ضابئ ، قال ألست الذى غزا عثمان بن عفان ؟ قال بلى ، قال ياعدو الله أفلا إلى عثمان بعثت بدلاً ، وما حملك على ذلك ؟ قال إنه حبس أبى حتى مات ، قال أولست القائل :

همت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكى حلائله

إنى لأحسب في قتلك صلاح المصرين وأمر به فقتل وانتهب ماله ، ثم أمر مناديه وقال ألا إن عميراً تأخر بعد ثلاث فقتل ومن تأخر فإن ذمة الله بريئة منه فخرج الناس وازدحموا على الجسر خروجاً إلى المهلب .

ولما قتل عمير بن ضابئ جاء البراجم لينصروهُ فلما سمع الحجاج قال ما هذه الضوضاء فأخبر فقال ارموا إليهم برأسه أتحفوهم به ففعلوا فولوْا هاربين . والله أعلم .

[واسْتُرْ عَن الحُسَّادِ كُلَّ نعمةٍ   كَمْ فاضِلٍ بكأسِ مكرهم سُقِى]
[فَصَاعِـدٌ على مَدَيـحِ وَرْدَةٍ   أَصْبَحَ مُنْحَطًّا بِقَوْلِ سَهْوَقِ]

النعمةُ بالكسر اليد والصنيعة كالنعماء وكحمراء والنُّعمى كحُبلى ، وأما النَّعمةُ بالفتح فهى اسم من التنعم والتمتع ، قال تعالى ﴿ **وَنَعْمَةٍ كانوا فيها فاكِهِين** ﴾[1] .

والفضيلة خلاف النقص والنقيصة وأصله الزيادة فإذا برز الإنسان على أمثاله فى خصلة من الخصال فقد فضلهم فيها واستحق أن يسمى فاضلاً ، وخصه الاستعمال بما كان محموداً فلا يقال فى زائد البخل والجهل والخداع فاضلاً .

والمكر هو الخداع ، وصاعد اسم رجل يأتى خبره بإذن الله ، والسهوق بوزن جعفر الكذاب والعلم عند الله تعالى .

ومغزى البيتين الحث على كتمان السر عن الحساد خوفاً من كيدهم وفى ذلك يقول الأثر : « استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذى نعمةٍ محسود » ولا شيء أدَلّ على ذلك من قصة إخوة يوسف مع أخيهم يوسف فإنهم لما سمعوا الرؤية كادوه وقد قال له أبوه يابنيَّ لاتقصص رؤياك على إخوتك .

أما ما مثل به الناظم هنا من خبر صاعد فإنه ليس فى محله لأن ماأصيب به صاعد من قبل أولئك الحسدة ليس من أجل أنه أفشى إليهم سراً كان يجب عليه كتمانه عنهم بل لأنه عرض له وصف منظر على البديهة بحضرة القوم وبمجلس الأمير فحسدوه على ذلك ، ولو قلنا بوجوب سكوته لما كان فى حضوره مجلس الأمير فائدة .

ذكر صاعد ومالقيه من حاسديه

هو أبو العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى الربعى البغدادى اللغوى صاحب كتاب الفصوص وأصله من بلاد الموصل ودخل بغداد وأخذ عن علمائها ورحل

(١) الدخان ، آية (٢٧)

إلى الأندلس فى أيام هشام بن الحكم الأموى فى ولاية حاجبه المنصور بن أبى عامر فى حدود ثمانين وثلاثمائة للهجرة ، وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة محسناً للسؤال وجمع كتاب الفصوص نحى فيه منحى القالى فى أماليه فإن المنصور أطلعه عليه فقال صاعد إن أراد الحاجب المنصور أمليت على دولته كتاباً أرفع منه لا أورد فيه خبراً مما أورده أبو على فأذن له فأملى الفصوص فلما تتبعه أدباء أخذوا عليه فى صحة أخباره فأمر المنصور به فقذف به فى النهر ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه صاعد :

عاد إلى معدنه إنما تخرج من قعر البحار الفصوص

وذكر ابن خلكان أن المنصور أجازه على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار والله أعلم . وأما الحكاية التى أشار الناظم إليها فهى أعجب ماجرى له ، فقد كان ذات يوم مع المنصور حتى جيء الأمير بباكورة ورد فى أول إبَّانها لم يستتم فتح ورقها فقال فيها صاعد على البديهة :

أتتك أبا عامر وردة يذكرك المسكُ أنفاسَها
كعذراء أبصرها مبصرٌ فغطَّتْ بأكمامها رأسَها

فسر المنصور بتلك البديهة وكان أبو القاسم بن العريف حاضراً فحسده وتصدى لمناقضته وقال للمنصور : هذان البيتان ليسا لَهُ ، فقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر للعباس بن الأحنف وهما عندى على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : أرنيه فركب ابن العريف وحرك دابته حتى أتى ابن بدر وكان أحسن أهل زمانه بديهة فوصف له ماجرى فقال بعض الأبيات ودس فيها بيتى صاعد وهى :

عسوت إلى قصر عباسة وقد جدَّل النوم حراسها
فألفيتها وهى فى خدرها وقد صرع السكر آناسها

فقالت أسارٍ على هجعة | فقلت نعم فرمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة | يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصرٌ | فغطت بأكمامها رأسها
وقالت خف الله لاتفضحـ | ـنَّ في ابنة عمِّك عباسها
فوليت عنها على غفلة | وما خنت ناسي ولا ناسها

فطار بها ابن العريف وعلقها على ظهر كتاب بخط مصرى بمداد أشقر ودخل بها على المنصور فلما رآها اشتد غيظه على صاعد وقال للحاضرين غداً أمتحنه فإن فضحه الامتحان لم يبق بموضع لي عليه سلطان ، فلما أصبح وجه إليه المنصور فحضر وأحضر جميع الندماء فأدخل الجميع فى مجلس حفل قد أعد فيه طبقاً عظيمًا جعل فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ووضع على السقائف لعبا من ياسمين فى شكل الجوارى وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلىء مثل الحصباء وفى البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : فهذا يوم إما أن تسعد فيه معنا وإما أن تشقى بالضد عندنا لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتى به دعوى وقد وقفت من ذلك على حقيقة وهذا الطبق ماتوهمت أنه حضر بين يدى ملك قبلى شكله فصفه بجميع ما فيه ، فقال صاعد على البديهة :

أبا عامر هل غير جدواك واكف؟ | وهل غير من عاداك فى الأرض خائف ؟
يسوق إليك الدهر كل غريبة | وأغرب مايلقاه عندك واصف
وشائع نور صاغها هامر الحيا | على حافتيها عبقر ورفارف
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت | عليها بأنواع الملاهي الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كُنَّساً | تظللها بالياسمين السقائف
وأعجب من ذا أنهنَّ نواظر | إلى بركة ضمت إليها الطرائف
حصاها اللآلى سابح فى عُبابها | من الرقش مسموم العرانين زاحف
ترى ماتشاء العين فى جنباتها | من الوحش حتى بينهن السلاحف

فاستغرب المنصور له تلك البديهة وكتبها بخطه وأمر له بألف دينار ومائة ثوب ورتب له ثلاثين ديناراً كل شهر وألحقه بالندماء ، وظهر بهذا الاختبار الصعب فضل الرجل وبراعته وأن مانسبوه إليه من السرقة كله تحامل عليه من أهل الأندلس لأنه كان غريباً لديهم وكان مبرَّزاً عليهم في صناعتهم فحسدوه .

وتوفى صاعد بصقلية سنة سبع وعشرين وأربعمائة للهجرة لأنه قد هاجر من الأندلس لما ظهرت الفتنة فيها « رحمه الله » .

[وَافْخَرْ كَفَخْرِ خَالِدٍ بِالْعِيرِ وَالـ ـنَّفِيرِ لا بِحُلَّةٍ من سَرَقِ]

الفخر المباهاةَ بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغيرهما إما في المتكلم أو في آبائه والعيرُ بالكسر الإبل تحمل الميرة ثم غلب على كل قافلة والنفير كأمير القوم النافرون لحرب أو غيرها تسمية بالمصدر ، وفى المثل « لا في العير ولا في النفير » يضرب للرجل يحط أمره ويصغر قدره ، وسيأتى له مزيد بيان بإذن الله .

والحلة بالضم الثوبان من جنس واحد والجمع حلل مثل غرفة وغرف .

والسرق بالتحريك شقق الحرير الأبيض وقيل الحرير عامة ، وأحدها سرقة وفى الحديث أن النبي ﷺ رأى عائشة مرتين فى منامه يحملها رجل فى سرقة من حرير يقول هذه امرأتك .

ومعنى البيت النهي عن الفخر إلا بما هو ثابت راسخ من شرف النفس أو كرم الآباء وأنه لايفتخر بالعَرَض الفاني من مال وأثاث وملابس ومأكل ومشارب فإن ذلك ظل زائل ، وأن الفخر ينبغى أن يكون بالعلم والتقوى والصلاح فقط و« الله تعالى » الموفق فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] .

أما الافتخار بالملابس فإنه ليس من شيم أهل الفضل ، ولقد اختلف الناس فيه فمنهم من يرى استجادة الثياب ويرى أن ذلك من المروءة وأن ضده من النذالة

---

(١) الحجرات الآية (١٣)

وخساسة النفس ، والحق أن خير الأمور الوسط فلا ينبغي أن يصرف المرء همته إلى استجادة الملبس ويعتني بذلك حتى يكون كالعروس المتصنعة لزوجها كما ينبغي أن لا يكون وحش الهيئة تنفر عنه الطباع وتزدريه العيون ، فإن رسول الله ﷺ كان يتجمل للوفود وقال بأبي وأمي هو : « **إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه ويكره البؤس والتّباؤس** » .

يحكى أن جارية نظرت إلى أبي هريرة « رضي الله عنه » وهو أمير العراق وعليه قميص مرقوع فضحكت منه فأنشد :

هَزِئَتْ أمامةُ أن رأتني مملقا ثكلتك أُمُّك أيُّ ذاك يَروعُ
قد يدرك الشرفَ الفتى ورداؤه خَلَقٌ وجَيْبُ قميصه مرقوعُ

ويُحكَى أن النجار العذرى دخل على معاوية « رضى الله عنه » وعليه عباءة فازدراه فقال ياأمير المؤمنين إن العباءة لاتكلمك إنما يكلمك من فيها فملأ سمعه حكماً ثم نهض ولم يسأله شيئا فقال معاوية : مارأيت أحقر أولاً ولا أجلَّ آخراً منه .

ذكر خالد وفخره بالعير والنفــير

اعلم أولاً أن أول من قال « لا فى العير ولا فى النفير » هو أبو سفيان بن حرب وذلك أنه لما استنفر قريشاً لحماية عيرها فخرجت بعددها وعُدَدِها وتمكن من التساحل بالعير فجنبها الخطر الذى كان يخافه عليها أرسل إلى قريش يريد منها أن ترجع فامتنع أبو جهل ورجع بنو زهرة فالتقى بهم أبو سفيان قرب مكة فقال يابنى زهرة لافى العير ولا فى النفير ؟ فقالوا أنت أرسلت للناس لترجع فامتثلنا أمرك وهكذا لم يشهد بدرا أحدٌ من مشركى بنى زهرة .

قلت : وذكر الواقدى أنه لم يشهدها أيضاً مشركٌ من بنى عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » .

وأما خالد الذى ذكره الناظم فهو أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى

سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، ذكر ابن خلكان أنه كان من أعلم قريس بفنون العلم وله كلام فى صناعة الكيمياء وله معرفة بالطب ، وأنكر ابن خلدون معرفته بالكيمياء .

وكان خالد هذا شريف المنكح : تزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وآمنة بنت سعيد بن العاص الأموى وهى أخت الأشدق المتقدم الذكر ، ورملة بنت عبد الله بن الزبير وقيل بنت الزبير بن العوام ، فقال فى ذلك بعض من يحرض عليه عبد الملك بن مروان ويحذره طلبه للخلافة :

عليك أمير المؤمنين بخالد ففى خالد عما تحب صدود
إذا ما نظرنا فى مناكح خالد علمنا الذى يهوى وأين يريد

فكان عبد الملك كثيراً مايغض منه ، ولما طلق خالد آمنة بنت سعيد وأراد الوليد بن عبد الملك أن يتزوجها قال خالد :

فتاة أبوها ذو العصابة وابنه أخوها فما أكفاؤها بكثير
فإن تفْتلتْها والخلافةَ تنقلب بأكرم علقىْ منبر وسرير

ويعني بقوله ذو العصابة ، سعيد بن العاص ، يقال إنه كان فى الجاهلية إذا اعْتَمَّ لايعتم قرشي معه .

يُحكى أن خالد بن يزيد دخل يوماً على عبد الملك بن مروان وعنده جماعة من وجوه الشام فأحب أن يحط منه فقال له ياخالد أنت القائل فى زوجتك :

تجولُ خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالاً يجول ولا قلبا
أُحِبُّ بنى العوام طُـرّاً لحبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا
فلا تعذلونى فى هواها فإنما تخيرتها منهم زبيرية قلبا

ثم إن عبد الملك زاد فيها من عند نفسه بيتا رابعاً هو قوله :

فإن تسلمى نسلم وإن تتنصرى يعلق رجالٌ بين أعينهم صُلْبا

وعلم خالد أن عبد الملك اختلق هذا البيت فقال لعن الله قائل هذا البيت يأأمير المؤمنين .

وأما فخر خالد بالعير والنفير فإنه يروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية قال يوما لأخيه خالد لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد بئس ماقلت أبابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ؟ فقال عبد الله إن خيلى مرت به اليوم فعبث بها وأصْغرنى فقال خالد أنا أكفيكه ، فدخل خالد على عبد الملك والوليد معه فقال يأأمير المؤمنين إن الوليد بن أمير المؤمنين مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد بن معاوية فعبث بها وأصغره ، وعبد الملك مطرق ، فرفع رأسه وقال : ﴿ **إنَّ المُلُوكَ إذا دَخلوا قَريَةً أفسَدوها وجَعَلوا أعِزَّةَ أهْلِها أذِلّةً وكَذَلِكَ يفْعَلون** ﴾[1] ، فقال خالد : ﴿ **وإذا أَرَدْنا أن نُهلك قرية أمرنا مُتْرَفِيها فَفَسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾[2] ، فقال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمنى ؟ والله لقد دخل عليَّ فما أقام لسانه لحنا ، فقال خالد : أفعلى الوليد تعول ؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلحنُ فإن أخاه سليمانُ ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاهُ خالد .

فقال الوليد : اسكت ياخالد فوالله ماتعد فى العير ولا فى النفير ، فقال خالد : اسمع يأأمير المؤمنين ! ثم أقبل على الوليد وقال : ويحك ، فمن للعير والنفير غيرى ؟ جدى أبو سفيان صاحب العير وجدى عتبة بن ربيعة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وحُلَيْبات والطائف ورحم الله عثمان لقلنا صدقت ؛ يشير بذلك إلى ماكان من نفي رسول الله ﷺ للحكم بن أبى العاص جد عبد الملك إلى الطائف فأقام هناك يرعى غنماً ويأوى إلى حُلْبةٍ ، وهى الكرمة شجرة العنب ، حتى رده عثمان « رضي الله عنه » إلى المدينة أيام خلافته .

وما درجنا عليه من أنه كان يرعى غنماً هو الذى عند ابن خلكان والمبرد ، وقال الميدانى إنه يريد بقوله غنيمات موضعًا بالطائف « فالله أعلم » .

---

(١) النحل الآية (٣٤)   (٢) الإسراء الآية (١٦)

وهذا هو فخر خالد بالعير والنفير وهو فخر بمأثرة جاهلية ، ولا يرد على الناظم فى ذلك شيء لأن الأمثال يراد بها مضربها لا موردها ، وهذا المثل يضرب لمن لا يُعبأ به ولا يصلح لخير ولا لشر والله تعالى أعلم .

وتوفى خالد بن يزيد بن معاوية سنة خمس وثمانين من هجرته ﷺ .

[وَاتَّخِذِ الصَّبْرَ دِلَاصاً سَابِغاً وَبِمِجَـنٍّ عُمَـرٍ لَاتَتَّقِـى]

الصَّبْرُ : حبس النفس على المكروه وعما تدعو إليه من اللَّذات وأصله من صبر الحيوان للقتل حبسه ، وهو أنواع تختلف أسماؤه باختلاف الشيء المصبور عنه فإن كان عن مشتهيات الطبع فهو عفة ، وإن كان على مصيبة فهو صبر ويقابله الجزع ، وإن كان فى حرب سمى شجاعة ومقابله الجبن ، وإن كان فى كظم الغيظ سمي حلماً إلى غير ذلك .

والدِّلاصُ ككتاب الدرع الملساء اللينة البراقة وهو وصف يستوى الواحد فيه والجمع ؛ والسَّابِغُ : الطويل إلى الأرض وسبغ الثوبُ من باب قَعَدَ سُبُوغاً إذا تم وكمل .

والمِجَنُّ بكسر الميم وفتح الجيم هو التُّرس ، من جَنَّه إذا ستره لأن صاحبه يستتر به .

ويرمى البيت إلى الحث على استعمال الصبر فى مواطنه واتقاء مواقف التهم ومظان السوء وكل منهما معلوم موقف الشرع منه وحثه عليه ومراعاته له فلا حاجة إلى بحثه هنا فهو مبحوث فى مكانه .

ذكر ابن أبى ربيعة ومِجَنِّهِ

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة واسمه حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي القرشى المخزومي ، لم يكن فى قريش أشعر منه وهو كثير المجون والخلاعة وله فى ذلك حكايات ونوادر

مشهورة وليس له شعر فى المدح ولا فى الهجاء والفخر وإنما قصر شعره على ذكر النساء ، ولما قال له سليمان بن عبد الملك : مالك لاتمدحنا ؟ أجاب لأنى أمدح النساء لا الرجال .

وأما حديث مجنه الذى أشار إليه الناظم فقد كان من خبره أن عمر بن أبى ربيعة تشبب بامرأة من الأنصار يقال لها نعم من بنى جمح وتكنى أم بكر ويحكى من نوادره فيها أنه بلغه أن نعما اغتسلت فى غدير فأقام عليه ومازال يشرب منه حتى جفَّ .

ثم إن نعما هذه حجت فى جماعة من قومها فأتبعهم عمر أياما عديدة يسير حيث ساروا ويقيم حيث أقاموا حتى أمكنته غفلة منهم فاتصل بها وبات يغازلها إلى أن طلع الفجر وهب القوم من نومهم وتعذر على عمر الخروج من الخباء فاحتالت نعم بأن سارت إلى أختين لها وأطلعتهما على موضوعها واستنجدت بهما فأقبلتا معها وجعلنه بينهن وخرجن به حتى جاوزن به رحال القوم ، فوصف عمر هذه الليلة فى رائيته التى مطلعها .

أمن آل نعم أنت غَادٍ فَمُبْكِرُ ... غداةَ غدٍ أمْ رائح فمُهَجِّـرُ

وجعل أولئك النسوة الثلاث كالمجن له حيث اتقى بهن عدوه كما يتقى الرجل فى الحرب بالمجن الذى هو الترس ، والقصيدة طويلة جداً ولنذكر منها مايتعلق بالقصة حيث يقول :

وليلة ذى دوران جشَّمتِني السُّرى ... وقد يَجْشَمُ الهَوْلَ المُحِبُّ المغَرَّرُ
فبتُّ رقيبًا للرفاق على شفا ... أحاذرُ منهم من يطوفُ وأنظرُ
إليهم متى يستمكن النومُ منهم ... ولي مجلس لولا اللبانةُ أعْوَرُ
وباتت قلوصي بالعَراءِ ورحلُها ... لطارق ليل أو لمن جاء مُعْوِرُ
وبتُّ أُناجِي النفس أين خباؤها ... وكيف لما آتي مِن الأمر مصدرُ
فدل عليها القلب ريًا عَرَفْتُها ... لها وهوى النفس الذى كان يُضْمَرُ
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيحُ شبت بالعشاء وأنْؤُرُ

وغابَ قميرٌ كنت أرجو غيوبه ... وروَّح رُعيان ونـوَّمَ سُمَّـر
ونفَّضتُ عنى العين أقبلت مشية الْـ ... حُبَابِ ورُكني خَشْيَة القَوْم أزْورُ
فجئتُ إذْ فاجأتُها فتلهَّفَتْ ... وكادت بمكتوم التحية تَجْهَرُ
وقَالَتْ وَعَضَّتْ بالبنان فَضَحْتَنِي ... وأنت امروٌ ميسورُ أمرك أعْسَرُ
أريتكَ إذْ هُنَّا عليك ألم تَخَفْ ... رقيباً وحولى مِنْ عَدُوِّك حُضَّرُ
فوالله ماأدرى أتعجيل حَاجَةٍ ... سرت بك أم قد نام من كنت تَحذَرُ
فقلت لها بل قادنى الشوق والهوى ... إليك ومانفسٌ من الناس تشعر
فقالت وقد لانت وأفرخ روعُها ... كلاك بحفظٍ ربك المتـكبر
فأنت أبا الخطاب غير منازِع ... عليَّ أميرٌ ما مكثتَ مؤمَّرُ
فيالك من ليل تقاصر طوله ... وما كان ليلي قبل ذلك يقصر
يَمُجُّ ذكي المسك منها مفلج ... نقي الثنايا ذو غروب مؤشر
تَراهُ إذا تَفتَرُّ عنه كأنَّـه ... حصى بَرَدٍ أو أقحوان منورُ
وترنوا بعينيها إلـيَّ كما رَنَا ... إلى ربرب وسط الخميلة جؤذرُ
فلما تقضى الليـلُ إلا أقلَّه ... وكادت تَوَالى نجمه تتغـورُ
أشارت بأن الحى قد حان منهمُ ... هبوبٌ ولكن موعدٌ لك عزورُ
فمـا راعنـى إلا منـادٍ ترحَّلـوا ... وقد لاح مفتوق من الصبح أشقرُ
فلما رأت ما قد تنبَّه منهمُ ... وأيقاظهم قَالَتْ أشِرْ كيْفَ تأمرُ ؟
فقـلت أبـاديهم فإمـا أفوتهم ... وإما ينالُ السَّيفُ ثأراً فيثأرُ
فقالت أتحقيقاً لما قالَ كاشِحٌ ... علينا وتصديقاً لما كان يؤثَرُ
فإن كان ما لابد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستَرُ
أقصُّ على أختيَّ بدء حديثنا ... ومالِيَ من أن تعلما مُتَأخرُ
لعلهما أن تطلبا لك مخرجاً ... وأن ترحبا سرباً بما كنت أحصرُ
فقامت كئيباً ليس في وجهها دم ... من الحزن تذرى دمعة تتحَدرُ
فقالت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يُقْدَرُ
فقـامت إليها حرتـان عليهمـا ... كساءان من خزٍّ دِمَقْسٌ وأخْضرُ

فأقبلتــا فارتاعتــا ثم قالتــا أقلّي عليك اللوم فالخطب أيسرُ
يقوم فيمشي بيننا متنكراً فلا سِرُّنا يفشو ولا هو يُبْصَرُ
وقالت لها الصغرى سأعطيه مطرفي ودرعى وهذا البرد إن كان يَحْذَرُ
فكان مِجَنِّيَّ دونَ ماكنتُ أتَّقي ثَلاثَ شخُوصٍ كاعبَانِ ومُعْصرُ
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لى أما تتقى الأعداء والليلُ مُقْمِرُ
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً أما تستحي أو ترعوى أو تفكرُ
إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظرُ
فآخر عهدٍ لى بها حيثُ أعرضتْ ولاحَ لها خدٌّ نَقِيٌّ ومَحْجِرُ

هذا مايتعلق بهذه القصة من هذه القصيدة ، وعن بعضهم أنه كان يقول شعر ابن أبى ربيعة هو الفستق المقشر الذى لايشبع منه ، والعلم عند الله تعالى .

وكانت ولادة عمر بن أبى ربيعة ليلة وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعاش ثمانين سنة أو نحواً منها فتك فى أربعين منها ونسك فى باقى عمره والله الموفق .

[وإنْ حَمَلْتَ رَايَةَ الأمرِ فَكُنْ كَجَعْفَرٍ أَوْ دَعْ وَلَا تَسْتَبِقِ]
[قَدْ قُطِعَتْ يَدَاهُ يوم مُؤتةٍ ولَمْ يدَعْهَا لِكَمِيٍّ سَوْحَقِ]
[لكِنَّهُ احتضَنَهَا حُبًّا لَهَا فَيَالَــهُ مِنْ سَيِّــدٍ مُوَفَّــقِ]

الراية : العلم الضخم ودونها اللواء قال ابن العربى اللواء مايعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية مايعقد فيه ويترك للريح تصفقه وقال عياض فى مشارق الأنوار : اللواء الراية فاقتضى كلامه أنهما مترادفان ـــ ومؤتة بضم الميم وسكون الهمزة ويجوز إبدالها واوًا قرية بمشارف الشام من أرض البلقاء إلى جهة الحجاز قريبة من الكرك ، والكمى الشجاع المكتمى فى سلاحه لأنه ستر نفسه بالدرع والبيضة ومن ذلك قولهم كمى فلان الشهادة إذا جحدها والجمع على غير قياس ، والسَّوْحَقُ : الطويل ، واحتضن الشيء جعله فى حِضْنِهِ ، وهو ما دون الإبط والكشح ، ونواحي كل شيء أحضانه .

والأبيات حث على الصبر وتنبيه على أن عاقبته محمودة في الدنيا والآخرة .

وقعة مؤتة واستشهادُ جعفر رضى الله عنه

سبب هذه الوقعة أن النبي ﷺ أرسل الحرث بن عمير الأزدى « رضي الله عنه » بكتاب إلى الحرث بن أبي شمر الغساني ملك بُصرى وقيل أرسله إلى قيصر ، فلما نزل بمؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول سواه ، فجهز ﷺ جيشاً إلى الشام في جمادى الأولى سنه ثمان من الهجرة واستعمل عليه زيد بن حارثة « رضي الله عنه » وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فتهيأ الناس للخروج وهم ثلاثة آلاف وودَّعوا النبي ﷺ فلما نزلوا بمعَّان بلغهم أن هرقل قد نزل بالبلقاء في مائة ألف من الروم وأن مائة ألف أُخرى من لخم وجذام وبهراء وبلى قد انضمت إليه ، فتشاور القوم في الأمر فخطبهم ابن رواحة قائلا : والله للتى تكرهون هي التى خرجتم تطلبونها الشهادة وما نقاتل بعَدَدٍ ولا عُدَدٍ ، فما نقاتل إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به وإنما هي إحدى الحُسنَيين : إما ظهور وإما شهادة في سبيل الله ، فتقدم القوم حتى كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع الروم فانحازوا إلى قرية يقال لها مؤتة فكان اللقاء عندها فقاتل زيد بن حارثة « رضي الله عنه » براية رسول الله ﷺ حتى قضى نحبه ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب « رضي الله عنه » حتى إذا أقحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها وقاتل القوم وهو يرتجز :

يا حبذا الجنةُ واقترابُها ... طيبةً وبارداً شرابُها
والروم رومٌ قد دنا عَذَابُها ... كافرةً بعيدةً أنسابُها
عَلَيَّ إذْ لاقيتُها ضِرابُها

فاستشهد « رضي الله عنه » .

ذكر ابن هشام أنه قطعت يده اليمنى فأخذ الراية بشماله فلما قطعت شماله

احتضنها بعضديه فأثابه الله جناحين يطير بهما فى الجنة ، وعن ابن عمر وهو ممن شهد موتة أن القوم وجدوا بجعفر رضي الله عنه مابين صدره ومنكبيه تسعين جرحاً مابين ضربة بسيف أو طعنة برمح . وكان استشهاده وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل بها وهو يرتجز رضى الله عنه بقوله :

ماأنت إلا أصبع دميتِ ... وفى سبيل الله ما لقيتِ
يانفس إن لم تقتلي فموتي ... هذا حياض الموت قد صَليتِ
وما تمنيت فقد رأيت ... إن تفعلى فعلهما هديت

ثم استشهد « رضي الله عنه » ، فأخذ الراية رجل من المسلمين يدعى ثابت ابن أقدم العجلانى فقال يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد « رضي الله عنه » فقاتل بالقوم وتصرف حتى انصرف بالناس ، وقد رثاهم حسان « رضي الله عنه » بقوله :

تأوبنى ليلٌ بيثرب أعْسَرُ ... وهمٌّ إذا مانوَّم الناس مُسْهِرُ

إلى أن قال :

فلا يبعدَنَّ الله قتلى تتابعوا ... بمُؤْتَة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيدٌ وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً وأسباب المنية تخطُرُ
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كضوء البدر من آل هاشم ... أبيٌّ إذا سيم الظُّلامة مِجْسَرُ
فطاعن حتى مال غير موسد ... بمُعتَركٍ فيه قنىً متكسر
فصار مع المُسْتَشْهِدِينِ ثوابُه ... جنانٌ وملتفُّ الحدائق أخضرُ
وكنا نرى فى جعفر من محمد ... وفاءً وأمراً حازما حين يأمُرُ
ومازالَ فى الإسلام من آل هاشم ... دعائم عِزٍّ لايَزَلْنَ ومَفْخَرُ
هُمُ جَبَلُ الإسلام والنَّاسُ حَوْلَهُمْ ... رِضَام إلى طَوْد يَروقُ ويبهَرُ
بَهَاليل منهم جعفر وابن أمِّه ... عليٌ ومنهمْ أحمدُ المتخَيَّرُ

وحمزَةُ والْعَبَّاسُ منهُمْ ومِنهُمُ عقيلٌ وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْث يُعْصَرُ
بِهِمْ تُفْرَجُ اللّأْوَاءُ فى كلِّ مَأْزِقٍ عَمَاسٍ إذا مَا ضَاقَ بالنَّاسِ مَصْدَرُ
هُمُ أولياءُ اللهِ أنْزَلَ حُكْمَه عَلَيْهِمْ وفيهِمْ ذَا الكِتَابُ الْمُطَهَّرُ

[وَكُنْ إذَا اسْتَنْجِدْتَ مِثْلَ مَنْ غزَاَ أَرْضَ العِدَا بِكُلِّ طِرِفٍ أَبْلَقِ]

النجدة الشجاعة تقول نَجُدَ الرجل ككَرُمَ فهو نجيدٌ ككريم ، والطرف الكريم من الخيل قال أبو زيد هو نعت للذكور خاصة ، والأبلق مافيه بياض وسواد من الخيل وفى المثل : يجرى بليقٌ ويذم ، وهو فرس كان يسبق الخيل وهو مع ذلك يعاب .

ذكر من غزا أرض العدو بالخيل البلق

المراد به أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد وقيل هو إبراهيم بن هارون ولقبه المعتصم بالله ، وكان أمر هذه القصة ، كما ذكر الأصل هنا ، عزواً للغيث للصفدى ، أن المعتصم بلغه وهو فى مجلسه أن امرأة هاشمية بعمُّورية لطمها أحد بطارقة البلدة على وجهها ، فقالت وامُعْتَصِمَاهُ ! فقال النصرانى لا يجيء إليك المعتصم إلا على الأبلق ، فلما سمع المعتصم ذلك يقال إنه ختم كأسه التى كانت بيده وأقسم أن لايشربها حتى يفك الهاشمية من الأسر واستنفر الناس ونادى أن اجتهدوا فى ركوب الخيل البلق وذكر أنه خرج إلى عمُّورية فى سبعين ألف جواد أبلق فلم يزل حتى فتح عمُّورية وتطلب تلك الهاشمية فلما حضرت لديه قال لبيك لبيك وطلب كأسه فشربها ، وكانت وقعة عمُّورية قد بدأ حصارها فى رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين من الهجرة ودام حصارها خمسة وخمسين يوماً ؛ وذكر اليوسي أن المعتصم كان أثناء حصاره عمُّورية أمسك عن القتال وكان بمعسكره رجل من أهل الدين والصلاح فقال ما لأمير المؤمنين أمسك عن القتال ؟ فقيل لأن بعض المنجمين أمر بالتأخير وقال إن الوقت ليس لك ، فجاء الرجل إلى المعتصم فوقف بين يديه وقال :

دعِ النجوم لطرقيٍّ يعيشُ بها وقُمْ لوقتك وانْهَضْ أيها الملك
إن النَّبى وأصْحَابَ النبيِّ نهوا عن النجوم وقد أبصرت ماملكوا

فقام إلى القتال ففتح عليه ، وقال فى ذلك أبو تمام :

السيف أصدق إنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيضُ الصفائح لاسود الصحائف فى متُونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شُهُب الأرماح لامعة بين الخميسين لافى السبعة الشُّهُبِ
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

إلى أن قال :

لقد تركت أميرَ المؤمنين بها للنار يُوماً ذليل الصخر والخَشَبِ
غادرتَ فيها بهيمَ الليل وهو ضحى يُقلُّه وسْطَها صُبْحٌ من اللَّهبِ
حتَّى كأنَّ جلابيب الدُّجى رَغِبَتْ عن لونها أو كأنَّ الشمسَ لم تَغِبِ
ضوءٌ منَ النار والظلماء عاكفةٌ وظلمةٌ من دخان فى ضُحًى شحب
فالشمسُ طالعة من ذا وقد أفلت والشمسُ واجبةٌ من ذا ولم تجب

إلى أن قال فى إجابته نداء الهاشمية

لَبَّيْتَ صَوْتًا زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ له كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ
عَدَاك حَرُّ الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبته معلناً بالسيف منصلتا ولو أجبت بغير السيف لم تُجَبِ
حتى تركت عمودَ الشرك منقعراً ولم تُعرج على الأوتار والطُّنُبِ

وتوفى المعتصم بالله « رحمه الله » فى ربيع الأول لثمان عشرة خلت منه سنة سبع وعشرين ومائتين للهجرة .

[وَسُمْ عَدُوَ الدِّينِ بِالْخَسْفِ وَكُنْ مِثْلَ أَبِى يُوسُفَ ذى التَّخبُّق]
[رَدَّ كتابَ مَن دَعَاهُ للوَغَى منهم مُمَزَّقاً لِفَرْطِ الحَنَقِ]
[وقَالَ إنِّى لا أجيبُ بِسوَى جَيْشٍ عَرَمْرَم وَخَيْلٍ دُلُق]

[وَضَرَبَ الفِسْطَاطَ فى الحين وقَدْ   أَحَاط جَيْشُهُ بِهِمْ كالشَّوْذَقِ]
[وَكَانَ مَا قَدْ أَبْصَرُوا مِن بأسِهِ   أَبْلَغَ من جَوَابِهِ المُشَبْرِقِ]

يقال سامه خَسْفاً إذا أولاه ذُلّاً وهضيمة يتعدى إلى الثانى بنفسه ومنه قول عمرو بن كلثوم :

إذا ماالمُلْك سَامَ الناسَ خَسْفاً   أبينا أن نقر الخسْفَ فينا

وأصله من سوم السلعة عند الشراء ، وقد عداه الناظم بالتاء تضميناً له معنى المعاملة ، والتخبق : العلو والارتفاع وهو بخاء معجمة ، وأصل الوغى الجلبة والأصوات المرتفعة ثم أطلق على الحرب لملازمة ذلك لها ، وقال ابن جنى : الوغى بالمهملة الجلبة والصوت وبالمعجمة الحرب نفسها ، والحَنَقُ بفتحتين : الغيظ ومجاوزة الحد فيه ، وجيش عرمرم كسفرجل كثير ، والخيل الدُلُق بضمتين وبقاف مثناه فوقية وبدال مهملة هى شديدة الدفعة ، قال طرفة :

دُلُق فى غارة مسفوحة   كرعال الطير أسرابا تمر

والفسطاط خيمة عظيمة تتخذها الملوك ، والشَّوْذَقُ كجوهر والذال معجمة السوار في يد المرأة ، والمشبرق بصيغة اسم الفاعل الممزق من شبرقت الثوب إذا مزقته « والله أعلم » .

ذكر أبي يُوسفَ وجوابه وما إلى ذلك

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب والأندلس وكنيته أبو يوسُف ويدعى المنصور ، وهو أحد ملوك دولة بني عبد المؤمن المعروفة بالموحدين وكان ذا سيرة محمودة من حيث نشر العدل بين الناس وإظهار الجهاد وإظهار وإقامة حدود الله فأظهر بذلك أبهة الإسلام ، وخافه ملك الجلالقة ألفونس ، فسأله الصلح ، وصالحه خمس سنين فلما انقضت مدة المدنة ولم يبق منها إلا القليل خرج جماعة من الإسبان فى جيش كثيف وعاثوا فى

الأرض فساداً فعزم الأمير على غزو الإسبان وأمر بالجيوش فاجتمعت بمدينة سلا حيث خرج لانتظارهم ثم إنه قضى الله بمرض الأمير مرضاً كَادَ أنْ يُودى بحياته ، الأمر الذى تسبب عنه حركات فى أطراف البلاد اقتضى الحال بموجبها أن تتفرق الجيوش المجتمعة لنشر الأمن فطمع عدو الله ملك طليطلة الألفونس وكتب إلى الأمير كتاباً من إنشاء وزيره ابن الفخّار يقول فيه : باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح ، أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية كما أنى أمير الملة النصرانية وقد علمت الآن ما عليه أمراء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل والتكاسل وإهمالهم أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة والأمنية ، وأنا أسومهم بحكم القهر وإخلاء الديار وأسبي الذراري وأمثّل بالرجال وأذيقهم عذاب الهون وشديد النكال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم إذا أمكنتك يد القدرة وساعدك من عساكرك وجنودك ذوو رأى وخُبْرةٍ ، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً رحمة منه ومنا ، ونحن الآن نقاتل العشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً ، وتماطل نفسك سنة بعد أخرى وتقدم رجلاً وتأخر أخرى ، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التكذيب بوعد ربك ، ثم قيل إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التقحم معها وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر عنك ولك على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب الشواني والطرائد والمسطحات ، وإلا جزت بجملتى إليك ، فقاتلتك فى أعز الأماكن لديك ، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة سيقت إليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت اليد العليا عليك ، واستحققت إمارة الملتين ، والحكم على البرين ، والله يوفق للسعادة ، ويسهل الإرادة ، لارب غيره ، ولا خير إلا خيره .

فلما وصل كتابه إلى يعقوب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه :

﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون ﴾ ، الجواب ما ترى لا ما تسمع ، وتمثل ببيت المتنبي :

ولا كتب إلا المشرفية عنده ... ولا رسله إلا الخميس العرمرم

ثم استنفر جيوشه وعسكر من يومه بظاهر البلد وسار بجيوشه إلى زقاق سبتة فعبر منه إلى الأندلس وسار إلى أن دخل بلاد الإفرنج فوجدهم قد احتشدوا فكسرهم وبَدَّدَ جموعهم وهذه الغزوة تعرف بغزوة الأرك .

قال ابن الأثير إنهم التقوا فى تاسع شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة للهجرة بشمال قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف بمرج الحديد ، وكان عدد من قتل من الْعَدُوِّ الإسْبَانِ مائة ألِف وستَّةً وأربعين ألفاً ، وأسَرَ ثلاثة عشر ألفا وغنم المسلمون منهم مغانم كثيرة لا يفى بها حصر .

وأبو يوسف هذا هو الذى بنى رباط الفتح والمهدية وبنى قصبة مراكش وجامعها الأعظم المنسوب إليـه .

وكانت وفاته رحمه الله ، بمدينة سلا ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين بالفوقية المثناة وخمسمائة للهجرة ونقل إلى مراكش حيث دفن بجبل تِينْمَلْلْ عند مدفن أسلافه « والله أعلم » .

[يَاصَاحِ واشْغَلْ فُسْحَةَ العُمْر بمَا ... يَعْنِي وزُرْ غِبًّا رُسُومَ الْعَيْهَقِ]

فُسْحَةٌ العمر بقيته وأصلها السعة ومكان فسيح واسع ، وفسحتُ له فى المجلس إذا تركت له فيه فرجة يجلس فيها ، وقوله زر غباً : الْغِبُّ بالكسر أن ترد الإبل الماء يوماً بعد يوم ورسوم العيهق مظان النشاط واللهو ومنازلهما « والله أعلم » .

وقد اشتمل كلام الناظم هنا على جملتين إحداهما تتضمن الحث على تدارك بقية العمر بتعمير أوقاته بما تحمد عاقبته فى العاجل والآجل ، والثانية تتضمن الحث

على الجد والاجتهاد والأخذ بالحزم والاحتياط فى أعمال البر والطاعات واجتناب اللهو وأخلاق أهل البطالات .

وهذا هو المقصود من بعثة الرسل وإنزال الكتب عليهم وإرشاد الخلق بهم إلى ما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم قال تعالى : ﴿ **أَلْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** ﴾[1] ، الآية ، وأخرج « مسلم ، والترمذى » عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ألهٰكم التكاثر فقال : « يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » .

فإن المرء مُطالب بالجد والاجتهاد فيما يُرضى الله عَزَّ وجلَّ ، فإن العمر قَصير ، والعيش حقير ، والناقد بصير ، ولأن الفرح والبطر من صفات الغافلين ، والله تعالى لا يحب الفرحين ، وفى الحديث : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .

وإنما لم يحسم الناظم مادة اللهو بل أمر بالإقلال منه فقط لما فى ذلك من الاستجمام المعين على مراجعة العمل بجد ونشاط ، قال الشاعر :

أَفِدْ نفسك المكدود بالجد راحة   يجم وعلله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن   بقدر الذي يعطى الطعام من الملح

[وَابْكِ عَلى ذَنْب وَقَلْبٍ قد قسَا   كالصخر مِنْ هَوَاهُ لَمْ يَسْتَفق]
[بِمُقْلَةٍ كَمُقْلَةِ الخَنْساءِ إذْ   بَكَتْ عَلى صَخْرٍ بِلا تَرَفُّقِ]

مفردات البيتين واضحة فلا تحتاج إلى تبيين ، ومراد الناظم بهما حث المخاطب على البكاء على ذنبه الفاشي وقلبه القاسي ، وذلك ثمرة الخوف من الله تعالى .

---

(١) التكاثر

ذكر الخنساء وبكائها

هي تماضر بنت عمرو بن الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عُصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهيثة بن سليم بن منصور السلمية الصحابية المشهورة والخنساء لقب لها غلب عليها وقد وهم صاحب القاموس حيث جعل الصحابية غير الشاعرة فهو خلاف التحقيق عند ابن عبد البر وابن الأثير وغيرهما .

ويُحكى أن الخنساء خطبها دريد بن الصمة فبعثت جارية لها وقالت انظرى إليه إذا بال فإن كان بوله يخرق الأرض ويخد فيها ففيه بقية وإن كان بوله يسيح على وجه الأرض فلا بقية فيه فأخبرتها الجارية أن بوله ساح على وجه الأرض ، فأرسلت إليه ما كنت لأدع بني عمي وهم مثل عوالى الرماح وأتزوج شيخاً من بني جشم ، فقال دريد :

وقاك الله يا ابنة آل عمرو ... من الفتيان أمثالي ونفسي
فلا تلدي ولا ينكحْكِ مثلي ... إذا ما ليلة طرقت بنحس
تريد شرنبث القدمين شثناً ... يقلع بالحديدة كل كِرْسِ
وقالت إنه شيخ كبير ... وما خبرتها أني ابن أمس

والكرسى الأبوال والأبعار يتلبد بعضها فوق بعض ، فقالت الخنساء :

معاذ الله ينكحنى حبركي ... قصير الشبر من جشم بن بكر
يرى مجداً وتكرمة أتاها ... إذا عشى الصديق جريم تمر
ولو أصبحت فى جشم هديا ... إذاً أصبحت فى دنس وفقر

والحبركى الغليظ الظهر القصير الرجلين ، وجريم التمر يابسه .

قلت : وأفادنى شيخى فضيلة المغفور له الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار ابن عبد القادر الجكني الشنقيطى ، أفادنى أيام قراءتى عليه هذه القصيدة بالمدينة المنورة سنة ١٣٧٩ أن الحبركى القراد « والله أعلم » .

وذكر ابن عبد البر أن الخنساء قدمت على رسول الله صلى الله وسلم مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستنشدها ويعجبه شعرها ويقول : هِيْه يَاخُنَاس ، قال : وأجمع أهل المعرفة بالشعر أنه لم تكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها ، وقال المبرد : كان بشار ابن برد يقول : لم تقل امرأة شعراً إلا تبين الضعف فيه ، فقيل له : أوكذلك الخنساء ؟ قال تلك كان لها أربع خصي ، وحكى الزبير بن بكار أن الخنساء حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الأربعة فخطبتهم قائلة : إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين والله إنكم لبنو رجل واحد كما أن أُمكم امرأةٌ واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حَسَبَكُمْ ولا غيرت نسبكم وقد علمتم ما أعد الله للملسمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية فإن الله تعالى يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[1] ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سباقها وجللت ناراً على أوراقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنيمة والكرامة فى دار الخلد والمقامة فاستشهد أربعتهم فلبغها الخبر فقالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

وكان عمر — رضى الله عنه — يعطيها أرزاقهم لكل واحد منهم مائتا درهم حتى قبض رحمة الله عليه. وأما بكاؤها ، فإن سببه أنها كانت لها أخوين أحدهما لأبيها وأمها وهو معاوية ابن عمرو الشريد والآخر لأبيها فقط وهو صخر بن عمرو وكان أحب أخويها إليها لجوده وكرمه وحلمه وحب العشيرة له ، فأصيبت بهما واحداً بعد الآخر وكان مصابها بمعاوية قبل صخر فكانت تندبه وقالت فى ذلك شعراً كثيراً من أجوده قولها :

أريقي من دموعك واستفيقي ‌ ‌ ‌ ‌ وصبراً إن أطقتِ ولن تطيقى

(١) آل عمران الآية (٢٠٠)

وقولى إن خير بنى سليم | وفارسهم بصحراء العقيق
ألا هل ترجعنَّ لنا ليالٍ | وأيامٌ لنا بِلوى الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم | إذا حضروا وفتيانٌ الحُقُوقِ
وإذ فينا معاوية بن عمرو | على أدماء كالجمل الفنيق
فبكّيه فقد أودى حميداً | أمينَ الرأى محمودَ الصَّديق
فلا والله لا تسلاك نفسي | لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيراً | من النعلين والرأس الحليق

ولما قتل صخر نسيت الخنساء مصابها بمعاوية وجعلت تبكي صخراً ومراثيها فيه كثيرة جداً موجودة فى محلها ، ومن أجود ما قالت فيه قولها :

قذىً بعينك أم بالعين عُوّارُ | أمْ ذرفت إذْ خلتْ من أهلها الدّارُ
كأنَّ عيني لذكراهُ إذا خطرتْ | فيضٌ يسيلُ على الخدّين مِدْرارُ
لا بُدَّ من ميتة فى صرفها غِيَرٌ | والدهر فى صرفه حَوْلٌ وأطوارُ
تبكى خَنَاسٍ على صخر وَحُقَّ لها | إذْ رابها الدهر إنَّ الدهر دوّارُ
تبكى لصخر هى العبرى وقد ثكلت | ودونه من جديد الترب أسْتارُ
يا صَخْرُ ورَّادَ ماءٍ قد تناذره | أهل المياه وما في وِرْده عَارُ
مَشْيَ السَّبنتى إلى هجاء معضلة | له سلاحان أنياب وأظفارُ
وما عَجولٌ على بَوٍّ تَجنُّ له | لها حنينان إعلانٌ وإسرارُ
تَرتَعُ ما غفلت حتى إذا ادَّكرت | فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ
لا تَسْمَنُ الدّهر فى أرض وإن رتعت | فإنما هي تحنانٌ وتَشْجَارُ
يوماً بأوجد مني حين فارقني | صَخْرٌ وللدهر إحْلاءٌ وإمْرارُ
وإنَّ صخراً لوالينا وسيدنا | وإن صخراً إذا نشتو لنحّارُ
وإنَّ صخراً لتأتم الهداةُ به | كأنه عَلَمٌ فى رأسه نَارُ
جوّابُ قاصية جزّازُ ناصية | عَقّادُ ألوية للجيش جَرّارُ
حَامى الحقيقة محمود الخليقة مَهْـ | ـدِيُّ الطريقة نَفَّاعٌ وضَرّارُ

لم ترهُ جارةٌ يمشي بساحتها لريبة حين يخلي بيتـه الجارُ
ولا تراه وما فى البيت يأكله لكنـه بارزٌ بالصحـن مهمـارُ
مثل الرديني لم تنفد شبيبته كأنه تحت طيِّ البرد إسوارُ
فى جوف رمس مقيم قد تضمنه فى رمسه مقمطراتٌ وأحجارُ
طلق اليدين بفعل الخير ذو فَجَرٍ ضَخم الدسيعة بالخيرات أمَّارُ
فى رفعة حار حاديهم بمهلكة كأنَّ ظُلمتها فى الطخية القارُ

ومن جيد رثائها قولها :

أعينـــيَّ جوداً ولا تجمـــــدا ألا تبكيـان لصخــر النَّــدا
ألاتبكيـــان الجرئ الجميـــــل ألا تبكيـان الفتـــى السيــدا
طويـلُ النجـاد رفيـع العمـــا د ساد عشيرتـــه أمـــردا
إذا القـــوم مدوا بأيـــديهمُ إلى المجد مدّ إليـــــه يدا
فنـال الــذي فوق أيـــديهمُ من المجد ثم مضى مصعـدا
يحمِّلـــــه القـــــومُ ما عالهمْ وإن كان أصغرهـم مولـــدا
ترى المجد يهوي إلى بيتـــه يرى أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكـــر المجد ألفيتـــــه تأزَّر بالمجد ثم ارتـــــــدى

ولو تتبعنا ذكر مراثي الخنساء فى صخرها لطال المقام بنا ولنكتف بهذا القدر منه .

وذكر المبرد أن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ رأت الخنساء وعليها صدار من شعر فقالت ياخنساء أتلبسين الصدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت لم أعلم بنهيه ، وكان لهذا الصدار سبب ، قالت وما هو ؟ فقالت كان زوجى رجلاً متلافاً فأخفق فأراد أن يسافر فقلت له أقم حتى آتي صخراً أخي فأتيته فشاطرنى ماله فأتلفه زوجى فعدت فعاد لي بمثل ذلك فأتلفه زوجى فعدت له فلما كان فى الثالثة قالت زوجته إن هذا المال لهالك فامنحها شرارها فقال صخر :

والله لا أمنحها شرارها وهى حصانٌ قد كفتنى عارها
ولو هلكتُ مزقت خمارها واتخذت من شعر صدارها

فلما هلك اتخذت هذا الصدار انتهى . والعلم عند الله .

وممن تمثل ببكاء الخنساء أبو نواس حيث قال يهجو بخيلاً :

فتىً لرغيفه قُرْطٌ وشَنْف ولؤلؤتان فى خرز وشَذْرِ
ودون رغيفه قلعُ الثنايا وحربٌ مثل وقعة يوم بَدْر
وإن كسر الرغيف بكى عليه بكا الخنساء إذ فجعت بصخر

والعلم عند الله تعالى :

[أوْكَبُكَا فَارِعَةٍ على الْوَلِيـ ـدِ وَبُكاءِ خِندِفٍ وَخِرْنقِ]

فارعة وخندف وخرنق نساء معروفات وسوف نتعرض لذكرهن الواحدة تلو الأخرى .

أمَّا خِنْدِفُ

فهى ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وهي زوج إلياس بن مضر جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميت خندف بوزن زبرج لأنه كان لإلياس منها ثلاثة من الولد هم عمرو وعامر وعمير ثم إن عائلة إلياس خرجت فى نجعة فنفرت إبلهم من أرنب فخرج إليها عمرو فأدركها فسموه مدركة واصطاد عامر الأرنب فطبخها فسمي طابخة وانقمع عمير فى الخباء فسموه قمعة وخرجت أمهم خلفهم تهرول فقال لها إلياس أين تخندفين ؟ والخندفة مشية تشبه الهرولة ، فقالت مازلت أخندف خلفكم فسميت خندف ، كذا فى القاموس ، وقيل إن طابخة هو عمرو وأن مدركة هو عامر والله تعالى أعلم ..

قلت : وفى عمود النسب للعلامة البدوي المجلسي ثم الشنقيطي قوله :

فى صلب إلياس لخير الأمم تلبيةٌ تسمعُ من بالحرم

أولاده من خنــدفٍ الشامخة قمعــةٌ مدركــةٌ وطابِخــة

ثم إنه ينبغي أن تعلم أن عرب الحجاز وجل عرب نجد من خندف ، فمنها قريش ، وكنانة وأسد ابنا خزيمة بن مدركة ومنها هذيل بن مدركة ومنها أسلم ، قيل ومنها خزاعة ، فخزاعة من ولد عمرو بن لحي وقيل إنه من ولد قمعة .

قلت : قال العلامة أحمد البدوي فى عمود النسب :

قَمْعَةٌ قبل جدُّ عمرو بن لُحي ذي القصْبِ فى حديث أفْضل لؤي
أولُ من حمل أكياسَ الحرم لكفرهِ على عبادة الصنم
وأدخــلَ الذيــن أخرجَهُمَــا إذْ أحْدَثَـا فمُسِخَا أهلهـا
وصلبا على الصفا ليتعــظ عن الزنا بمكةٍ كل يَقِظْ

إلى أن قال :

وهـو أبــو خزاعــة وأكثَــمُ شبهه به النبــي منهمُ

ومن خندف تميم بن مر بن أدُّ بن طابخة ، ومنها ضبة بن أد بن طابخة ، ومنها الرباب وهي قبائل : بنو عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة ، وبنو تيم بن عبد مناة ابن أد بن طابخة ، وبنو ثور بن عبد مناة ، وبنو عُكْل وهو عوف بن عبد مناة ومن خندف كذلك مزينة وهم بنو عمرو بن أد بن طابخة وسموا باسم أمهم مزينة وهى أم عمرو بن أد .

قلت : وإلى ما سردناه من قبائل خندف أشار العلامة الشنقيطي أحمد البدوي ثم المجلسي فى عمود نسبه بقوله :

مدركـة منـه هذيـل الــذي منه خزاعـة التي منها احتُذى
أصَيْلُ شَـوَّقَ النبــيَّ مكّتَــهْ وزَوْجَــهُ بوصفــه فأسكتَــهْ
ومـن هذيـل صاحب السَّوادِ والسِّر والسِّواك والــوساد
والنعل والستّر لدى المُغْتَسَلِ والإذن فى المجلس مالم يعزل

وهو ابن مسعود مبشر النبى برأس عمرو بن هشام الغبى
ومن بني أد سليل طابخة ضَبَّةٌ إحدى الجمرات الراسخة

إلى أن قال :

أهلكه الحارث ثم افتخرا بقتله لضبة إذ لا يرى
أن أباه ضبَّةٌ فقتله وسبق السيف العتاب أرسله
عَبْدُ مَنَاةٍ بْنُ أدّ تنسب له الرَّبابُ زُمر تَرَبَّبُوا
مَعَ تميمٍ وهى ثور عجل تَيْمٌ عدىٌ ضَبَّةٌ وعُكْلُ
وانسب لثور الذى ما استودعا حجاه معلوماً فخان ما وعى
وهو سمى ابن عيينة العلم مولى بنى هلالٍ الندب الحَكَمْ
مزينة أم بني عمرو بن أد وفى ربابة الرباب قيل عدا
الخ ..

والحاصل أن مضر تنقسم إلى قسمين : إلى قيس وإلى خندف ولخندف فخر الجاهلية ومجد الإسلام بالنبوءة والخلافة .

وأما بكاء خندف فهو أنه لما مرض زوجها إلياس وجدت لذلك وجداً شديداً ونذرت إن هلكَ أن لا تقيم ببلد مات فيه وأن لا يظلها بيت بعده وأن تسيح فى الأرض وحرمت الرجال والطيب فلما هلك إلياس خرجت سائحة فى الأرض حتى هلكت حزناً ، وكانت وفاته يوم الخميس فكانت كلما طلعت الشمس من ذلك اليوم بكته حتى تغيب فصارت خندف وما صنعت عجباً فى الناس يتحدثون به .

وأما خرنق : فهى بنت هفان من بنى سعد بن ضبيعة رهط الأعشى ، وهي أخت طرفة بن العبد الشاعر لأمه ، وقد اشتهرت فى رثائها لزوجها بشر بن عمرو ابن مرثد الضبعي وبنيه علقمة وحسان وشرحبيل حين قتلهم بنو أسد بجبل يقال لم قُلاب ، ومن رثائها فيهم قولها :

فلا وأبيك آسى بعد بشر على حي يموت ولا صديق

وبعد الخير علقمة بن بشر إذا ما الموت كان لدى الحلوق
ونال بنى ضبيعة بعد بشر كما نال الجزوع من الحريق
فكم بقُلاب من أوصال خرق أخى ثقة وجمجمة فليق

وقالت فى رثاء أخيها طرفة بن العبد :

عددنا له ستاً وعشرين حجة فلما توفَّاها استوى أسداً ضخماً
فُجعنا به لما رجونا إيابه على خير حال لا وليداً ولا فَحْمَا

وأمَّا فارعةٌ : فهى بنت طريف بن الصلت بن طارق بن سيجان بن عمرو ابن مالك الشيبانية أخت الوليد بن طريف الخارجى المشهور . كان شجاعاً فاتكا وكان رأس الخوارج مقيماً بنصيبين والخابور وتلك النَّواحى وكان خروجه في خلافة هارون الرشيد فوجه إليه الرشيد عدة أُمراء فقضى عليهم واحداً واحداً فوجه إليه يزيد بن مزيد الشيبانى بإشارة من البرامكة وكانوا يحرضون أمير المؤمنين عليه ويُغروه به ويقولون إنما يتجافى عن الوليد للرحم الذي بينهما وإلا فشوكة الوليد ضعيفة ، فوجه إليه الرشيد كتاباً يقول فيه لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما قمت به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزته ليوجهن إليك من يأتيه برأسك ، فلقيه فى أول خميس من رمضان سنة ثمان وسبعين ومائة ، وكان الوليد قد خرج إليهم يرتجز ويقول :

أنا الوليد بن طريف الشاري قَسْوَرَةٌ لا يصطلى بناري
جَوْرُكُمْ أخرجنى من داري

وقال يزِيد لأصحابه فداكم أبي وأمي إنما هي الخوارج ولهم حملة فاثبتوا لها تحت التراس فإذا انقضت حملتهم فاحملوا فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا ، فكان كما قال ، ويقال إنهم لما انكشفوا نادى يزيد الوليد قائلاً ياوليد ما حاجتك إلى التسعر بالرجال ابرز إليَّ فقال نعم والله فبرز إليه ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد ، فتطاردا ساعات وكل منهما لا يقدر على صاحبه فأمكنت يزيد منه غفلة

فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فوقعوا عليه واحتزوا رأسه ووجه به وبكتاب الفتح مع ابنه أسد بن يزيد بن مزيد .

ولما قدم يزيد على الرشيد ظافراً احتجب عنه بإشارة من البرامكة وأظهر عليه السخط فأقسم يزيد ليصيفَنَّ ويَشْتُوَنَّ على جواده أو يدخل على أمير المؤمنين فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد فأدخله عليه ورحب به وأكرمه وعرف بلاءه ونقاء صدره ومدحه الشعراء وقال فى مدحه مسلم بن الوليد :

يفتر عند افترار الحرب مبتسماً إذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج فى يوم ذي رَهَجٍ كأنه أجل يسعى إلى أجل
ينال بالرفق ما تعيا الرّجالُ به كالموت مستعجلاً يأتى على مهلِ

ولما قتل الوليد بن طريف صبحتهم أخته الفارعة وعند « الأصفهاني » أ اسمها ليلى ، فجعلت تحمل على الناس فعرفت فقال يزيد دعوها ثم خرج إليـ فضرب بالرمح قطاة فرسها ثم قال اغربى فقد فضحت العشيرة فاستحيـ وانصرفت وهي تنشد فى رثاء أخيها :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من النقى ولا المال إلا من قنىً وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صَلْعَمٍ معودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هُنَاك ولم تقم مقاماً على الأعداءِ غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريهة من السرد فى خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقِح وسمر القنا ينكزنها بأنوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لم يرض الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا فديناك من فتياننا بألوف
ومازال حتى أزهق الموت نفسه شجىً لعدو أو نجاً لضعيف
ألا بالقومي للحِمام وللبلى وللأرض همت بعده برجوف

ألا يالقومي للنوائب والردى ... ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى ... وللشمس لما أزمعت بكسوف
ولليث كُلَّ الليث إذ يحملونه ... إلى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قتل الله الجُثى حيث أضمرت ... فتى كان للمعروف غير عيوف
فإن يكُ أرداه يزيد بنُ مِزْيدٍ ... فرُبَّ زحوف لفَّها بزحوف
عليه سلام الله وفقاً فإنني ... أرى الموت وقَّاعًا بكل شريف

ولها فى رثائه قولها :

ذكَرتُ الوليد وأيامه ... إذ الأرض يمن شخصه بلْقَعُ
فأقبلت أطلبه فى السماء ... كما يبتغى أنفه الأجدَعُ
أضاعتك قومك فليطلبوا ... إفادة مثل الذي ضيعوا
لو ان السيوف التي حدُّها ... يصيبك تعلم ما تَصْنَعُ
نبتْ عنك أو جعلت هَيْبَةً ... وخَوْفاً لصولك لا تَقْطَعُ

ولفارعة هذه مراثى كثيرة فى أخيها الوليد سلكت فيها مسلك الخنساء فى رثائها لأخيها صخر « والله تعالى أعلم » .

[وَكُنْ مُتَمِّماً بُكَا مُتَمِّمِ ... عَلَى الذُّنُوبِ وَارْجُ عَفْو مُعْتِقِ]

ألفاظ هذا البيت ظاهرة ، وقوله وارجُ عفو معتق ، عقب ما أمر به من البكاء الذي هو ثمرة الخوف من الله تعالى ، يشير به إلى أن الحالة الكاملة للعبد هو أن لا يغلب خوفه على رجائه ولا رجاؤه على خوفه ، فإنه مهما غلب خوفه على رجائه خيف عليه اليأس من رَوْح الله ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ومهما غلب رجاؤه على خوفه خيف عليه الأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

هذا ، والرجاء المعتبر شرعاً هو تعلق القلب بمطموع فى حصوله فى المستقبل مع الأخذ فى عمل محصل له ، فإن تجرد عن العمل فهو طمع وهو قبيح والرجاء

حسنٌ ، وفى الحكم : الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنيةٌ ، وفى التنزيل : ﴿ **فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يأخُذُونَ عَرَضَ هَذا الأدنى ويقولون سيُغْفَرُ لَنا** ﴾[1] الآية ـ وفى الحديث النبوي الشريف : « الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

ذكر بكاء مُتَمِّمٍ والسبب فيه

أما متمم هذا فهو أبو نهشل متمم بن نويرة بن حمزة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمي ثم اليربوعي ، عده ابن عبد البر في الصحابة وكان شاعراً فصيحاً بليغاً وضبط اسمه أنه بصيغة اسم الفاعل من التمام وذلك خلاف ما فى القاموس حيث وزنه بمعظم الأمر الذي يجعله مفتوح الثالث .

وبكاء متمم هذا الذي يشير إليه الناظم هو رثاؤه لأخيه مالك بن نويرة الذي قتله خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ فى حرب الردة ، وكان من خبره أنه أدرك الإسلام وأسلم وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقة قومه بني يربوع فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد ورد الصدقات إلى أهلها ، وبعث أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ خالد بن الوليد لقتال أهل الردة فكان إذا صبَّح قوماً تسمَّع إلى الأذان فإن سَمِعَهُ كف عنهم وإن لم يسمعه قاتلهم إلى أن مر بالبطاح وبها مالك بن نويرة وأصحابه فقاتلوهم وأوتي بمالك بن نويرة أسيراً فقتله خالد ـ رضي الله عنه ـ بعدما بدا منه ما يستوجب قتله ، ولا ينبغي إلى ما يُشَنِّبُهُ به بعضهم على الضعفاء من ذكر ما لايليق فى جانب سيف الله المسلول ـ رضي الله عنه ـ ، ولا شيْ أدلَّ على قتل مالك على الردة مماذكر أخوه متمم هذا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما سمع متمماً يحكى

---

(١) الأعراف (١٦٩)

ما يرى به اخاه فقال : وددت لورثيت أخي زيداً بمثل مارثيت به أخاك ، قال : والله لو علمت أن أخي صار إلى ما صار إليه أخوك لم أرثه ولم أحزن عليه .

وكان متمم بن نويرة منقطعاً إلى أخيه مالك مكفي المئونة فلما قتل رثاه بقصائد مشهورة ، ولما بلغته وفاته حضر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى الصبح خلف أبي بكر — رضي الله عنه — فلما فرغ من صلاته قام متمم وأنشأ يقول :

نعم القتيلُ إذا الرياح تناوحت خَلْف البيوت قتلت يا ابن الأزور

ثم أومأ إلى أبي بكر — رضي الله عنه — وقال :

أدعوته بالله ثم غدرته لو هُو دعاك بذمةٍ لم يَغْدِر

فقال أبو بكر — رضي الله عنه — : والله ما دعوته ولا غدرته ، فأنشأ يقول :

ولنعم حشو الدرع كان وحاسراً ولنعم مأوى الطارق الْمُتَنَوِّر
لا يضمر الفحشاء تحت ردائه حُلْوٌ شمائله عفيفُ المئزر

ثم بكى حتى انحط على سية قوسه فمازال يبكي حتى قام إليه عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وقال وددت لو رثيت أخي زيداً بما رثيت به أخاك مالكاً ، فأجابه الجواب المتقدم وقال أيضاً فى رثائه :

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السّوافك
فقال أتبكي كل قبر أتيته لقبر ثوي بين اللوى فالدكادك ؟
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعْني فهذا كله قبر مالك

وله أيضاً فى رثائه :

جميلُ المحيا ضاحك عند ضيفه أغرُّ جميعُ الرأي مشترك الرحْلِ

وقور إذا القوم الكرام تقاولوا ... فحلت حباهم واستطيروا من الجفل
وكنت إلى نفسي أشدَّ حلاوةً ... من الماء بالماذيِّ من عسلِ النَّحْلِ
وكل فتىً فى الناسِ بعد ابن عمه ... كساقطة إحدى يديه من الحَبلِ
وبعضُ الرجال نخلةٌ لا جنى لها ... ولا ظل إلا أن تعد من النَّخْلِ

هذا ، ولو تتبعنا مراثي متمم فى أخيه مالك لطال المقام ولكننا اكتفينا بهذا خشية الإطالة ؛ وممن تمثل ببكاء متمم القاضى السعيد بن سناء الملك قال :

بكيت بكلتا مُقلتىَّ كأنَّني ... أتمم ما قد فات عيني مُتممِ

[وَكُنْ خَمِيصَ البْطنِ مِن زَاد الرِّبَا ... وخَمْرَةَ التَّقْوى اصْطَبِحْ واغْتَبِقِ]

الخُمْصُ بالضم الجوع والمخمصة المجاعة وقد خَمُصَ خُمْصاً فهو خميصٌ إذا جاع على وزن قَرُب والاصطباح شرب الصبوح وهو ما يحلب ويشرب من اللبن فى الصباح ، والاغتباق شرب الغبوق وهو ما يحلب ويشرب من اللبن بالعشي ، وقد يستعملان فى غير اللبن من الأشربة ، والتّقْوى قد تقدم الكلام عليه .

هذا ، وكلام الناظم هنا مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **وَتَزَوَّدوا فإن خَيْرَ الزادِ التَّقْوىٰ** ﴾[1] .

وفي نحو ذلك قول الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... فترصد للموت الذي كان أرصدا

[وحَصِّل الْعِلْمَ وَزِنْهُ بِالتُّقى ... وَسَائِرَ الأَوْقَات فِيهِ اسْتَغْرِق]
[وَلْيَكُ قَلْبُك لَهُ افْرَغ مِنْ ... حَجَّامِ سَابَاطَ وَمَنْ لَمْ يَعْشِقِ]

(١) البقرة (١٩٧)

تحصيل الشيء تقْييدُه وضَبْطُهُ من حصل حصولاً إذا ثبت ، وعن ابن فارس أن أصل التحصيل استخراج الذهب من حجر المعدن ، والمُحصِّلة : المرأة التي تحصل تراب المعدن . قال الشاعر :

ألا رجـلٌ جزاه الله خيراً يدل على محصلـةٍ تبيـتُ

وتحصيل الكلام رده إلى محصوله أي خلاصته .

وقوله : وزنْهُ فعل أمر من زانه يزينهُ بمعنى حسَّنَهُ ، وسائر الناس جميعهم عند الجوهري ، وقد يأتي سائر مراداً به الباقي ، قال فى المصباح : اتفق أهل اللغة أن سائر الشيء باقيه قليلاً كان أو كثيراً ، وزعم الصاغاني أن جعله بمعنى الجميع من لحن العوام .

والاستغراق الاستيعاب ، وقولهم استغرق فى الضحك استوعب .

وأفرغ من حجَّام ساباط مثل تضربه العرب يأتي إن شاء الله الكلام عليه ، وساباط موضع بعينه في المدائن بفارس .

والعِشْقُ مرض وسواسي يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور ، قال المتنبي :

وما العشق إلا غِرَّةٌ وطماعـةٌ يُعَـرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فيُصَابُ

ذكر حجَّام ساباط

قال الثعالبي : حجام ساباط يضرب به المثل فى الفراغ فيقال أفرغ من حجام ساباط كما يضرب المثل بالشغل بذات النحيين يقال : أشغل من ذات النحيين ، ومن خبره أنه كان حجاماً ملازماً لساباط المدائن فإذا مر به جند قد ضرب عليهم البعث حجمهم نسيئةً بدانق إلى وقت قفولهم وكان مع ذلك يمر عليه الأسبوع والأسبوعان من غير أن يدنو منه أحد فعند ذلك يخرج أمه فيحجمها ليرى الناس

أنه غير فارغ ، فمازال ذلك دأبه حتى نزف دم أمه فماتت فُجاءةً ، فصار فراغ ذلك الحجام مثلاً ، وممن ضرب المثل بحجام ساباط ابن بسام حيث قال :

دَارُ أبي العبـــاس مفــــروشةٌ ما شئت من بُسْطٍ ومِن أنْماطِ
لكنمــا بُعْــدُك مِن خُبْـــزِهِ كبُعْـدِ بَلْـخَ مِن سُمَـــيْسَاطِ
مطبخُـــهُ قَفْـــر وطَبَّاخــــهُ أفْرَغُ مِن حجَّـــامِ سَابَــاطِ

وذكر ابن عساكر فى تاريخه أن يزيد بن المهلب حجَّ فطلب حجَّاماً فجاء فحلق رأسه فأمر له بألف درهم فدهش الحجام وقال : بهذه الألف أمضي إلى أمي فلانة فأشتريها ، فقال يزيد : أعطوه ألفاً أخرى ، فقال الحلاق : امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك ، فقال يزيد : أعطوه ألفين أخريين .

وحكى ابن خلكان عن وكيع قال : قال لي أبو حنيفة الإمام : أخطأتُ في خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام وذلك أنى أردت أن أحلق فقلت لأعرابى بكم تحلق ؟ فقال الأعرابى : أمتحلل أنت ؟ قلت نعم ، فقال النسك لا يشارط فيه ، اجلس ، فجلست منحرفاً عن القبلة فأومأ إلى أن استقبل القبلة ، وأردت أن أحلق رأسى من الجانب الأيسر ، فقال أدر شقك الأيمن من رأسك ففعلت ، وجعل يحلق وأنا ساكت فقال لي كبِّرْ فجعلت أكبر حتى فرغت قمت لأذهب فقال أين تريد ؟ فقلت رحلي ، فقال : صل ركعتين ثم امضِ ، فقلت له من أين لك ما رأيتك أمرتني به ؟ فقال رأيت عطاء بن أبى رباح يفعل هذا .

[ولَا تكُن مِن قَوْمِ مُوسَى واصْطَبِرْ لِكَـــدِّهِ ولِلْمِـــلَال طَلِّـــقِ]

وهذا البيت يرمز إلى ماهو مأثور عن الخليل رحمه الله : العلم لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ثم أنت فى إعطائه إياك بعضه على خطر ؛ وقال بعض الحكماء : لايدرك العلم من لايطيل درسه ولا يكد فى تفهمه نفسه ، وقال الشاعر :

قالت مسائل سحنون لقارئها بالكد تدرك منه كل ما استترا
لايدرك العلم بطال ولا كَسِلٌ ولا ملولٌ ولا من يألَفُ البشرا

ومما ينسب للشافعي قوله

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيء عن تفصيلها ببيان
ذكاءٍ وحرصٍ واجتهادٍ وبُلْغَةٍ وصحبة أستاذٍ وطول زمان

ذكر قوم موسى والمثل السائر فيهم

قال فى ثمار القلوب : بقية قوم موسى يضرب بهم المثل فى الملال وقلة الصبر على طعام واحد كما قال الراجز :

وقوم موسى فى الزمان البائد لم يصبروا على طعام واحد

وعن الشيبانى قال : كان عند رجل قينة وكان أبو نواس يختلف إليها وكانت تريه أنها لاتحب غيره فكان كلما دخل عليها وجد عندها من الشبان من يحادثها ، فقال فيها :

ومظهرة لخلق الله وداً وتلقى بالتحية والسلام
أتيت لبابها أشكو إليها فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقيةً من قوم موسى فهم لايصبرون على طعام

وكان العباس بن الأحنف يهوى جارية لبعض الرؤساء يقال لها فَوْزٌ فمالت إلى بعض الجند وبلغ ذلك العباس فتركها ثم لم ترض هي بالبديل بعد ذلك فكتبت إلى العباس تعاتبه فى إعراضه عنها ، فكتب إليها :

كتبتْ تلوم وتستريبُ زيارتى وتقول لست لنا كعهد العاهِدِ
فأجبتُها ودموع عينى جَمَّةٌ تجرى على الخدين غير جوامِدِ
يافَوزُ لم أهجرْكُمُ لملالة مني ولا لمقال واشٍ حاسدِ
لكنني جربتكم فوجدتُكم لا تصبرون على طعام واحِدِ

[وَخُصَّ عِلْمَ الفِقْهِ بالدَّرْسِ وكُنْ كاللَّيْثِ أوكأشْهَبٍ وَالعُتَقِى]

الفقه فى الأصل هو الفهم يقال فَقِهَ الرجل بالكسر يفقِهُ فِقْهاً إذا فهم ،

ويقال فَقُهَ بالضم إذا صار فقيهاً عالماً ، وجعله العرف خاصاً بعلم الشريعة ومخصصاً بعلم الفروع .

قلت : الفقه فى الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية المتعلقة بفعل من أفعال المكلف بدنياً كان أو قلبياً ، على أن تكون هذه الأحكام مستمدة من الأدلة الشرعية التفصيلية نصاً أو استنباطا .

قال العلامة عبد الله بن إبراهيم العلوى شيخ مشايخنا ومجدد العلم بقطر شنقيط فى القرن الثالث عشر للهجرة ، قال فى مراقي السعود :

والفقه هو العلم بالأحكام للشرعَ والفرع نماها النام
أدلة التفصيل منها مكتسب والعلم بالصلاح فيما قد ذهب

وفى الصحيحين عنه ﷺ : « من يرد الله به خيرا يفقهْا فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى » ، وعند الطبرانى : « يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » ، وفى الصحيحين أيضاً : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » ، وفى الترمذى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

ذكر الليث وأشهب والعتقي رحمهم الله

أما اللَّيْثُ : فهو أبو الحرث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي إمام أهل مصر فى الفقه والحديث . كان مولى لقيس رفاعة وهو مولى عبد الرحمن بن خالد ابن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان وولد بقلقشندة قرية فى الوجه البحرى من القاهرة بينها وبينها ثلاثة فراسخ ، وعنه أنه ولد سنة ثنتين وتسعين للهجرة ، فى شعبان وقيل سنة أربع وتسعين ، وكان سرياً سخياً وروى عن الزهرى وعطاء ونافع وخلق كثير ، وروى عنه ابنه شعيب وابن المبارك وخلق آخرون ، وكان من الأجواد الكرماء ذكر ابن خلكان أن دخله كل سنة كان خمسة آلاف دينار وكان يفرقها فى الصلات وغيرها .

وقال الشافعي : كان الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، وقال ابن وهب لرجل بل كأن مالكا كان يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث ، وكان ابن وهب يرد بذلك على رجل حضر عنده ، ومسائل الليث تقرأ عليه فقال الرجل : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو فأجابه ابن وهب الإجابة المتقدمة .

وحكى بعضهم أن الليث ولى القضاء بمصر وأن المنصور عرض عليه ولايتها فامتنع وتوفى رحمه الله فى رابع عشر شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ودفن بالقرافة وأمّا أشهب ، فهو أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم القيسي ثم الجعدي الفقيه المالكي المصري ، ذكره ابن يونس فى تاريخه فقال : أُشهب القيسي ثم العامري من بنى جعدة يكنى أبا عمرو أحد فقهاء مصر وُلد سنة أربعين ومائة للهجرة ، ويقال إن اسمه مسكين وأشهب لقب له غلب عليه وصحح ابن خلكان الأول .

وكان ثقة فيما يرويه عن مالك فقد تفقه على مالك وعلى المدنيين والمصريين وكان بينه وبين ابن القاسم منافسة ثم انتهت إليه الرئاسة بمصر بعد ابن القاسم ، وقال الشافعي ماأخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه ، وقال ابن عبد البر : كان أشهب فقيهاً حسن الرأي والنظر ولم يدرك الشافعيُّ بمصر من أصحاب مالك سوى أشهب وابن عبد الحكم ، وقال ابنُ عبد الحكم : سمعت أشهب يدعو على الشافعي بالموت فذكرت ذلك للشافعي فقال متمثلاً :

تمنىَّ رجالٌ أن أموت فإن أُمُتْ فتلك سبيلٌ لست فيها بأوحد
فقل للذى خلاف الذى مضى تزود لأخرى مثلها فكأن قد

قال فمات الشافعي فاشترى أشهب من تركته عبداً ثم مات أشهبُ فاشتريت أنا ذلك العبد من تركة أشهب ، وتوفى أشهب رحمه الله يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة أربع ومائتين بعد الشافعي بشهر واحد وقيل بثمانية عشر يوما ودفن بالقرافة الصغرى بجنب قبر ابن القاسم .

وَأمَّا العُتَقِيُّ : فهو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي بالولاء الفقيه المالكى راوى المسائل عن الإمام مالك رحمه الله ، ولد سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة وقيل غير ذلك ، وتفقه على الإمام مالك بن أنس ولازمه عشرين عاماً وفرَّع على أصوله وانتفع به أصحاب مالك بعد موت الإمام مالك وهو صاحب المدونة ونقلها عنه سحنون وهمام في المذهب المالكى ؛ ـ كان ابن القاسم زاهداً صبوراً مجانباً للسلطان ، روى عن ابن عيينة وغيره من طبقة مالك وعنه أخذ أصبغ وسحنون وآخرون ، وتوفي ابن القاسم رحمه الله ليلة الجمعة لسبع مضين من صفر سنه إحدى وتسعين ومائة للهجرة ودفن بالقرافة بمصر ، وكان ابن القاسم مولى لزبيد بن الحرث العتقى من حجر حمير من العتقاء . « والله أعلم » .

[وَفى الحَدِيث النَّبوى، إن لَّم تكن مِثْلَ البُخاريِّ فَكُنْ كالْبَيْهَقِي]

قلت : الحديث والسنة والخبر والأثر أسماء مترادفة تعنى كل مايضاف لرسول الله ﷺ من قول وفعل وتقرير وصفة ، قال شيخ مشائخنا عبد الله بن إبراهيم العلوى الشنقيطى فى مراقي السعود :

وهى ما انضاف إلى الرسول من صفة كليس بالطويل
والقول والفعل وفى الفعل انحصر تقريره كذى الحديث والأثر

وفضل علم الحديث أشهر من أن يذكر وأبين من أن يقرر وكفى أهله فضلاً وشرفاً دعاء النبى ﷺ لهم وهو مستجاب قطعا ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه : عن النبى ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : « **نضر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها فأدَّاها فرب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه** » .

وعن سفيان الثورى رحمه الله : لا أعلم علماً أفضل من علم الحديث لمن أراد به وجه الله تعالى إن الناس يحتاجون إليه حتى فى طعامهم وشرابهم فهو أفضل من التطوع بالصلاة والصيام لأنه فرض كفاية ولله در القائل :

لا ترغبنَّ عن الحديث وأهله فالرأي ليـــل والحديث نهارُ

ذكر البخاري والبيهقي رحمهما الله

أمَّا البخارى : فهو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردِزْبه بفتح الموحدة وسكون الراء بعدها دال مهملة مكسورة فزاي ساكنة فموحدة مفتوحة فهاء على المشهور فى ضبطه ومعناه الزرَّاع ، الجعفي بالولاء وكان بردِزبه مجوسياً على دين قومه ثم أسلم ولده المغيرة على يد اليمان الجعفى والى بخارى فنسب إليه نسبة ولاء عملاً بمذهب من يرى أن من أسلم على يد شخص كان له ولاؤه .

ولد محمد بن إسماعيل البخارى بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ببخارى وهي من أعظم مدن ما وراء النهر ، بينها وبين سمرقند ثمانية أيام ، وتوفي والدهُ وهو صغير فنشأ وهو يتيم فى حجر أُمه .

وأُلهم الحديث وهو ابن عشر سنين أو أقل وكتب الناس عنه وهو أمرد لا شعر بوجهه وكان نحيفاً ربع القامة ، ورحل فى طلب العلم إلى أكثر محدثي الأمصار وكتب بخراسان والجبل والعراق والحجاز والشام ومصر وكان له الإمامة المطلقة فى العلم على الإطلاق ، ولا شيء أدلَّ على رسوخ قدمه فى العلم من الاختبار الذى اختبره به أهل بغداد ، حكى الخطيب البغدادى فى تاريخه أن البخارى لما قدم بغداد سمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوا إلى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى وأخذوا الموعد للمجلس ، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث من البغداديين والغرباء من أهل خراسان وغيرهم فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه واحد من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخارى

لأعرفه فمازال يلقى عليه واحداً بعد واحدٍ حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه ، فكان الفقهاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون الرجل فهم ومن كان منهم ضد ذلك يحكم على البخارى بالعجز وقلة الحفظ .

وتتابع العشرة على الولاء والبخارى يقول لا أعرفه حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه فأقر له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل .

ونقل عنه الفربرى أنه قال ماوضعت فى كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، وصنفت كتابى لست عشرة حجة خَرَّجْتُهُ من ستمائة ألف حديث وجعلته حجة فيما بينى وبين الله .

ومن شعره رحمه الله :

اغتنم فى الفراغ فضل ركوع   فعسى أن يكون موتك بغتهْ
كم صحيح رأيت من غير سُقْمٍ   ذهبتْ نفسُه الصحيحةُ فلتَهْ

وامتحن رحمه الله فى آخر عمره فى مسألة الفرق بين التلاوة والمتلو وتحومل عليه فيها .

وتوفي ليلة السبت فاتح شوال سنة ست وخمسين ومائتين بخرتنك أو خرتنك على بعد فرسخين من سمرقند وعمره ثنتان وستون سنة رحمة الله على البخارى وعلى جميع علماء الإسلام .

وأما البَيهقى : فهو الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي الخُسْرَوَجْدِيُّ الفقيه الشافعى الحافظ المشْهور ، ولد فى شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة وكان فريد زمانه فى الفنون ، من كبار أصحاب الحاكم أبي عبد الله بن البيع فى الحديث ، وأخذ الفقه عن أبى الفتح ناصر بن محمد العمرى المروزي وغلب عليه الحديث واشْتُهر به ورحل فى طلبه إلى العراق والجبل والحجاز وسمع بخراسان من علماء عصره ، وكانت له التصانيف العديدة ، وهو

أول من جمع نُصُوصَ الإمام الشافعي رحمه الله في عشر مجلدات ، وكانت أشهر مصنفاته السنن الكبرى والسنن الصغرى ودلائل النبوة والسنن والآثار وشعب الإيمان ومناقب الشافعي المطلبي ومناقب الإمام أحمد إلى غير ذلك .

وكان البيهقي قانعا بالقليل من الدنيا رحمه الله وكان على سيرة السلف وطلب إلى نيسابور لنشر العلم فأجاب وانتقل إليها وأخذ عنه الحديث من السلف جماعة وتوفي رحمه الله عاشر جمادي الأولى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة بنيسابور ونقل إلى بيهق على عشرين فرسخاً من نيسابور و« الله تعالى أعلم » .

[فالعِلْمُ في الدُّنيا وفى الأخْرَى له   فَضْلٌ فَبَشِّرْ حِزْبَهُ شَرًّا وُقِي]

أَمَّا فى الدنيا فقد قال ﷺ : إن الحكمة تزيد الشريف شَرَفاً وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك أو كما قال ﷺ ، وقال سالم بن أبي الجعد : اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني فقلت بأي شيء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم فما تمت لى سنة حتى أتاني أمير البلد زائراً فلم آذن له .

وأما فى الآخرة ، فقد قال ﷺ : يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ، عزاه فى الأصل للإحياء للغزالي .

[وَاعْنَ بِقَوْلِ الشِّعْرِ فالشِّعْرُ كَمَا   لٌ لِلْفَتَى إنْ بِهِ لَمْ يَرْتَزِقِ]
[والشِّعْرُ لِلْمَجْدِ نِجَادُ سَيْفِه   وَلِلْعُلَى كالعِقْدِ فَوْقَ العُنُقِ]

واعْنَ : أمرٌ من عنيت بأمره إذا اعتنيت به ، والأكثر عُنيت به مبنياً للمفعول والأمر منه لِتُعْنَ بحاجتي باللام ، والمجد : الشرف ، ونِجَادُ السيف حمائله ، والعُلَى بالضم والقصر ، الشرفُ أيضا وهو جمع عليا كأنه وصف للمرتبة ثم كثر حتى استعمل استعمال الأسماء ، والعِقْدُ القلادة التى تُجْعَلُ فى العنق ، والله أعلم .

ومعنى البيتين أمران : أحدهما أن قول الشعر كمال للفتى إذا كان ذلك منه تأدُّباً لاتكسُّباً ، والثانى أن المجد والشرف للإنسان مثل السيف الذى يصول به على

الأعداء والشعر بمنزلة علاقة ذلك السيف ؛ وقد صدق فيما ذكره في الأمر الأول لأن الشاعر إذا كان مكتسباً بشعره فهو آكل للسُّحت لا محالة لأنه يمدح ويقدح تبعا لهواه ، وقد قال ﷺ : « شر الناس من أكرمه الناس اتقاء شر لسانه » ؛ وفي الحكم : لا تؤاخ شاعراً فإنه يمدحك بثمن ويهجوك مجاناً .

ولما حبس عمر الحطيئة بسبب الزبرقان بن بدر ثم أراد تسريحه قال له : إياك والشعر ، فأخرج الحطيئة لسانه وقال : والله ما لأولادي كاسب غيره ، قال عمر رضي الله عنه : فلا تهجهم ، فقال الحطيئة : إن لم أهجهم لم يَفرقوني فلا يعطوني ، قال عمر رضي الله عنه ، فاذهب فبئس الكسب كسبك .

وقال بعضهم :

الكلب والشاعر في منزل فليت أني لم أكن شاعرا
هل هو إلا باسطٌ كفَّه يستطعمُ الواردَ والصَّادرا

وقال آخر :

لا تحسبنَّ الشعر فضلاً بارعاً ما الشعر إلا هُجنةٌ وخَبالُ
الهَجْوُ قَذْفٌ والرِّثاءُ نياحَةٌ والعَتْبُ ضِغْنٌ والمديحُ سُؤالُ

وقد علمت أن هذا الذم منزل على حالة مخصوصة فلا ينافي ما يأتي من فضله إذا حصلت السلامة من آفاته .

وأما الأمر الثاني مما تضمنه بيت الناظم بقوله : والشعر للمجد نجاد سيفه ... البيت فهو مأخوذ من قول المعري :

أرى المجدَ سيفاً والقريضَ نجادهُ ولولا نِجَادُ السَّيفِ لم يُتقلَّدِ
وخَيرُ حمالاتِ السُّيوف حِمالةٌ تَحلَّتْ بأبْكار الثَّناءِ المُخلَّدِ

وفي معناه قال أبو تمام :

ولولا خِصالٌ سنَّها الشِّعْرُ مادرى بُغَاةُ العُلَى مِن أين تؤتَى المكارِمُ

[فَقُلْهُ غَيْرَ مُكْثِرٍ مِنْـهُ وَلَا تَعْبَأْ بِقَوْلِ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقِ]
[وَإِنْ تكُن مُنْهُ عَديِمَ فِكرَةٍ فَاعْنَ بِجَمْعِ شَمْلِهِ المُفْتَرِقِ]

ومراد الناظم والله تعالى أعلم ، إن لم يكن الشعر يشغلك عن القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية ولم يكن الغالب عليك فلا يضرك حفظ اليسير منه ، وبه أفتى النووى رحمه الله .

أما إذا كان الشعر الغالب على أوقات المرء بحيث إنه يشغله عن القرآن والحديث والعلوم الشرعية فإن رسول الله ﷺ صح عنه قوله : لأَنْ يمتلىء جَوفُ ابن آدم قَيحا يَريه خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً » . قال النووى : يَرِيهِ بفتح الياء وكسر الراء من الورى وهو داء يفسد الجوف ، فمعناه إذاً قيحا يأكل جوفه ويفسده ، « والله تعالى أعلم » .

واعلم أن الشعر كلام حسنُه حسنٌ وقبيحة قبيحٌ ، فقد سمع النبى ﷺ الشعر واستنشده وأمر به حسان رضى الله عنه فى هجاء المشركين وأنشده أصحابُه بحضرته فى الأسفار وغيرها ، وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفُحشُ ونحوه ، — وقوله : [بشمله المفترق] يحتمل أحد أمرين :

الأول : أن يحفظ مختاره من شعر فحول الشعراء المبرزين فى الصناعة كشعر امرىء القيس والنابغة وزهير بن أبى سلمى ولبيد من شعراء العرب أهل السليقة وكشعر البُحْتري والمتنبىِّ وكثير وأبى تمام من بلغاء المولدين .

ويُحكى عن الخوارزمي قوله : من روى حوليات زهير ، واعتذارات النابغة ، وأهاجي الحطيئة ، وهاشميات الكميت ، ونقائض جرير والفرزدق ، وخمريات أبى نواس ، وزهديات أبى العتاهية ، ومراثى أبى تمام ، ومدائح البحترى وتشبيهات ابن المعتز ، وروضيات الصنوبرى ، ولطائف كُشاجم ، وقلائد المتنبى ، ثم لم يتخرج فى الشعر فلا أثبت الله قدمه فيه .

والثاني : أن المراد بشمله آلته التي يتأتى بها نظمه كعلوم اللغة ، ولابد مع ذلك من حفظ الجيد منه والنقي وإلا فعلوم اللغة ،وحدها لاتكفي في التخرج فيه ، وقد قال بعضهم في التنبيه على تحصيل آلته :

وما الطبعُ مُغْنٍ وحده في نظامه ولا العلم عن حد الطباع بنائب
إذا لم تكن مجموعة أدواتُه فأحسن مبناهُ كنسج العناكبِ

وقال آخر

وأرى القوافىَ لا تصير مطيعةً إلا على المثْرينَ من أدَوَاتِهَا
والطبْعُ ليس بمقْنِع إلّا إذا حَصَلَتْ إضَافتُه إلى آلاتها

[مَا عَابَهُ إِلَّا عَيِيٌّ مُفْحَمٌ لِعَرْفِهِ الذَّكِيِّ لَمْ يَسْتَنْشِقِ]
[كَمْ حَاجَةٍ يَسَّرَهَا وَكَمْ قَضَى بِفَكٍّ عَانٍ وَأَسِيرٍ مُوثَقِ]

العِيُّ بالكسر خلاف البيان والفصاحة وقد عَيِيَ في منطقه كرضي ، وعَيَّ بالإدغام فهو عَيٌّ كحَيّ فهو حَيٌّ ، وفي المثل : أعيى من باقل وهو رجل له قصة مشهورة .

قلت : هذه القصة ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين ، قال : إن باقلاً هذا اشترى غزالاً وحشياً من السوق وجاء يقوده فلقيه رجل سأله بكم اشتراه فلم يستطع لعيه أن يعبر له بأنه اشتراه بأحد عشر درهما حتى مد أصابع يديه ومد لسانه فشرد الغزال والله أعلم بصحة ذلك ا. هـ وأما في السير فيقال أعيى إعياءً رباعيا .

لطيفة : لهذا الفعل اللغوي حكاية لها مساس بتاريخ النحو ، فقد كان السبب الفعلي في اعتناء الإمام الكسائي بالنحو ، ذلك أنَهُ يحكى أنه مشى يوماً حتى أعيا فجلس فقال قد عَييتُ ، فقيل له لحَنْتَ ، قال كيف ؟ قيل إن كنت أردت التعب فقل أعْيَيْتُ وإن كنت أردت انقطاع الحيلة فقل عييت ، فأنِفَ من قولهم لحنت واشتغل بالنحو حتى صار إمام وقته فيه .

وتُشْبِهُ هذه الحكاية ماذكره ابن هشام فى مبحث « ليس » من مغنى اللبيب وأنها قد تكون حرف استثناء ، قال : هذه المسألة كانت سبب قراءة سيبويه النحو وذلك أنه جاء إلى حماد بن سلمة لدراسة الحديث فاستملى منه قوله ﷺ : ليس من أصحابى إلا لو شئت أخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه ليس أبو الدرداء ، فصاح به حماد لحنت ياسيبويه إنما هذا استثناء ، فقال والله لأطلبنَّ علماً لايلحنني معه أحد ثم مضى ولزم الخليل وغيره ا. هـ .

والمُفْحَمُ كمكرم العيي ومن لا يقدر أن يقول شعراً ، وأفحمه الهم : منعه قول الشعر ، وهاجاه فأفحمه صادفه مفحما ، قال عمرو بن معد يكرب : لله بنو مجاشع ماأشد فى الحرب لقاءها وأجزل عطاءها ، وأحسن فى المكرمات ثناءَها ، لقد قاتلتها فما أفللتُها ، وسألتُها فما أبخلتُها ، وهاجيتُها فما أفحمتُها أى لم أصادفهم على حالة من الحالات المذكورة .

والْعَرْفُ : الريح طيبةً كانت أو منتنة وأكثر استعماله فى الطيبة كما استعمل هنا ، والذكيُّ كغني السَّاطع الريح من ذكت النار تذكو إذا اشتد لهبها فهى ذكية ، واستنشاق الريح شمها واستنشاق الماء جذبه بالنفس إلى المنخرين ، وعنا فلان عُنُوا من باب قعد أى خضع وذلَّ ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَعَنَتِ الْوُجُوه لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ** ﴾[1] .

وعَنيَ كرضي إذا نَشَبَ فى الإسار فهو عَانٍ والجمع عُنَاةٌ للذكور وعَوانٍ للنساء وفى الحديث : « **الله الله فى النساء فإنهنَّ عوانٍ فى أيديكم أخذتموهنَّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله** » .

والأسير فعيل بمعنى مفعول من الأسر وهو الشَّدُّ المحكم

ومغزى البيتين أنه لا يعيب الشعر إلا من لا قدرةَ له عليه وحُرِمَ فضيلته ، وقد جرت عادة الله فى خلقه أن كل من جهل صناعة من الصناعات أنكر فضيلتها

---

(١) طه الآيه (١١١)

أو كاد ، فإن الناس أعداء ماجهلوا ، وفى المثل « من جهل شيئا عاداه » وقال تعالى : ﴿ وإذْ لم يَهْتَدوا به فسيقولون هذا إفْكٌ قَديم ﴾[1] .

وقوله : كم حاجة يسرها ، يؤيده ماروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من أفضل ما أعطيته العرب الأبيات يقدمها الرجل أمام حاجته فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم ، ا. هـ .

[وَكَمْ أديب عَادَ كالنُّطْفِ غِنًى وكَانَ افْقَرَ مِن الْمُذَلَّقِ]

معنى البيت كم أديب أثرى بعد فقره بأبياته وفِقَرِه ، واستبدل الراحة والنعمة ببؤسه وضرره ، بل كانت معيشة الأدباء فى الصدر الأول من جوائز الخلفاء وكانت بضاعتهم الأدبية أنفق بضاعة .

ذكر النطف والمذلق

أمّا النطفُ فقد اخْتُلِفَ فيه والتحقيق إن شاء الله أنه النَّطِفُ بن خيبري بن حنظلة اليربوعي وكان مقيماً فى قومه من بنى تميم فى البادية وكان باذان عامل كسرى على اليمن يحمل مالاً عظيماً ويرسله إلى كسرى فأرسل فى بعض السنين عيراً تحمل شيئا كثيراً من ذلك مع قوم من بنى الجَعيد المراديين فلما توسطوا بلاد بنى يربوع أغاروا عليها وقتلوا خفراء العرب وأساورة الفرس وكان فيمن فعل ذلك ناجية بن عقال جد الفرزدق وعتبة بن الحرث بن شهاب وقعنب بن عتاب الرياحى والنطف بن خيبرى وغيرهم من فرسان تميم فنهبوا ذلك المال فحصل النطف على شيء كثير منه فأثرى وضرب الناس المثل بما أصاب فقيل أهنأ من كنز النطف ، ويُحْكَى أنه جلس يوماً يعطى الفقراء من قومه منذ طلعت الشمس إلى أن غربت ، وفى ذلك يقول بعض ولده :

أبى النطف المبارى الشمس إنى عريق فى السماحة والمعالى

---

(١) الأحقاف الآية (١١)

وأما المذلق : فَهوُ رجل يضرب به المثل فى الفقر يقال : أفلس من المذلق ، يروى بالذال المعجمة والدال المهملة وهو من عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم لم يكن يجد بيت ليلة وكان أبوه وأجداده يعرفون بالفقر والإفلاس وفى أبيه يقول الشاعر :

فإنك إن ترجو تميماً ونفعها كراجي الندي والعُرف عند المذلق

[وَكَمْ حَدِيثٍ جَاءَنَا عَن فَضْلِهِ عَنْ سَيِّدٍ عَنِ الهَوىٰ لَمْ يَنْطِقِ]
[وَقَدْ تَمثَّلَ بِهِ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْمَعُهُ فى الحِلَقِ]

الحلق بفتح الحاء وكسرها جمع حلقة وهم القوم يجتمعون مستديرين لأجل أخذ العلم وكذلك كانت حال أصحابه صلى الله عليه وسلم .

يروى عن الشعبى رحمه الله قوله إن أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ كان يقول الشعر وأن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ كان يقول الشعر أيضاً وأن علياً ــ رضي الله عنه ــ كان أشعر منهما ، ويروى عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أنه كان يُنشد الشعر ويستنشده فى المسجد فقد استنشد عمر بن أبي ربيعة المخزومي قصيدته التى يقول فيها :

أمِنْ آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجِّر

فأنشده إياها إلى آخرها وهى قريب من تسعين بيتاً ثم أعادها ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ عن ظهر قلب بحكاية واحدة ، وكانت عائشة ــ رضي الله عنها ــ من رواة الشعر ، روي عنها أنها قالت رويت للبيد اثنى عشر ألف بيت خلاف ما رويت لغيره .

قلت : وقد نوه عن ذلك العلامة الشنقيطي ثم المجلسي الشيخ أحمد البدوي فى عمود النسب فى ذكر لبيد ــ رضي الله عنه ــ ، قال :

منه لبيد بن ربيعة الأبى فاز بصحبة وفضل أدَب

روت له من الألوف اثنى عشر عائشة وكل شعـــــره دُرَرْ

واعلم أن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أبلغ وأكثر مما تكلمت به من لوم ومع ذلك لم يحفظ من المنثور عشره ولم يضع من المنظوم عشره فكان للشعر بهذا فضل على النثر زيادة على ما روي فى فضله من الأحاديث والآثار ، والحاصل أن الشعر كلام كالنثر جيده جيد وقبيحه قبيح فهو كالنثر غير أنه تستحسن فيه أشياء لا تستحسن فى النثر ، فالكذبُ وقع الإجماع على حرمته ، وأجود الشعر أكذبه ، والشاعر يزكى نفسه ويمدحها إلى غير ذلك مما يستقبح فى النثر ويقبل فى الشعر .

وأما قول الناظم : وقد تمثل به ، فإنه يرمي به إلى حديث الصحيحين عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، « ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل » وفيهما أيضاً : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت أصبعه فقال : هل أنت إلا أصبُعٍ دَميت .. وفى سبيل الله ما لُقِّيتِ .

قال القسطلاني : الصحيح أنه يجوز للنبى صلى الله عليه وسلم أن يتمثل بالشعر وينشده حاكياً له عن غيره ، وذكر الخازن فى تفسيره أن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت إن النبي صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت طرفة .

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزود

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار فقال أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ ليس هكذا يارسول الله فقال إنى لست بشاعر ولا ينبغي لي .

وأما قول الناظم : وكان من أصحابه يسمعه فى الحلق ، فهو أمر معلوم فقد كان يسمعه من حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير وغيرهم ، وكان يسمعه من شعراء العرب الذين كانوا يفدون عليه وربما

أثابهم على ذلك وربما استحسنه واستزادهم منه ، وعن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة المكرمة فى عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه يَرتجز :

خلوا بني الكفار عن سبيلِهِ اليوم نَضرِبْكم على تنزيلهِ
ضرباً يزيل الهام عن مقيلهِ ويذهل الخليل عن خليلهِ

فقال عمر يا ابن رواحة ! بين يدي رسول الله وفى حرم الله تقول الشعر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « خَلِّ عنه ياعمر فلهي فيهم أسرع من وقع النَّبْلِ » ، أخرجه الترمذي والنسائي .

[وَقَدْ بَنَى المِنْبَرَ لابْنِ ثَابِتٍ فَكَانَ للإِنْشَادِ فِيهِ يَرْتَقِي]

ألفاظ البيت واضحة .

ذِكْر حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ

هو أبو الوليد وقيل أبو الحُسام حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو ابن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجي النجاري الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ كان يُدْعَى شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعن أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ فى وصف رسول الله عليه الصلاة والسلام أنها قالت : كان والله كما قال شاعره حسَّان بن ثابت :

مَتَى يَبْدُ فى الدَّاجِ البَهيم جبينه يَلُحْ مِثْلَ مصباح الدُّجىَ المتوقِّدِ
فمن كان أو قد يكونُ كأحمدٍ نظاماً لحق أو نكالاً لِمُلْحِدِ ؟؟

وذكر ابن عبد البر عن جماعة من السلف أن الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش هم : عبد الله بن الزِّبَعْري وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب وكلهم أسلم ، فقال قائل لعلي ــ رضي الله عنه ــ : اهج عنا القوم ، فقال إن أذِنَ لي رسول الله

صلى الله عليه وسلم فعلت ، فقالوا يارسول الله ايذن له ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن علياً ليس هنالك ، ثم قال : ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال والله ما يسرنى به مقول بين بُصرى وصنعاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمى ؟ فقال والله لأسُلَّنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، فقال له ايت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك ، ففعل فلما سمعت قريش شعر حسان قالت إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة .

ومن شعر حسان فى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قوله :

ألا أبلغ أبا سفيان أنَّ مُحمَّداً	هو الغُصْنُ ذو الأفنان لا الواحدُ الفرْدُ
وأنَّ سنَامَ المجد مِنْ آلِ هاشمٍ	بنو بنت مخزوم ووالدك العَبْدُ
ومن ولدت أبناء زهرة منهم	كرامٌ ولم يقْرُبْ عجائزك المجدُ
ولست كعبَّاس ولا كابن أمِّه	ولكن لئيم لا ينورُ له زندُ
وإن امرأً كانت سمية أمُّهُ	وسَمْراءُ مغلوبٌ إذا بَلَغَ الجهدُ
وأنت هجِينٌ نيط فى آل هاشم	كما نيط خلف الراكب القدح الفَرْدُ

قال ابن عبد البر : يعنى بقوله : بنت مخزوم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهى أم أبى طالب وعبد الله والزبير بني عبد المطلب ، وقوله : ومن ولدت أبناء زهرة ، يعنى به حمزة وصفية أمهما هالة بنت وُهيب بن عبد مناف بن زهرة وأما عباس وابن أمه ضرار بن عبد المطلب فإن أمهما نُتيلة امرأة من النمر بن قاسط وأما سمية فهي أم أبي سفيان بن الحارث وأما سمراء فهى أم أبيه الحارث بن عبد المطلب .

قلت : وقد ذكر فى عمود النسب حسان بن ثابت — رضى الله عنه — ، حيث يقول العلامة الشنقيطى الشيخ أحمد البدوى المجلسى :

مِن مالك أيضاً أبَيُّ القَارِى أوْسٌ وحَسَّانُ أخوهُ الدَّارى
عن النبيِّ باللِّسانِ اللَّقلقِى بمَدْحِ أفْضَل الأنامِ مُفْلِق
وهو إلى أرْنَبَةٍ يَمُدُّهُ وجَبْرائيل تَارَةً يُمِدُّهُ

وذكر المبرد أن أعرق قوم فى الشعر آل حسَّان فإنهم كانوا يعدون ستة فى نسق كلهم شاعر وهم : سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام .

وعاش حسان ــ رضى الله عنه ــ مائة وعشرين عاماً ، ستون منها فى الجاهلية وستون فى الإسلام .

نادرة : ذكر ابن مندة وابن سعد أن حسان وأباه وجده وأبا جده كلهم عاش مائة وعشرين عاماً ولم يعرف فى العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد اتفقت مدة أعمارهم مائة وعشرين عاماً غيرهم .

وتوفي ــ رضي الله عنه ــ سنة خمسين من الهجرة وقيل : سنة أربع وخمسين والله تعالى أعلم .

[وقال لابنِ أهْتَمٍ فِي مَدْحِه وذمه لِلزِّبرقَانِ الاسمق]
[مَقَالَةً خَتَمَهَا بِقوْلِهِ إنَّ مِنَ الشِّعْر لَحِكْمَةً تَقِي]

الأسمق من سمق سموقاً إذا علا وطال والمراد هنا علو المنزلة « والله أعلم » .

ذكر ابن أهتم والزِّبرقان وما جرى بينهما

أما ابن الأهتم فهو أبو ربعي عمرو بن الأهتم بن خالد بن منقر بن عبيد بن الحرث وهو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي المنقري ، والأهتم بمثناة من فوق هو سنان وإنما سمي أهتماً لأن قيس بن عاصم المنقري ضربه بقوس فهتم ثناياه وقيل بل اهتتم يوم الكُلاب .

وكان عمرو هذا من أكابر تميم وساداتها وكان بليغاً طلق العبارة وكان شعره يعتبر حُللاً مُنَشَّرةً ، ومن شعره :

وكل كريم يتقي الذم بالقرى   وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها   ولكن أخلاق الرجال تَضيق

وأما الزبرقان بن بدر فهو أبو شذرة الزبرقان بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بَهْدَلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي السعدي البهدلي أحد سادات بني تميم وشعرائهم المشهورين ، والزبرقان في اللغة من أسماء القمر فسمي به لجماله وقيل غير ذلك ، وفيه يقول الشاعر وهو من النمر بن قاسط :

تقول حليلتي لما اشتكينا   سيدركنا بنو القرم الهجان
سيدركنا بنو القمر بن بدر   سراج الليل للشمس الحصان
فقلت ادْعي وأدعو إنَّ أندى   لصوت أن ينادي داعيان
فمن يك سائلاً عنى فإنِّي   أنا النَّمرِيُّ جارُ الزبرقان

وأما ما جري بينهما بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال ابن عبد البر أن عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر قدما على النبي صلى الله عليه وسلم وافدين في وجوه قومهما من بني تميم فأسلموا وذلك سنة تسع من الهجرة ، وروى البيهقي وغيره عن ابن عباس قال جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم فقال الزبرقان يارسول الله أنا سيد بني تميم والمطاع فيهم والمُحبَّبُ لديهم أمنعهم من الظلم وآخذ لهم حقوقهم وهذا يعلم ذلك يعني عمرو بن الأهتم فقال عمرو إنه لشديد العارضة مانع لجانبه مطاع في أدنيه ، فقال الزبرقان : والله لقد علم مني أكثر مما قال ومامنعه إلا الحسد ، فقال عمروٌ أنا أحسدك فو الله إنك للئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الوالد مُضيَّعٌ في العشيرة ، والله يارسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الأخرى ، ولكنني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت وإذا غضبت قلت أقبح ماوجدت ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعاً فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ من البيان لسحراً » .

ولقد ذكر القصة الميداني وابن الأثير وغيرهما بألفاظ متقاربة ولم يذكروا أنه صلى الله عليه وسلم قال إن من الشعر لحكمة كما ذكر الناظم ، مع أنه لا يلائم القصة لأن ابن الأهتم لم يصدر منه شعر .

ولكن البخاري وأبا داود وابن ماجة فى الأدب أخرجوا عن أبي بن كعب — رضي الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشعر حكمة » أى قولاً صادقاً مطابقاً للحق ، وقيل كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه ، وذلك يتفق مع قول الناظم « لحكمة تقي » أي تحفظ من الجهل والسفة .

يُحْكَى : أن الأحنف بن قيس وعَمْرو بنَ الأهْتم وفدا على عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأراد أن يقرع بينهما فى الرئاسة فلما اجتمعت بنو تميم قال الأحنف ، وهي سقطة منه :

ثوى قدح عن قومه طول ما ثوى   فلما أتاهم قال قوموا ففاخروا

فقال عمرو إنا كنا وأنتم فى دار جاهلية وكان الفضل فيها لمن جهل فسفكنا دماءكم وسبينا نساءكم ونحن اليوم فى دار إسلام والفضل فيها لمن حَلُم ، فغفر الله لنا ولكم .

فَغُلِّبَ يومئذ عمرو على الأحنف ، ووقعت القرعة لآل الأهتم فقال عمرو :

ولما دعتنى للرئاسة منقـر   لدى مجلس أضحى به النجم باديا
شددت لها إزري وقد كنت قبلها   لأمثالها قدماً أشد إزاريـا

وكان رحمه الله يقول أشجع الناس من رد جهله بحلمه ، وكان من النفر الذين حرموا الخمر فى الجاهلية مثل قيس بن عاصم المنقري ، وتوفي — رضي الله عنه — سنة سبع وخمسين من الهجرة « والله تعالى أعلم » .

[وعِنْدَمَا سَمِعَ مِن قُتَيْلَـةٍ   رَثْيَ قَتيلهَا الَّذى لَـمْ يُعْتَقِ]
[رَدَّ لَهَا سَلَبَهُ وقَدْ بَكـى   شَفَقَـةً بِدمْعِـهِ المُنْطَلِـقِ]

معنى البيتين واضح لا إشكال فيه .

ذكر قتيلة ـ رضي الله عنه ـ ورثائها لقتيلها

قتيلة هذه هي بنت النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وكان من حديثها أن النضر هذا كان من أشد الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يؤذيه بمكة ويؤذي أصحابه صلى الله عليه وسلم فلما أكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر يوم بدر كان النضر هذا من بين الأسرى هو وعقبة بن أبي معيط فقتل النضر بالصفراء ، والنبي صلى الله عليه وسلم قافل إلى المدينة .

قلت : ذكر الواقدي في مغازيه أن النضر بن الحارث بن كلدة قتل بالأثيل على ثلاثة أميال من بدر وكذا قال ابن هشام ، والأبيات المنشودة في رثائه تشهد بصحة ذلك حيث قالت : ياراكباً إن الأثيل مظنة : إلخ . ولم تقل إن الصفراء .

ذكر الواقدي أن الرسول لما نزل بالأثيل بعد قفوله من بدر عرض عليه الأسرى فأحد النظر في النضر بن الحارث بن كلدة ، فقال النضر لابن عمه مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ يامصعب ما أرى صاحبك إلا قاتلي ، يامصعب كلم صاحبك يجعلني أسوة الأسرى إن قتلهم قتلني وإن منَّ عليهم مَنَّ عليّ ، قال مصعب : لست مثلهم كنت تقول في رسول الله كذا وفي كتاب الله كذا وكنت تفعل بأصحاب رسول الله كذا .

فقال النضر : يامصعب والله لو أسرتك قريش ما قتلتَ وأنا حي ، فقال مصعب : أظنك صادقاً ولكن لست مثلك قطع الإسلام العهود .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع عنقه فقتل والحمد لله .

وقتيلة هذه التى رثته هي أخته في قول ابن هشام وتبعه جمع كثير منهم النووى واليعمرى ، وقال الزبير بن بكار هي ابنته وتبعه ابن عبد البر والجوهري والذهبي وغيرهم ، قال السهيلي : وهو الصحيح ، فقد قالت في رثائها له :

ياراكباً إنَّ الأثيل مظنة | من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ به ميْتاً بأن تحيةً | ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليك وعبرة مسفوحةٌ | جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعنّي النضر إن ناديته | أم كيف يسمع ميِّتٌ لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه | لله أرحام هناك تشقَّق
صبراً يقاد إلى المنية مرغماً | رسف المقيد وهو عانٍ موثق
أمحمدٌ ياخير ضِنْءِ كريمةٍ | فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننتَ وربما | منَّ الفتى وهْوَ المغيظ المُحْنق
أو كنت قابل فدية فلنأتين | بأعز ما يغلو لديك وَيُنْفِقُ
فالنضر أقرب من أسرت قرابة | وأحقهم إن كان عِتقٌ يعتق

قال ابن عبد البر فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قولها بكى حتى أخضلت الدموع لحيته وقال لو بلغنى شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه ، ومعنى قوله لو شفعت عندي منه قبل موته لشفعتها .

قال الواقدي : أسلمت قتيلة يوم الفتح وقال الزبير : وكانت تحت عبد الله ابن الحارث بن أمية الأصغر رحمه الله .

وقول الناظم : « رد لها سلبه » قال أحمد بن خالد الناصري هنا فى الأصل : لم نر فى شيء مما وقفنا عليه من كتب الحديث والسير ما ذكره من أن النبي صلى الله عليه وسلم ردَّ لقتيلة سلب أبيها فالله أعلم .

[وَقَدْ حَبَا كَعْباً غَدَاةَ مَدْحِهِ | بِبُرْدَةٍ وَمِائَـةٍ مِن ايْنُـقِ]

البُرْدَةُ بالضم كساء أسود صغير مربع .

ذكر كعب بن زهير
ومدحه النبي صلى الله عليه وسلم

هو كعب بن زهير بن أبي سُلمى بالضم واسمه ربيعة بن رياح المزني الشاعر ، كان أبوه زهير من فحول الشعراء وكان عمر — رضي الله عنه — لا يقدم عليه أحداً ويقول أشعر الناس الذي يقول ومَنْ ومَنْ ، يشير إلى قوله فى معلقته المشهورة :

ومن يك ذا مال فيبخل بماله ... على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ
ومَن لم يزلْ يستحمل الناس نفسه ... ولا يُغْنِها يوماً من الدهر يُسْئَمِ
ومَن يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوّاً صَدِيقه ... ومَن لا يُكَرِّمْ نفسه لا يُكَرَّمِ

وكان من خبر كعب أنه خرج هو وأخوه بُجَيْر إلى موضع قال بُجَيْر لكعب لما وصلا اثبت هنا بالغنم حتى آتي هذا الرجل فأسمع كلامه يعني النبى صلى الله عليه وسلم فلما سمع بجير كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن به وجلس بالمدينة ، ولما اتصل خبر إسلام بجير بأخيه كعب أغضبه ذلك وقال :

ألا بلِّغا عني بجيراً رسالةً ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
سقاك بها المأمون كأساً روية ... فأنهلك المأمون منها وعلَّكا
ففارقت أسباب الهدى واتبعته ... على أي شيء ويْبَ نفسك دَلَّكا
على مذهب لم تلف أمّاً ولا أباً ... عليه ولم تعرفْ عليه أخاً لَكا
فإن أنت لم تفعلْ فَلَسْتُ بآسِفٍ ... ولا قائل إذا عثرت لعاً لَكا

وأرسل بها إلى بجير فلما وقف عليها أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع صلى الله عليه وسلم قوله سقاك بها المأمون قال « مأمون والله » ، وفى رواية ابن الأثير سقاك بها المأمور بالراء بدل النون ، ولما سمع قوله : على مذهب لم تلف أمّاً ... البيت قال أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه ، ثم إن النبي

صلى الله عليه وسلم قال : من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله ، وذلك انصرافه صلى الله عليه وسلم من الطائف سنة ثمان فكتب إليه أخوه بجير هذه الأبيات :

فمَن مُّبلغٌ كعبا فهل لك فى التي تلوم عليها باطلاً وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمُفلِتٍ من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير هو لا شيْ دينه ودين أبى سُلْمَى عليَّ مُحَرَّمُ

وكتب بعد هذه الأبيات أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمك وأنه قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وإن من بقي من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا في كل وجه وما أحسبك ناجياً فإن كان لك فى نفسك حاجة فطر إليه فإنه يقبل من أتاه تائباً وإن كنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض .

ولما وصل الكتاب إلى كعب أتى قبيلته مزينة لتجيره من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا ذلك عليه فضاقت عليه الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به أعداؤه فقالوا هو مقتول لا محالة ، فخرج يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة فغدا به إلى المسجد وأشار له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده فى يده وكان صلى الله عليه وسلم لا يعرفه ، فقال يارسول الله إن كعب بن زهير قد جاءك ليستأمنك على نفسه تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال نعم ! قال أنا يارسول الله كعب بن زهير ، فقال صلى الله عليه وسلم الذي تقول ما تقول ثم أقبل على أبى بكر فاستنشده فأنشده ــ رضي الله عنه ــ : سقاك بها المأمور كأساً روية ، بالراء وكانت العرب تسمى من تأتيه الجن مأموراً ، فقال كعب لم أقل هكذا وإنما قلت :

سقاك أبو بكر بكأس روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مأمون والله .

وذكر ابن إسحاق أن رجلاً من الأنصار وثب عليه وقال يارسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعه عنك فقد جاء تائباً نازعاً ، قال فغضب كعب لذلك السبب على الأنصار ، ثم أنشد قصيدته اللامية التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيّم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يُشتكى قِصَرٌ منها ولا طول

إلى أن قال :

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرت فيَّ الأقاويل

وفيها قوله :

إن الرسول لنورٌ يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

وفي الروض أنه لما قال هذا البيت نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه كالمُعَجِّبِ لهم من حسن القول وجودة الشعر ، وروى الحاكم أن كعباً أنشده من سيوف الهند فقال صلى الله عليه وسلم من سيوف الله ، وعند ابن الأنباري أنه لما وصل هذا البيت رمى عليه النبى صلى الله عليه وسلم بردة كانت عليه وأن معاوية ــ رضي الله عنه ــ بذل فيها لكعب عشرة آلاف درهم فامتنع وقال ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً ، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألف درهم فأخذها منهم بها ا هـ .

ولما ختم كعب القصيدة مدح قريشاً وعرض بالأنصار قائلاً :

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فمازال أنكاسٌ ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرَّد السودُ التنابيلُ

قال ابن هشام : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له بعد ذلك ألا ذكرت الأنصار بخير فإن الأنصار لذلك أهلٌ فقال أبيات منها قوله :

من سره كرم الحياة فلا يزل في منقب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار هُمُ بنو الخيار

[وبشَّرَ الْجَعْدِيَ وابْنَ ثابتٍ بِجَنَّةٍ جَزَاءَ شِعْرٍ عُسنُقِ]

العُسنُق كقنفذ التام الحسن « والله أعلم » .

وقوله وبشر الجعدي إلخ ، يرمي به إلى ما ذكره ابن عبد البر قال : وفد النابغة الجعدي على النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً وأنشده فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم فكان من أول ما أنشده قوله :

أتينا رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيراً

وعن النابغة الجعدي — رضي الله عنه — قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشدته قولي :

وإنا لقومٌ ما نعود خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وننكر يوم الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى نحسب الجون أشقراً
وليس بمعروف لنا أن نردَّها صحاحاً ولا مستنكراً أن تُعَقَّرا
بلغنا السماء مجدُنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقلت إلى الجنة قال نعم إن شاء الله ، فأنشدته قولي :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال صلى الله عليه وسلم : أجدت لا يفضض الله فاك ، قالوا : فكان من أحسن الناس ثغراً وكان كلما سقطت له سن نبتت له أخرى ا هـ .

وأما تبشير النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت بالجنة فإنه لما أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته الهمزية التي أجاب بها أبا سفيان بن الحارث وانتهى فيها إلى قوله :

هجوت محمداً وأجبت عنهُ وعند الله في ذاك الجزاء

قال له النبي صلى الله عليه وسلم جزاؤك الجنة ياحسان ، فلما بلغ قوله :

أتهجوه ولست له بكفؤ فشركما لخيركما الفداء

قال من حضر هذا أنصف بيت قالته العرب ، فلما قال :

فإن أبي ووالده وعِرْضي لعِرْضِ محمد منكم وقاء

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : وقاك الله حر النار ياحَسَّان .

ذكر النابغة الجعدي

أما النابغة الجعدي فهو أبو ليلى النابغة واختلف في اسمه فقيل حيان وقيل قيس ابن عبد الله بن عمرو بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة العامري الجعدي ، وإنما قيل له النابغة فيما يقولون لأنه قال الشعر في الجاهلية ثم أقام مدة ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فيه بعدُ فقاله فقيل النابغة ، وكان شاعراً فحلاً وهو أسنُّ من النابغة الذبياني بدلالة أن النابغة الذبياني كان نديم النعمان بن المنذر والجعدي أدرك المنذر بن محرق ونادمه ومعلوم أن ذلك كان قبل النعمان بن المنذر ، وشاهد منادمته للمنذر بن محرق قوله :

تذكرت والذكرى تهيج للفتى ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

ندامای عند المنذر بن محرق أری الیوم منهم ظاهر الأرض مقفرا

وعُمِّر النابغة الجعدي مائتين وعشرين عاماً وأدرك الإسلام وحسن إسلامه ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاش بعد ذلك حتى أدرك زمن ابن الزبير فقدم عليه ومدحه ثم تأخر عمره حتى هاجى أوس بن مغرى بحضرة الأخطل والعجّاج وليلى الأخيلية وغيرهم .

قالوا وكان النابغة الجعدي يذكر فى الجاهلية دين إبراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر فيما ذكروه وأنكر الخمر وهجر الأزلام والأوثان ، ومن شعره فى الجاهلية قوله :

الحمــــــد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلَمَا

وقد ذكرنا فيما تقدم وفادته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعره بين يديه ودعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له . وبالله تعالى التوفيق .

[كَمْ خَامِلٍ سما به إلى العُلا بَيْتُ مديح من بَليغ ذَلِقِ]
[مِثْلُ بنى الأنف ومِثْل هَرِمٍ وَكالّـذي يُعْرَفُ بالمُحلَّـــقِ]

السمو العلو ، والذلق ككتف ويقال ذليق فصيح حديد اللّسَان ، وباقي معنى البيت واضح لا إشكال فيه .

ذكر بنى أنف الناقة

بنو أنف الناقة هم بنو جعفر بن قُريع بالتصغير بن عوف بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم وسبب جريان هذا اللقب عليه أن أباه قُريعاً نحرناقة فقسمها بين نسائه فبعثت جعفر هذا أمّهُ وهى الشموس الهذيْمية إلى أبيه تسأله حظها من اللحم ولم يجد عنده غير رأس الناقة وعنقها فقال له : شأنك بهذا ، فأدخل جعفر يده فى أنف الناقة وجعل يجره إلى أمه والناس يضحكون منه فلقب بأنف الناقة ، فكان جعفر يُسَبُّ بها ، وبقي هذا اللقب سبة فى عقبه فكان الواحد منهم إذا سئل

عن نسبه ينتسب إلى جده قُريع بن عوف ويتجاوز النسبة إلى جعفر فراراً من اللقب ، فبقوا على ذلك إلى أن مدحهم الحطيئة فأزال ذلك العار عنهم .

وكان من حديث ذلك أن الزبرقان بن بدر التميمى المتقدم الذكر كان قد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فولاه على قومه ثم أقره على ذلك أبو بكر وعمر — رضي الله عنهما — فقدم فى سنة مجدبة على عمر ليؤدي إليه صدقة قومه فلقيه الحطيئة بقرقري ومعه زوجته وولده ذكوراً وإناثاً فقال له الزبرقان وقد عرفه : إلى أين تُريد ؟ فقال إلى العراق وقد حطمتنا هذه السنة ، قال فتصنع ماذا ؟ قال وددت أن أصادف بها رجلاً يكفيني مئونة عيالى وأصفيه مدحى أبداً فقال له الزبرقان قد أصبته ، فهل لك فيمن يوسعك لبناً وتمراً ويجاورك أحسن جوار وأكرمه ؟ فقال الحطئية : فهذا وأبيك العيش وماكنت أرجو هذا كله ، قال قد أصبته ، قال وأين ؟ قال عندي ، قال ومن أنت ؟ قال : الزبرقان بن بدر قال : وأين محلك ؟ قال : اركب هذه الناقة واستقبل مطلع الشمس وسل عن القمر بن القمر حتى تأتي منزلي ، وكتب الزبرقان إلى زوجته أن أحسني إليه وأكثري له من التمر واللبن ، وهي بنت صعصعة بن ناجية المجاشعي ، فأكرمت المرأة مثواه ، فبلغ ذلك بني جعفر أنف الناقة بن قُريع فحسدوا الزبرقان عليه فدسُّوا إلى الحطيئة أن تحول إلينا نعطك مائة ناقة ونشد كل طنب من أطناب بيتك بحلة نفيسة ، قال وأنى لي ذلك ؟ قالوا إنهم يريدون النجعة فتخلف عنهم ، ودسُّوا إلى امرأة الزبرقان من يقول لها إن الزبرقان إنما قدم أمامه هذا الشيخ ليتزوج ابنته وكانت ذات جمال ، فصدقت المرأة وظهر منها للحطيئة جفوة وهي مع ذلك تداريه ، فلما احتمل القوم تخلف الحطيئة عنهم فاحتمله الفريعيون فوفوا له بما وعدوه وربطوا له بكل طنب من أطناب قبته حلة هجرية فلما قدم الزبرقان سأل عنه فأخبر بقصته فنادى فى قومه وجاء إلى بني قُرَيْع فقال ردُّوا علىَ جاري ، فقالوا ليس لك بجار وقد طرحته فاستعدى عليهم عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فحكم أن يخرج الحطيئة وينزل بمنزل بين الحيَّين ويُخَلَّى سبيله فيكون جار أيهما شاء ففعل به

ذلك فاختار الفريعيين وجعل الحطيئة يمدحهم من غير أن يهجوَ الزبرقان وهم يحرضونه على ذلك فيأبى ويقول لا ذنب للرجل عندي ، فكان مما مدحهم به قصيدته التى يقول فيها :

قالت أمامة لا تَجْزَعْ فقلت لها ... إن العزاء وإن الصبر قد غلبا
سيرى أمام فإنَّ الأكثرين حصىً ... والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم ... شدُّوا العناج وشدُّوا فوقه الكربا
قومٌ هم الأنف والأذناب غيرهم ... مَن ذا يُسَوِّي بأنْفِ النَّاقة الذَّنَبا

فصار هذا اللقب مدحاً لهم وفخراً بعد أن كان ضَعَةً وذماً فصاروا يفتخرون به ويقولون نحن بنو الأنف ، ثم عَرَّض بالزبرقان ورهطه بقوله :

ما نقموا من بغيضٍ لا أبا لَهُمُ ... فى بائسٍ جاء يحدو أينقاً جُرُبَا
جاءت به من بلاد الطور تحمله ... حصباء لم تَتْرِكْ دون العصا شذبا

ثم مدحهم بقوله وهى من جيد شعره :

ألا طرقتنا بعدما هجعوا هند ... وقد جزنَ غوراً واستبان لنا نجد

إلى أن قال :

وإنَّ التي نكبتها عن معاشر ... عليَّ غِضَابٍ أن صددتُ كما صدُّوا
أَتَتْ آل شَمَّاسٍ بن لَايٍ وإنَّما ... أتاهم بها الأحلام والحسب الْعِدُّ
فإنَّ الشَّقِيَ مَنْ تُعادي صُدورهمْ ... وذو الجَدِّ من لانوا له ومَنْ وَدُّوا
يسوسون أحلاماً بعيداً أَنَاتُها ... فإن غَضبُوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ
أقلـوا عليهم لا أبـا لأبيكـمُ ... مِنَ اللوم أوسدُّوا كمثل الذي سدوا
أولئك قومٌ إنْ بَنَوا أحسنُوا البنا ... وإنْ عاهدوا أَوْفَوْا وإنْ عاهدوا شَدُّوا
وإن كانت النُّعْمَى عليهم جَزَوْا بها ... وإنْ أَنْعَمُوا لا كَدَّرُوهَا ولا كَدُّوا
وإن قال مولاهم على جَلِّ حَادِثٍ ... مِنَ الدَّهر رُدُّوا فَضْلَ أحْلامكم رَدُّوا
مَطَاعِينُ فى الهيجا مكاشيفُ للدُّجَا ... بنى لهم آباؤهم وبنى الجَدُّ .. الخ

وقال أيضاً وصرح فيها يهجو الزبرقان :

والله مامَعْشَرٌ لاموا امْرَأً جُنُبًا فى آلِ لاي بْن شَمَّاسٍ بأكياس
ماكان ذنب بغيضٍ لَا أبا لكمُ فى بَائسٍ جاء يحدُو آخر الناس
لقد مريتكم لو أنَّ درتَكم يَوْماً يجيءُ بها مدحي وإبْسَاسِي
لما بَدا ليَ منكمْ عَيْبُ أنْفسِكُمْ ولم يكن لجراحي منكم آسِى
أزْمعتُ يأساً مريحاً من نَوَالكمُ ولن ترى طارداً للحر كالْيَاسِ
جارٌ لِقَوْمٍ أطالوا هون منزله وغادروه مقيماً بين أرماسِ
مَلُّوا قِراهُ وهَرَّتْهُ كلابُهُـمُ وجرَّحــوه بأنيــابٍ وأضْراسِ
دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيتِها واقْعُدْ فإنَّك أنت الطاعم الكاسِي
مَنْ يَفْعَلِ الخَيرَ لا يَعْدِمْ جَوَازِيَهُ لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ الله والناس

فاشتكاه الزبرقان بن بدر إلى عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ وقال إنه هجاني ، فقال عمر : وماذا قال فى هجائِك ؟ قال : قال كذا ، وأنشده دع المكارم ... البيت ، فقال ما أسمع هجاءً ولكنها معاتبة ، فقال الزبرقان : أوماتبلغُ مروءتي إلا أنّي آكل وألبس ؟ فقال عمر : عَلَيَّ بحسان فجيءَ به فسأله عمر ـــ رضي الله عنه ـــ فقال لم يهجه ولكنه سلح عليه ، فأمر به عمر فجعل فى قعر بئر وألقى عليه شئ فجزع الحطيئة جزعاً شديداً وتضرع إلى عمر وقال شعراً يستعطفه به فلم يلتفت إليه عمر ثم شفع فيه عبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص وغيرهما فأخرجه فلما مثل بين يديه قال :

بسم الذى أنزلت من عنده السور والحمد لله أما بعد ياعمرُ
ماذا تقول بأفراخ بذى مرخ زُغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله ياعمرُ
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليدَ النهى البشرُ
فامنُنْ على صبيةٍ بالرمل مسكنهم بين الأباطح تغشاهم بها القِرَرُ

وفى بعض النسخ : تفشاهم بها القزر ، بزاى بدل الراء الأولى قال الدميري والقزر نوع من السماع ، وأما القرر جمع قرة وهى البرد .

أما أمير المؤمنين عمر ــ رضى الله عنه ــ فإنه قد بكى لقوله : ويقول عمرو ابن العاص لذلك ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أعدل من رجل يبكي على تركة الحطيئة .

ثم إن عمر ــ رضي الله عنه ــ أراد إرهاب الحطيئة فجعل يستشير قومه فيه ويقول ما أراني إلا قاطعاً لسانه إيتونى بطست إيتوني بسكين إيتوني بموسى فهو أحَدُّ ، فقالوا لا يعود يا أمير المؤمنين وأشاروا عليه أن قل لا أعودُ فقالها فقال له النجاء ، وقيل غير ذلك .

ذكر هرم

هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المرى كان من سادات بنى مُرة بن عوف ولكن أخاه خارجة بن سنان كان أسود منه وأشهر فى الناس فلما وقع لزهير بن أبي سلمى فى هرم ما وقع من المدح فاق خارجة بل لا يكاد يذكر معه ، ومن جيد شعره قوله فيه :

إنَّ الخليط أجَدَّ البين فانفرقا ... وعلق القلبُ من أسماء ماعلقا
وأخلفتك ابنت البكري ماوعدت ... فأصبح الحبل منها واهناً خلقا
قامت تراءىٰ بذي ضال لتحزنني ... ولامحالة أن يشتاق من عشقا

إلى أن قال :

بل اذكرن خير قيس كلها حسبا ... وخيرها نائلاً وخيرها خُلُقا
القائد الخيل منكوباً دوابرها ... قد احكمت حكمات القد والأبقا
يطلب شأو امرأين قدما حسبا ... نالا الملوك وبذّا هذه السوقا
هو الجوادُ فإن يلحق بشأويهما ... على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل ... فمثل ما قَدّما من صالح سبقا

أغَرُّ أبيض فياضٌ يفكُّكُ عن   أيدي العناة وعن أعناقها الرِّبَقا
فذاكَ أحزمهم رأياً إذا نبأ   من الحوادث غادى الناس أو طرقا
فضَلَ الجياد على الخيل البطاء فلا   يعطي بذلك ممنوناً ولا نزقا
وليس مانع ذي قُرْبَى وذي رحم   يوماً ولا معدماً من خابط ورقاً
قد جعل المبتغون الخير فى هرم   والسائلون إلىَ أبوابه طرقا
إنْ تلق يوماً على عِلَّاتِهِ هِرماً   تلقى السماحة منه والندى خُلقا
ليثٌ بِعَثَّرَ يصطاد الرجال إذا   ما كذب الليث عن أقرانِهِ صدقا
يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا   ضارب حتى إذا ما ضاربُوا اعْتَنَقَا
هذا وليس كمن يَعْيا بخطته   وسط النَّدِيِّ إذا ما ناطِقٌ نَطَقا
لو نال حَيٌّ من الدنيا بمنزلة   وُفْقَ السماء لنالت كفه الأفقا

ويروى أن عمر — رضى الله عنه — استنشدها كعب بن زهير فاستحسنها وقال : بماذا أجازكم ؟ قال بمائة ناقة وجبة بيعت بمائة ناقة وأقسم أن لا يسلم عليه زهير إلا أعطاه مائة ناقة ، فصار زهير لذلك إذا قدم مجلساً هو فيه يقول خوفاً من أن يحرجه : عموا صباحاً إلا هرماً وخيركم تركت .

ومن جيد شعره فيه وفى ابن عمه الحارث بن عوف بن أبى حارثة يذكر سعيهما فى صلح عبس وذبيان من حرب داحس والغبراء وتحملهما الحمالة فى ذلك قوله وهو من معلقته التى مطلعها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلَّم   بحومانة الدراج فالمتثلم

إلى أن قال :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما   تَبَزَّل ما بين العشيرة بالدَّم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله   رجال بنوه من قريشٍ وجُرْهُمِ
يميناً لنعم السيدان وُجدتُّما   على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما   تفانوا ودَقُّوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً   بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد وغيرها ومن يستبح كَنْزاً من المجد يَعْظُمِ
فأصبح يجري فيهم من تلادكم مغانم شتّى من إفال مُرَنَّمِ
تُعَفَّى الكلوم بالمئين فَأُصبحت يُنَجِّمُها من ليس فيها بُمجْرِمِ
يُنَجِّمُهـا قَوْمٌ لِقَـوْمٍ غَرامَــةً ولم يُهْرقوا بينهم ملء مِحْجَم

هذا وأخبار مدحه له طويلة جميلة والمقام مقام اختصار وبالله التوفيق .

ذكر المحلق

وأما المُحَلَّقُ على وزن معظم خلافاً للجوهري فهو أبو مَسْمَع عبد العزى بن خيثم بن شداد بن ربيعة بن عبد الله بن عبيد وهو أبو بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري ثم الكلابي ، وقد كان رجلاً مقلاً من المال فمر به الأعشى فى بعض السنين ذاهباً إلى سوق عكاظ فقالت له أمه إن أبا بصير رجل مجدود فى شعره وأنت رجل خامل مقل ولك بنات قيل عشر وقيل ثمان فلو سبقتَ إليه وأكرمته رجونا أن يكون لك منه خير فبادر المحلق إليه وأنزله ونحَرَ له وسقاه الخمر فلما أخذت الخمر منه شكا إليه حاله وحال بناته فقال له ستكفى أمرهن فلما أصبح غدا إلى سوق عكاظ فقام وأنشد قصيدته التى يقول فيها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ومابي من داء ومابي معشق
ولكـن أُرانى لا أزال بحادث أُغادى بما لم يُمْسِ عندي وأطرق
فكم دون سلمى من عدو وبلدةٍ وسهب به مستوضح الآل يبرق
وإنَّ امرأً أسْرى إليك ودونه سُهوبٌ وموماة وبيداء سملق
لمحقوقة أن تستجيبى لصوتـه وأن تعلمى أن المُعانَ موفق

إلى أن قال :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نارٍ فى يفاع تحرق
تُشبُّ لمقروريـــن يصطليـــانها وبات على النار الندى والمحلق

رضيعى لبان ثدى أم تحالفا بأسحم داج عَوْضُ لا نتفرق
ترى الجود يسري سائلاً فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق
نفى الذم عن آل المحلق جفنه كجابية الشيخ العراقي تدفق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم شيوخٌ وولدانٌ من الحي دردق

إلى أن قال :

أبا مسمع سار الذى قد فعلتمُ فأنجد أقْوام بذاك وأعرقُوا
وإن عتاق العيس سوف يزوركم ثناء على أعجازهنَّ مُعَلَّقُ
به تنفضُ الأحلاس فى كل منزل وتعقدُ أطراف الحبالَ ويطلق
يداك يدا صِدْقٍ فكفٌّ مبيرَةٌ وكفٌّ إذا ماضُنَّ بالمال تُنفقُ
كذلك فافْعَلْ ماحييت إذا شَتَوْا وأقْدِمْ إذا ما أعْيُنُ الناس تفرقُ .. الخ

فلم يفرغ من إنشادها حتى تسارع الأشراف يخطبون بناته فما باتت واحدة منهن إلا فى عصمة رجل أفضل من أبيها بكثير ، وفى قصته روايات غير هذا « والله تعالى أعلم » .

[وَكَمْ وَكَمْ حَطَّ الْهِجَا مِن مَّاجِدٍ ذى رتْبَةٍ قَعْسَا وقَدْرٍ سَمِقِ]
[مِثْلَ الرَّبيعِ وبنى الْعَجْلَانِ مَعْ بني نُمَيْرٍ جَمَرَاتِ الحَـذَقِ]

الرتبة القعساء أي الثابتة والرجل الأقعس أى المنيع ، والقدر السَّمقُ أي العالي المرتفع يقال سَمَقَ سُمُوقاً إذا علا وطال .

ومعنى البيتين واضح لا إشكال فيه وفى معناهما قال ابن سُكَّرَة يهجو بعض الرؤساء :

تِهْتَ علينـــا ولَسْتَ فينَـــا ولِـــيَّ عَهْـــدٍ وَلَا خَليفَـــةْ
فَتِـــهْ وزِدْ مَا عَلَـــيَّ جَارٍ يُقْطَـــعُ عَنِّـــي ولَا وَظيفَـــةْ
ولا تَقُـــلْ لَيْسَ فِي عَيْبٌ قَدْ تُقْـذَفُ الحُـرَّةُ العَفِيفَـــةْ

الشِّعْــــرُ نَارٌ بلا دُخَــــانٍ وللْقَوَافِــى رُقــىً لِطيفَــةْ
كَمْ مِن ثَقِيــلِ المحَلِّ سَامٍ هَوَتْ به أحْــرُفٌ لَطِيفَــةْ
لَوْ هُجِي المِسْكُ وهو أهْلٌ لِكُــلِّ مَدْحٍ لَصَارَ جِيفَــةْ

ذكر الربيع وسبب انحطاطه

هو الربيعُ بن زياد بن عبد الله بن سفيان بن ناشب بن هرم بن عوذ بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان الغطفاني ثم العبسي ، وأمه فاطمة بنت الخُرشُبِ الأنمارية أنمار بغيض وهي إحدى المنجبات .

كان يقال لبنيها الكملة وهم : الربيع الكامل ، وقيس الحافظ ، وعمارة الوهاب ، وأنسُ الفوارس .

وكان سبب انحطاطه أنه وفد ملاعب الأسنة وهو عامر بن مالك بن جعفر ابن كلاب وإخوته معاوية وطفيل وعبيدة ومعهم ابن أخيهم لبيد بن ربيعة وهو يومئذ غلام ، وفدوا على النعمان بن المنذر فوجدوا عنده الربيع بن زياد العبسي وكان عدواً لهم ، فلما رأى إكرام الملك لهم جعل يحط من قدرهم حتى حط منه عند الملك ، وكان لبيد يجلس فى رحلهم ويرعى لهم إبلهم فسمعهم يوماً يتكلمون فى أمر الربيع وما يلقون منه ويقال إنه سمعهم يقولون ارجعوا بنا إلى أهلينا ولا نعرض أحسابنا لهذا الكلب يضحك الوفود منا ، فسألهم لبيد فكتموه ، فقال والله لا رعيت لكم ولا حفظت لكم رحالكم تخبرونى ، وكانت أم لبيد امرأة من عبس يتيمة فى حجر الربيع بن زياد ، فقالوا خالك غلبنا على الملك وصدَّ عنا وجهه ، فقال لبيد هل تقدرون على أن تجمعوا بيني وبينه فأزجره عنكم بقول ممض فلا يلتفت النعمان إليه أبداً ؟ فاختبروه فوجدوه مستعداً كل الاستعداد فلما أصبحوا ذهبوا به إلى الملك بعدما حلقوا رأسه وتركوا له ذؤابة وألبسوه حلة فانتهوا به إلى النعمان وهو فى قبة وحوله الناس ومعه الربيع بن زياد يؤاكله فناداه لبيد من وراء القبة قائلاً :

أنامَ أمْ يَسْمَعُ رَبُّ القُبَّهْ يا أوهبَ الناس لِعَنْسٍ صُلْبَهْ
ذَاتِ هِبَابٍ فى يديْها خُذْبَهْ ضرابَـةً بالمِشْفَـرِ الأذِبَّـةْ

فى لاحب كأنه الأَطِبَّهْ :

فلما سمع النعمان ذلك أذن لهم فدخلوا فناداهم إلى المائدة وبسط يده إلى الطعام وبسط الربيعُ يده أيضاً ، فقال لبيد يخاطب النعمان :

أَكُلَّ يَوْمٍ هَامَتِـي مُقَزَّعَـةْ يَارُبَّ هَيْجَا هِيَ خَيْرٌ مِنَ دَعَهْ
ياواهِب الخير الكثير من سَعَهْ نَحْنُ بَنِي أم البنين الأربعهْ
نحنُ خيارُ عامر بن صَعْصَعَهْ المطعمونَ الجفنـة المُزَعْزَعَـهْ
والضَّاربونَ الهام تحت الخيضعَهْ إلـيك جاوزنـا بلاداً مُسْبَعَهْ
نُخْبِرُ عَنْ هَذا خبيراً فاسمعَهْ مَهْلاً أبيتَ اللعْنَ لا تأكل مَعَهْ
فإستُّـه مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّعَـهْ وإنَّـه يُدخِـلُ فيها أُصْبَعَـهْ
يُدْخِلُها حتى يواري أشْجَعَهْ كأنَّما يطلبُ شيئاً ضَيَّعَهْ

فلما فرغ من إنشاده نظر النعمان إلى الربيع شزراً يرمُقُه وقال أكذلك أنت ؟ قال لا والله لقد كذب على ابن الأحمق اللئيم ، فقال النعمان أف لهذا الطعام لقد خبَّثت عليَّ طعامي ياغلام ، فقال الربيع أبيت اللعن أما إنى لقد فعلت بأمه ، فقال لبيد أنت لهذا الكلام أهل ومثلك فعل بابنة عمه وربيبته فى حجره ، فقال ضمرة ابن ضمرة الدارمي كلاماً ينصر به الربيع فقال له لبيد :

ياضَمْرُ ياعَبْدَ بنـى كِلَابِ ويَا أبنَ كلْبٍ عَلِقٍ بالْبَابِ
أكان هذا أول الثـواب لايغْلَقنْكُـم ظُفُـرى ونـاب

إنى إذا عاقَبْتُ ذو عِقابِ

وكان ضمرة أسَرَهُ بنو كلاب رهط لبيد فمنوا عليه وأطلقوه فمن أجل ذلك قال له ما قال .

ثم إن الربيع بن زياد انصرف من مجلس الملك إلى رحله فبعث إليه النعمان

بضعف ما كان يصله به كل عام وأمره بالرحيل عنه ، فأرسل إليه الربيع إلى قد تخوفت أن يكون قد وقر فى صدرك ماقاله لبيد ولست ببارح حتى تبعث إلى من يجردنى فيُعْلِمَ من حضرك من الناس أنى لست كما قال ، فبعث إليه النعمان : إنى لست صانعا بانتفائك مما قال لبيد شيئا ولا قادراً على مازلت به الألسن فالحقْ بأهلك فارتحل فلما وصل إلى بيته أرسل إلى النعمان بهذه الأبيات :

لئن رحلت جمالى إن لى سعةً مامثلُها سعةٌ عَرْضا ولا طولَا
بحيثُ لو وزنت لخْمٌ بأجمعها لم يعدلوا ريشةً من ريش شمويلا
ترعى الروائم أحرار البقول بها لا مثل رعيكم مِلْحاً وغويلا
فابرق بأرضك يانعمانُ متكئا مع النطاسى طوْراً وابن نوفيلا

فأجابه النعما قائلا

شَرِّدْ برحلك حيث شئت ولا تكثر علىَّ ودع عنك الأباطيلا
فقد رميت بداء لست غاسله ماجاوزت مصرَ أهلُ الشام والنيلا
فما انتفاؤك منه بعدما جزعت هوجُ المطى به إبراق شمليلا
قد قيلَ ما قيلَ إن صدقا وإن كذبا فما اعتذارك من قول إذا قيلا
فالْحقْ بحيث رأيتَ الأرض واسعةً وانشُرْ بها الطرقَ إنْ عَرْضاً وإن طولَا

قالوا ولم يُرَ الربيع بحضرة النعمان بعدها

فائدة : فى حل بعض ألفاظ رجزه المتقدم : قوله : عَنْس صُلْبَةْ يعنى ناقة شديدة وهِبَاب ككتاب السرعة وخُدبة بضم الخاء هوج والأذبَّةُ جمع ذباب والأطبَّةُ جمع طبابة وهى قطعة من أدم شبه بها الطريق

وقوله نحن بنى أم البنين الأربعة ، فأم البنين هى ابنةُ عمرو بن عامر فارس الضحياء وهى إحدى المنجبات ، ولدت لمالك بن جعفر بن كلاب عامرا أبا براء وهو ملاعب الأسِنَّة ، وطفيل الخيل فارس قُرْزُل وهو والد عامر بن الطفيل وربيعة المقترين والد لبيد « رضى الله عنه » وسلمى نزال المضيف ومعاوية موعود الحكماء .

لطيفة : يُحكى عن بعض شيوخ تونس أنه اشتكت إليه امرأة سوء عشرة زوجها وهو رجل من الأندلس أساء عشرتها وعسر عليها التخلص منه فقال لها الشيخ ادَّعي عليه أن بإسته بَرَصًا ففعلت فحكم القاضي عليه أن يتكشف لينظره الأطباء فى ذلك المحل فلما رأى الزوج أن الأمر أفضى به إلى هذه الغاية طلقها وتخلصت منه بهذه الحيلة ، ولعل الشيخ الذى أشار إليها بذلك انتزع الفكرة من قصة لبيد هذه مع الربيع بن زياد والله أعلم .

ذكر بني العجلان وحط الهجاء لهم

وبنو العجلان بن عبد الله بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، لقب أبوهم بالعجلان لتعجيله القرى للضيوف فيما قيل فكانوا يفتخرون بهذه النسبة ويتبجحون بها حتى هاجاهم النجاشي الشاعر واسمه قيس بن عمرو الحارثى أحد بني الحارث بن كعب فقال :

إذا الله عادى أهل لؤم ودقة ... فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

قُبَيِّلَةٌ لَّا يخفرون بذمَّة ... ولَا يظلمون الناسَ حبَّة خَردَلِ

ولَا يردونَ الماءَ إلا عشيةً ... إذا صدر الورادُ عن كل مَنْهَلِ

تَعَافُ الكلابُ الضاريات لحومهم ... وتأكل من كعب بن عوف ونَهْشل

وما سمى العجلانَ إلا لقولهم ... خُذِ القَعْبَ واحْلُبْ أيها العبْدُ واعْجَل

قد ذكر الرواة أن بني العجلان اتضعوا بهذا الشعر بعد رفعتهم وذلوا بعد عزتهم حتى صاروا يفرون من الانتساب إلى العجلان وجعل أحدهم إذا سئل عن نسبه يقول كعبي مخافة أن يسخر منه .

وقد اشتكوا النجاشي إلى عمر بن الخطاب « رضي الله عنه » وقالوا إنه هجانا ، فقال ماذا قال لكم ، فأنشدوا البيت الأول ، فقال لقد دعا عليكم ولعله لا يستجاب له ، فأنشدوه البيت الثانى ، فقال عمر ليتني من هؤلاء ، فأنشدوه البيت الثالث ، فقال فذلك أصفى للماء وأقل للركاب ، فأنشدوه البيت الرابع ،

فقال عمر كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه ، فأنشدوه البيت الأخير ، فقال عمر كلنا عبد وخير القوم خادمهم ، فقالوا بل ياأمير المؤمنين إنه هجانا فقال ماأسمع هجوا فقالوا : سل حسان فلما سأله قال إنه سلح عليهم فسجنه عمر « رضى الله عنه » وقيل بل جلده و« الله تعالى أعلم » .

ذكر بني نمير وحط الهجاء لهم

وأما بنو نمير فهم أيضاً بطن من عامر بن صعصعة وكانوا من العز والمنعة بمكان وناهيك أنهم إحدى جمرات العرب لم يحالفوا أحداً لعزتهم وقوتهم فكان الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال من بني نمير وفخَّمَ بها صوته وأمال عُنُقه إدلالا بعزته وافتخارا بمنعته حتى هجا جرير شاعرُهم الراعي فهجاهم معه بقصيدته التى سماها الدمَّاغة والتى مطلعها :

أقلي اللـــوم عاذلَ والعتابـــا وقولي إن أصبت لقد أصابا

والتى يقول فيها:

فَغُضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ولو وضعت شيوخ بنى نمير على الميزان ماعدلت ذُبابـــا

قال المؤرخون : فلم يرفعوا بعدها رأساً ولم تلق قبيلة من العرب بهجوٍ ما لقيت نمير من هجو جرير حتى صاروا يفرون من الانتساب إلى نمير وينتسبون إلى عامر الجد الأعلى .

وكان سبب هجاء جرير للراعي كما يُروى عن الأصمعى أن عبيد بن حصين النميري الملقب بالراعى ، ولقب به لكثرة وصفه الإبل وإصابته فى وصفه ، كان يقضى للفرزدق على جرير ويفضله عليه ومن ذلك قوله فى قصيدة له :

يا صاحبَىَّ دنا الرواح فسيرا غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا

وقال أيضا فى قصيدة أخرى

رأيت الجحش جحش بنى كليب تيمم خوض دحلة ثم هابا

وكان الراعي من أشعر الناس فلما أكثر فى تفضيل الفرزدق على جرير خرج جرير إلى رجال من قومه فقال ألا تعجبون لهذا الرجل الذى يقضى للفرزدق عليَّ وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم ثم إن جريرا تحين الفرص للقيا الراعي فمر عليه يوما وهو راكب على بغلة وابنه جندل يتبعه على مهر له أحوى محذوف الذنب فلما استقبله جرير قال مرحبا بك أبا جندل إن قولك ليستمع وإنك تفضل على الفرزدق تفضيلا قبيحا وأنا أمدح قَوْمَكَ وهو يهجوهم وهو ابن عمى دونك ويكفيك من ذلك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ولا تتحمل منى ولا منه لائمة فبينا جرير والراعي كذلك إذ أقبل ولده جندل وضرب بالسوط بغلة والده قائلا : لاأراك واقفا على كلب من بنى كليب كأنك تخشى منه شرا أو ترجو منه خيرا ، فزحمت البغلة جريرا حتى سقطت قلنسوته ، قال جرير : والله لو عرج على الراعي لقلت إنها هفوة من سفيه يعنى جندلا ولكن الراعي لم يعرج عليه ، فأخذ جرير قلنسوته فمسحها وردها لمحلها فقال الراعي لولده أما والله لقد طرحت قلنسوته طرحة مشئومة ، فانصرف جرير مغضبا إلى منزله حتى إذا صلى العشاء قال لأهله : ارفعوا إلى باطية من نبيذ وأسرجوا لى فأسرجوا له ورفعوا إليه باطية من نبيذ قال فجعل يهمهم فسمعت صوته عجوز فى الدار فأطلعت فى الدرجة حتى نظرت إليه فإذا هو يحبو على الفراش عريانا لما هو فيه فانحدرت فقالت ضيفكم مجنون رأيت منه كذا وكذا فقالوا لها نحن أعلم به وبما يمارس فما زال كذلك حتى كان السحر فإذا هو يكبر قد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمير فلما بلغ إلى قوله : فغُضَّ الطرف إنك من نمير البيت ، فذلك حين كبر ثم قال أخزيته ورب الكعبة فقد قدمت أخويه عليه والله لايفلح بعدها أبداً .

ثم أصبح حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا مجالسهم وكان يعرف مجلس الراعي والفرزدق فقصد مجلسهما حتى إذا كان بموقع السلام قال ياغلام قل لعُبَيْد يعنى الراعي بَعَثْتَكَ نسوتكَ إلى العراق تكسبهن المال أما والذى نفس جرير بيده لترجعن إليهن بمير يسوءهنَّ ولايسرهن ثم اندفع فى القصيدة ينشدها فنكس

الفرزدق رأسه وأطرق الراعي فلو انشقت له الأرض لساخ فيها حتى إذا فرغ منها سار فركب الراعي بغلته وصعد إلى منزله وتفرق المجلس فقال لأصحابه ركابَكم ركابَكم فليس لكم هاهنا مقام فضحكم والله جرير فقال بعض القوم ذلك من شؤمك علينا وشؤم ابنك فقال فما كان إلا ترحلكم فرحلوا إلى أهلهم وساروا سيرا حثيثا وهم بالشُّرَيْف بأعلى ديار بنى نمير فيحلف بالله راعى الإبل أنهم وجدوا فى أهلهم قول جرير فغض الطرف إنك من نمير البيت يتناشده الناس وأقسم بالله مابلغه إنسي قط وإن لجرير لأشياعا من الجن ، فتشاءمت به بنو نمير وسبوا ابنه وطردوه وعلم الراعي أنه قد أساء وندم وتزعم بنو نمير أنه مات قبل انقضاء السنة ويقول غيرهم إنه مات كمدا و« الله تعالى أعلم » .

لطيفة : يحكى أن مولى لباهلة كان يرد سوق البصرة فيسخر منه بنو نمير فذكر ذلك لمواليه فقالوا له إن نبزك واحد منهم فقل له فغض الطرف إنك من نمير البيت فلما عاد إلى السوق سخروا منه ونبزوه فأراد يقول البيت فنسيه فجعل يقول غض عينيك والإجاءك ماتكره فكفوا عنه وعلموا أنه قد عرف قول جرير فيهم .

ويحكى أيضاً أن امرأة مرت بقوم من بنى نُمير فأخذوا ينظرون إليها ويتواصفونها فقالت قبحكم الله يابنى نمير ما امتثلتم في واحدة من اثنتين لاقول الله تعالى ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ [1] ، **ولا قول جرير : فغض الطرف إنك من نمير :**

فأبلسوا وتفرقوا . و« الله أعلم » .

تتمة : قال أبو عبيدة فى كتاب الديباج : جمرات العرب ثلاث بنوضَبَّة بن أُدّ ابن طابخة ، وبنو الحارث بن كَعْب بن عُلَة ، وبنو نمير بن عامر بن صعصعة ، فطفئت منهم جمرتان : طفئت ضَبَّةُ لأنها حالفت الرباب ، وطفئت بنو الحارث بن كَعْب لأنها حالفت مذحج ؛ فالجمرة إذاً فى اصطلاح العرب كل قبيلة انضمت

(١) النور الآية (٣٠)

على نفسها فكانت يدا واحده ولم تحالف غيرها وأما من حالف غيره فليس بجمرة .

وبقيت نمير لم تطفأ لأنها لم تحالف غيرها ولذا قال شاعرهم :

نميرٌ جمرة العرب التى لم تزل فى الحرب تلتهب التهابا

وقال بعضهم إن جمرات العرب ثلاث : ثنتان فى مضر وهما بنوضبة بن أد بن طابخة وبنو عبس بن بغيض ، وواحدة فى اليمن وهم بنو الحارث بن كعْب بن عُلة الذين منهم بنو عبد المدان أشراف اليمن .

ومن عجيب الصدف كون الثلاثة إخوة لأم وهى امرأة من اليمن رأت فى منامها أنها خرج من فرجها ثلاث جمرات فولدت الحارث بن كعب بن علة وضبة ابن أد بن طابخة وعبسا بن بغيض من ثلاثة أزواج و« الله تعالى أعلم » .

[لَوْ لَمْ يكن للشِّعْرِ عِنْدَ مَن مضى فَضْلٌ عَلَى الكَعْبَةِ لَمْ يُعَلَّقِ]

أما هذه الحجة التى يحتج بها الناظم على فضل الشعر فهى داحضة لأنها فخر جاهلى واحتجاج بعمل أهل الجاهلية وقد قال ﷺ : « إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء » أو كما قال ﷺ .

ذكر المعلقات وما قيل فيها

قال ابن خلدون إن الشعر كان ديوان العرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب يتنافسون فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرضه على أهل الخبرة والبصيرة فيه ليتميز غثه من سمينه وجيده من رديئه حتى انتهوا بذلك إلى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم ﷺ .

وقال غيره إنما سميت المعلقات لأن العرب فى الجاهلية كان الرجل منهن يقول الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحداً حتى يأتى مكة فيعرضه على

أندية قريش فإن استحسنوه رُوى وكان فخراً لقائله ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به ، وقال بعضهم إن أحد أمراء بنى أمية أمر من اختار له سبع قصائد فسماها المعلقات وهى : معلقة امرىء القيس التى مطلعها :

قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومعلقة طرفة بن العبد ومطلعها

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد

ومعلقة زهير بن أبى سلمى ومطلعها

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

ومعلقه لبيد « رضى الله عنه » ومطلعها

عفت الديار محلها فمقامها بمنىً تأبّد غولها فرجامها

ومعلقة عمرو بن كلثوم ومطلعها

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

ومعلقة عنترة بن شداد ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفتَ الدار بعد توهم

ومعلقة الحارث بن حلزة اليشكرى ومطلعها

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء

قلت : ومعلقة النابغة الذبيانى ومطلعها :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وكذلك معلقة علقمة بن عبدة ومعلقة الأعشى فتم بها المعلقات عشرا وقد تَعاطاها الأدباء بالدرس والشرح وأعطوها كل عنايتهم وبالله تعالى التوفيق .

[لَوْ لَمْ يَكُن فيه بَيَانُ آيةٍ مَا فُسِّرتْ مَسَائِلُ ابن الأَزْرَقِ]

ومجمل معنى البيت أن من فضائل الشعر أنه يتوصل به إلى تفسير كتاب الله ، فقد ذكر المفسرون أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » قال

على المنبر أيها الناس ما تقولون فى قوله تعالى ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾[1] ؟ فسكتوا فقام رجل من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص ، قال فهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال نعم قال شاعرنا أبو كبير الهذلى فى وصف ناقته :

تخوفَ الرحلُ منها تامكا قرداً   كما تخوف عُودَ النبعة السَّفَنُ

فقال عمر رضى الله عنه أيها الناس عليكم بديوانكم لاتضلوا ، قالوا وما ديواننا ؟ قال شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ؛ وقوله السَّفَنُ بفتح السين والفاء المبرد ، وذكر أبو بكر ابن الأنبارى أنه جاء عن الصحابة والتابعين كثيرا الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر .

وأنكر جماعة لا علم لهم على النحويين ذلك ، وقالوا إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن ، قالوا : وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن وهو مذموم فى القرآن والحديث ؟ والأمر ليس كما زعموا فلم نجعل الشعر أصلاً للقرآن ولكننا نريد تبيين الحرف الغريب فى القرآن بالشعر لأن الله تعالى قال ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾[2] وقال تعالى ﴿ بلسان عربى مبين ﴾[3] وقال ابن عباس : الشعر ديوان العرب فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه ، ومسائل ابن الأزرق الآتية خير دليل على صحة ذلك والله الموفق

ذكر مسائل ابن الأزرق

ذكر السيوطى فى الإتقان بسنده إلى أبى بكر بن محمد قال بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفته الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، قال نافع ابن الأزرق لنجدة الحرورى وهو نجدة بن عويم قُمْ بنا إلى هذا الذى يجترىء على

(١) النحل الآية (٤٧)
(٢) الزخرف الآية (٣)
(٣) الشعراء الآية (١٩٥)

تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما إليه فقالا له إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله تعالى فتفسرها لنا وتأتينا بما صدقه من كلام العرب فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فقال ابن عباس : سلاني عن مابدا لكما ، فقال نافع : أخبرنى عن قوله تعالى ﴿ **عن اليمين وعن الشمال عزين** ﴾[1] قال العزون حلق قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ! أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يُهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال أخبرنى عن قوله تعالى ﴿ **وابتغوا إليه الوَسيلَة** ﴾[2] ؟ قال الوسيلة الحاجة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ! أما سمعت عنترة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكحلى وتخضّبي

قال فأخبرنى عن قوله تعالى ﴿ **شِرْعَةً ومِنْهاجًا** ﴾[3] ؟ قال الشرعة الدين والمنهاج الطريق ، قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ! أما سَمعت أبا سفيان ابن حرب يقول :

لقد صدق المأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام دينا ومنهاجاً

ولقد تتبعها السيوطى فى الإتقان مسألة مسألة وكذلك أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره فانظر أيهما إن شئت للوقوف على تفصيلها و« الله تعالى الموفق » .

[مَاهُوَ إلا كَالكتابَةِ وَمَا فَضْلُهما إلَّا كشمس الأفُقِ]
[وإنَّما نُزِّه عَنهما النبي لِيُدْرَكَ الإعجازُ بالتحقق]

أما الكلام فى فضل الكتابة والشعر فهو طويل معروف

وأما تنزيه النبى ﷺ عن الكتابة والشعر ، فقد قال تعالى ﴿ **وما علمناه**

(١) المعارج الآية (٣٧)
(٢) المائدة الآية (٣٥)
(٣) المائدة الآية (٤٨)

الشعر ومايبغى له ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وماكُنتَ تَتلو من قبله مِن كتابٍ ولا تخُطُّهُ بيَمِينِكَ إذاً لارتابَ المُبطِلونَ ﴾[2] ، ولا التفات إلى من جوزوا عليه الكتابة بعد تحقق المعجزة فإن النصوص الصريحة تأباه وإن قال به أبو الوليد الباجي من أجلاء علماء المالكية وقد شنع عليه العلماء فى زمنه حتى رموه بالزندقة لأنه قال بقول يخالف القرآن العظيم ولذا قال قائلهم :

برئت ممن شرى دنيا بآخرة وقال إن رسول الله قد كتبا

والحق الذى لا غبار عليه أن رسول الله ﷺ استمر على وصف الأمية كما هو ظاهر القرآن ، ولقوله ﷺ إنا أمة أميةٌ ، وحديث البراء عند البخارى فى صحيحه فى قصة الحديبية مصرح بأنه كان أميا غير محسن للكتابة ولذا قال لعلى فى الرواية الأخرى : أرنيه لما امتنع من محو اسمه ﷺ فلو كان يعرف موضع الحروف أو التهجى لما سأله إراءتهُ ، « والله أعلم » .

[فَهِمْ بِهِ فإنَّهُ لَاشَكَّ عِنْـ ـوَانُ الْحِجَا والْفَضْلِ والتَّحَذْلُقِ]

فَهِمْ أمرٌ من الهيمان بالتحريك وهو العشق ومراده به أقبل على الشعر واعكف عليه عكوف العاشق على معشوقه ، ولا يخفى أنه قدم قوله : فقله غير مكثر منه البيت ، والحجا بالقصر والمد العقل والفطنة ، والتَّحذْلُقُ بالحاء المهملة والذال المعجمة مصدر تحذلق الرجل إذا أظهر الحذق وادَّعى أكثر مما عنده كحذلق ، وقال الخليفة المهدى يوما لأبى العتاهية : أنت رجل متحذلقٌ معتَّهٌ فمن ثم سمى أبا العتاهية ، والمعته كمعظم العاقل المعتدل الخُلُق كذا فى القاموس .

نُكْتَةٌ : إنما سُمى الشاعر شاعرا لشعوره بما لا يشعر به غيره لأنه يهتدى إلى مواقع المدح والهجاء ويتقلب فى أفانين الكلام فيأتى بالسحر الحلال ، وينطق بل يطوق بأجمل من سمط اللآل ، فكل من لم يهتد إلى تلك المعانى لا ينبغى أن يقال له شاعر لأنه يعلم شيئا من العروض وأوزان الكلام فمثل ذلك ينبغي أن يقال له

---

(١) يس الآية (٦٩)

(٢) العنكبوت (٤٨)

وزان فقط وأما شاعر فلها مدلول لا تستحق بدونه .

[وَهْوَ إكْسِيرٌ وَتَدْبِيرٌ لِمَنْ رَامَ اصْطِيَادَ وَرِقٍ بِوَرَقِ]
[مِنْ غَيْرِ تَقْطِيرٍ وَتَصْعِيدٍ وَتَكْـ ـلِيسٍ وتَرْطِيبٍ وقَتْلِ زِئْبقِ]

مراده بهذين البيتين تفضيل الشعر من حيث الاكتساب به على صناعة الكيمياء وهى المراد عنده بالإكسير لأن أربابها يتعاطونها من غير حصول منها على طائل وهو هراء لايُلتَفَتُ إليه ، انظر الأصل فى هذا البحث تجد مايفند لك زعم الناظم .

[وَكُن لَّهُ راوية كالأصمعي والجَهْلُ أولى بالَّذِي لَمْ يَصْدُقِ]

ومراده بهذا البيت أن من لم يصدق النية ويخلصها لله فى طلب العلم فالجهل أولى به ، فينبغى لطالب العلم أن يخلص النية لله تعالى وأن يزين طلبه بالتقوى فإن الله تعالى يقول ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وفى الأثر « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

قلت : قال العلامة محمد العاقب بن عبد الله بن مايابا الجكنى ثم اليوسفي الشنقيطى فى نظم المسائل :

من طلب العلم احتساباً وابتغا رضا العليم فاز بالذي ابتغى
ومن به نهج المباهاة سلك وظن نفسه على خير هلك
وطالب الدنا به إذا درى خسة قصده الخسيس خاطرا
فإن يتب قبل الممات سلما من خطر الذنب وإلا أُسلما

ذكر الأصمعى رحمه الله

الأصمعي هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن على بن أصمع الباهلي وهى امرأة من همدان تزوجت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر فنسب ولدها إليها .

وكان الأصمعي قد نشأ بالبصرة وأخذ عن أئمتها وسمع من شعبة بن الحجاج والحمادين وغيرهم وروى عنه أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو الفضل الرياشي وأبو حاتم السجستاني وغيرهم ؛ قال ابن خلكان : كان الأصمعي إماما فى الأخبار والنوادر والملح والغرائب ، صاحب لغة ونحو ، وقال غيره : كان صاحب غرائب الأشعار وعجائب الأخبار وقدوة الفضلاء وقبلة الأدباء صاحب ديانة متينة وعقل رصين وكان خاصا بالرشيد حظيا عنده آخذا لِصِلاته .

قال الربّيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول : ماعبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي ، وقال ابن خلكان قال الأصمعي : حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي كم كتابك عن الخيل ؟ قلت مجلد واحد ، وقال لأبي عبيدة فقال خمسون مجلدا ، فقال له قم إلى هذا الفرس وأمسك عضوا عضوا منه وسمه ، فقال لست بيطارا وإنما هذا شيء أخذته عن العرب ، فقال لي قم ياأصمعي وافعل أنت ذلك فقمت وأمسكت بناصيته وشرعت أذكره عضوا عضوا وأضع يدي عليه وأنشد ماقالت العرب فيه إلى أن فرغت منه ، فقال خذه وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه .

ولقد حرص المأمون على الأصمعي وهو بالبصرة أن يسير إليه فامتنع واعتذر بالضعف وكبر السن فكان المأمون يجمع المشاكل من المسائل ويسير بها إليه ليجيب عنها .

ويحكى أن الأصمعي ركب حمارا دميما ذات يوم فقيل له تركب هذا بعد براذين الخلفاء ؟ فقال متمثلا :

ولما أبت إلا انصراما لودها وتكديرَها الشرب الذى كان صافيا
شربنا برنق من هواها مكدر وليس يعاف الرنق من كان صاديا

هذا ، وأملك ديني أحب إليَّ من ذلك .

ونوادر الأصمعي كثيرة ، وكانت ولادته سنة اثنتين وعشرين ومائة وتوفى فى صفر سنة ست عشرة ومائتين بالبصرة وقيل بمرو وله تآليف كثيرة رحمه الله .

[وَلَكَ فِيمَنْ كَانَ مِثْلَ الأَمَوِ يّ أُسْوَةٌ بها اقْتَدى كُلُّ تَقي]

الأموى نسبة إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو بضم الهمزة على القياس وبفتحها على غير قياس وهو المشهور كما فى المصباح ، والأسوه بكسر الهمزة وتضم كالقدوة وزنا ومعنى والاقتداء الاتباع .

قصة الأموى ومن اقتدى به

أما الأموى فهو عبد الملك بن مروان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وأما من اقتدى به فهو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسي رحم الله الجميع ، وكان من خبر اقتدائه به أن الرشيد ناظر يوما يحيى بن خالد البرمكي فيمن يعهد إليه بالأمر فى ولديه المأمون والأمين فعرف يحيى أن أم جعفر زبيدة زوجة الرشيد لاتريد أن يعهد إلا إلى ولدها فأشار إليه به ، فاستحضر الرشيد الولدين وهما صبيان فأغرى بينهما فأسرع الأمين إلى المأمون فكان المأمون أحلمهما ، ثم إنه أمرهما أن يتصارعا فوثب الأمين وسكن المأمون فقال له الرشيد : مالك لاتقوم ياعبد الله ؟ أخفت ابن الهاشمية ؟ أما إنه لأيد فقال المأمون هو على ما ذكر أمير المؤمنين ولكننى لم أخفه وإنما قبض يدى عنه ماقبض لسانى حين أسمعني فقال له الرشيد : ومااللذى قبض يدك ولسانك ؟ قال قول الأموى لبنيه :

انفوا الضغائن بينكم وتواصلوا عند الأباعد والحضور الشُّهَّدِ
بصلاح ذات البين طولُ بقائكم ودمـارُكم بتقاطـع وتَفَـرُّدِ
فلمثل ريب الدهر أَلِّفَ بينكم بتعاطـف وتراحـمٍ وتَـوَدُّدِ
حتى تلين جلودكم وقلوبكـم لمُسَوَّدٍ منكـم وغير مُسَوَّدِ
إن القداح إذا جمعن فَرامَهَا بالكسر ذو حَنَقٍ وبَطْشٍ أَيِّد
عَزَّتْ فلم تكسر وإنْ هي بُدِّدَتْ فالوهـنُ والتـكسير للمتبـدِّدِ

فبكى الرشيد رقة لولده ثم التفت إلى الأمين وقال يامحمد ماأنت فاعل إن

صرف الله إليك أمر هذه الأمة ؟ فقال أكون مهديا ياأمير المؤمنين ، فقال الرشيد : إن تفعل فأهلٌ لذلك أنت ، ثم أقبل على المأمون فقال ياعبد الله ماأنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة ؟ فبكى حتى أبكى الرشيد وجلساءه وقال أعفني ياأمير المؤمنين من هذا السؤال قال لابد أن تجيب فقال : إن قدر الله ذلك جعلت الحزن شعارا والحزم دثارا واتخذت سيرة أمير المؤمنين مشعرا لاتستحل حرماته ولاتبدل كلماته ، فأشار الرشيد إليهما أن انصرفا ثم أنشد بيت صخر بن عمرو بن الشريد

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

فقال يحيى هيأ الله لأمير المؤمنين من أمره رشدا . ا. هـ .

[هَذا هُوَ المجْدُ الأصيل فاتَّبعْ سَبيله عَلى الْجَميع تَرتَقي]
[وإن أَرَدْتَ أن تَكُونَ شاعِرا فَحْلاً فَكُن مِثْلَ أبى الشَّمَقْمَقِ]
[ما خِلْتُ فى الْعَصْرِ لَهُ مِن مَثَلٍ سِوَى أَبِي فى مغرب ومَشْرِقِ]

مفردات الأبيات ظاهرة لا إشكال فيها

وأما أبو الشمقمق

فهو أبو محمد مروان بن محمد الكوفى الشاعر المشهور بأبى الشمقمق وهو مولى مروان بن محمد الحمار آخر خلفاء بنى مروان ، وكان فحول عصره من الشعراء يتقون هجاءه ويُصَانِعُونَهُ وله فى ذلك نوادر ، منها أن بشار بن برد كان يعطيه سنويا مائتى درهم فأتاه فى بعض السنين فقال هات الجزية ياأبا معاذ ، فقال ويحك أو جزية هى أيضا ؟ فقال هو ماتسمع فقال بشار : آأنت أفصح منى ؟ قال لا ، قال أفأعلم منى بمثالب الناس ؟ قال لا ، قال أفأشعر منى ؟ قال لا ، قال فلم أعطيك ؟ قال لئَلا أهجوك ، قال إن هجوتنى هجوتك فقال أبو الشمقمق أو كذا هو ؟ قال نعم فقل مابدالك ، فقال أبو الشمقمق :

إنى إذا ماشاعر هجانيهْ ولَجَّ فى القول له لسانيهْ
أدخلتُ إستَ أمّه علانِيَه بشار يا بشار ....

وأراد أن يقول ياابن الزانية فوثب بشار فأمسك فاه وقال أراد والله أن يشتمنى ثم دفع إليه مائتى درهم .

ومن نوادره أنه جاء إلى سلم الخاسر يستسمحه فمنعه فقال اسمع ياسلم ماقلته فيك :

حدثونى أنَّ سلماً يشتكى جارةَ أيرهْ
فهو لا يحسُد شيئاً غير اير فى إستِ غَيْرهْ
وإذا سرَّك يَوْماً ياخليلى نَيْلُ خَيْرهْ
فَقُمْ ودع راهبك الأصْلعَ يقرعُ باب دَيْرهَ

فضحك منه سلم وأعطاه خمسة دنانير وقال أحب — جُعلتُ فداك — أن تصرف راهبك الأصلع عن باب دينار .

وبالجملة فقد كان بذيا تخافه الشعراء لبذاءة لسانه ، فليت شعرى لم يغري الناظم من يريد أن يكون شاعرا فحلا أن يكون مثله ؟ فلا أكثر الله من مثل هذا فى الناس وبالله التوفيق .

ذكر والد الناظم

وأما والد الناظم فهو الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد بن ونان كان من أدباء دهره والأفذاذ فى عصره ذا بديهة وفكاهة ورقة فى مزاجه على الرغم من فقده حاسه سمعه فقد كان رحمه الله أصم غير أنه كان يفهم بألطف إشارة مالا يفهمه غيره بصريح العبارة حتى أنه كان يجيب على مايكتبه أحد على أعضائه فى الظلام وعما يرقمه الراقم فى الهواء من كلام فهو لذلك كما قال الشاعر :

تشير له بلحظك من بعيد فيفهم طرفه عنك الإشارة

ولقد ذكر ولده أنه لجودة قريحته ، وغزارة مادته ، وحسن بديهته ، لقبه أمير المؤمنين الممدوح بهذه القصيدة الآتى ذكره إن شاء الله بأبى الشمقمق فقال :

[لذاك كَنَّاهُ به سيدنا السُّـ ـلطَانُ عِزُّ الدِّين تَاجُ المَفْرِقِ]
[محمَّدٌ سِبْطُ الرَّسُول خَيْرُ مَنْ سَادَ بِحُسْنِ خَلْقِهِ وَالْخُلُقِ]
[أَغْنِى أمير المؤمنين ابْنَ أَمِيـ ـرِ المؤمنين ابنَ الأمير المتَّقِى]

السِّبْطُ بالكسر ولد الولد ، وفى البيت الأخير نوع من البديع يقال له الاطراد وهو أن يذكر اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللائقة به واسم من أمكن من أبيه وجده وقبيلته ليزداد الممدوح تعريفا ، وشرط ذلك أن يكون فى جملة من غير تكلف ومن شواهده قوله ﷺ : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

التعريفُ بالسُّلطان الممدوح بهذه الأرجوزة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف بن على بن محمد ابن على بن يوسف بن على الشريف السجلماسى ينتهى نسبه إلى الحسن بن على « رضى الله عنهما » بويع له بالخلافة فى المغرب الأقصى فى صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف للهجرة ، كان رحمه الله من الدهاء بمكان وكان له اعتناء كبير بعلماء الشريعة لايغيبون عن مجلسه إلا فى وقت الضرورة يأمرهم بسرد الأحاديث ، وبتحرير المسائل ، وتحصيل المهمات ، وقد بسط مؤلف الأصل ترجمته فى كتابه الاستقصاء وأحال عليها هنا وكانت وفاته رحمه الله يوم الأحد الرابع والعشرين من رجب سنة أربع ومائتين وألف بوادى شراط قرب رباط الفتح ودفن بالرباط يوم الاثنين وقبره بها معروف « عليه رحمة الله »

[خَيْرُ مُلُوكِ الغَرْبِ مِن أُسْرَتِه وغيرهم عَلَى الْعُمُومِ المُطْلَقِ]

أُسْرَةُ الرجل بضم الهمزة رهطه الأدنون من الأسر وهو الشد لأنه يشتد بها أزره ويتقوى والمغرب ثلاثة أقاليم : أدنى وهو تونس والقيروان وسائر بلاد إفريقية أعنى بالمصطلح القديم ، وأوسط ، وهو الجزائر وتلمسان وأعمالهما ، وأقصى ، وهو فاس ومراكش وأعمالهما .

نُبْذَةٌ عن الأشراف السِّجِلْمَاسيين

إن أول من بويع بالخلافة من الأشراف السجلماسيين الحاكمين حاليا بالمغرب هو الشريف ابن على ، فقد نشأ وجيها بسجلماسة شريفا مطاعا ثم بويع بها من قبل أهل الحل والعقد بها سنة إحدى وأربعين وألف للهجرة ثم تنازل عن الحكم لأمور ليس هذا محل بسطها وكان له أربعة عشر ولداً فبويع لأفضلهم وهو محمد بن الشريف ابن على وذلك فى حياة والده سنه خمس وأربعين وألف فضبط أمر سجلماسة واستولى على درعة وأعمالها ثم على فاس وأعمالها ثم رجع وغزا عرب المغرب الأوسط وأحواز تلمسان ، وفى سنة تسع وستين وألف توفى والده الشريف بن على ، فخرج الرشيد بن الشريف بن علي على أخيه محمد بن الشريف وشمر لقتاله ببسيط آنقاد فأصابت الأمير محمد بن الشريف رصاصة فى نحره فمات بسببها وذلك يوم الجمعة تاسع محرم سنة خمس وسبعين وألف فاجتمع الأمر للرشيد فاستتب له الأمر وتتبع ثوار المغرب فاستأصلهم حتى لم يبق فيه منازع فكان لذلك أول من استتب له الأمر بالمغرب من هذه الأسرة الحاكمة به حتى الآن ومات ثانى يوم النحر سنة اثنتين وثمانين وألف ثم دفن بفاس ، ثم بويع أخوه إسماعيل بن الشريف بن على وهو يومئذ بمكناسة الزيتون وسنه يوم بويع عشرون سنة ، فنهض بأعباء الخلافة وضبط الأمور ورتبها وأسس ملك بنى علي على أثبت الدعائم ، وأرسخ القوائم ، واتخذ مكناسة دار ملكه وامتد ملكه من وادى تافتا شرقا إلى أطراف السودان غربا وذلل أُمم البربر واتخذ حرسا من العبيد يقال إنه توفى وفى ديوانه نحو مائة وسبعين ألف جندى منها كلهم على متون الخيل ، وقد بنى رحمه الله فى أطراف المغرب وعلى تلوله ماينيف على سبعين قصبة وشحنها بالجنود والعُدَدِ وطالت مدته إلى مايقارب الستين عاما ثم توفى فى مكناسة الزيتون يوم السبت السابع والعشرين من رجب سنه تسع وثلاثين ومائه وألف ، ولما توفى السلطان إسماعيل استضعف جند العبيد بنيه فصاروا يولون هذا كما يحلو لهم ويعزلونه كما يحلو لهم فبايعوا أولاً ولده أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبى فمرج .

أمر المغرب واختلفت أحواله وكثر الهرج واستمر الحال على ذلك نحو السنة فخلعه العبيد وولوا أخاه عبد الملك بن إسماعيل فى شعبان سنة أربعين ومائة وألف ثم بعد أشهر يسيرة خلعوه وأعادوا أخاه أحمد الذهبى المخلوع أولاً ثم توفى فى شعبان سنة إحدى وأربعين ومائة وألف وكان قد أمر بقتل أخيه عبد الملك شنقا بثلاثة أيام قبل موته ، ثم بويع أخوهما عبد الله بن إسماعيل فكانت أيامه مضطربة وكان رحمه الله حديد الشوكة فأعمل سيفه فى العبيد لتمالئهم على قتل أخيه عبد الملك فلما أسرف فى قتلهم خلعوه سنة سبع وأربعين ومائة وألف وبايعوا أخاه أبا الحسن على بن إسماعيل وذهب عبد الله بن إسماعيل إلى السوس وقدم أبو الحسن من سجلماسة واستقر بمكناسة وكان موصوفاً بالحلم والعدل فاستقر فى الحكم نحوا من ثلاث سنوات فقدم عبد الله بن إسماعيل من السوس وأعلن بعض العبيد موالاته وخالفهم البعض واضطرب الأمر وعند ذلك فرَّ أبو الحسن إلى عرب الأحلاف فأقام معهم حتى مات بعد مدة طويلة ، فقدم عبد الله بن إسماعيل مكناسة ولم يدخلها بل بقى بقصبة أبى فكران من أعمالها وفسد مابينه وبين أهل فاس فخلعوه وبايعوا أخاه محمد بن إسماعيل المعروف بابن عُرَيْبة بالتصغير فبايعه الناس ورجع عبد الله بن إسماعيل إلى جبال البربر ولكن ابن عريبة لم يكن حظه بأوفر من حظ إخوته المخلوعين فخلعه العبيد فى صفر سنة إحدى وخمسين ومائة وألف وبايعوا لأخيه المستضىء بن إسماعيل فكانت أيامه أشدَّ اضطراباً من أيام ابن عرُيبة فأرادوا إلقاء القبض عليه ولكنه فر إلى طنجة ومنها إلى مراكش فى ذى القعدة سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف فبايع العبيد لعبد الله بن إسماعيل المقيم بجبال البربر وأرسلوا إليه فقدم مكناسة فى رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف فلم يرتئب الصدع الذى بينه وبين العبيد فعاودوا خلعه فى ربيع الأول سنة أربع وخمسين وبايع العبيد أخاه زين العابدين بن إسماعيل وتوقف عن بيعته الوَدَايا وأهل فاس ثم إن العبيد قلبوا له ظهر المِجَنِّ على عادتهم فخلعوه ولكن شوكة أخيه عبد الله بن إسماعيل قد قويت هذه المرة فقدم من بلاد البربر وجدد الودايا وفاس له البيعة ثم بايعه العبيد واجتمعت الكلمة عليه وأقام بدار الربيبغ من فاس وجرت بعد هذا

خطوب بينه وبين أخيه المستضيء واستمر الحال إلى أن توفى عبد الله بن إسماعيل فى سابع عشر صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف ودفن بغيور الأشراف من فاس الجديد .

ثم إن أهل المغرب أجمعوا بعده على بيعة ولده محمد بن عبد الله وهو الممدوح بهذه القصيدة فكان رحمه الله واسطة عقد هذه الدولة ، جم المناقب ، كثير المجالس ، شهير الذكر ، بعيد الصيت ، جدد دولة آل على وأقام أودها بعد أن أشرفت على الاضمحلال وقد قدمنا تاريخ موته .

ثم بويع من بعده ولده يزيد بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل فكان رحمه الله جواداً شهما سيداً إلا أن مدته كانت قصيرة فقد توفى فى جمادى الثانية سنة ست ومائتين وألف عن إصابة رصاصة فى حرب مع أخيه هشام .

ومن هنا افترقت الكلمة بالمغرب فأقام أهل مراكش وحوزتها على طاعة هشام بن محمد وبايع أهل فاس لسليمان بن محمد فاستتب أمره وبطل أمر أخويه هشام ومسلمة ابنى محمد ، فكان سليمان رحمه الله من العلم والحلم والعدل والتقوى والدين بالمحل الذى لا يُدْرَكُ والسبق الذى لا يُلْحَقُ وكانت أيامه أيام أمن وعدل ورخاء وتوفى « رحمه الله » بمراكش ثالث عشر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف وكان « رحمه الله » قد عهد بالأمر لابن أخيه عبد الرحمن ابن هشام بن محمد لما يعهده به من ديانة فعدل لذلك بالعهد إليه على الرغم من كثرة أولاده ، فنهض عبد الرحمن بن هشام بأعباءِ الخلافةِ أى نهوض وطال عمره بها حتى توفى فى التاسع والعشرين من محرم سنه ست وسبعين ومائتين وألف وأجمع الناس على بيعة ابنه محمد بن عبد الرحمن بن هشام فسلك مسلك أبيه فى العدل والورع والوقوف على أمور مقتضيات الشرع الكريم وكان عالِيَ الهمة حتى مات فى مراكش فى ثامن عشر رجب سنة تسعين ومائتين وألف ودفن قرب ضريح القاضى عياض ثم أجمع أهل المغرب بعده على بيعة ولده الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل فقام بالأمر خير قيام

وأصلح من شئون الدولة برا وبحرا واستتب به الأمن فى البلاد إلى أن توفى رحمه الله بوادى العبيد بأرض تادلا ليلة الخميس ثانى ذى الحجة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف ونقل إلى رباط الفتح ودفن إلى جانب جده الأعلى محمد بن عبد الله رحم الله الجميع بفضله ، ثم إن أهل المغرب بايعوا بعده لابنه عبد العزيز ابن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل .

قلت : عبد العزيز هذا عزل وبويع بعده أخوه عبد الحفيظ الذى وقع الحماية مع دولة فرنسا على الرغم منه ثم تنازل عن العرش وأُخِذَتِ البيعة لأخيه يوسف بن الحسن واستقر به الأمر إلى أن توفى سنة ١٩٢٨م ثم أخذت البيعة لولده محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل وهو الذى انْقَضَى زمن الحماية التى وقعها عمه عبد الحفيظ مع الفرنسيين فى عهده فحاولوا معه كل المحاولات لينتزعوا توقيعا منه لتجديد الحماية حتى أعجزهم ذلك ، فعمدوا إلى خلعه وبيعة ابن عم له يدعى محمد بن عرفة وذلك سنة ١٩٥٣ للميلاد ونفوا سلطان البلاد الشرعى إلى جزيرة مدغشكر التى عاد منها ظافراً بفضل الله تعالى ثم بفضل إخلاصه لوطنه وإخلاص مواطنيه له حيث إنهم واصلوا القتال والكفاح المسلح حتى أرغمت دولة الاستعمار على إرجاعه لعرشه ، وقد بلغنى أن الجنرال الفرنسى المقيم بالمغرب آنذاك لما أخبره بقرار نفيه عن بلاده وأفاده بالاستعداد للسفر بعائلته لما حضر المطار سأل المستعمر عن متاع السلطان فأجابه « رحمه الله » إنا قد أخذنا المهم منه معنا ، فقال المستعمر : لاأرى متاعاً معكم ، فقال السلطان : أهم ماعندنا هذه الأنامل التى امتنعت إن تتدنس بتوقيع شيء مًّا يمس سيادة المغرب . ثم إن الاستعمار الفرنسى أُرْغِمَ على إرجاعه لعرشه وإعلان استقلال المملكة المغربية الشريفة سنة ١٩٥٦م وإعلان محمد بن يوسف ملكا على البلاد ومات رحمة الله فى فبراير ١٩٦١م إثْر عملية جراحية أجريت له فى الجيوب الأنفية ثم بويع ولده الحسن بن محمد بن يوسف الذى لايزال على رأس البلاد المغربية حتى هذا اليوم وبالله التوفيق .

[وَدَوْحَةُ المجْد الَّتى أغصانها بِهَا الأرامِلُ ذوو تَعَلُّــق]
[لَهُ مُحَيًّى ضاء فى أَوْجِ الدُّجا سَنَاهُ مِثْلَ القَمَرِ الْمُتَّسِقِ]
[وراحَـةٌ تَغَارُ من سُيُولهَـا سُيُولُ وَدقٍ وَرُكَامٍ مُطْبـقِ]

الدوحة الشجَرةُ العظيمة والجمع دوحٌ والمراد بها الممدوح يقول إنه أصل المجد وينبوعه والمحيّ بصيغة اسم المفعول حر الوجه من التحية لأنه يقصد بها عند المواجهة ، وضاء بمعنى استنار وقد يجىء رباعيا فيقال أضاء ، وأَوْجُ الدجى ارتفاعه وصعوده ، والسَّنَا مقصوراً الضوء ، والراحة بطن الكف والجمع راحٌ ، قال جرير :

ألستم خيرَ من ركبَ المطايَا وأنـدىَ العالميـنَ بُطـونَ راح

والودق المطر تسمية للشيء باسم مصدره من ودق إذا قطر ، قال الشاعر :

فلا مزنـــة ودقت ودقهـــا ولا أرض أبقــل إبقـــالها

والركام بِالضَّم السحاب المتراكم بعضه فوق بعض ، والمطبق المغطى لوجه الأرض .

[فَاقَ الرشيـدَ وابْنَـه بِحِلْمِهِ وعلمـــه ورأيـــه الموفَّـــق]

يقول إن ممدوحه قد زاد يمن رأيه وسداد نظره على رأى الرشيد ونظره وهو هارون بن محمد المهدى بن عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما وابنه المعنى هنا هو عبد الله المأمون بن هارون .

وكان الرشيد يوصف بحسن الرأى ويمن النقيبة ، ولما ولى الخلافة ودفع خاتمه إلى يحيى بن خالد البرمكى قال إبراهيم الموصلى :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذى الندى فهارون واليها ويحيى وزيرهـا

وكان هارون يُوْصَفُ بحسن الرأي كما يوصف بحسن المحاضرة وجودة

المذاكرة وفيه يقول ابن الخطيب فى رقم الحلل .

فعظـــم الخلافـــة الرشيـــدُ وظهـــر التوفيـــق والتسديـــد
وكان بحرا زاخرا فى جوده وغـــرةً غَرَّاءَ فى وُجُـــودِه
وأعلـم النـاس بشعـــر وخبر يعجب منه الأصمعى إن حضر

وأما المأمون فقد كان حليماً كريماً وفيه يقول الحسن بن رجاء :

صفوح على الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالى أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

وصفحه عن عمه إبراهيم بن المهدى بعد خروجه عليه وعفوه عنه شاهد برسوخ قدمه فى الحلم رحمه الله ، قلت : وقد ذكرته فى نظمى على التاريخ بقولي :

قد كان شهما أبيَّ الانفاس وكان النجم من بنى العباس
ولم يقل فيه الذى يقولُ سوى الذى تواتر المنقولُ
بأنـــه يقـــول فى القـــرآن بخلقـــه وذا من البهتـــان

والله أرجو أن يكون رجع عن هذا القول البشيع بعد مناظرة الشيخ عبد العزيز الكنانى لبشر المريسى ومحمد بن الجهم بين يديه وإلقامهما الحجر بما لايبقى معه ريب لمن لم يطمس الله بصيرته ، ﴿ **ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾[1] .

[وَسَادَ كَعْباً وابْنَ سُعْدى وابْن جُدْ عَانَ وحَاتِمًا بِبَذْلِ الْوَرِقِ]

أمَّا كعبٌ فهو كعب بن مامة الإيادى أحد أجواد العرب المشهورين المضروب بهم المثل ، قال الجاحظ العامة تحكم بأن حاتما الطائى أجود العرب ولو قدمته على هرم بن سنان لما اعترض عليها ولكن الذى يحدث به عن حاتم لايبلغ

---

(١) آل عمران الآية رقم (٨)

مقدار مارووه عن كعب بن مامة لأنّ كعبا بذل النفس حتى أعطبه الكرم وبذل المجهود فى الماء فساوى حاتما من هذا الوجه وباينه ببَذْل المهجة .

وقصته مع صاحب النمر بن قاسط التى كانت فيها نهاية نفسه مشهورة فلا أعجب منها ولا أغرب ، وأمّا ابنُ سُعْدَى : فهو أوس بن حارثة بن لام الطائي الجواد المشهور ، قال فى ثمار القلوب إنما سار المثل بكرم طيىء لأن حاتم بن عبد الله وأوس بن حارثة بن لام منهم ، قال أبو تمام الطائى :

لكل من بنى حواء عُذْرٌ ولا عُذْرٌ لطائـيٍّ لَئِيـم
أحقُّ الناس بالكرمِ امرؤٌ لم يزل يأوى إلى أصل كريم

يروى أن أوساً وحاتماً وفدا على عمرو بن هند فدعا أوسًا وقال له أنت أفضل أم حاتم ؟ فقال أبيت اللعن لو ملكنى حاتم وولدى ولحمتى لوهبنا فى غداةٍ واحدةٍ ، ثم دعا حاتما فقال أنت أفضل أم أوس ؟ فقال أبيت اللعن إنما ذكرت بأوس ولأصْغر ولده أفضل منى ، فقال عمرو والله ماأدرى أيكما أفضل ومامنكما إلا سيدٌ كريم .

ومما روى من علوّ همته أن النعمان بن المنذر وفدت عليه أشراف العرب فجلس إليهم وعليه حلة مذهبة مطوقة بالدر لم يُرَ أحسن منها ثم أذن لهم فدخلوا ، فلما أخذوا مجالسهم جعلوا يعجبون من حسن الحُلَّةِ وأوسٌ مُطرِقٌ غير آخذ بذلك ، فقال النعمان : ياأوس ماأرى فيمن دخل عليَّ إلا من يستحسن هذه الحلة على نقصان قدرها عندى غيرك ؟ فقال أوْسٌ : أسعد الله الملك إنما تستحسن هذه إذا كانت فى يد تاجرها فأما إذا لبسها الملك وتهلل فيها وجهه المشرق فالأبصار مقصورة عليه دونها ، فاسترجح الملك عقله واستحسن جوابه ، فلما كان وقت انصرافهم قال لهم النعمان : احضروا غدا كلكم فإنى ملبس هذه الحلة سيد العرب فانصرفوا وكل طامع مهموم ، فتأخر أوس عن الحضور فلامه أصحابه على تأخره فقال سبحان الله : إن كنت المراد فسيرسل إلَيَّ وذلك أرفع لشأنى وإن كان المراد غيرى لم تأخذنى غضاضة فى أخذ غيرى لها وأنا غائب فلما دخلوا على

النعمان نظر فلم ير فيهم أوْساً فاستدعى بعض بطانته وقال انظر مافعل أوس فجاءه بما فعل وأخبره بما قال لأصحابه فقال له امض إليه وقل له : إنَّ الملك يستبطئُك فجاء فى الثوب الذى كان عليه أمس وقد كانت وجوه العرب سرت بغيبته خشية أن تُدْفَعَ إليه الجُبَّةُ فلما استدعاه النعمان وحضر رفع مجلسه وقربه ومدَّ يده إليه وقال : أراك لم تغير لباسك فى هذا اليوم فخذ هذه الحلة وتجمل بها بين من تجمل من وجوه أصحابك فلبسها وجلس فى أقرب مكان من النعمان فحسدته العرب وقالوا : ليس يخفضه إلا الهجاء وليس له إلا جرول يعنون الحطيئة ، فكلموه فى ذلك وقالوا له نساهمك فى أموالنا ، فقال كيف أهجو رجلا حسباً لايُنكرُ بيته ، كريماً لايغب عطاؤه ، فاضلاً فلا يطعن على رأيه ، شجاعاً لايصطلى بناره ، ومع هذا فلا أرى شيئا فى بيتى إلا من إفضاله ؟ ثم قال :

كيف الهجاءُ وما تنفك صالحةٌ من آل لامٍ بظهر الغيب تأتينى

فسمع ذلك بشر بن أبى حازم الأسدى من أسد خزيمة فرغب فى المال وقال أنا أهجوه لكم فأعطوه ثلاثمائة من الإبل فهجاه وأفحش القول فى أمهِ سُعدىَ ، فبعث أوسٌ من أغار على الإبل التى أعطوه والتى كانت عنده قبلها فاكتسحوها وأتوه بها وفر بشر بن أبى حازم فطوف أحياء العرب يريد من يجيره فكان جواب كل حي نجيرك من الإنس والجن إلا أوس بن لام فلم يلبث أنْ أُسِر وأُتِى به أوس فدخل أوسٌ على أمه سُعدى وأخبرها بظفره ببشر واستشارها فى قتله ، فقالت والله لئن قتلته ليثبتن كلامه فى الصخر وليس يمحو هجاءه عنك إلا مديحه فامنن عليه وخل سبيله فاستصوب رأيها وأحضره وقال ما ترانى صانعا بك ؟ قال تقتلنى ، قال أنت مستحق لذلك ولكن سُعْدَى أشارت علىَّ بأمر أنا فاعله فرد عليه إبله وزاد عليه مثلها معها وكساه وحمله وقال انصرف إلى أهلك راشداً ، فعندها رفع يديه وطرفه إلى السماء وقال اللهم اشهد على بشر ، أنه لايمدح أحداً غير أوس بن حارثة مامددت له فى العمر ، فمدحه بقصائد متعددة منها قوله فيه من قصيده له :

إلى أوس بن حارثة بن لام ليقضى حاجتى فيمن قضاها
فما وطئ الثرى مثل ابن سُعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

وَأَمَّا ابن جُدْعانَ : بضم الجيم وسكون الدال المهملة فهو أبو زهير عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى ثم التيمى الجواد المشهور المضروب به المثل فى حسن القِرى ، يقال أقرى من حاسى الذهب ، وإنما لقب حاسى الذهب لأنه كان يشرب فى كأس من ذهب ، وهو ابن عم أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — يجتمع معه فى عمرو بن كعب وكان من أشراف قريش فى الجاهلية ، وكان اجتماع حلف الفضول فى داره وحضره النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين عاماً ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد شهدت حلفاً فى دار ابن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت ، وهو أول من أطعم بمكة الفالوذج وكان له مناديان بأعلى مكة وأسفلها أحدهما ينادي قائلاً : ألا من أراد اللحم والشحم فليأت دار ابن جدعان والثانى يقول : ألا من أراد الفالوذج فليأت دار ابن جدعان .

ويقال إنه كان فى ابتداء أمره صعلوكاً فتاكاً لا يزال يجنى على أبيه الجنايات حتى أثقلت جناياته عاتقه حتى تبرأ منه أبوه فلم يزل حائراً يتمنى الموت حتى رأى شقاً فى جبل فدخل فيه لعله تكون به حية تنهشه فإذا به ثعبان له عينان تقدان كالسراجَيْن فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب عنه الثعبان مستديراً بدارة فيها بيت ثم خطا خطوة أخرى فصفر الثعبان وأقبل إليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه فوقف يفكر فى أمره فوقع في نفسه أنه مصنوع فتقدم فأمسكه فإذا هو مصوغ من ذهب وعيناه من ياقوت فكسره واقتلع عينيه ودخل فرأى جثث رجال طوال على سرير وعند رؤسهم لوح من فضة فيه تاريخهم فإذا هم رجال من ملوك جرهم ووجد فى البيت كوماً عظاماً من اليواقيت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد فأخذ منه ثم علّم الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة وأرسل إلى أبيه المال الذي

خرج به يسترضيه به ووصل عشيرته كلها فساد وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف والله تعالى أعلم بصحة ذلك .

وقد مدحه أمية ابن أبي الصلت بقوله :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء
وعلمك بالأمور وأنت قرمٌ لك الحسب المهذَّبُ والْهَنَاءُ
تبارى الريح مكرمة ومجداً إذا ما الكلب أهجره الشتاء
فأرضك كل مكرمة بَنَتْهـا بنو تيم وأنت لها سماء ..
إلخ

هذا وكرم ابن جدعان معروف ومدون فى الكتب التى تعتني بمثل ذلك فليرجع إليها من شاء .

وأمّا حاتمٌ : فهو أبو عدى وقيل أبو سفَّانة بتشديد الفاء الموحدة حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدى بن أخزم الطائى الجوادُ المشهور ، أجود العرب على الإطلاق مضروب به المثل بين الخاصة والعامة وكان مظفراً إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقدح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق ، وكان ورث الجود عن أمّه وهى من بنى عمومته عُتْبَةُ بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس ، يجتمع نسبها بنسبه فى امرئ القيس بن عدى ، يحكى أنها كانت لا تمنع سائلاً فحجر عليها إخوتها دهراً ومنعوها مالها خوفاً من إتلافها فلما كان بعد زمن ظنوا أنها ارعوت فأعطوها صرمة من الإبل فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل عام فقالت إنى قد رأيت من عضِّ الجوع مالا أمنع معه سائلاً خذى هذه الصرمة وأنشدت :

لعمرى لقد عضنى الجوع عضّة فآليت أن لا أمنع الدهر جائعاً
فقولا لهذا اللائم اليوم أعفنى فإن أنت لم تفعل فعضِّ الأصابعا

وأخبار حاتم بالجود أكثر وأشهر من أن أطيل بها فى هذا المختصر وهى موجودة ، ومما قاله الشعراء فى حاتم وجوده :

وحاتم طيٌّ إن طوى الموت جسمه فنشر اسمه فى الجود عاش مخلَّداً

وقال أبو الشمقمق يهجو بخيلاً :

لما سـألتك شيئـاً بَذَّلْتَ رُشْداً بِغَـيِّ
ممن تعلَّـمت هذا أن لَّاتجُـودَ بِشيٍّ
أمـا مررت بعبـدٍ لعبـد حاتم طيٍّ

وقال أبو تمام الطائى يفخر بجود طيئ :

أنا ابنُ الذين استُرضِعَ الجود فيهم وسُمِّى فيهم وهو كهْلٌ ويافعُ
سما بيَ أوْسٌ فى السَّماحِ وحَاتِمٌ وزَيْدُ الْقَنَا والأثرمان ونافِعُ
إلخ

[وَلَمْ يَدَعْ مَعْنًى لِمعْنٍ فى النَّدَى ولم يَكُن كمِثْلِه فى الْخُلُقِ]

ألفاظ البيت واضحة لا إشكال فيها .

ذكر معن بن زائدة الشيبانى

هو أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة بن مطر بن شريك بن الصُّلْتِ واسمه عمرو بن قيس بن شُراحيل بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة الشيبانى نسبه إلى ربيعة بن نزار ، وهو المضروب به المثل فى الجود يقال : حدث عن معن ولا حرج .

كان فى دولة بنى أمية متنقلاً فى الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين فلما انتقلت الخلافة إلى بني العباس وحاصر المنصور ابن هبيرة فى مدينة واسط أبلى معن يومئذ بلاءً حسنا مع ابن هبيرة فلما قتل ابن

هبيرة اختفى معن بن زائدة حتى كان يوم الهاشمية وهو يوم مشهور ثار فيه جماعة من أهل خراسان على المنصور ، خرج معن متنكراً معتماً متلثماً وقاتل أمام المنصور قتالاً يبين عن نجدة وبسالة وفرق جمعهم فلما أفرج عن المنصور قال من أنت ويحك ؟ قال أنا طليبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة الشيبانى فأمنه المنصور وأكرمه وصار من خاصته .

هذا ، وقد جرى لمعن فى زمن اختفائه عجائب نذكر قليلاً منها : قضيته مع الأسود ، وهي أنه لما اشتد عليه طلب المنصور تزيا بزى الأعراب وركب جملاً وخرج من بغداد متوجهاً إلى البادية ليقيم فيها فلما خرج من باب حرب تبعه الأسود متقلداً سيفاً حتى إذا غاب عن الحرس أخذ خطام البعير فأناخه وقبض على يد معن ، فقال له ومابك ؟ قال الأسود : أنت طلبة أمير المؤمنين فقال معن : ومن أنا حتى أُطلب ؟ قال الأسود : أنت معن بن زائدة فإنى والله لأَعْرفُ بك منك ، فقال معن : هذا عقد جوهر حملته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن أتاه بى فخذه ولا تكن سبباً فى سفك دمي ، قال هاته ، فأخرجه إليه ، فنظر فيه ساعة وقال صدقت فى قيمته ولست قابله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتنى أطلقتك ، قال معن : قُلْ ، قال الأسود : إن الناس قد وصفوك بالجود فأخبرنى هل وهبت مالك كله فيما سبق ؟ قال معن : لا ، قال : فنصفه ؟ قال لا ، قال فثلثه ؟ قال لا ، حتى بلغ العشر فاستحيا وقال : أظن أنى فعلت هذا ، قال الأسود : ماذاك بعظيم أنا والله راجل ورزقى كل شهر عشرون درهماً وهذا العقد قيمته ألوف الدنانير وقد وهبته لك ووهبت لك نفسك لجودك المأثور بين الناس ولتعلم أن فى هذه الدنيا من هو أجود منك ثم رمى العقد ورمى خطام البعير وانصرف ، فقال معنٌ ياهذا والله لقد فضحتني ولسفك دمى أَهْوَنُ عليّ مما فعلت بى فخذ العقد إنى غني عنه . فضحك وقال : أردت أن تكذبنى فى مقالى هذا ؟ والله لا أخذت على معروف ثمناً أبداً ومضى لسبيله ، ويحكى أن معنا لما أمن جد فى طلب هذا الأسود فلم يظفر به .

وفى نزهة الألباب أن معناً دخل عليه أعرابى فقال :

أتذكر إذْ لحافك جلد شاة وإذا نعْلاكَ من جلد البعير ؟

فقال معن أذكر ذلك ولا أنساه ، فقال الأعرابى :

فسبحان الذى أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير

قال معنٌ سبحان الله ذلك من فضل الله ، فقال الأعرابى :

فلا والله ما إن عشت دهراً على معن أسلم بالأمير

فقال معن أنت بالخيار ، فقال الأعرابى :

فجد لى يابن ناقصة بمال فإنى قد عزمت على المسير

فقال معنٌ أعطه ياغلام ألف دينار ، فقال الأعرابى :

قليل ما منـنت به وإنى لأطمع منك بالشىء الكثير

فقال معن ياغلام أعطه ألفاً أخرى ، فقال الأعرابى :

قبلت فقد ملكت الأرض طراً بلا أدب ولا حسب خطير

فقال معنٌ أعطه ألفاً أخرى ، فقال الأعرابى : لله درك والله لقد وضعت هذه الأبيات أختبر بها حلمك فإذا حلمك لو قسم على أهل الأرض لكفاهم ، فقال معن ياغلام كم أعطيته ؟ قال ثلاثة آلاف ، فقال أعطه مثلها وزده ألفاً لئلا يظن أننا لا نفرق بين المدح والهجاء .

ودخل معن يوماً على المنصور فلما نظر إليه قال هيه يامعنُ تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف على قوله :

معنٌ بن زائدة الذى زادت به شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال كلا ياأمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله فى هذه القصيدة :

مازلت يوم الهاشمية معلناً بالسَّيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان

فقال له أحسنت يامعن ، وقال له يوماً يامعن ما أكثر وقوع الناس فى قومك ، فقال ياأمير المؤمنين :

إن العرانين تلقاهـــا محسدة ولا ترى للئام الناس حُسَّادا

قلت : وقرأت فى نسخة خطية من أمالى أبى على القالى أن معناً بن زائدة جاءه شاعر فمنع من الدخول عليه سنة فلاحظ أنه يخرج فى رابعة النهار يغتسل فى بركة ببستان له تغذيها قنطرة من خارج البستان فنقش بيتاً فى قطعة من الخشب ورماها فى القنطرة وقت وجود معن بالبركة فلما وصلت إليه قرأ ما كتب عليها فإذا هو :

أيا جود معنٍ ناجِ معناً بحاجتي فما لى إلى معنٍ سواك رسولُ

فخرج وجلس فى مجلسه وليس وقت جلوس وقال علىَّ بناقش البيت ، فتفرقوا يطلبون ناقش البيت فأتوه به فقال رسولك قد بلّغ ، ما حملك على ما فعلت . قال منذ سنة وأنا أُحاولُ الدُّخول عليك ومنعني من الانصراف الثقة بحصول مطلوبى ، فأقسم معن أن لا يتخذ حاجباً بعدها وأعطاه ألف درهم وجلس أربعين يوماً كلما نظر إلى الخشبة يسأل عنه فإذا حضر أعطاه ألف درهم فحسده بعض الناس وقال لو اطلع أمير المؤمنين على ماأنفق معنٌ من بيت المال عليك عزله واسترده منك فشرد الرجل ، فلما كان الحادى والأربعون سأل عنه فلم يوجد ، فقال سبحان الله لقد ظن بنا غير الذى أردنا به والله لو مكث عمره لأعطيته ألف درهم كلما نظرت هذا البيت ؛ « والله أعلم » .

وقد ولى معن بن زائدة سجستان فى آخر عمره وفى سنة إحدى وخمسين ومائة كان له صناع يعملون له شغلاً فاندس فيهم قوم من الخوارج فقتلوه بسجستان بمدينة بست منها وهو يحتجم فتتبعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة فقتلهم عن آخرهم ، ولما قتل معن كثرت المراثى فيه ، فمن ذلك قول الحسين بن مطير الأسدى :

ألما إلى معنٍ وقولا لقبره | سقتك الغوادى مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معن كيف واريت جوده | وقد كان منه البحر والبر مترعا
ويا قبر معنٍ أنت أول حفرة | من الأرض حلت للسماحة مضجعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت | ولو كان حياً ضقت حتى تصدَّعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته | كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى | وأصبح عرنين المكارم أجدعا

ويحكى أن مروان بن أبى حفصة دخل يوماً على جعفر بن يحيى البرمكى فقال له ويحك أنشدنى من مرثيتك فى معن بن زائدة فقال بل أُنشدُك من مدحى فيك فقال جعفر بل أنشدنى من مرثيتك فى معْن فأنشده :

مضي لسبيله معنٌ وأبقى | مكارمَ لن تبيد ولن تنالا
هو الذى كانت مَعَدٌّ | تهد من العدو به الجبالا
وعطلت الثغور لفقد معن | وقد يروى به الأسل النهالا
وأظلمت العراق وأورثتها | مصيبتُها المجللةُ اختلالا
كأن الشمس يوم أصيب معنٌ | من الإظلام ملبسةٌ جلالا
أصابَ الموتُ حين أصاب معْناً | من الأحياء أكرمهم فعالا
وكان الناس كلهم لمعنٍ | إلى أن زار حفرته عيالا
ولم يك طالب المعروف ينوى | إلى غير ابن زائدة ارتحالاً

إلخ

وهى قصيدة طويلة فلما فرغ من إنشادها وجعفر كلما سمع منها يبكي ، قال له جعفر هل أثابك على هذه المرثية أحد من أولاده ؟ قال لا ، قال : لو كان معن حيًّا ثم سمعها منك فما هو تصورك أنه يثيبك عليها ؟ قال أصلح الله الوزير أربعمائة دينار قال جعفر ما أظن معناً يرضى بذلك فقد أمرنا لك بالضعف عن معن وأمرنا لك بمثل ذلك من قبلنا فخذ من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك .

[مُنْذُ كَانَ طِفْلاً والسَّمَاحُ دَأْبُهُ ... وغَيْرَ مَأْخَذِ الثَّنَا لَمْ يَعْشِقِ]
[نَشَأَ فى حِجْرِ الخِلَافَةِ وَقَدْ ... شَبَّ فَتًى بغيرِهَا لم يَعْلَقِ]
[فَبَايَعَتْهُ النَاسُ طُراً دَفْعَةً ... لَمْ يَكُ فيهَا أَحَدٌ بالأَسْبَقِ]
[وأَعْطِيَتْ قَوسُ الْعُلَا مَن قَدْ بَرَى ... أَعْوَادَهَا رِعَايَةً للأَلْيَقِ]
[فَصَارَ فَيْءُ الْعَدْلِ فِي زَمَانِهِ ... مُنْتَشِراً مِثْلَ انْتِشَارِ الشَّرَقِ]

الطفل بكسر الطاء الولد الصغير من الإنسان والدواب وقد يكون بلفظ واحد للذكر والأنثى والجمع والمفرد ، قال تعالى : ﴿ **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ﴾ .

وقول الناظم : وغير مأخذ الثنا لم يعشق ، أخذه من قول أبي الطيب :

بصيرٌ بأخذ الحمد من كل موضع ... ولو خبَّأتْهُ بين أنيابها الأُسْدُ

[وشَادَ رُكْنَ الدين بالسَّيف وقَدْ ... حَازَ بِتَقْواهُ رِضَي المُوَفَّقِ]
[وَقَدْ رَقَى فى ملكه مَعَارجًا ... لَمْ يكُ غَيْرُهُ إليها يرتَقي]
[وردَّ أرواحَ المكارمِ إلى ... أجْسادها بعد ذهابِ الرمقِ]
[والسَّعْدُ قَدْ أَلقَى عصى تَسياره ... بقصره وخصه بِمَعْشَقِ]

فقول الناظم : ورد أرواح المكارم إلى أجسادها البيت ، مأخوذ من قول القائل :

سألت الندى والمجد حيان أنتما ... وهل عشتما من بعد آل محمد
فقالا نعم متنا جميعاً وضَمَّنا ... ضريحٌ وأحيانا دبيسُ بن مزيد

[يَامَلكاً ألويَةُ النَّصْر على ... نظيره فى غَرْبنَا لَمْ تَخْفِقِ]
[طَابَ المدِيحُ فِيكُم وَازْدَانَ لى ... وَجَاشَ صَدْري بالفريد المونقِ]
[لَوْلَاكَ كنتُ للقَريضِ تَاركاً ... لِعَدَمِ البَاعِثِ وَالمُشَوِّقِ]
[تَرْكَ الغَزَالِ ظِلَّهُ وَوَاصِلِ ... للرَّاءِ وابْنَ تَوْلَبٍ لِلْمَلَقِ]

ومعنى قوله طالب المديح فيكم البيت معناه قد سهل عليَّ مدحكم ووجدت فيه نشاطي وراحتي وتيسر لى فيه من حر الكلام وبديع النظام مالم يكن يتيسر لى من قبل وهذا من أبلغ المدح والتنويه بقدر الممدوح لأن فيه تعريضاً بكثرة ووضوح مآثره .

وقد قيل للفرزدق : قد أحسن الكميت فى الهاشميات ، قال وجد آجراً وجصًّا فبنى ، يعنى أن كثرة مُدَحِهِم يسرت عليه مدحهم .

وفى هذا المعنى قال آخر : جود آل المهلب تركهم أهدافاً للمديح ، وقال أبو الطيب :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه ... وإن لم أشأ تملى على فأكتُبُ

وقال نصيب بن الأصغر :

مالقينا من جود فضل بن يحيي ... ترك الناس كلهم شُعَراءَ

وقول الناظم : ترك الغزال ظله ، يعنى به المثل المشهور ، قال الميدانى : الظل هاهنا الكناس الذى يستظل به فى شدة الحر فيأتيه الصائد فيثيره فلا يعود إليه ، يضرب به المثل لمن نَفَرَ مِنْ شئ فتركه تركاً لا يعود إليه ، ويضرب فى هجر الرجل صاحبه أو حِرْفَتَهُ ، قال أبو حيان النحوى يمدح الإمام الشافعى رحمه الله :

ألا إن علم النحو قد باد أهله ... فما إن ترى فى الحى من بعدهم حيًّا
سأتركه ترك الغزال لظله ... فأتبعه هجراً وأوسعه نأيا
وأسمو إلَى الفقه المبارك إنَّه ... ليرضيك فى الأخرى ويعليك فى الدنيا

والملق المديح الذى معناه أن تعطى باللسان ما ليس بالقلب .

ذكر ابن تولب وتركه المديح والهجاء

هو النمر بن تولب العُكْلى أحد المخضرمين من الشعراء فهو شاعر مشهور مقل

مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم وحَسَن إسلامه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لجودة شعره وحسنه ، وقال أبو عبيدة : كان النمر بن تولب شاعر الرباب فى الجاهلية ولم يمدح أحداً ولا هجاه وأدرك الإسلام وهو كبير ، وقال محمد بن سلام كان النمر بن تولب جواداً لا يكاد يمسك شيئاً وكان فصيحاً وهو الذى يقول :

. تغضبنَّ على امرئ فى ماله   وعلى كرائم صُلب مالك فاغضب
وإذا تُصْبك خصاصة فارجُ الغنى   وإلى الذي يعطى الرغائب فارغب

وأخبار النمر بن تولب كثيرة ذكرها الأصفهانى فى الأغانى وابن عبد البر فليقف من شاء الوقوف عليها فيهما وبالله التوفيق .

ذكر واصل بن عطاء

هو أبو حذيفة واصل بن عطاء مولى بنى ضبة وقيل مولى بن مخزوم وهو المعروف بالغزال شيخ المعتزلة ورأسهم ، قال ابن خلكان : كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين فى علم الكلام وغيره ، ولد سنة ثمانين من الهجرة بالمدينة المنورة وانتقل إلى البصرة .

ذكر السمعانى فى كتاب الأنساب أن واصلا كان يجلس إلى الحسن البصري « رحمه الله » فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر ، وقالت الجماعة إنهم مؤمنون وإن فسقوا بالتكفير بالكبائر ، خرج واصل بن عطاء على الفريقين وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزله وجلس إليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولأتباعهما معتزلة .

وكان واصل يلثغ بالراء فيجعلها غيناً فكان لبلاغته يخلص كلامه من الراء ولا يُفطن لذلك لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه عليه ، ولذلك يقول فيه

شاعر المعتزلة أبو الطروق الضبى يمدحه :

عليمٌ بإبدال الحروف وقامع لكلِّ خطيب يقلب الحق باطله

ومما يحكى عنه وقد ذكر بشَّار بن برد وكان يهجوه فقال : أما لهذا الأعمى المكتنى بأبى معاذ من يقتله ؟ أما والله لو أن الغيلة خُلُقٌ من أخلاق العالية لبعثت إليه من يبعجُ بطنه فى مضجعه ثم لا يكون لا سدوسياً ولا عُقبلياً ، تأمل :

فقد قال : هذا الأعمى ، ولم يقل الضرير ، وقال المكتنى بأبى معاذ ولم يقل بشار بن برد ، وقال من أخلاق العالية ولم يقل المغيرية ولا المنصورية وقال لبعثت ولم يقل لأرسلت ، وقال على مضجعه ولم يقل على فراشه وقال يبعج ولم يقل يبقر .

وقد كان واصل يضرب به المثل فى إسقاط حرف الراء من كلامه ، وقد ذكر ذلك الشعراء فى أشعارهم ، قال أحدهم :

ولما رأيت الشيب راءً بعارضي تيقنت أن الوصل لى منك واصلُ

وقال آخر :

أجعلت وصلى الراء لم تنطق به قَطَّعتني حتى كأنك واصل

وتوفى واصل بن عطاء سنة إحدى وثمانين ومائة « والله أعلم » .

[وكنْتُ فى تَرْكِي لَهُ كابْنِ أبِى رَبيعَةِ النَّاذِرِ عِتقَ الهُنبُقِ]
[ومُذْ بِكَ الرحمنُ مَنَّ لَمْ يَزَلْ فكريَ فى بحر الثَّنَا ذا غَرَقِ]
[لَازِلْتَ بَدْراً فى بُروج الشِّعْر تنْـسَخُ بِنُورِك ظَلَامَ الغَسَقِ]
[ولابَرِحْتَ بالأَمَانى ظَافِراً ومُدْرِكاً لما تَشَا مِنْ أنَقِ]
[بِسُورَةِ الْفَتْحِ وَطَهَ والضُّحى وآية الكُرْسِى وآيِ الْفَلَقِ]
[إليكَهَا أرْجُوزة حُسَّانَةً لمثلها ذو أدَبٍ لم يَسْبِقِ]
[كأنَّها أسْلَاكُ درٍّ ويَـوَا قيتُ تُضِي كالبارِقِ الْمُؤْتَلِق]

[أعَزُّ من بَيْضِ الأنوقِ ومنَ الـ ـعَنْقَا ومِنَ فَحْلٍ عَقُوقٍ أبْلَقِ]

والهنبُق كقُنفُذٍ الوصيف من الغلمان ، وأما ابن أبي ربيعة فقد تقدمت ترجمته وقد قدمنا فيها أنه تنسك فى آخر عمره وترك ماكان عليه من الشعر والغزل وذكروا أنه صار لذلك إذا قال بيتاً من الشعر كفر عنه بعتق عبد .

ذكر أبوالفرج الأصفهانى نقلاً عن الزبير بن بكار أن ابن أبي ربيعة رأى رجلاً يوماً يكلم امرأة فى الطواف فعاب عليه ذلك ، فقال إنها ابنةُ عمى ، قال ذلك أشنع لأمرك ، فقال إنى خطبتها عند أبيها فامتنع إلا بأربعمائة دينار وأنا غير مطيق لذلك وشكا إليه من حبها وكلفه بها أمراً عظيماً فسار عمر معه إلى عمه فكلمه فقال هو مملق وليس عنده ما يصلح به أمره فقال له عمر وكم الذى تريده منه ؟ فقال أربعمائة دينار ، فقال عمر هى عليَّ فزوجه منها ففعل ذلك ، وكان عمر حين أسنَّ حلف أن لا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة فانصرف إلى منزله يحدث نفسه فكلمته جارية له فلم يرد عليها جواباً فقالت له إن لك لأمراً وأراك تريد أن تقول شعراً ، فقال :

تقـول وليـدتى لما رأتنـي ... طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً ... وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء ... إذا ما شئت فارقت القرينـا
بعيشك هل أتاك لها رسول ... فشاقك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا إلىَّ أخٌ محبٌّ ... كبعض زماننـا إذ تعلمينـا
فقص على ما يَلْقـى بهنـدٍ ... فذكَّـر بعض ماكنـا نسينـا
وذو الشوق القديم وإن تعزَّى ... مشُوقٌ حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة أعرضت عنها ... لغير قلىً وكنت بها ضنينا
أردت بعادهـا فصددت عنها ... وإن جُنَّ الفوادُ بها جنونـا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم لكل بيت واحد ، « والله تعالى أعلم » .

وقوله حُسَّانة بوزن رمانة صفة من الحسن وهى أبلغ من حسنة .

ذكر العنقاء وبيض الأنق والأبلق العَقُوق

أما العنقاء، فقد قال فى القاموس: العنقاء الداهية، وطائر معروف الاسم مجهول الجسم أو هو طائر يبعد فى طيرانه عظيم.

وقال الميدانى فى مجمع الأمثال: قال الخليل سميت عنقاء لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق وقيل بل لطول عنقها، قال ابن الكلبى: كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له دمْخٌ مصعده فى السماء ميل وكانت تنتابه طائرة كأعظم ما يكون لها عنق طويل من أحسن الطير، فيها من كل لون وكانت تقع منتصبة فكانت تكون على ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكله. فجاعت ذات يوم وأعوزها الطير فانقضت على صبى فذهبت به فسميت عنقاء مغرباً لأنها تغرب كل ما أخذته ثم إنها انقضت على جارية فضمتها إلى جناحين لها صغيرين فطارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم فقال اللهم خذها واقطع نسلها وسلط عليها آفة فأصابتها صاعقة فاحترقت فضربتها العرب مثلاً فى أشعارها.

قال عنترة بن الأخرس الطائي يرثى خالد بن يزيد:

لقد حلَّقتْ بالجود فتخاء كاسرٌ كفتخاء دَمْخٍ حلَّقت بالحِزَوَّر

والحاصل أنه مثل تضربه العرب للأمر العجيب النادر وقوعه، وكل ما جاء فى العنقاء من أخبار فهو أشبه بالهذيان، وقولهم أعز من العنقاء يريدون أنها تسمع ولا ترى، وكان بعضهم يتمثل بقول القائل:

وإذا السعادةُ لاحظتك عيونها نَمْ فالمخاوف كلهنَّ أمانُ
فاصطد بها العنقاءَ فهى حبالةٌ واقْتَد بها الجوزاء فهى عِنانُ

وأمَّا بَيْضُ الأنُوقِ: على وزن صبور قال الدميرى هى الرخمة أو طائر أسود

أصلع أصفر المنقار وعزة بيضها هو أنه لا يظفر به لأن أوكارها فى رءوس الجبال ، قال الأخطل :

من الغانيات الحور مطلب سرها كبيض الأنوق المستكنة فى الوكر

وأما الأبلق العقوق : قال الميدانى : يقولون أعَزُّ من الأبلق العقوق يضربون به المثل لما يعز وجوده لأن العقوق فى الإناث ولا تكون فى الذكور يقال أعقت الفرس فهى عقوق إذا حملت ، ولا يقال مُعِقّ والأبلق لا يحمل لأنه وصف للذكر .

قالوا : وأصل المثل لخالد بن مالك النهشلى قاله للنعمان بن المنذر وكان قد أسر ناساً من بنى مازن بن عمرو بن تميم فقال من يتكفل بهؤلاء ؟ فقال خالد أنا فقال النعمان : وبَما أحَدٌ نَوىَ ؟ فقال خالد : نعم وإن كان الأبلق العقوق ، فذهبت مثلاً ، وكانت العرب تسمى الوفاء الأبلق العقوق لعزة وجوده .

ويحكى أن رجلاً قال لمعاوية : افرض لى ، قال نعم ، قال ولولدي ، قال لا ، قال ولعشيرتي فتمثل معاوية بهذا البيت :

طلب الأبلق العقوق فلما لم يجده أراد بيض الأنوقِ

[مَارَوْضَةٌ فَيْنانَةٌ غَنَّاءُ قَدْ جَادَتْ لَهَا السُّحْبُ بَماءِ غَدَقِ]
[فَابْتَسَمَتْ أغْصَانُهَا عَن أبيضٍ وَأحْمَرٍ وأصْفَرٍ وأزْرَقِ]
[يَوْمَاً بأبْهَى لِلْعُيونُ مَنْظَراً مِنْهَا وَلَا كَلَفْظِها المُرَوْنَقِ]
[مَالِجَريرٍ وجَميلٍ مِثْلُهَا فِى غَزَلٍ وفى نسيبِ مُونِقِ]

ذكر جرير وجميل

أمَّا جَريرٌ : فهو أبو حَرْزَةَ جرير بن عطية بن الخَطَفَى واسمه حذيفة بن بدر ابن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

التميمى ثم اليربوعى الشاعر المشهور كان من فحول شعراء الإسلام وكان بينه وبين الفرزدق مهاجاة ، وأجمع علماء الشعر أن جريراً والفرزدق والأخطل مقدمون على من لم يدرك الجاهلية من شعراء الإسلام على أن الأخطل دون الاثنين والخلاف فى الفرزدق وجرير أيهما أشعر ولكل واحد منهما من يقدمه على الآخر .

ويحكي أن جريراً هاجي ثمانين شاعراً فغلبهم وفضحهم ولم يثبت له إلا الفرزدق ، وقال محمد بن سلام : رأيت أعرابياً من بني أسد أعجبنى ظرفه وروايته فقلت له أيهما عندك أشعر جرير أم الفرزدق ؟ فقال بيوت الشعر أربعة : مدحٌ وهجاءٌ وفخرٌ ونسيبٌ وفى كلها غلب جرير ، قال فى الفخر قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهمُ غِضابا

وفى المديح قوله :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح ؟

وفى الهجاء قوله :

فَغُضَّ الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وفى النسيب قوله :

إن العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لايدين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله إنسانا

قال محمد بن سلام وبيت النسيب عندي قوله :

فلمْا التقى الحيان أُلقيت العصى   ومات الهوى لما أُصيبت مقاتِلُهْ

والغريب فى أمر جرير والفرزدق أن الأخير كان مشهوراً بالنساء ومع ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب وأن الأول كان عفيفاً لم يعشق قط ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً وقد شهد له الفرزدق بذلك والحق ما شهدت به الأعداء ، فقد قال فيه : قاتله الله فما أحسن ناحيته وأشرد قافيته والله لو تركوه لأبكى العجوز

على شبابها والشابة على أحبابها ولكنهم هرُّوه فوجدوه عند الهراش نباحاً وعند الجراء قارحاً ولقد قال بيتاً لأن أكون قلته أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

ومات جرير باليمامة عن نيف وثمانين سنة وذلك سنة عشر ومائة للهجرة .

وأما جميلٌ : فهو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن مَعْمرٍ بن صُباح بضم الصاد بن ظبيان بن حُنٍّ بضم الحاء المهملة وتشديد النون بن ربيعة بن حرام بن ضنَّة بتشديد النون بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد العذرى الشاعر المشهور صاحب بثينة العُذرية وهو أحد عشَّاق العرب ، وهو ليس جميل بن معمر الجمحى الصحابى فإن ذلك ابن عبد الله بن مَعْمرَ والصحابى ابن معمر من بنى جمح والعاشق من بنى عُذرة ، وكان من خبره أنه علق بثينة وهو غلامٌ فلما كبر خطبها فرده أبوها فقال الشعر فيها وكان عفيفاً ديناً كما ذكر ابن عساكر . ومعلوم أن بنى عُذرة اشتهروا بالعشق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك وأشعاره كثيرة مشهورة مثبتة فى ديوانه ومنها قوله « رحمه الله » .

وإنِّى لأَرْضَى مِن بُثَيْنَةَ بِالَّذِي لَوْ ابْصَرَهُ الواشى لَقرتْ بَلَابِلُهْ
بِلَا وَبِـأَلَّا أَسْتَطِيعَ وَبِالْمُنَـى وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ قَدْ خَابَ آمِلُهْ
وبِالنَّظْرَةِ العَجْلى وَبِالْحَوْلِ تَنْقَضِي أَوَاخِـرُهُ لَا نَلْتَقِـي وَأَوَائِلُـهْ

وتوفى جميل سنة إحدى وثمانين ، ولما بلغت وفاته بُثَيْنَةَ صَعِقَتْ ثم أُغْشِيَ عَلَيْهَا ساعةً ثم قامت وهى تقول :

وإنَّ سُلُوِّى عَنْ جَمِيلٍ لَساعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ مَا حَانَتْ وَلَاحَانَ حِينُها
سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَاجَمِيلُ بْنَ مَعْمَرٍ إذَا مِتَّ بَأْسَاءُ الْحَيَاة وَلِينُهَا

[فَلَوْ رآها الأَصْمَعِىُّ خَطَّهَـا كَيْ يَسْتَفِيدَ بِسوَادِ الْحَدَقِ]
[أَوْ فَتَحَ الْفَتْحُ عَلَيْهَا طَرْفَهُ سَامَ قَلائِـــده بالتَّمَـــزُّقِ]

ذكر الفتح وقلائده

هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسى الإشبيلى الأديب المشهور صاحب التآليف منها كتابه « قلائد العقيان » جمع فيه من « شعر شعراء » المغرب طائفة كبيرة وتكلم على ترجمة كل شاعر جاء بشعره بألطف عبارة وأحسن إشارة ، قال أبو الخطاب ابن دحية فى كتابه المطرب فى أشعار أهل المغرب : إنى لقيت جماعة من أصحابه وحدثوني عنه وعن تصانيفه وعجائبه ، وكان خليع العذار فى دنياه وكان كلامه فى تآليفه كالسحر الحلال والماء الزلال ، قتل ذبيحاً فى مسكنه بفندق بمراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان قتله بأمر أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين ، وهو أخو أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذى ألف له الفتح قلائد العقيان وقد ذكره فى خطبة الكتاب ، كذا فى ابن خلكان :

[أَوْ وَصَلَتْ لِلْمُوصِلِى فيما مَضَى عِنْدَ الْغِنَا بِغَيْرِهَا لَمْ يَنْطِقِ]

ذكر الموصلى

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن بن نسك التميمى ولاءً الأَرَّجانىُّ أصلاً المعروف بابن النديم الموصلى ، كان من ندماء الخلفاء من بنى العباس وله الظرف المشهور والخلاعة اللذان تفرد بهما .

وإسحاق هذا ذكر الأصفهانى أنه كان من أهل العلم « والله تعالى أعلم » برواية الأصفهانى .

وإسحاق الموصلى هو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يسبق إليه وكانت ولادة إسحاق الموصلى سنة مائة وخَمْسينَ للهجرة وكانت وفاته فى رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين للهجرة .

نبذة عن الغناء

اعلم أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يغنون غناء بديع الصنعة ولامطرباً ، ذكر أبو الفرج الأصفهاني فى الأغاني أن غناء العرب كان جارياً مجرى الإنشاد إلا أنه يقع بتطريب وترجيع يسير ورفع للصوت .

وفى المستطرف أن غناء العرب كان على ثلاثة أوجه : النَّصْبُ والسِّنَادُ والْهَزَجُ ، فأمَّا النَّصْبُ فغناء الفتيان والركبان ، وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات ، وأما الهزج فالخفيف كله وهو الذي يستفز الوقور ويهيج الحليم ، قال فى الأصل : والظاهر أن هذا كان غناءهم بعد الإسلام أما قبل الإسلام وعلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فلم يكن فى غنائهم كثرة نغمات ولا مايَسْتَفِزُّ الوقور ، بل كان جارياً مجرى الإنشاد كما قال أبوالفرج وهو أدرى بهذا الشأن من غيره ا هـ .

ولما وقعت الفتوحات الإسلامية واستولى المسلمون على ملك فارس وسبوا أبناءهم وورثوا حضارتهم سمعوا غناء عبيدهم وإمائهم منهم بمكة والمدينة وغيرهما من الأمصار فعشقوه لأنه كان ألذ من غنائهم فحذوا حذوه ولحنوا عليه أشعارهم محاكين له فقط من غير إتيان به على وجهة الفارسي لأن العجم كانوا يغنون غناء هندسياً والعرب يغنون غناء طبيعياً إلا أنه جاء بعد المحاكاة لغناء العجم ألَذَّ وأطرب من غناء العجم .

وأول من غنى هذا الغناء العربى المحدث بالمدينة طوَيْسٌ المُخنَّثُ ، ذلك أن عمر ـــ رضى الله عنه ـــ جعل لسبى الفرس يومين يستريحون فيهما من الشهر فكان طويس يغشاهم حتى فهم طرائفهم وغنَّى غناء يشاكل غناءهم .

طريفة : طويس هذا ولد يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفطم يوم توفى أبو بكر الصديق وختن يوم توفى عمر بن الخطاب وبنى بأهله يوم قتل عثمان ابن عفان وولد له يوم قتل على ـــ رضى الله عنه ـــ ، ولذا قيل فيه أشأم من

طويس . وأول من غنَّى بمكة سعيد بن مسجح مولى بنى جمح أو هو مولى لبنى مخزوم وذلك أنه مر بالفُرْسِ يبنون المسجد الحرام أيام ابن الزبير فسمع غناءهم بالفارسية فلحَّن عليه شعر العرب ، وذكر أبو الفرج أنه رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم . واعلم أن ألحان العرب كانوا يوقعونها فى أكثر أحوالهم على ثمانية ألحان :

الثقيل الأول وخفيفه ، والثقيل الثانى وخفيفه ، والرمل وخفيفه ، والهزج وخفيفه .

قلت : وعلى شية هذه الأضرب كان الطرب الحالى بموريتانيا فإنه مبنى عندهم على ثمانية أضرب يسمونها بلهجتهم الدارجة كالتالى :

١ ــ كَرْ بفتح الكاف وسكون الراء ، وهو ضربان :

أ ــ لَكْحَالْ بفتح اللام وسكون الكاف وفتح الحاء الممدوة بعدها لام ساكنة .

ب ــ لَبْيَاظْ ــ بفتح اللام وبعدها باء ساكنة فياء مفتوحة ممدودة فظاء وهو تصحيف البياض بلهجتهم ، والأول عبارة عن الثقيل الأول والثانى عبارة عن خفيفه ويعبر الموريتانيون بهذا الضرب عن طور الشباب الجنوني المندفع فى الطرب من غير تفكير فى شئ ما .

٢ ــ ويُسمى بلهجتهم الدارجة فَاقُو ، بفاء ممدودة بعدها قافٌ مضمومة ممدودة ، وهو ضربان :

أ ــ لَكْحَالْ ، ويسمى أيضاً عَرّاىْ السْروزْ بعين مفتوحة فراء مشددة ممدود فياء ساكنة فسين ساكنة فراء مضمومة ممدود فزاء ساكنة ، ومعناه عندهم أنه موجب لقتل الفرسان لما يبعث فيهم من التحمس حتى يحمل أحدهم نفسه على الموت .

ب ــ لَبْيَاظ ، ويدعى أيضاً بالتَّحْرَارْ : والأول عبارة عن الثقيل الثانى والثانى عن خفيفه ويعبر الموريتانيون بهذا الضرب عن طور استواء المرء وبلوغه أشده واندفاعه

يعمل لمستقبله الدنيوى والأخروى ، لذلك فإنه هو المناسب عندهم إنشاده فى الحروب وأثناء الأعمال الشاقة لما تحمل نغماته به على الاندفاع .

٣ ــ ويسمى بلهجتهم الدارجة سَنييمَه ، بسين مفتوحة فنون مضغومة فى الياء الممدودة بعدها وبعدها ميم مفتوحة فهاء غير منطوقة فى دارجتهم ، وهو ضربان أيضاً :

أ ــ لَكْحَالْ ، والثانى ــ لبياظ ، وهناك قسم ثالث فى هذا الضرب يدعونه الزَّرَاق بزاى تنطق متفشية غير فصيحة ، ولا يستطيع ضرب العود فيه إلا الفنان الماهر لأنه مزدوج بين الضربين من نفس النوع متولد بينهما ، وإيضاح ذلك أن ما يسمى لكحال ينبغى له شد الأوتار والتركيز فيها على ضرب القصار وعكس ذلك ما يدعى لبياظ فإنه ينبغى له إعطاء الأوتار نَفَساً والتركيز فيها على الطوال .

وما يسمى بالزراق يكون الضرب والتلحين فيه مزيجاً بين هذا وهذا ، وذلك ما يعطيه نوع صعوبة فنية ، وهذا الضرب الثالث فى مقابل الرمل وخفيفه ويعبر الموريتانيون بهذا الضرب الثالث الذى يدعى سنييمه عن طور الكهولة واشتياق المرء وحنينه إلى أطوار فتوته فهو لذلك ينعى نفسه . والضرب فى هذا النوع والتغريد فيه خطر كل الخطورة على المورتيانى المغترب فهو مدعاة لشوقه لوطنه وذويه .

٤ ــ لَبْتَيْتْ ، بلام مفتوحة فباء ساكنة فتاء مفتوحة فياءٌ ساكنة فتاء ساكن وهو طبعاً بالدارجة الموريتانية ، وهو ضربان أيضاً ، لكحال ولبياظ ، وفى كل واحد منهما جوانب وضروب ومسميات يطول استقصاؤها وهو عبارة عن الهزج وخفيفه ولست بالمحل الذى يخولنى التفصيل فيها والدخول فى ذلك ، وكذلك كل الأضرب السابقة ويعبر الموريتانيون بهذا الضرب عن انتهاء حياة المرء وبكاء ذويه عليه ولذلك فإن أكثر ما تنشد فيه المراثى .

وعلى كل حال فإن الفن الموريتاني بالغ أوجه يتذوقه من أعطى معرفة منه فإنه

يتجاوب بطبعه بكل سهولة مع الرنات والنغمات ، وحيث تختل زنة أو نغمة واحدة منها يرى لها حساً مؤلماً فى نفسه ونفوراً فى طبعه ، والفنان الموريتاني يستطيع أن يجعل أوتاره تخال تنطق تجاوباً معه بما يردده من نغمات ، ألا تسمع إلى قول شيخنا العلامة المرحوم أمير المؤمنين فى اللغة العربية وأدبها على الرغم من اشتهاره بالعلوم الشرعية ، الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني ثم اليعقوبي فى قصيدته التي وَدَعَ فيها الشعر وإنشاءه وإنشاده ، فقد حدثني عليه « رحمه الله » أنه أنشأها وهو ابن خمس وعشرين سنة ، قال رحمه الله :

أنقذت من داء الهوى بعلاج ... شيباً يزين مفارقي كالتاج
قد صد بي حلم الأكابر عن لمى ... شفة الفتاة الطفلة المغناج
ماء الشبيبة زارع فى صدرها ... رمانتى روض كحق العاج

إلى أن قال ، وهو محل الشاهد :

أَو ذات عود أنطقت أوتارها ... بلحون قول للقلوب شواجي
وتخال رنَّات المثانى أحرفا ... قد رددت فى الحلق من مهتاج
وكأنها قد لقنت راناتها ... متحيزات حريمها الهياج

وقال ابن عمنا وخالنا المرحوم الشيخ محمد البيضاوى بن أمانة الله الجكنى ثم اليوسفي ، قال فى هذا القبيل :

تذيبني نقط الأوتار من عود ... غالية الغيد من بيض ومن سود
إن حركت فى جناب العود أصبُعها ... يجري من النفس مجرى الماء في العود
أو غَرَّدَتْ فعقول الْقَوْمِ ذاهِلةٌ ... كأنما شربوا من بنت عنقود

وقال ابن عمنا محمد الأمين بن ختار بن سيدى محمد بن بولبات الجكني مخاطباً فناناً يدعى ولد الزين .

ولد الزين زدت فى البيت اشتهى ... نغمات وكنَّ فيه عذاباً

ردد البيت إنَّ فى البيت بُرءاً وسقامـــاً ورحمة وعذابـــاً

إلى غير ذلك مما يتبين به بوضوح تذوق الموريتانيين لفنهم وتجاوبهم معه ، وقد يطول المقام لو استرسلنا فى جلبه .

ولا تخفى عليك المناسبة بين هذا الفن الموريتانى وبين الفن العربى القديم حيث إن الفن العربي ثمانية أضرب من ضرب أربعة في اثنين والثقيل الأول والثقيل الثاني والرمل ، والهزج ، ويثنى كل واحد منهما بخفيفه والفن الموريتاني ثمانية أضرب أيضاً من ضرب أربعة فى اثنين ، وهى كر ، وفاقو ، وسنييمه والتبيت ، وكل واحد منهما أكحاله وابياطه .

على أن هذا الفن الموريتانى على الرغم من مهارة أهله فيه فإنه مقصور على آلتين فقط .

هذا وأرجو المسامحة فى عدم تمكنى من إعطاء فكرة تظهر العجب العجاب من الفن الموريتاني لأنني لست من أهل هذا الفن ولا يمكنني وضعي فى المجتمع الموريتاني من معرفة ذلك لأن الطائفة التي أنتمي إليها وهي طلبة العلم ممنوعة من الإلمام بشئ من ذلك شرعاً واجتماعياً وبالله تعالى التوفيق .

[أو ابْنَ بسَّامٍ رآهـا لَتَـدَا رَكَ الذخيرة بها عَنْ مَلَقِ]
[ولا أديبٌ مِن قُرى أنْدَلُسٍ جَرَتْ بها أقْلاَمُهُ فى مُهْرَقِ]
[حَصَّنْتُها بسورة الضحى إذا هوى من المنتحل المشْتَـرِقِ]
[فالحمـد لله الـذى صيرهـا إثْمـدَ عَيْـنِ مُنْصِيفٍ مُوَفَّـقِ]
[والحمـد لله الـذى جعلهـا قَذَى بِعَيْنِ الحَاسد الحفَلَّقِ]
[ثم الصلاة والسلام ما تَغَـ نَّتْ أمُّ مَهْدِىٍّ بروضٍ مُّورِقِ]
[على النبى وآلـه وصحبـه وتابعيهم من مُّضَى ومن بقي]

والحفَلَّقُ كعملَّس هو الضعيف الأحمق .

وليكن هذا آخر ما نكتبه من هذا المختصر المبارك جعله الله خالصاً لوجهه الكريم وسبباً يُتَوصَّل به إلى جنة النعيم ، نرجوه سبحانه وتعالى أن لا يؤاخذنا بذنوبنا وأن يكفر عنا سيئاتنا وأن يختم لنا بالسعادة إنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وكان الفراغ منه يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وألف بمكة المكرمة زادها الله شرفاً والحمد لله رب العالمين .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

